استراتيجية الفتوحات الإسلامية

الطريق إلى المدائن

أحمد عادل كمال

دار النفائس

الطّبعَة الأولى : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
الطّبعَة السَّادِسَة : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار النفائس
بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقيًا : دانفايسكو

مقدمة الناشر

بدأ القتال على وجه البسيطة من عهد آدم عليه السلام ، فقد قتل احد اولاده اخاه وهو ما زال على قيد الحياة ، ومن ذلك التاريخ ، يفرض القوي – كلما شاء – إرادته على الضعيف في معركة الحياة المستمرة . أما « الحقوق » فتبقى حسرة في أنفس أصحابها حتى تكتمل لها عناصر القوة .

وتاريخ البشرية يعرف حقيقة لا يستطيع أحد انكارها : هي أن الأقوياء يسودون ، والضعفاء يدفعون ضريبة ضعفهم . وهذه الحقيقة لا يجادل فيها إلا المستضعفون ، تهرباً من واقعهم المرير الى عزاء كالسراب .

وذلك ما يحتم على كل أمة تحرص على العيش كريمة ، إن لم نقل الاستمرار في الوجود ، أن تكون عزيزة الجانب قادرة على حماية أبنائها والدفاع عن أراضيها . فما استمرار الأمم الضعيفة في الوجود إلا نتيجة طبيعية لصراع الأقوياء، لكن ذلك الاستمرار رهن بتغير الأقوياء ، او بتغير طرق صراعهم.

وقد شهد التاريخ حروباً كثيرة ، مختلفة البواعث ، منها تلك التي شنها المسلمون الأوائل على اكبر دولتين في عصرهم.. وبغض النظر عن بواعث تلك الحروب وشرعيتها واخلاقيتها ، فمما لا خلاف عليه أنها كانت حروباً نموذجية من الناحية (السَوقية) حيرت القادة العسكريين على مر العصور بقوة اندفاعها وسرعة تحقيق أهدافها . فقد انهارت أمام الجيوش المسلمة ، الصغيرة

المغمورة ، جيوش أقوى دولتين في ذلك التاريخ ، خلال سنوات تعد على الأصابع .

كيف حصل ذلك ؟ وكيف استطاعت تلك القوات ان تحقق أهدافها ؟! كتب في الفتوحات المؤرخون القدامى، لكنه يبقى بين كتاباتهم وبين الكتابة الحديثة والأجيال المعاصرة فاصل كبير ، رغم أهمية تلك الكتابات وقيمتها والجهد المبذول فيها .

أما الكتّاب الأجانب فقد أهملوا ، لفترة من الزمن ، نشر ذلك التاريخ ودراسته . يقول « جون غلوب » في مقدمة كتابه امبراطورية العرب : « ولم تحل المقاطعة المتعمدة للتاريخ العربي التي وقعت في أوروبا في عصر النهضة دون فهمنا للشرق الأوسط فحسب ، وإنما جعلت التاريخ الأوروبي نفسه لا يفهم . وعندما أقول للأوروبيين : إن جهلنا بالتاريخ العربي يرجع الى العداء السياسي الذي استمر سنوات طويلة، فإنهم يردون على قولي عادة.. بقولهم : .. أجل الحروب الصليبية طبعاً » . وأما دراساتهم الحديثة فمعظمها كُتب من وجهة نظر متحيزة ضد العرب والمسلمين .

فتاريخ الأمة سجل أحداثها، منه تتبين عوامل النجاح وفيه تلمس أسباب الهزائم، وأمة بلا تاريخ أمة بلا مستقبل، والتاريخ العسكري من أجدر فروع التاريخ بالدراسة والتعمق ، والتحليل والعبرة . فكما أن جميع العلوم تسخر الآن لتكون معطياتها وسائل قتال بيد الجيوش ، فالتاريخ العسكري أحد أبرز العلوم التي تعلم كيفية استخدام تلك الوسائل المادية والمعنوية . يقول بونابرت [1] : « من الممكن تعلم التكتيك والتطورات وعمل المهندسين

---

(١) مدخل الى التاريخ العسكري ص : ٩ — ١٠ .

والمدفعية من الأنظمة والمذكرات ، كما نتعلم الهندسة تقريباً ، إلا أن معرفة الأجزاء العليا من الحرب لا تكتسب إلا بالتجربة وبدراسة تاريخ الحروب ومعارك كبار القادة » .

ولئن كان الوضع الحالي للعرب ، أقل ما يقال فيه : «إنه غير مرضٍ» ، فإن لكل ليل آخر، وفي تاريخ جميع الأمم هنات وهزائم، وفي تاريخ العرب دائماً إنتفاضات تعيدهم الى مركزهم كأمة ذات حضارة ورسالة. لكن الأحوال لا تتغير تلقائياً ، والأهداف لا تتحقق بالأماني .

إن كتب التاريخ المتداولة تكتفي بالإشارة الى مجد العرب ، وإلى الإنتصارات بعد المعارك ، عندما كان التاريخ لا يسجل لهم إلا الإنتصارات، ولكنها لا تذكر الثمن الذي كان يدفعه المنتصرون .. وبعض علماء المسلمين يعددون الفتوحات ويشيرون بكل بساطة الى أن سبب النصر هو الإسلام ، ويهملون الرابطة بين النصر والاستعداد التام الذي ربط الاسلام بينه وبين النصر فأتى أمر الله صريحاً بقوله : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» وذلك ما فهمه المسلمون الأولون وغفل عنه فيما بعد كثير من الحفدة .

إن للحياة سنناً وقواعد ثابتة . وفي تاريخ المسلمين أمثلة عديدة على ذلك. انتصر المسلمون في بدر لما اخذوا بالأسباب ، وهزموا بعد ذلك في أحد ، وفي حنين يوم أعجبتهم كثرتهم . كذلك انتصروا في القادسية بعد هزيمتهم في معركة الجسر .

ولا يظنن أن دولة الفرس كانت منهارة ، أو أن الرومان كانوا ضعفاء ، أو أن المسلمين حققوا النصر بسهولة . فلو حسبت مساحات الأرض التي فتحوها بالأمتار المربعة لكان نصيب كل متر اكثر من شهيد. وبرغبتهم بالشهادة أو النصر ، وبعدم خوفهم من الموت وهبت لهم ، ولنا من بعدهم ، الحياة .

لقد كان العرب الذين حملوا الرسالة فرساناً أشداء، مسلحين بعقيدة ملكت

عليهم أفئدتهم ، فأنتجت وأعطت أحسن العطاء . يقول العلماء : إن تركيب الدماغ متشابه عند البشر وأن الإنسان لا يستغل إلا جزءاً يسيراً من قدراته العقلية، لكنه عندما تسيطر عليه فكرة، فإنه ينتج اضعافاً مضاعفة، فيصحّ تقديره ويصيب حدسه . وذلك مـا جعل قادة الفتح الاسلامي ، الذين لم يدرسوا في كليات عسكرية ، ولم يخرجوا من الجزيرة إلا فاتحين ، قادرين على ايجـاد الحلول السريعة لكل وضع طارىء واجههم ، وعلى وضع خطط قتال تصلح لأن تدرس في أرقى المعاهـد العسكرية في العصر الحديث تحت عنوان « استراتيجية الفتوحات الاسلامية » . لقد كانوا فرساناً شجعاناً لا يهابون الموت ، وكانوا في الوقت ذاتـه قادة ومخططين من أرفع طراز ، وذلك ما يحاول مؤلف هذا الكتاب إبرازه وشرحه في مؤلفه .

ولئن كان الاستاذ احمد عادل كال لم يشتهر في مؤلفات تاريخية او عسكرية سابقة ، فإن هذا الكتاب خير ما يعرف به .

فلقد اتبع في بحثه اسلوباً جديداً ، شرحه في مقدمته ممـا لا داعي لتكراره : درس كل معركة بالتفصيل ، واستطاع أن يحدد زمان المعركة والوحدات (القبائل) المشتركة فيها ، عـدد جنود الطرفين المتحاربين ، المعنويات ، الامداد ، المخابرات، القيادة ، نتيجة المعركة ، الدروس المستفادة وأسباب النصر أو الهزيمة... وقد وضّح كل ذلك بخرائط تفصيلية ، وأعطى لمحـة كافية عن جميع الشخصيات التي برزت في تلك الحروب ، فجاء عمله نموذجاً فريداً يستحق كل تقدير وإعجاب .

وإنـه ليسر « دار النفائس » أن تنشر هذا الكتاب ، آمـلة أن يساعد القادة والضباط العرب على وضع «استراتيجية» حديثة تعيد الى العرب أرضهم المغتصبة ، ومجدهم التليد .

أ. ر. عرموش

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الاول

الباب الاول : المقدمة ومنهج البحث

الباب الثاني : العرب وشبه جزيرة العرب

الباب الثالث : عدة الحرب

الباب الرابع : الدولة الساسانية

الباب الخامس : المقاييس



الباب الاول

مقدمة

الحروب في التاريخ

تتعاقب على العالم في كل دوله وعصوره احداث شتى .. أحداث سياسية وأحداث حربية وأحداث اقتصادية ، وتطورات فكرية وتغيرات اجتماعية . كل ذلك يصنع التاريخ ويشكل مادته . ولقد قسم علم التاريخ تبعاً لذلك الى تاريخ سياسي وتاريخ حربي – او عسكري – وتاريخ اقتصادي وتاريخ فكري وتاريخ اجتماعي ... الخ .

وتاريخ الحروب (التاريخ العسكري) فرع من فروع علم التاريخ، تناوله العلماء بالبحث والدراسة قديماً وحديثاً . فنجد في المكتبة شروحاً للمعارك الشهيرة التي رسمت خريطة العالم في مختلف العصور ، معارك تحوتمس الثالث ، ورمسيس الثاني، وهانيبال ويوليوس قيصر، ومعارك الروم والفرس، وحروب جانكيزخان والتتار ، وحروب الإسبان والسكسون، والحروب الاستعمارية، وحروب نابليون، والحرب الأهلية الأمريكية، وحروب محمدعلي الكبير وابنه ابراهيم، وحرب السبعين وجميع معارك الحرب العالمية الأولى .. والثانية،

واستراتيجية هتلر ، والعمليات العسكرية لاغتصاب فلسطين، وحرب كوريا ، والغزو الثلاثي لأرض مصر عـام ١٩٥٦ و٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .. الخ . كل ذلك وغيره فاضت بـه مؤلفات التاريخ الحربي الغربية . وما ترجم منها او نقل عنها او أُلّف ابتداء بالعربية، جعل هذه المواضيع في متناول يـد قارىء العربية ، ومن وجهات نظر مختلفة .

أما التحرك الإسلامي ، فمظلوم عند الكتّاب ، مهضوم عند الباحثين ! دولتان كبيرتان تقتسمان العـالم المعروف في القرن السابع الميلادي بالقوة الحربية ، لكل منهما خبرة قرون في الحروب ، وبدون مقدمات .. فجأة .. تقوم من العـدم دولة — لم تكن من قبل دولة ولا شبه دولة — فتمحو من خريطة الوجود دولة الفرس من المشرق ، وتزيح حدود دولة الروم الى الغرب عشرات الآلاف من الأميال ، بأعداد قليلة من الجند وفي سنوات تعـد على أصابع اليدين !! حدث لا نظير له في تاريخ العـالم ، ثم لا نجد في المكتبة ما يشرح لنا من وجهة نظر عـلم الحرب — والحرب علم — كيف حدث هذا . كيف أزالت جيوش المسلمين من سجل الدول العظمى التي تقتسم العـالم دولتي الفرس والروم في أقل بكثير ممـا تزول به الأفراد فضلاً عن الدول ، لا سيما الكبرى منها .

ودراسة تاريخ الحروب ضرورة لا بـدّ منها لقادة الجيوش وضباطها ولساسة الدول ، ولكل من يريد أن يتابع أحداث الدنيا القديمة والمعاصرة عن بصيرة، فإن التاريخ الحربي دائماً وأبداً يعيد نفسه.. ربما على نفس الأرض، او على أرض غيرها .. طبق الأصل ، او بتعديل طفيف او كبير . ولا يخلو الأمر دائماً من عبرة وعظة ودرس يكتسبه الدارس لكل معركة ، فضلاً عن المعارك القياسية التي تعتبر نموذجاً يحتذى وينسج على منواله، ولقد كان نابليون بونابرت ينصح ضباطه بـأن يقرؤوا سير الحملات التي قام بها كبار القادة وأن

يعيدوا قراءتها مراراً وتكراراً لأن فيها الأمثلة العملية على تطبيق مبادىء الحرب . ومما أثر عنه قوله : « اقرأ ثم اقرأ حملات كبار القادة » .

وليس المقصود بدراسة التاريخ الحربي قصره على الاستراتيجية والتكتيك، بل إن هـذه الدراسة تتعدى ذلك الى العوامل السياسية والإدارية والنفسية والعقيدية وأثر البيئة ونظام القيادة، وأثر ذلك كله على سير الحملات ونتائجها. يقول الجنرال ويفل « إذا علمت أن نابليون قـد أحرز النصر في حملته سنة ١٧٩٦ بطريقة المناورة على الخطوط الداخلية، او بعبارة أخرى مماثلة، فليس لهـذه المعرفة قيمة تذكر ، أما إذا أمكنك أن تدرك كيف استطاع شاب صغير مغمور أن يبث روح الحماس في جيش نصف جائع ، رث الثياب ، متمرد ، حتى جعله يقاتل . وكيف بعث فيه النشاط والقوة الدافعة حتى سار وحارب مثلما فعل ، وكيف استطاع أن يمد سلطانه وسيطرته على قواد أكبر منه سناً وأوفر تجارباً .. إذن تكون قد تعلمت [١] شيئاً ». ويقول المارشال فوش: «ليس من الممكن القيام بالدراسة في ميادين القتال، فإن المرء في الميدان يبذل ما يستطيع لكي يطبق ما يعرف. فابتغاء القيام ولو بقسط يسير من العمل يتطلب أن يعرف المرء الشيء الكثير وأن تكون معرفته به [٢] وثيقة». ونقدم هذه الأمثلة لقادة سجلوا استفادتهم من دراستهم لتاريخ الحروب وما اكثرهم .

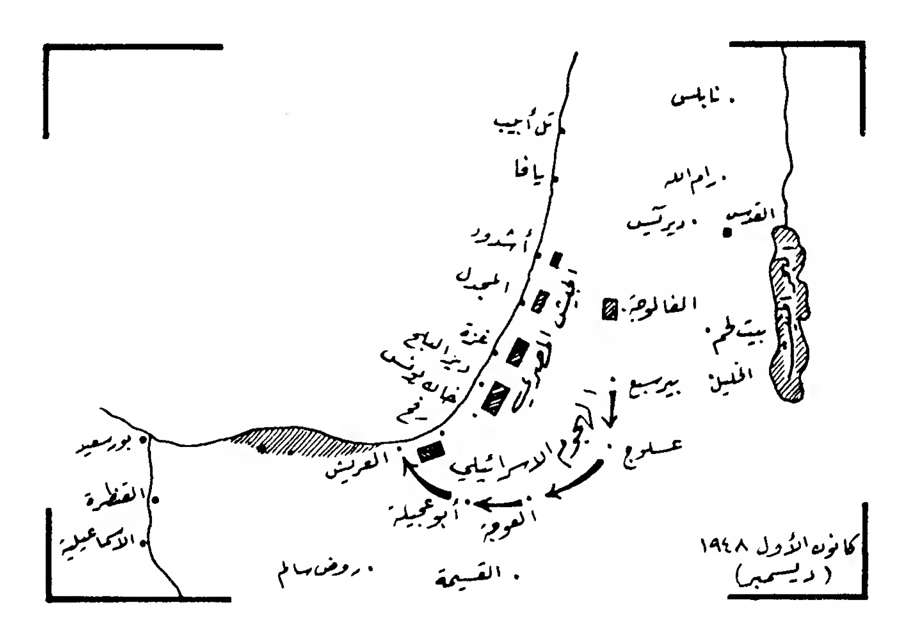
كتب الجنرال يادين ، رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلي في فلسطين عام ١٩٤٨ ، في مجـلة الجيش الاسرائيلي ، فتحدث عن تقدم الجيش المصري بحذاء الساحل على محور العريش تل أبيب ، ثم قال إنـه كان يعلم من دراسته لتاريخ الحروب السابقة على هـذه الأرض أن فلسطين دار لها بوابة ذات مصراعين: أحدهما غزة والثاني بير سبع ، وأنه من الخطورة بمكان لأي جيش

---

(١) معارك الشرق الاوسط .

(٢) معارك الشرق الاوسط ـ المقدمة .

يتقدم من الجنوب الى الشمال او بالعكس أن يجتاز هذه البوابة ما لم يكن في يديه كلا المصراعين . فلما وجد أن الجيش المصري اجتاز غزة بهدف الوصول الى تل أبيب دون أن يعني بالاحتفاظ في يده ببير سبع ، وجد أن فرصته قد سنحت . فجمع القوات الاسرائيلية المتوفرة تحت يده في بير سبع ، ليقطع على الجيش المصري المتقدم خط رجعته .



خريطة رقم (١) – حرب ١٩٤٨

ثم يقول إنه قرأ في دراسة للحروب الصليبية، أن صلاح الدين الأيوبي عبر من العريش الى بير سبع على طريق لم يكن جزء كبير منه معروفاً عام ١٩٤٨، فذهبوا يبحثون عنه حتى وجدوه مطموراً في الرمال . ولما كان من غير المستطاع في ظروف الحرب إزاحة الرمال عن الطريق في وقت مناسب ، فضلاً عن أن ذلك العمل سوف يلفت نظر المصريين، الأمر الذي يفسد عنصر المفاجأة، لذلك لجأ الى الطريقة التقليدية الأكثر سرعة في الحروب، بمد الشباك

فوق تلك الرمال التي تكسو الطريق . وعـبر عليه بعرباته من بير سبع الى عسلوج الى العوجة الى أبو عجيلة، فطلعت على مؤخرة الجيش المصري بالعريش في حركة تطويق سريعة، وبها مركز الإشارة لجميع القوات المصرية المتقدمة. فكانت مفاجأة مكنت الاسرائيليين من تدمير سلاح الإشارة ، وبذلك فقدت قوات الجيش المصري المتقدمة الاتصال بين وحداتها ومـع قيادتها على مدى ذلـك الامتداد الذي انتشرت عليه . وصار من الميسور على الاسرائيليين أن يوجهوا ضرباتهم الى كل وحدة على حدة وهي منقطعة الصلة عما سواها. وحينما أرادت بعض الوحدات التراجع على عجل أدى التراجع غير المنتظم الى انعزال قوة الفالوجا التي حوصرت ... الخ .

مثال ثان : حين تولى الجنرال اللنبي قيادة الجيوش الانجليزية بمصر في الحرب العالمية الأولى وكلف بفتح فلسطين ، توقف شهوراً في العريش يعد العدة لذلك الغزو ، ويقرأ تاريخ المعارك السابقة التي دارت على أرض فلسطين ، ثم بـدأ بعدها زحفه الذي استغرق بضعة أشهر . ولقـد درس اللنبي معركة تحوتمس الثالث دراسة وثيقة، ونسج على منواله في إحراز النصر على الأتراك في اختراق ممر عرونا، الذي سلكه من قبل تحوتمس ، وكان يقول منذ البداية « إن المعركة الحاسمة في هذه الحملة ستدور رحاها في ممر [1] مجدو » . ومع ذلك فاته أمر: لقد بـدأ ذلك الزحف من صحراء سيناء الحارة في الصيف ، فبلغ القدس على الجبال المرتفعة في الشمال شتاء ، وكان جنوده مـا زالوا في ملابسهم الصيفية والسراويل القصيرة ، فأصيب جيشه بالانفلوانزا . فسأل اللنبي الدكتور سير هبرت إيسن Sir Hobart Easen عمـا يعلمه عن الأمراض التي أصابت الجنود في تاريخ الحروب في مصر وفلسطين ، فأخبره بأنـه ترجم مذكرات لاري Larry ، كبير أطباء الحمـلة الفرنسية على مصر ، التي تناولت أمراض

---

(١) معارك الشرق الأوسط .

الرمد ، الذي أدى الى إصابة كثير من جنود الحملة بالعمى ١٧٩٨ – ١٨٠١ ، وذكر له أنه أرسل تقريراً إضافياً في هذا الموضوع الى وزارة الحرب، فطلب اللنبي [١] صورة عن التقرير ..

مثال ثالث : كان لخالد بن الوليد طريقته في قيادة معاركه . فهو كأي قائد يرسم للمعركة خطتها ، ولكنه يدرك أنه ليس إلا طرفاً فيها وأن أمامه طرف ثان يشاركه التصرف ، وربما أفسد عليه خطته وتدبيره . لا يهم !.. المهم أنه في اللحظة التي يبدأ فيها رجحان كفة على أخرى ، حتى لو كان هو صاحب الكفة المرجوحة ، حتى في هذه الحالة فهو يدرك أن نوعاً من الخلل في الصفوف يحدث في كلا الطرفين . فلا ينخلع قلبه ولا يجزع ، وإنما يرمق الميدان بعين الخبير الفاحصة بحثاً عن ذلك الخلل في صفوف عدوه ، وكان لا يخطئه أبداً، فما أن تسنح الفرصة، حتى يبادر الى انتهازها، ويسدد ضربته في سرعة وقوة . انهزم المشركون يوم أحد وهو معهم أمام المسلمين الذين كانوا يعتصمون بالجبل، ورأى خالد حماة الجبل يطمئنون الى هزيمته فيتركون جبلهم وينزلون الى السهل للمشاركة في المطاردة . وجدها خالد ... لقد انكشف ظهر المسلمين، فدار بفرسانه من ورائهم وارتقى الجبل وطلع بخيله وراء المسلمين ، وأمسك بيده ميزان المعركة . وكان خالد قائد المسلمين أمام الروم في موقعة اليرموك عام ١٣ هـ / ٦٣٤ م ، وتفوق الروم وأزاحت فرسانهم قلب جيش المسلمين حتى اقتحموا فسطاطه وهتكوه بسيوفهم.. ونظر خالد الى الميدان بكل رباطة جأش وثقة يبحث عنها ، فوجدها .. وجد أن فرسان الروم سبقت سبقاً كبيراً وما زالت مشاتهم بعيداً في الخلف . إنها لحظات من لم ينتهزها ويختطفها فاتته الى الأبد.. وكانت لا تفوته. ما ان لمحها حتى حرك قواته الى الفجوة التي حدثت بين فرسان الروم ومشاتهم ، وأخلى لفرسان

---

(١) معارك الشرق الأوسط .

الروم حتى طلعت خلف جيوش المسلمين ووقف يدافعها ، في حـين استدار الى مشاة الروم، التي صارت بلا فرسان، فشد عليهم شدة ألقت بهم من شاهق الى وادي نهـر اليرموك . وانتهت المعركة . أكان من قبيل المصادفة البحتة أن نجد رومل ، القائد الألماني الشهير ، يحاول أن يسير على نفس النهج ؟ كان يقود معاركه من إحدى دباباته المتقدمة في خط القتال بحثاً عن فرصة يقتنصها، وكثيراً ما فعل ذلك. وكان منطقه أنه إذا جلس في مكتبه فإن الدقائق الثمينة تكون قد ضاعت الى أن تصله الأخبار ليتخذ حيالها قراراً على الخرائط .

التاريخ والفتوح

ومع ذلك – مع هـذه القيمة للتاريخ الحربي – فإن الفتوحات الاسلامية من وجهة النظر الحربية ، ومن حيث هي تاريخ حربي لم تنل مـا تستحق من عناية . ظهرت كتابات كثيرة قديمة وحديثة في التاريخ السياسي ، فضلاً عن دراسات مستفيضة في التاريخ الفكري والثقافي والاجتماعي والمالي والإداري وتاريخ الأدب .. الخ ، قـد تكون تعرضت جانبياً للمعارك الحربية ولكن ليس من وجهة نظر الاستراتيجية والتكتيك . كما ظهرت أشياء صغيرة الحجم هزيلة القدر عن تلك المعارك الكبرى ، لم يكلف كاتبوها أنفسهم حتى مؤونة أن يعرضوا تلك المعارك على خرائط منضبطة تشرحها وتبين مراحلها كخطة وعمل ، إنما نقلوا عن كتب التاريخ السياسي ، او عن أمهات كتب التاريخ ما سطره مؤلفوها وفي اكثر الأحيان بنفس عباراتهم دون ما إضافة او شرح. وأكثر من اهتم بذلك لم يتعد جهده أن قام بجمع ما أثبتته بعض المصادر التاريخية ولصقه ببعضه . أضاف بعضهم تعليقاً على بعض المعارك ولكن دون أن يتمكن من وصفها وشرحها، كما نجد مثلاً وصف معركة العلمين او دنكرك او أي معركة شهيرة . ولا يفوتنا في هذا المجال أن ننوه بالمحاولات المشكورة التي يقوم بها اللواء محمود شيت خطاب ومحمد فرج والفريق طه الهاشمي، ولكنها للأسف جهود فردية ، ولا بدّ لنا من الإقرار بأن التاريخ الإسلامي لم يبحث

بعد بحثاً علمياً صحيحاً وفق طرق البحث العلمي الحديث يغطي جميع مجالاته مع ما فيه من مادة ودسم . وما زال أمامنا مجال كبير لهذا . هذا النقص في البحث والتأليف جعل مدرساً بكلية الآداب في إحـــدى جامعاتنا يقول : « ... ولكن معلوماتنا عن خطة هجوم العرب في العراق غير واضحة، وإن كان من الجائز أن خالداً سار أولاً في بعض أجزاء البادية حيث سهل فتحها وجود قبائل عربية [1] فيها » .

إذ ذاك ، واني وقد عزّ عليّ ما رأيت ، فقد اتجهت الى استكشاف الأمر بنفسي،مبتدئاً بالفتح الاسلامي للعراق فيعهد الخليفتين الأولين أبي بكر وعمر. فمـــا راعني بعد أن بدأت أضع قدمي على الطريق، إلا أن أحسست بوعورته ومشقته . فهذه المجموعة من أمهـات كتب التاريخ الاسلامي – التي تعتبر مصادره – دونت فيعهد متأخر كثيراً عنتواريخ دوران تلك المعارك، وقد فاتها الكثير مما يتطلبه البحث الحربي:مثل تاريخ الموقعة وأعْدَاد القوات وتشكيلها وتحركاتها وصفة أرض الموقعـــة وطبوغرافيتها وأنواع أسلحتها والشئون الإدارية .. الخ . لذلك فصعوبة القيام بهذا البحث، وإخراجه سهلاً ميسوراً لمن أراد الإفادة منه أمر مقرر لا يختلف عليه اثنان . وقد سبقنا الى الإشارة الى هذه الصعوبة الفريق طه الهاشمي [2] ونعى على التاريخ الاسلامي «أنه بينما نجد أن المعارك التي خاضها جيش الاسكندر الأكبر فيأواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، ومعارك الرومان مع جيوش الأقوام المهاجرة، ومـــا دار من معارك بـــين قياصرة الرومان والمنافسين لهم على العرش، مفصلة بشكل لا يجهد الباحث ، وأنه قد تم تدوينها بشكل أقرب الى الصحة مما نحن بسبيله من التاريخ الاسلامي الذي دونه القصاص ومدونو السير والمغازي ومن أرخوا

---

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية ١٧٠ .

(٢) خالد بن الوليد ٣٥ .

لهذه الفترة بالسماع أو نقلاً عن طريق الرواية والإسناد، فلربما وجدناهم يختلفون على نقاط هامة كالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة وكذلك في مقدار قوات الفريقين المشتركين فيها » . ومع موافقتنا على ذلك فإن لنا عليه تحفظاً في مجال المقارنة بين تناقض المصادر الإسلامية وعدم وجود مثل هذا التناقض في التواريخ الأخرى ، ذلك أن تعدد مصادر التاريخ الإسلامي وعدم تعددها في سواه مدعاة الى مزيد من الثقة فيه، والشك وعدم الثقة في غـيره. وعلى سبيل المثال فقد اكتشف أن فرعون مصر رمسيس الثاني زور تاريخه وسرق مسلات تحتمس الثالث فمحا اسم تحوتمس عنها ووضع اسمه هو، لينسب أعمال تحتمس الى نفسه . هـل أقرب إلينا في مجال الأحداث الكبرى من الحرب العالمية الثانية ؟ لقد اختلف تأريخها بـين وجهات نظر الكتاب الغربيين والكتاب الشرقيين من الروس !.. فهم يختلفون حول هذه الحرب ليس فقط من حيث وجهات نظرهم تجاهها ، بل ومن حيث وقائعها أيضاً ، ولا شك أن الهوى والتعصب للجنس أو للمذهب أو للشخص يقف وراء ذلك الاختلاف . مثل هـذه العوامل وجدت قديماً ، فإذا انفرد ملك بتسجيل تاريخه نقشاً على حجر في مقبرة أو مسلة أو غيرها، فمن يضمن لنا أن ذلـك الملك كان صادقاً ذا أخلاق ؟ فإذا مـا تعددت المصادر اختلفت ... رمسيس الثاني انتصر على الحثيين في الشام ، هذا في آثار رمسيس ... ولكنه انهزم أمام الحثيين في الشام ، في آثار الحثيين !!

منهجنا

تاريخ الطبري

هذا وقد وجدنا فيما رجعنا إليه من مراجع أن « تاريخ الأمم والملوك » لابن جرير الطبري هو أوفى هذه المصادر التاريخية وأقربها الى الصحة والثقة، حتى لقد صار مرجعاً لكثير غيره . وبذلك نجد أن تلك المراجع على كثرتها تعيدنا في الغالب الى ذلك المرجع الأول ، ثم إن لم تكن أقل منه فهي لا تضيف الى ما جاء به إلا القليل ، فكان هذا المصدر القيم هو مرجعنا الأول الذي أخذنا عنه كثيراً من مادة هذا البحث بل أكثرها ، ثم يليه سائر المصادر . غير أنها جميعاً – مع ذلك – لا تفي لنا بالمطلوب كله ، ولا تضع أصابعنا على ما نبتغي الوقوف عليه من تفاصيل تلك المعارك . ومع ذلك فكنا دائماً ندرك ما هو النقص الذي نبحث عنه حتى نصل إليه .

وقد اعتمد الطبري فيما يختص بتاريخ الفرس على ترجمات عربية لكتب[1] فارسية وخاصة كتب ابن المقفع ، كما استمد من كتب هشام الكلبي الذي كان يعتمد في تاريخ ملوك الفرس والحيرة على وثائق ومدونات . وعوّل في تاريخ

---

(١) الطبري للحوفي .

الروم على نقـــله من كتب نصارى الشام الذين كانوا يعرفون تاريخ الدولة الرومانية والامبراطورية البيزنطية من وثائق صحيحة . وأخذ مـا كتب عن حروب الردة والفتوح عن سيف بن عمر، وعن المدائني . وقد اعتمد فيما ذكر في كتابه على الروايات، حتى إذا اختلفت الروايات فإنـــه كان يثبتها مسندة موصولة الى صاحبها على طريقة علماء الحديث. فإذا نقل من كتاب آخر ذكر ذلك بقوله: قال الواقدي، أو قال ابن الكلبي، أو قال ابن اسحق. وكان أحياناً يعتمد على المراسلة فيقول مثلاً: كتب الى السري عن شعيب عن سيف... الخ. وهذا كثير جداً فيما نقل الطبري عن سيف ، فاخترنا أن نرمز له في الهامش بالأحرف «س ش س» بدلاً من «كتب الى السري عن شعيب عن سيف ..». ولقد درج علم التاريخ الإسلامي فيما يمكن أن يوثق به من روايات على طريقة علم الحديث [حديث رسول الله ﷺ] فاعتمد على الرواية والإسناد في نقل المرويات، وهي طريقة من خصائص هذه الأمة. قال ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة يبلغ النبي ﷺ خص الله بـه المسلمين دون سائر الملل » وأخرج الإمام مسلم عن ابن المبارك قوله: « الإسناد من الدين ، لولا الإسناد لقال من شاء ما يشاء » .[1]

ويسوق الطبري رواياته مسندة الى رواتها ، فلربما وجدنا الرواية الواحدة تتناول اكثر من واقعة ولربما وجدنا أحداث الواقعة الواحدة موزعة على اكثر من سند . فدرجنا على استكمال مـــا ورد عن الواقعة الواحدة من رواياتها المتعددة ، واقتضى منا هذا تقطيع الرواية إذا تناولت أكثر من واقعة فنضع في كل واقعة منها ما يتصل بها دون ما عداه .

مصادر اخرى

وإذ كان لا بـدّ لنا لاستكمال الصورة من الحصول على مزيد من المصادر

(١) قواعد التحديث ١٨٥ .

فقد التمسنا ذلك – بعد كتب التاريخ – في كتب التراجم والرجال . حرصنا على أن نتتبع في كتب الرجال سيرة كل فرد ورد ذكره في كتب التاريخ من أعلام الفتح ، فأضاف لنا هذا أشياء فضلا عن أنه أمدنا بمادة قيمة عن أبطال الفتوح وأعلامها ، لفتت نظرنا الى وجوب تجلية هـذه الأسماء وتقديمها الى القراء . ذلك أننا نجد في المكتبة العربية الكثير مما كتب عن ابي بكر وعمر وخالد وسعد وعمرو.. ولكننا لا نكاد نجد شيئاً عن القعقاع بن عمرو وأعبد ابن فدكي والأقرع بن حابس وكثير غيرهم [1] لهم وزنهم ويمثلون ثقلاً دافعاً في الحركة الإسلامية . لقد كان من أهم هذه المعلومات وأكبرها قيمة لبحثنا تحديد نسب كل منهم لإلحاقه في القتال بقبيلته . وأكثر ما كتب في هـذا الشأن انصب على الصحابة . رجعنا الى أسد الغابـة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، وإلى الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، وإلى الاستيعاب في أسماء الاصحاب ، فكان اهتمامهم – ولا سيما الأخيرين – في المرتبة الأولى إثبات صحبة صاحب الترجمة لرسول الله ﷺ ورؤيته له أو انتفاء هـذه الصحبة . يقول صاحب الإصابة في خطبة الكتاب [2] : « أما بعد فإن من أشرف العلوم الدينية علم الحديث النبوي ، ومن أجلّ معارفه معرفة تمييز أصحاب رسول الله ﷺ ممن خلف بعدهم » وقال الآخرون مثل ذلـك . ثم اهتما في المرتبة الثانية برواية صاحب الترجمة عن الرسول أو عدم الرواية عنه ، وأحياناً يذكران شيئاً عن حياة صاحب الترجمة ونسبه ، وهـذا في المقام الثالث . الاعتبار الأول محدود الأثر جداً في بحثنا هذا ، بينما الاعتبار الثاني لا يدخل في موضوعه ، أما الاعتبار الثالث وهو الأكثر أهمية لنا فقد كان قليلاً . ولكننا أخذناه في موضوعنا وأفدنا منه . ومن أهم ما أفدناه إلحاق كل شخص بقبيلته

---

(١) أخرج اللواء الركن محمود شيت خطاب كتابه الرائع قادة فتح العراق والجزيرة ولكنها محاولة أولى وجهد مشكور نأمل أن نراه يتسع ويستطرد .

(٢) الإصابة ص ٣ .

ومتابعة تحركاتها عن طريق متابعة أفرادها . وقـد أورد ابن شيبة في [1] مصنفه من طريق لا بأس به أنهم كانوا في الفتوح لا يؤمرون إلا الصحابة .

كذلك رجعنا إلى القرآن الكريم وكتب السنة المطهرة وكتب التفسير ، فأخذنا عنها شيئاً من تشريعات الحرب والقتال عند المسلمين وبعض الأوصاف والعرض لأساليب القتال . كما رجعنا إلى كتب الأدب العربي حيث وجدنا فيما قيل من خطب وما نظم من شعر وأغان ما يلقي أضواء ويضيف أشياء ، لا سيما في أساليب القتال والأسلحة المستخدمة وصفاتها وقدراتها . فضلاً عن البيئة ، وملامح المعيشة ، والتحركات ، كأنواع الأطعمة والمساكن والمنازل والركائب ... الخ .

القبائل وحدات مقاتلة

هذا ومن أهم ما وصلنا إليه ، أنه قد تأكد لدينا أن قبائل المسلمين العرب كانت تتحرك كوحدات حربية في الميدان ، خلافاً لما ذهب إليـــه كثير من الكتاب المحدثين من أن الإسلام قضى على النزعة القبلية ، وصهر القبائل كلها في بوتقة واحدة لا تدين بالولاء للقبيلة ... كلا . ان ما أذابه الإسلام وقاومه هو العصبية القبلية والتفاخر بالإنساب ، ولكنه لم يحارب القبيلة في حد ذاتها كوحدة لها وجود عميق في البيئة العربية . لقد ظلت القبيلة هي الوحــدة الاجتماعية والوحدة الحربية المعترف بها في الفتوح الاولى ، واستفاد الكيان الإسلامي من هذا الوجود إلى أقصى حد كما سيتبين في مواضعه من بحثنا هذا.

لقد وجدنا جرير بن عبدالله البجلي يسعى لدى الخليفة أبي بكر ، ثم لدى أمير المؤمنين عمر ، ليجمع قبيلته بجيلة ـ وكانت قد تشتت في القبائل على أثر اشتباكها مع بعض القبائل في الجاهلية ـ فما أن تم ذلك حتى رأيناها تأخـذ

---

(١) الإصابة ص ١٣ .

مكانها البارز كوحدة مقاتلة في جيش المسلمين بالعراق . ولقد ساهمت كوحدة قائمة بذاتها بألفين من أبنائها في البويب ثم في المطاردة بعدها . وقبل ذلك في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب اختلطت صفوف المسلمين، فصاح بهم خالد بن الوليد : « أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتي » فتميزت كل قبيلة في صفوفها، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الانصار مع ثابت بن شماس . ولقد وجدنا المثنى بن حارثة يغير على أسواق شمال العراق بعد البويب في قوة كبيرة علمنا منها النعمان بن عوف الشيباني ومطر الشيباني والمضارب بن يزيد العجلي ، وفرات بن حيان العجلي وعتيبة بن النهاس العجلي والنسير بن ديسم العجلي، وأسماؤهم تدل أنهم من بني شيبان أو من بني عجل وكلاهما من بكر بن وائل . وفي هذا يقول شاعرهم :

وللمثنى في العال معركة شاهدها من قبيله بشر

فنص في وضوح لا يحتاج إلى تدليل آخر على أنهم كانوا من قبيله .

هذا الطابع القبلي الذي اصطبغت به الوحدات كان أكثر ظهوراً في القادسية نظراً لوفرة الروايات والأخبار عنها ونظراً لكثرة عدد جيش المسلمين بها وتعدد قبائلهم . بل لقد وجدنا أن سعد بن أبي وقاص قد صفهم في الميدان على هيئة تقارب توزيعهم وسكناهم جزيرة العرب ! هذه المعلومات كادت أن تندثر بأذهاننا ولم نجد أحداً من الكتاب المحدثين التفت إليها أو ذكرها رغم أهميتها البالغة في تصوير أي معركة . وقد أشار إليها ابن خلدون حيث قال : « إنهم كانوا يقسمون الجند جموعاً ويضمون **المتعارفين** بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب **الطبيعي** في الجهات الأربع، فيجعلون بين يدي القائد عسكراً ويسمونه المقدمة ، ثم عسكراً آخر من ناحية اليمين ويسمونه الميمنة، ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال ويسمونه الميسرة ثم عسكراً من ورائه ويسمونه الساقة [المؤخرة] ويقف الملك [أو القائد] وأصحابه

في الوسط بين هذه الأربعة ويسمون موقفه القلب » . فكيف يجتمع المتعارفون في الميدان عند المسلمين العرب إلا أن يكون اجتماعهم قبائل ، وفي القرآن الكريم [1] « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. » لقد وجدنا مصداق ذلك في معارك الفتوح . أنظر إلى منازل القبائل في الخريطة تجدها مطابقة لتعبئة خالد بن الوليد في زحفه من النباج إلى الحيرة ، إذ جعل بكر بن وائل عليها المثنى بن حارثة مقدمة ، وجعل تميماً عليها عاصم بن عمرو ميمنة ، وجعل طيئاً عليها عدي بن حاتم ميسرة . ونجد ذلك أيضاً في تعبئة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في انتقاله من الشام إلى العراق بجيش عدته ستة آلاف . إذ جعل القعقاع بن عمرو التميمي على المقدمة، وقيس بن هبيرة المرادي على الميمنة، والهزهاز بن عمرو العجلي على الميسرة ، وأنس بن عباس السلمي على المؤخرة . بعبارة أخرى جعل تميماً في المقدمة ، والقحطانيين من أهل اليمن في الميمنة، وبكر بن وائل في الميسرة ، وقيس عيلان في المؤخرة. فإذا طبقنا ذلك على مواطن سكناهم في شبه الجزيرة وجدناه مصداقاً لما قال به ابن خلدون .

وقد روى البلاذري [2] عن الواقدي في فتح الشام أن أبا بكر أمر الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء يكون فيهم .

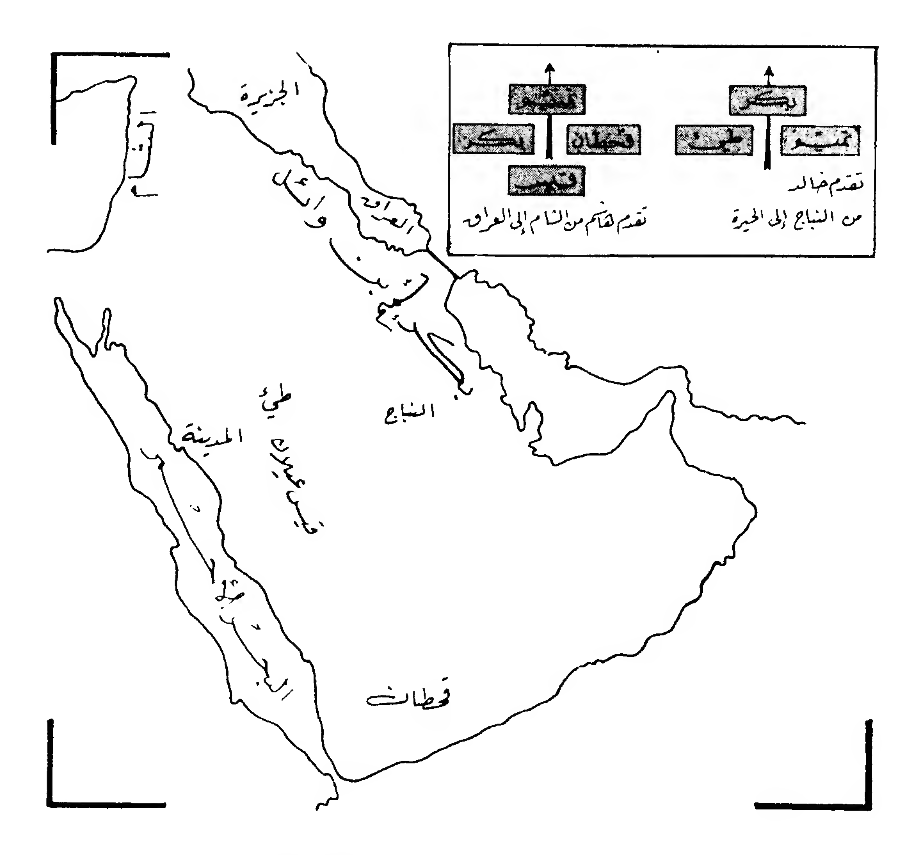
ولقد رأينا عمر بن الخطاب في حشده للمسلمين يأتونه قبائل ويبعثهم إلى الفتوح قبائل وقد استعمل على كل قبيلة قائداً منها .

وجدير بالإشارة أننا لاحظنا للصحابة من المهاجرين والأنصار وضعاً خاصاً ، فلم تكن لهم دائماً في الفتوح وحدات خاصة بهم من قبائلهم ، ولم

---

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) فتوح البلدان ٣٠٤ .



خريطة رقم (٢) – مثال عن تعبئة القبائل

يكن عددهم بالنسبة لتعداد الجيش كبيراً ، إنما كنا نجدهم في القيادات غالباً . فلم يكن وجود خالد بن الوليد المخزومي مثلا يعني أنه كان في وحدة من بني مخزوم أو من قريش ، لكنه كان قائداً عاماً ومثل ذلك غيره من المهاجرين والأنصار الذين تولوا القيادات العامة أو أركانها من أمثــال النعمان بن مقرن وإخوته وغيرهم .

هذا الأصل من أصول منهجنا لدراسة معارك الفتوح ساعدنا كثيراً على فهم مجرياتها وعلى سد ثغرات لم توفها المصادر في كثير من الأحيان حقها، فقد كان مكان القبيلة ـ غالباً ـ يدل على مكان أفرادها . كما كان مكان الفرد ـ غالباً ـ يشير إلى موضع قبيلته . وقد اقتضى هذا منا دراسة القبائل العربية ومساكنها وأنسابها ونسبة كل من ورد ذكره إلى قبيلته حتى نضعه في مكانه من ميدان المعركة ، وكذلك وحدته القتالية .

التعبئة عند الرواة

وإذا روى رواة الطبري عن تعبئة الجيوش أنه كان فلان وفلان على المجنبتين فقد درجوا على ذكر الميمنة أولاً، ثم الميسرة، دون إيضاح لذلك وكأنه قاعدة في الرواية مسلم بها . وقد رأينا أن الوقائع تستطرد مع هذا في أكثر من موضع، ولم نجد بتاتاً ما يعارضه أو يناقضه . ويبدو أن الطبري وقد كان فقيهاً ومفسراً ـ كان مستناً بسنة الرسول ﷺ في التيامن في أموره ، يبدأ دائماً باليمين في كل أمر مستحب ، ويبدأ بالشمال في دخول الخلاء والخروج من المسجد وما شاكل ذلك . مثال ذلك ما ذكره الطبري في موقعة المذار أنه كان على مجنبتي المسلمين عاصم بن عمرو وعدي بن حاتم، وعلى مجنبتي الفرس قُباذ وأنو شجان ، وأن عدياً هو الذي قتل قباذ ، وأن عاصماً هو الذي قتل أنو شجان ، كل قتل من يواجهه . فقد كان عاصم على ميمنة المسلمين وعدياً على ميسرتهم كما كان قباذ على ميمنة الفرس وأنو شجان على ميسرتهم . مثل هذا يستطرد في كل موضع حتى لنستطيع أن نبني عليه في تصور مراحل المعركة. هذا مع ما سبق على سبيل المثال يفيدنا أن عاصم بن عمرو التميمي كان على الميمنة وأيضاً أن تميماً كانت في الميمنة . وأن عدي بن حاتم الطائي كان على الميسرة، وأيضاً أن طيء كانت في الميسرة. وهي علامات تضيف إلى تصور المعارك وتصويرها ملامح وعلامات كثيرة وهامة .

كذلك وجدنا أن الطبري إذا لم يذكر في معركة تعبئتها فإنه يبني على ما سبقها ومعناها لديه ان التعبئة السابقة لم تتغير ، فإذا تغيرت أو تغير شيء منها ذكر ذلك .

هذه معالم هامة جداً نستطيع بعد تفهمها أن نقرأها بين سطور المصادر دون أن نجدها مسطورة فيها صراحة .

خرائط الفتح

ثم كان لا بد لنا من تطبيق تلك الأحداث التي وقعت في ميادين القتال على خرائط منضبطة للمواقع التي وقعت فيها . وهنا طالعتنا عقبة أخرى ، وهي أن الخرائط التي بين أيدينا حديثة تختلف عما كانت عليه منذ ألف وأربعمائة عام اختلافاً كبيراً، ونعني هنا أرض العراق بالذات . فكم من موقع لا نجد له على الخريطة أثراً ، وكم من نهر تغير مجراه أو تغير اسمه أو لم يعد له اليوم وجود ، وكم من مسالك مائية قد استحدثت وأراض شاسعة جفت ، وكانت تغمرها من قبل برك ومستنقعات من فيضان النهرين ، وكم من قرى أو مدن قد تلاشت أو عاد غيرها في غير مكانها يحمل اسمها .. وهكذا . أمور كثيرة تجهد الباحث وقد تضلله فيتوه فيها . ومن هنا كان رسم مواقع القتال على ما كانت عليه في حينها مهمة صعبة حقاً، وفقنا توفيقاً كبيراً ـ فيما نعتقد ـ باستجلائها مستعينين بالخرائط الحديثة والقديمة مضافاً إليها ما ورد في الموضوع عن صفات المواقع وأماكنها، وكذلك بالاستعانة بما كتب الرحالة والجغرافيون المسلمون في القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما مثل : ابن بطوطة وابن حوقل وابن خرداذبة وابن جبير والإصطخري وياقوت الحموي ، استعنا بمعلومات هذه المصادر في إدخال تعديلات أو إضافات على ما بين أيدينا من خرائط . وقد اعتمدنا أساساً على خريطة العراق الأثرية بمقياس واحد إلى مليون إصدار مديرية الآثار العراقية ببغداد ، ثم راسلنا

المديرية المذكورة عدة مرات وراجعناهـا فأمدتنا مشكورة شكراً لا نوفيـه حقه بخرائط أفدنا منها ما لم نجده في أي مصدر آخر ، لا سيما منطقة الحيرة فيما بين القادسية الى النجف والكوفة . كذلك أخـــذنا أشياء عن بعض « الأطالس » ولا سيما « أطلس أوكسفورد » .

خلفية لا بد منها

بعد ذلك كان لا بد من تغليف هذا كله بأرضيته الخلفية وإحاطته بإطاره الذي يحده . دراسة جغرافيـة العراق الذي دارت على أرضه المعـــارك ، وجغرافية جزيرة العرب التي هب المسلمون منها وأسندوا اليها ظهرهم أو ميسرتهم... دراسة المجتمع الفارسي وسلطاته وطبقاته وجهاز الحرب فيه... جيشه وتكوينه وتسليحه وأنواع تلك الأسلحة ومقدرتها ، ثقافته الحربيـة وتدريبه وأساليبه في القتال ، ملامحه وشخصيته ومعنوياته ... دراسة مثل ذلك في مجتمع المسلمين العرب ، قبائلهم وأنسابها ومساكنها وصفاتها وأثر ذلك كله على تحركاتهم كوحدات مقاتلة ... تسليحهم وتدريبهم وأساليبهم في القتـــال وتنظيم جيوشهم وتحريكها والشئون الإدارية للحملات والطرق والمواصلات والنقل... أبرز شخصياتهم في الحرب ... الحافز لهم على التحرك نحو الفتح ، دستورهم الذي يحكمهم ويحتكمون إليه في ذلك كلـــه ، شؤون الغنائم والأسرى وما الى ذلك ... الرجوع بالوحدات التي تقيس بها المصادر القديمة : مثـل الميـل العربي والفرسخ والدينار والدرهم الى مـا يعادلهـا من وحدات عصرنا . كذلك وضعنا تقويمـاً للتاريـخ القمري والميلادي لتلـك السنوات التي نبحث تاريخهـا ساعدنا كثيراً على إدراك الفصول وحـالة الجو والفيضانات والمحاصيل ، وعلى مطابقة الروايات على ذلك لتأكيدها أو نقدها أو نقضها أو الترجيح فيما بينها ، ذلك أن مصادرنا درجت فيما ذكرت تاريخه على التقويم الهجري القمري فقط فكان مطابقته على التقويم الميلادي مفيداً . مثال ذلك ، فتح الأنبار ، لم يذكر الرواة تاريخه ولكنهم ذكروا أن إبل

المسلمين ولدت في أثنائه ، فإذا علمنا أن الإبل تلد في شهر سبتمبر (ايلول) أستطعنا أن نحدد زمن فتح الأنبار وأن نطابق ذلك بما قبله وما بعده .

وهكذا سار البحث بين شتى مراجع التاريخ والرجال والجغرافيا والحرب والعقيدة والأدب يستكمل من كلٍّ جوانبه . وإذ كان الشعر العربي مصدراً له اعتباره فقد أثبتنا منه بعضاً من الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام ، منه ما تناول الفتوح ومنه ما تناول خليفتها ، على ما في هذا الشعر من صعوبة الفهم لقراء جيلنا الذي ابتعد كثيراً عن استعمال لغته الأصيلة ، الأمر الذي كان يحتاج معه الى كثير من الشرح . ولما كان موضوعنا في التاريخ الحربي مما قد يجعل التوسع والاستطراد في سرد أبيات الشعر القديم وشرحها غير مستعذب لغير هواته أو أهل الاختصاص فيه ، فقد وجدنا سؤالاً يفرض نفسه وهو... لمن أكتب ؟ إن كنت اكتب الى محبي الأدب العربي وقرائه فقد يطيب لهم هذا ولكن البحث ليس موضوعه أدب الفتوح ـ وبودي لو قام بذلك باحث موفق ـ وإنما نبحث في « تكتيكها » « واستراتيجيتها » . ولذلك فإن اللجوء الى الأدب أو إلى غيره إنما يكون لخدمة ذلك الغرض . فإنا إذا أثبتنا النتائج التي نصل إليها في أمر ما ، وليكن صفة النبال والقِسِيّ التي كان يستخدمها المسلمون الأوائل ، فلرب سائل يتساءل ـ محقاً في تساؤله ـ عن مصدر هذه المعلومات ، فإذا سقنا لذلك قول الشاعر :

له من خوافي النسر حُمٌّ نظائرٌ ونصلٌ كنصل الزاعبي فتيق
على نبعة زوراء أيما خطامها فمتن وأيما عودها فعتيق

كان لنا أن نتوقع ضجر القارىء ، وهو أمر جعلني أوزع الشرح بين السياق وبين الهامش وفق الحالة في محاولة لعلاج ما قد ينشأ عن ذلك من ملل. واستميح القارىء عذراً في ذلك ، وحسبي أن وضعت ما استطعت جمعه من مادة مشروحة بين يديه . فإني أكتب هذا لسد ثغرة كبيرة في التاريخ

الحربي الإسلامي خاصة بل والتاريخ الحربي عامة .

فإن كنا قد أصبنا فذلك غاية قصدنا . وإن كنا قد أخطأنا في أصول المنهج الذي ذكرنا أو في تطبيق شيء منه ، أو غفلنا عن شيء يمكن إضافته إليه فنحسب ذلك يسيراً إلى جوار ما فيه من صواب وفائدة وإلى ما فيه من جديد كثير . ورجاؤنا ممن يقف على شيء من ذلك أن يرشدنا اليه مشكوراً مأجوراً ، واستعير قول ابن الأثير في تقديمه أسد الغابة « فرحم الله امرأ أصلح فاسده ودعا لي بالمغفرة والعفو عن السيئات ». فإن غاية المرام الوصول بهذا البحث إلى أقصى ما يمكننا من كال ، ولا كال لكتاب غير كتاب الله .

ولا بد إبراء للذمة وأداء للأمانة أن نقر أنه منهج مجهد كل الإجهاد اضطررنا معه على غير إرادة منا أحياناً لظروف قاهرة ، وخضوعاً لضعف جهدنا أحياناً أخرى أن نترك أشياء كنا نرى استيفاءها أو الرجوع الى مراجع لم نرجع اليها . ونحن إذ نترك هذا في هذه الجولة فعلى أمل أن نعود الى استيفائها في جولة أخرى قريبة إن شاء الله إن كان في العمر بقية وفي الجهد عافية . وقد التزمنا بأن نثبت في الهامش مصدر كل حادثة أوردناها . كذلك أثبتنا مع كل رواية حلقات السند التي روتها علىأمل أننعود الى تحقيق ذلك على الأقل كأسلوب من أساليب الترجيح بين ما تعارض منها . وللحق والتاريخ لم نجد فيمن كتب أو ألف حديثاً في التاريخ الإسلامي من عنى بهذا النهج . وإنه لحري أن ننعي على الأجيال المتأخرة قصور همتها عن ملاحقة أسلافها من الأجيال القديمة ، ولنضرب لذلك مثلاً آخر هو في الوقت ذاته دعوة لكافة الجغرافيين المحدثين أن يتقدم منهم من يقوم بهذا العمل الجليل .. معجم البلدان ، هذا المرجع القيم الذي لا غنى عنه لأي باحث يتعرض لبحث جغرافي أو تاريخي على الرقعة الاسلامية ، توفي مؤلفه ياقوت الحموي عام ٦٢٧ هـ — ١٢٢٩ م فهو مرجع قديم يحتاج الى تجديد ، كأن يزود بالخرائط اللازمة لبيان مواقع البلدان والأنهار والوديان وكافة المواقع التي ورد ذكرها

به ، ومكانها من خطوط الطول والعرض وما طرأ عليها من خراب أو زوال أو عمران أو تغيير لاسمه، وأن يحول ما فيه من مسافات من القياسات القديمة الى وحدات القياس الحديثة ... الخ بحيث يكون نعم المرجع المعين تحت يد الباحث الحديث .

ونحن بهذا البحث نحاول المساهمة في تكوين ثقافة إسلامية وعربية في فرع بكر من فروع التاريخ الإسلامي . ليس من قبيل التواضع أن لا نزعم أننا بلغنا به ما أردنا. ولكننا بلا ريب وبدون تواضع ابتعدنا بهقدر الطاقة عن السطحية ، حتى يتعلم جيلنا من ذلك الجيل أنه لا مستحيل. سوف نجد في هذه الصفحات نموذجاً مشرفاً لأمة آمنت برسالة واستوثقت من أنها خير أمة أخرجت للناس ، لا عن عصبية كعصبية الشعب الآري التي رفع شعارها هتلر ولا كخرافة « شعب الله المختار » التي يعتنقها يهود ، ولكن لأنها تحمل تلك الرسالة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، فلم تقصر همتها ولم يحط من معنويتها أن رأت العالم يقتسمه عملاقان ، عملاق في الشرق وآخر في الشمال والغرب ، فقامت تنازعهما معاً ما بين أيديهما من بقاع حتى انتزعتها قسراً وغلبتهما على أمرهما، وحررت الناس من عبادة الناس، فدانوا لدين الله الواحد القهار ، وفتحت للغزاة الفاتحين أبواب الأرض وأبواب السماء .

قال اللورد أكتون [١] « إن تاريخ العالم ليس عبئاً على الذاكرة ، وإنما هو نور يضيء الروح » . وما أجمل من وصف التاريخ بأنه ذاكرة الجنس [٢] البشري ... فنسيان تاريخنا فقدان لذاكرتنا . نجلوه لندرسه ولنستفيد منه. ولو لم يكن لنا من دراسته إلا الاستمتاع المجرد والتسلية والقصص لكفى . وليس هو كذلك . فكله نفع ودرس وعبرة وعلم ومفخرة ونور .

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط .

(٢) أضواء على التاريخ الإسلامي .

الباب الثاني

شبه الجزيرة

آثارها على الفتح

في رأينا أنه كان لجغرافية شبه جزيرة العرب أثرها في العمليات الحربية التي حققت الفتوحات الإسلامية في مطلع القرن الأول الهجري ، والسابع الميلادي ، وذلك من وجهين :

الأول : أثر هذه الجغرافية على البيئة العربية التي حملت رسالة الإسلام فانطلقت به شرقاً وغرباً . بعبارة أخرى ان الجغرافية الطبيعية للجزيرة العربية كان لها أثرها على الجغرافية البشرية لسكانها الذين كانت منهم جيوش المسلمين الأولى . هذه الطبيعة هي التي رسمت للسكان ماذا يسكنون وماذا يأكلون وماذا يلبسون وماذا يركبون وبأي شيء يحاربون ، وتشكيل حياة أهلها من بداوة وبأس وشدة وفروسية لها سماتها المتميزة . كل ذلك كان له بالتالي انعكاساته وآثاره على جيوشهم المحاربة .

والثاني : الأثر المباشر لتلك الطبيعة على استراتيجية العمليات الحربية نفسها ، فلقد كانت جزيرة العرب باعتبارها صحراء قاحلة شاسعة ممتدة لا يطرقها أحد من خارجها ولا يدري شيئاً عن مسالكها ودروبها ومساربها ومواطن الماء فيها، ولو درى ما استطاع ولا ألف العيش والحياة فيها . بهذه

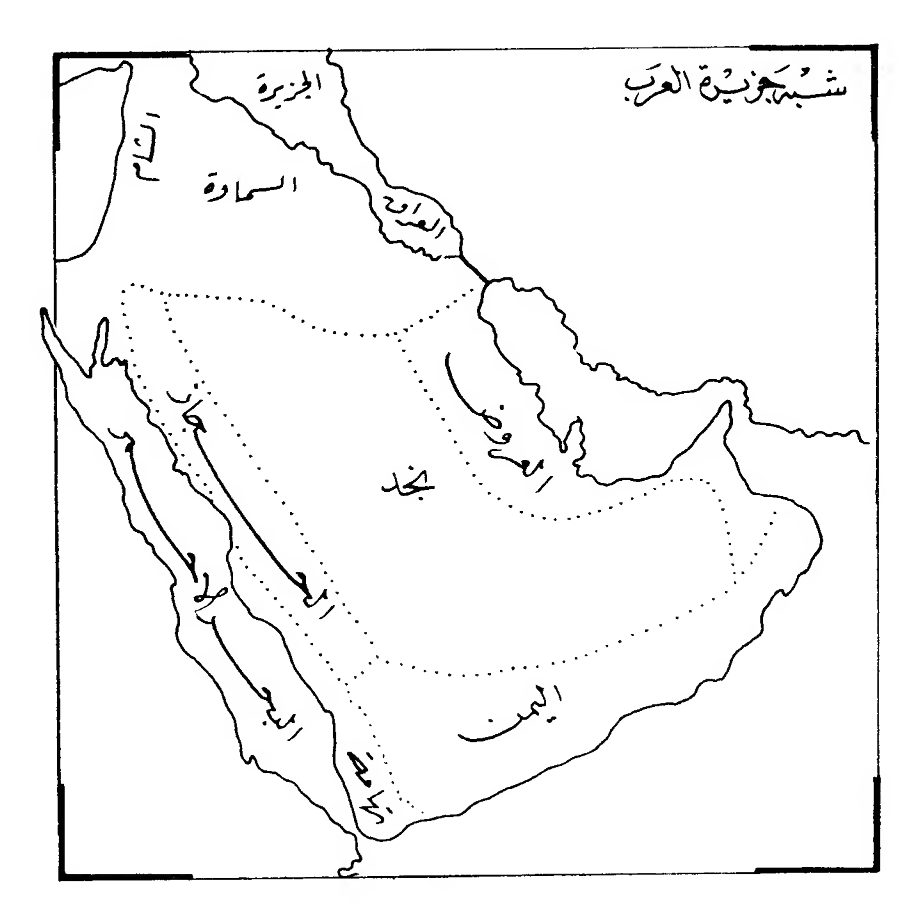
الصفة كانت جزيرة العرب أشبه بسور له باب عليه صمام يسمح بالمرور الحربي في اتجاه واحد ، يسمح بخروج الحملات الحربية منها إلى جيرانها ولا يسمح بالعكس ، فانبنت خطط المسلمين أساساً على أنهم في حالة انتصارهم تنفتح لهم أرض عدوهم ، أمـا في حالة انكسارهم فإنهم يتراجعون إلى صحرائهم ليلوذوا بها،حيث يعيدون تجميع قواتهم وتنظيمها في حين يستحيل على عدوهم أن يتعقبهم فيها .

جغرافيتها

وتمتد جزيرة العرب نحواً من ألفي كيلومتر طـــولاً [هو طول ساحل البحر الأحمر من العقبة إلى باب المندب] وذلك بخلاف امتدادها الطبيعي بين العراق والشام المعروف بصحراء السماوة . كما تمتـــد مثل ذلك عرضاً [طول الساحل الجنوبي من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي] وتضيق إلى النصف من ذلـك في أقصر خط مستقيم بـين البحر والخليج . ويمس خط عرض ١٣° ركنها الجنوبي الغربي،بينما يمر خط عرض ٣٠° شمالاً بدومة الجندل في الشمال، وهو خط العرض الذي يمر بالقاهرة وبالبصرة . وينحصر امتدادها بين خطي طول ٣٥° و ٦٠° شرقاً .

ويميز الجغرافيون في جزيرة العرب خمسة أقسام طبيعية :

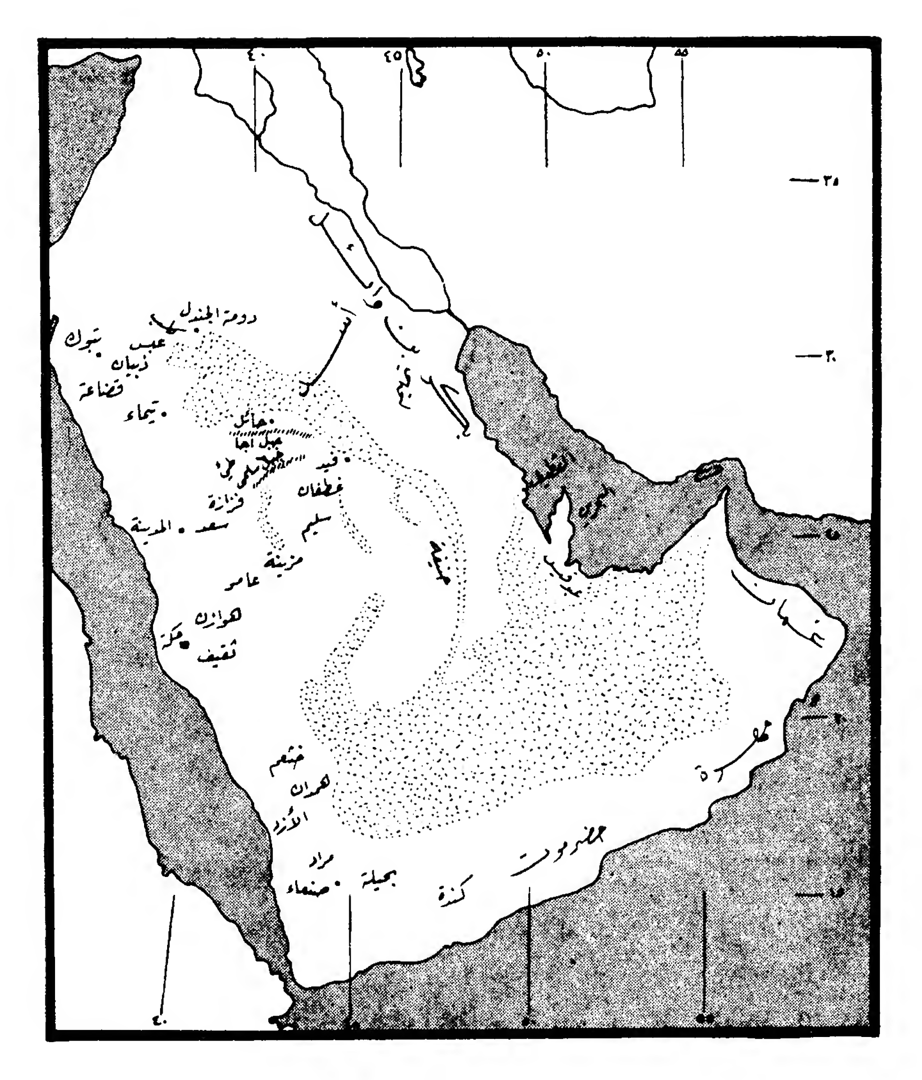
الأول : تِهامة وهو السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر . وهو محصور بين البحر وبين سلسلة جبـــال السراة الممتدة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال . هذا السهل يضيق شمالاً حتى يتصل الجبل بالبحر الأحمر بينما يتسع نوعاً في الجنوب . وقد سمي تِهامة من التَّهَم وهو في لغة العرب شدة الحر مع ركود الريح فذلك مناخه. وتنتشر بطول هذا الساحل الشعاب المرجانية الغاطسة التي تشكل خطراً جسيماً على الملاحـــة ، ولذلك فالموانيء نادرة . ولذلك أيضاً لم يعرف العرب القدماء المتاخمون لهذا الساحل ركوب البحر ،



خريطة رقم ٣ — شبه جزيرة العرب .

خلافاً لعرب البحرين الذين تاخموا الخليج العربي أو بحر العجم كما كانوا يسمونه .

والثاني : الحجاز وهو سلسلة جبال السراة التي تمتد بين اليمن والشام في عرض أربعة أيام [وهي تساوي حوالي ١٧٥ كيلومتراً] يزيد قليلاً في بعض المواضع وينقص قليلاً في مواضع أخرى . وقد سمي هذا القسم حجازاً لأنه يحجز بين تهامة وبين نجد . في هذا القسم تقع المدينة ومكة والطائف .



خريطة رقم ٤

والثالث : نجد . والنجد في اللغة هو المرتفع ، وقد سمي بذلك لارتفاع أرضه . ويبدأ جنوباً من حدود اليمن وينتهي شمالاً عند صحراء السماوة وشرقاً إلى العروض .

والرابع : اليمن وهو كقسم طبيعي أوسع كثيراً شمالاً وشرقاً من الحدود السياسية لليمن اليوم . وهو جنوب نجد حتى الساحل الجنوبي ويمتد شرقاً إلى حضرموت والشحر وعمان .

والخامس : العروض وسمي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق ويشمل اليمامة والبحرين . وفيه ارتفاع وانخفاض وجبال وأودية .

وجزيرة العرب بوجه عام صحراء تكثر بها الجبال الجرداء. ومنها الحِرَار [جمع حَرَّة] وهي الجبال السوداء . ويتخللها كثير من الوديان التي يجري فيها ماء السيول فينبت بـه المرعى والكلأ في الأراضي القريبة منهـا ويقيم حولها الناس،وأعظم هذه الأودية الدهناء الذي سكنته قبيلة تميم ببادية البصرة، ويمر على ديار بني أسد ثم ديار غطفـان حيث يسمى وادي الرمة ، ويستمر حيث مساكن بني طيء فيسمونه حائل ، ثم يتجه إلى ديار بني كلب فيسمونه قُراقِر ثم يتجه نحو صحراء السماوة فيسميه بنو تغلب سمودي [١] ثم يعرج إلى الكوفة . هذا الوادي هو الطريق بين المدينة والعراق وهو الوحيد الذي يشق الحجاز ونجد وهو طريق الجيوش الإسلامية إلى الخليج والعراق .

وفي اليمن كثير من الوديان منها ما ينحدر إلى البحر ومنها مـا ينحدر إلى الداخل . فمن النوع الأول وادي مور ـ وهو أعظمها ـ ووادي زبيد ، وهناك واد يتجه شرقاً ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذي يفضي إلى موضع سد مأرب .

ويوجد في جزيرة العرب رياض [جمع روضة] وهي المكان الذي يستنقع فيه الماء . فإذا جاء الماء نبتت البقول والأعشاب الصحراوية ورعت الأنعام ، وربمـا وصلت سعة الروضة إلى ميل مربـع ، وأصغر الرياض مائـة ذراع ، فإذا عرضت جـداً فهي قيعان [جمع قيعة] وهي المقصودة بقـوله تعالى :

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١٨٧/١ .

« كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ١٣٦ روضة كانت في بلاد العرب .

والمنطقة الواقعة إلى الغرب من الخليج العربي [بحر فارس] إلى نجد تسمى الأحساء [جمع حسى] وهو رمل تحته صلابة فإذا أمطرت نزل الماء فحفظته الصلابة أن يغيض ومنعه الرمل أن يجف ، فإذا بُحث في ذلك الرمل أصيب الماء .

وأكثر ما ينزل على بلاد العرب من مياه يغيض في باطن الأرض ، إلا ما كان يمكن حجزه قديماً بسد مأرب والتحكم فيه لزراعة مزروعات دورية . أما شمال الحجاز فتقل به الوديان ويعتمد أهله على العيون الضئيلة التي لا تكفي إلا الشارب وقلما يجودهم الغيث . وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء بما يصب فيه من وديان وكثير من مائه يذهب في الأرض. وربما تأخر المطر فاشتد الحال على من يقيم عليه من القبائل . ولذلك درج العرب على الترحال من مكان إلى آخر وراء الماء والمرعى ، وقد أضفى عليهم هذا خفة ونشاطاً وطبعهم على عدم الارتباط بالأرض . وتبعاً لهذا اعتمد العرب على الأنعام ولا سيما الإبل، تحملهم وتحمل أثقالهم ويأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بأوبارها .

أما تهامة فهي شديدة الحرارة مع رطوبة عالية . ويشتد الحر بالجبال صيفاً كما يشتد البرد شتاء . وأما نجد فحار إلا ما اقترب من مياه الأودية فيعتدل نوعاً ما .

وتجتاز جزيرة العرب طرق إلى مكة وإلى غيرها ، كل طريق يسمى محجة أو جادة ، ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد إلى مكة مارة بالمدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً = ١٥٣٤ كيلومتراً فيكون متوسط المسافة بين كل منزلتين نحواً من ٤٥ كيلومتراً، وهي مسيرة يوم بالإبل المحملة بالأثقال.

وقد أحاطت الطبيعة بلاد العرب بسور جدّ متين لا يسهل على غير أهلها التسلل خلاله إلى قلبها ، فإذا أراد أجنبي دخولها من الشمال اعترضته صحراء النفود المترامية وفيها كثبان الرمل المتنقلة الخالية من النبات . بينما بقيتها ينبت عشبها في الشتاء والربيع في مواطن مختلفة ومبعثرة ومتباعدة أحياناً بحيث لا يهتدي اليها إلا أهلها الذين نشؤوا فيها وعرفوا مسالكها . وهم على قلة عددهم يتنقلون في جنباتها بمعزهم وشائهم وإبلهم،يقاسون شظف العيش[١]. ولقد حاول خلفاء الاسكندر الأكبر غزو بلاد العرب فباءوا بالفشل لقلة الماء والجهل بالمسالك .

(١) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٥ – ٦ .

العرب

قبائل العرب

كافة العرب ينحدرون من أصلين كبيرين ، قحطان وعدنان . والأول أقدم من الثاني وسابق له ، فبينما نجد بين عدنان وبين رسول الله ﷺ اثنين وعشرين جيلاً نجد أن القحطانيين الذين عاصروا رسول الله كان بينهم وبين قحطان ثمان وعشرين جيلاً في الغالب الأكثر ، وكثير منهم بلغ نسبه إلى قحطان إلى ثلاث وثلاثين جيلاً في حين وقف بعضهم عند خمس وعشرين . فإذا أخذنا باعتبار الجيل خمساً وثلاثين عاماً كان عدنان قبل النبوة بنيف وسبعة قرون في حين كان قحطان قبلها بنحو من عشرة قرون .

ويرجع اهتمامنا بإلقاء الضوء على هذه القبائل وأنسابها ومنازلها ومواطن سكناها إلى أنها كانت هي البيئة الأولى التي تلقت رسالة الإسلام فانتشر بينها ، ومنها انبثق في أنحاء الأرض ، وفي هذه القبائل حدثت الردة ، كما أن جيوش المسلمين الفاتحين إنما منها تكونت ، فهي مادتها وخامتها ووحداتها بعد أن تسربلت بالإسلام . ولن نفهم السيرة ولا الردة ولا الفتوح ما لم نهضم هذه البيئة ونُحط بأبعادها وملامحها .

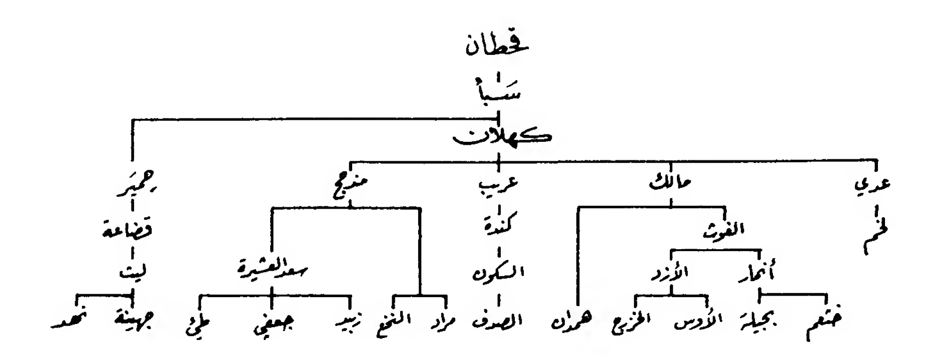
قحطان

ولقد كان موطن قحطان باليمن ، ثم تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

فكان منهم حِمْيَر ، وأشهر حِمْيَر قضاعة والسكاسك .

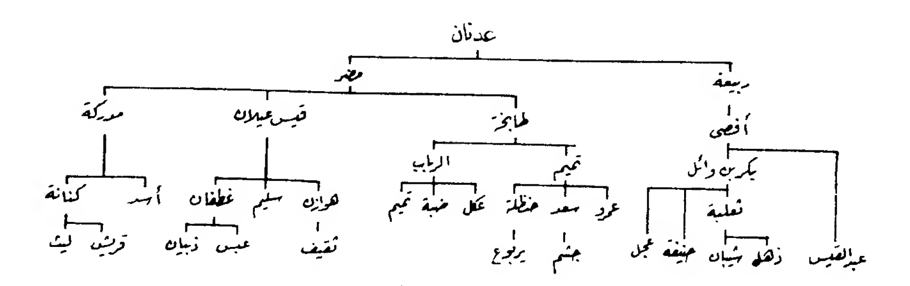
وكان منهم كهلان ، وأشهرهم همدان وأنمـــار ومَذْحِج وطيء وكندة ولخم وجذام والأزد وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام .

فلما انهار سد مأرب عام ١٢٠ قبل الميلاد خرج أبناء مأرب يرتادون شبه الجزيرة بحثاً عن منازل جديدة تصلح لسكناهم ، فمنهم الأزد نزلوا على المدينة فاستوطنوها فكانت منهم الأوس والخزرج ومنهم من افتتح الحرم وأجلوا ساكنيه من جرهم، ومنهم من اتجه شرقاً إلى عمان أو غرباً إلى تهامة ، ومنهم من أوغـل في سيره شمالاً حتى بلغ الشام فنزل على مـاء غسان وأقاموا ملك الغساسنة الموالي للروم . ومنهم من اتجه إلى الحيرة بتخوم العراق وهم لخم بن عدي من أدد بن زيد بن كهلان ومعهم نصر بن ربيعـــة أبو الملوك المناذرة بالحيرة ، فكان ملكهم تابعاً لبني ساسان مـلوك فارس الذين حكموا العراق . ونزلت قبيلة طيء بالجبلين أجـــأ وسلمى . ونزلت كلب بن وبرة من قضاعة ببادية السماوة حتى اتصلت بأطراف العراق . كذلك بقي باليمن كثير من قبائل حِمْيَر وكندة ومَذْحِج وغيرهم . وإلى جوار هـــذا تخطيط مختصر يبين أشهر تلك القبائل من نسل قحطان .



عدنان

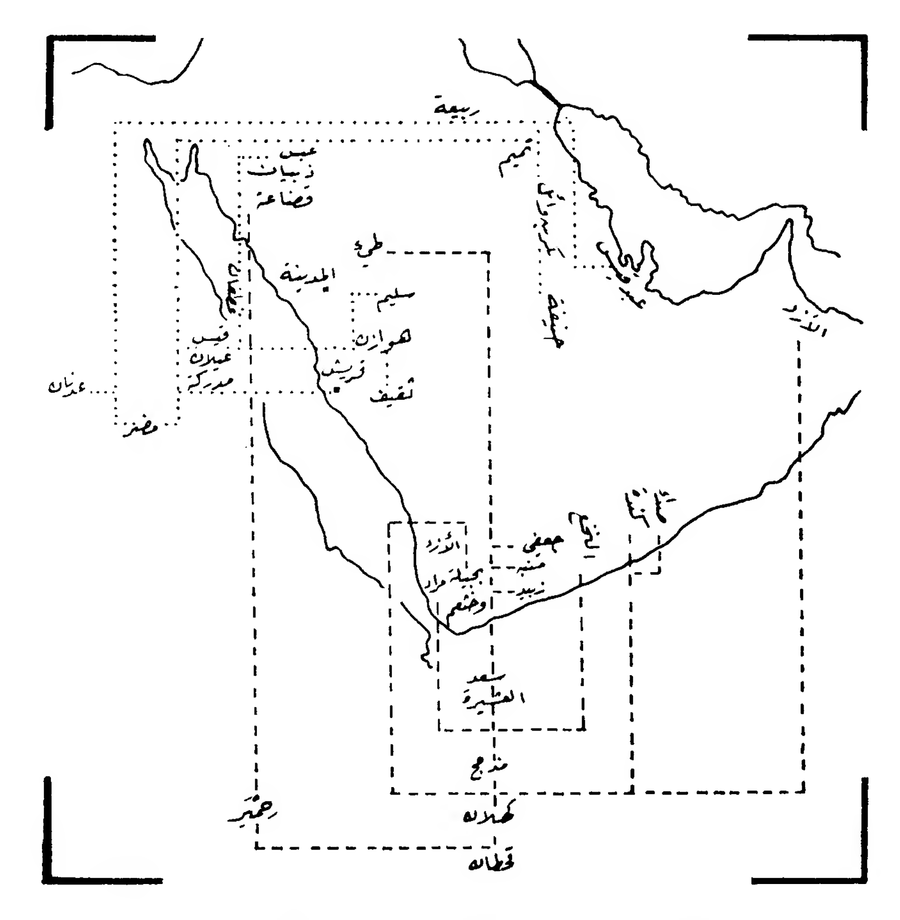
أما عدنان فكان من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، ومن نسله كان رسول الله ﷺ . كان موطنه مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة . وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن مَعَدّ بن عدنان. ثم هاجر بعض من هذه البطون إلى مواطن أخرى تبعاً لمواقع القَطْر ومنابت العشب فاتجهت ربيعة شرقاً ، فأقامت عبد القيس بالبحرين ، وأقامت حنيفة باليمامة وأقامت سائر بكر بن وائل فيما بين البحرين واليمامة وإلى ساحل كاظمة بشمال الخليج الفارسي ثم إلى تخوم سواد العراق بين الأبلة [على شط العرب] إلى هيت [على الفرات جنوبي خط عرض ٣٤ شمالاً] وعبرت تغلب الفرات



فأقامت بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وسكنت تميم ببادية البصرة مجاورة لمنازل بكر بن وائل. أما عن فرع [١] مضر بن معد بن عدنان ، فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة حتى حدود الجبلين أجأ وسلمى. وأقامت ثقيف بالطائف واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة على طريق البصرة ، وسكنت أسد شمالي وادي الرمة شرقي تيماء إلى غربي الكوفة ، وكان بينهم وبين تيماء ديار بحتر من قبيلة طيء ، وبينهم

---

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية : ١ .



خريطة رقم ٥ — تشعب القبائل ومساكنها من جزيرة العرب .

(١) - - - فروع قحطان .

(٢) . . . . فروع عدنان .

وبين الكوفة خمس ليال [حوالي ٢٢٥ كيلومتراً] ، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران .

وقد رتبوا أنساب العرب فجعلوها ست طبقات ، وهي الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة .

فالشعب : النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، سمي شعباً لأن القبائل منه تشعبت .

والقبيلة : هي ما انقسم فيه أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر، سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها .

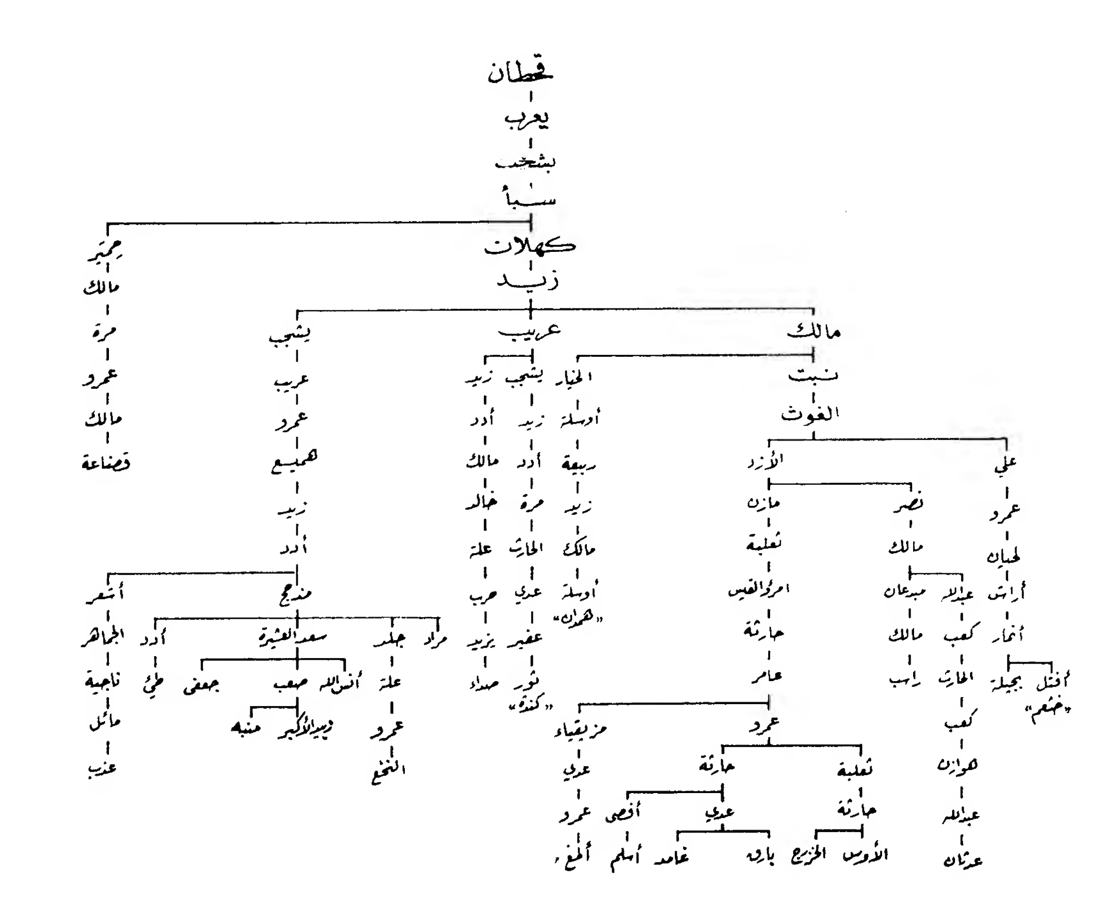
والعمارة : ما انقسم فيه أنساب القبائل مثل قريش و كنانة .

والبطن : ما انقسم فيه أنساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم .

والفخذ : ما انقسم فيه أنساب البطن مثل بني أبي طالب وبني العباس .

فإذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً والعمائر قبائل وهكذا . ومن حيث كانت تلك القبائل والعمائر والبطون .. الخ وحدات حربية ، فقد أنشأنا جدولين بيانيين تفصيليين أحدهما لشعب عدنان والآخر لشعب قحطان وضعنا فيهما أشهر الاعلام التي برزت في الحروب ، مما أفادنا بتتبع وحدة (قبيلة) كل علم في ميادين القتال وتحركاتها .

- عدنان
  - معد
    - نزار
      - ربيعة
        - أسد
          - جديلة
            - دعمي
              - أفصى
                - قصي
                  - عبد القيس
                - هنب
                  - قاسط
                    - وائل
                      - تغلب
                      - عنز
                      - بكر
                      - يشكر
      - مضر
        - إلياس
          - قمعة
            - خزاعة
          - طابخة
            - أد
              - عمرو
                - عثمان "مزينة"
              - مر
                - تميم
                  - عمرو
                  - زيدمناة
                    - مالك
                      - حنظلة
                    - امرؤ القيس
                    - سعد
              - عبدمناة "الرباب"
                - وائل
                  - عوف "عكل"
                - ضبة
          - مدركة
            - خزيمة
              - كنانة
                - وائل
                - النضر
                  - مالك
                    - فهر "قريش"
                - عبدمناة
                  - بكر
                    - ليث
              - أسد
            - هذيل
        - عيلان
          - قيس
            - خصفة
              - عكرمة
                - منصور
                  - هوازن
                    - بكر
                      - معاوية
                        - صعصعة
                          - عامر
                            - نمير
                  - مازن
                  - سليم
              - محارب
                - جسر
            - سعد
              - يعصر
                - باهلة
            - غطفان


قحطان
يعرب
يشجب
سبأ
حمير
مالك
مرة
عمرو
مالك
قضاعة
كهلان
زيد
يشجب
عريب
عمرو
هميسع
زيد
أدد
أشعر
الجماهر
ناجية
مائل
عذب
مذحج
أدد
طيئ
سعد العشيرة
جعفى
صعب
أنس الله
زيد الأكبر
منبه
جلد
علة
عمرو
النخع
مراد
عريب
زيد
أدد
مالك
خالد
علة
حرب
يزيد
صداء
يشجب
زيد
أدد
مرة
الحارث
عدي
عفير
ثور
«كندة»
مالك
الخيار
أوسلة
ربيعة
زيد
مالك
أوسلة
«همدان»
نبت
الغوث
الأزد
مازن
ثعلبة
امرؤ القيس
حارثة
عامر
عمرو
مزيقياء
عدي
عمرو
ألمع
حارثة
عدي
أفصى
أسلم
غامد
بارق
ثعلبة
حارثة
الخزرج
الأوس
نصر
مالك
عبدالله
كعب
الحارث
كعب
هوازن
عبدالله
عثمان
ميدعان
مالك
راسب
علي
عمرو
لحيان
أراش
أنمار
بجيلة
أفتل
«خثعم»

البيئة العربية

القبيلة

نشأ عن طبيعة الجزيرة العربية وحتمية انتقال العرب وراء الماء وطلباً للكلأ ، نشأ النظام القبلي كضرورة اجتماعية وحيوية حتى يتنقلوا في جماعات وعشائر توفر لأفرادها الحماية والأمن . وقد بلغ من تأصل هذه القبيلة وعمقها ان لم يقتصر وجودها على البادية بل تعداها إلى الحواضر على قلتها وتناثرها في الصحراء المترامية ، فنجد أن كل مدينة كانت تنقسم في داخلها إلى أحياء سكنية يسكن كلّ حي قبيلة. واستمر ذلك حتى بعد ظهور الإسلام فكان للأوس منازل في المدينة كما كان للخزرج منازل . وحين اختطت الكوفة بعد فتح العراق على عهد عمر بن الخطاب أقيمت على هذا الأساس ، فكان لكل حي من أحياء العرب الذين فتحوا العراق حيّ من أحياء الكوفة .

وكان [١] مما انطبع به الفرد العربي اهتمامه ببطولته وإظهار فروسيته. كان لا يخضع لتنظيم ولا يرضى بقيادة ، وقد اتصف بجفاف العود وصلابة التكوين والسمرة الشديده في اللون بفعل حرارة الشمس وشظف العيش . وهو سريع العدو خفيف الحركة حاد البصر .

---

(١) الفروسية العربية ٣٥ .

وأصبح انتصار القبيلة — إلى أن ظهر الإسلام — لا يتوقف على تنظيمها عسكرياً ، وإنما يتوقف على تصرف أفرادها ومهارتهم وقدرتهم على القتال . وربما كان هذا هو السبب في ظهور عادة المبارزة بين مبارزين من طرفي النزاع قبل أن ينشب القتال . وغالباً ما كان ينتظر الفريقان نتيجة هذا الصراع الفردي ثم يلتحما بعد ذلك . ولذلك كانت كل قبيلة تدفع بأشهر فرسانها للمبارزة في أول القتال ، وكان ذلك نوعاً من استعراض الفروسية والقوة . فلما ظهر الإسلام وفرض الجهاد ظهر معه التنظيم والتكتيك الحربي الإسلامي. وقد كان قتال العرب في الجاهلية على طريقة الكر والفر . ولم تكن هذه تفجعهم بكثير من القتلى ، بل كانت معظم حروب الجاهليين تتجه نحو هجوم خاطف تم الفرار بالغنيمة .

القوافل

وكان للعرب تجارات وأسواق شهيرة . كذلك كانت قوافل التجارة تقطع بلاد العرب ما بين اليمن والشام والعراق . وكانت لكسرى وللنعمان ابن المنذر ملك الحيرة قوافل تجارية [تسمى لطائم — جمع لطيمة] يرسلها إلى نواحي الجزيرة العربية لتباع فيها تحت حماية كبير من العرب ، تحمل الثياب وما يحتاجه العرب . كما كان لقريش رحلتان في الشتاء والصيف . ولم يكن العرب أهل صناعة بل كانوا يحتقرونها ، ولكن كافة نساء العرب كنّ يحترفن الغَزْل [١] . ولم تكن الطرق آمنة ولذلك ظهرت طائفة من الأدلاء تعرف الطرق والسبل .

وفي هذا المقام يذكر لنا التاريخ هذه[٢] الواقعة. بعث كسرى أنو شروان

---

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية .

(٢) الفروسية العربية ١٩ .

قافلة الى عامله على اليمن تحمل نَبْعاً (وهو الشجر الذي كانت تصنع منه القسي والسهام) . وكان الفرس يخفرون القوافل بجنودهم من المدائن الى الحيرة حيث يتسلمها النعمان بن المنذر فيحرسها فرسان من ربيعة حتى بني حنيفة باليمامة، فيتسلمها هوذه بن علي الحنفي ليحرسها حتى يخرج بها من أرضه فيسلمها الى فرسان من بني تميم يخفرونها مقابل أجر ليبلغوا بها اليمن . فلما وصلت القافلة الى اليمامة ، عرض هوذه بن علي على حراسها أن يعطوه الأجر الذي كانوا يعطونه لبني تميم مقابل أن يصل هو بها الى اليمن . وعلمت تميم بما فعل هوذه ، فسارت فرسانهم ودهمت القافلة وقتلت حماتها واقتسمتها فيما بينها وأسرت هوذه، فافتدى نفسه منهم بثلاثمائة بعير . وقد انتقم كسرى من بني تميم بعد ذلك .

طبيعة البيئة فرضت على العرب أن يكونوا قبائل بكل ما في كلمة « قبيلة » من معنى . وضرورة الحياة وحراسة القوافل فرضت عليهم أن يكونوا فرساناً مقاتلين .

وكان العرب لعهد [1] الخلفاء الأولين من بني أمية يسكنون بيوتهم التي كانت من الوبر والصوف أو من الجلد، ولم تزل العرب الى ذلك العهد أهل بادية إلا قليلاً منهم . فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بنسائهم وسائر حِلَلهم وأحيائهم من الأهل والولد واستمر هذا شأنهم لقرون بعدها . ولذلك كانت عسكرهم كثيرة المواضع بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء ، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى .

النار والطعام

وكان طعام العرب فيغالب الأزمان لا يخرج في تكوينه عن التمر واللبن

---

(١) ابن خلدون ٤٨٠ .

واللحم، وخاصة لحم الإبل وبعض الحبوب . وفي الحديث عن مالك بن أوس ابن الحدثان عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: « أخرجوا زكاة الفطر صاعاً من طعام — وطعامنا يومئذ البُر والتمر والزبيب[1] والأقِط » . وكانوا يأكلون لحوم الصيد والسويق والألبان وربما ابتلع أحدهم الريح أو مضغ القيصوم [نبات] والشيح أو حرش اليربوع ، وكانوا يصيدون الضب والظبي والأرنب. وكان الغالب من أهل باديتهم لا يعاف شيئاً من المآكل لقلتها عندهم، وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الإبل ، ولا يفضلون شيئاً عليها . وكان الاصطياد سيرة فاشية حتى كان أحد المكاسب التي عليها معاشهم. أما ما كان يتعاطاه غيرهم من التأنق في الأطعمة المتنوعة والألوان الشهية، فلم تكن العرب تعرفها ولا كانت تمر على أذهانهم . حكي أن عبد الله بن جدعان وكان سيداً شريفاً من سادات قريش، وفد على كسرى مرة وأكل عنده الفالوذج فتعجب منه وسأل عن حقيقته ، فقيل هي لباب البُر [القمح] يُلبَك مع العسل. فابتاع غلاماً يصنعه وقدم به مكة، فصنع بها الفالوذج ووضع موائده بالأبطح الى باب المسجد ثم نادى : « من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر » . فكان ممن حضر إليه أمية بن أبي الصلت فأكل منه ثم مدحه بشعر[2] .

وكان للعرب أطعمة شهيرة يتخذونها من الأصناف المذكورة . فمنها السخينة وهي تتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء ، وإنما يأكلونها في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال . ومنها الحريقة وهي أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب فيُحسَى ، وهي أغلظ من السخينة يُتبقى بها صاحب العيال على عياله إذا عضه الدهر . ومنها الصحيرة وهي اللبن يُغلى ثم يذر عليه الدقيق . ومنها العذيرة وهي دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى

---

(١) أسد الغابة ٢٩٧ – والأقط لبن مجفف يطبخ به .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨٠ .

بالرَّضيف . ومنها العكيسة وهي لبن يصب عليه الشحم المذاب . ومنها الغريقة وهي حلبة تضم الى اللبن والتمر وتقدم الى المريض والنفساء . ومنها الأصية وهي دقيق يعجن بلبن وتمر. ومنها الرهية وهي بُرٌّ يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن . ومنها الحَيْس وهو الأقط مع السمن والتمر . والصناب وهو الخردل مع الزبيب . والبريك وهو الزبد مع الرطب [1] . وغير ذلك كثير مما لا يخرج عن هذه الدائرة، فهي تباديل وتوافيق لخلط أصناف محدودة.

أما اللحم فكانوا يطبخونه شواء على النار أو سلقاً خفيفاً لا ينضجه في مراجيل ، وكان ذلك مستحباً عندهم . قال عبدة [2] بن الطبيب التميمي ، وكان من جند المثنى بن حارثة في معركة بابل .

لما نزلنا نصبنا ظِلَّ أخبيةٍ   وفار للقوم باللحم المراجيل
وَرْدٌ وأشقرُ ما يُؤنيه طابخُهُ   ما غيَّر الغليُ منه فهو مأكول
ثُمَّتَ قُمْنَا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمةٍ   أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان العرب يبكرون في الغذاء ويؤخرون العشاء في انتظار حضور [3] الضيف . وكانوا يذمون الشبع ، وكثرة الأكل عندهم معيب . وفي لغتهم كثير من ألفاظ الذم في هذه المادة . فإذا كان الرجل حريصاً على الأكل فهو نَهِمٌ وشَرِهٌ ، فإذا زاد حرصه وجودة أكله فهو جَشِعٌ، فإذا كان لا يزال قرِماً الى اللحم [القرم شدة الشهوة الى اللحم خاصة] وهو مع ذلك أكول

---

(١) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨١ – ٣٨٥ .

(٢) الكامل – للمبرد ١ / ٢٦٥ . والمراجيل جمع مرجل وهو الإناء الكبير للطبخ . ورد : أحمر . وأشقر : أبيض ، وهما صفتا اللحم . ما يؤنيه : لا ينضجه . والجرد المسومة هي الخيل . يقول: إنهم بعد أن أكلوا مسحوا أيديهم في أعراف الخيل .

(٣) بلوغ الارب ١ / ٣٧١ .

فهو جعم ، فإذا كان يتتبع الأطعمة بحرص ونهم فهو لعوس ولحوس ، فإذا كان رغيب البطن كثير الأكل فهو عيصوم ، فإذا كان أكولاً عظيم اللقم واسع الحنجور فهو هبلع ... وذكر صاحب بلوغ الأرب [1] غير هذه ثمان عشرة صفة قبيحة كلها حول هذا المعنى .

ومن أوانيهم للطعام: الفيخة، وهي إناء صغير لا يشبع الرجل، والصحفة تشبع الرجل ، والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة ، والقصعة تشبع الأربعة والخمسة، والجفنة تشبع السبعة الى العشرة ، والدَّسيعة اكبرها [2] .

وكانوا يورون النار بقدح الزند والزندة . وأفضل ما اتخذت منه الزناد شجرتا المرخ والعَفَار ، فتكون الأنثى وهي الزندة السفلى مرخاً ويكون الذكر وهو الزند الأعلى عفاراً . والعفار شجر صغير [يشبه الغبيراء] وأما المرخ فنبات ينبت قضباناً سمحة طوالاً لا ورق لها . وليس في الشجر كله أورى زناداً من المرخ ، وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح فحك بعضه بعضاً فأورى فاحترق الوادي كله . والزندة عود مربع في طول الشبر أو أكثر وفي عرض إصبع أو أشف وفي صفحاتها فُرَض [واحدتها فرضة وهي النقرة] ، والزند الأعلى نحوها غير أنه مستدير وطرفه أرق من سائره، فإذا أراد المقتدح أن يقتدح بالزناد وضع الزندة ذات الفراض بالأرض ووضع رجليه على طرفيها، ثم وضع طرف الزند الأعلى في نقرة من نقر الزندة فهيأ في الفرضة مجرى للنار الى جهة الأرض بحز قد حزه بالسكين في جانب الفرضة ثم فتل الزند بكفه ، ويلقي في الفرضة تراباً يسيراً لتخشينها ، ويجعل الى جانب الفرضة عند مفضى الحز ريّة تأخذ فيها النار، فإذا فتل الزند لم يلبث الدخان

---

(١) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٧٩ .

(٢) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨٧ .

أن يظهر ، ثم يتبعه النار فتنحدر في الحز وتأخذ في الرية ، وتلك النــار هي السقط [١] .

وقد عرف العرب تقطير مــاء البحر ، « وكان لهم طرق [٢] من العلاج لدفع مضرة ماء البحر إذا اضطر أحد منهم الى شربه، منها أن يجعل في قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ويوقــد القدر حتى يرتفع بخارها الى الصوف فــإذا كثر عصره ، ولا يزال على هذا الفعل حتى يجتمع له ما يريد فيكون في الصوف ما عذب ويبقى في القدر الزعاق » .

ملابس العرب

كانت كسوة العرب الرحل المخيط في الغالب ولبس العمائم ، وربما ألقوا رداء على ظهورهم وأتزروا بإزار. وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم فكانوا يتفننون في لباسهم. وكانت عمائم العرب لفافة على رؤوسهم وكانت مُحَنَّكة، أي طرف منهــا تحت الحنك . ومن أسمائها العصابة والِمعْجَر والِمشْوذ . وكانت السادة تلبس العمائم المهراة وهي الصفراء ، وكان الزبرقان بن بدر يصبغ عمامته بصفرة . وقــال أبو الأسود الدؤلي عن العمامة أنها جُنَّة في الحرب [يعني وقاية] .

وكان من عادة فرسان العرب في المواسم والجموع والأسواق ومــا أشبه التقنُّع ، وكانوا يكرهون أن يُعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم همٌّ غيرهم . وربما مع ذلك أعلم الفارس منهم بنفسه زيادة في ثقته بنفسه ، فكان حمزة بن عبد المطلب يوم بدر معلماً بريشة نعامة حمراء . وكانوا ربما جعلوا العمامة لواء

---

(١) بلوغ الارب ٣ .

(٢) بلوغ الارب ١ / ٣٩٦ .

أو شدوا بهـا اوساطهم عند الإحساس بالجهد . وكانوا يديرونها على رؤوسهم ويرسلون منها على الظهر وهو الذؤابة . وكان يقال عن العمامة تلحاها الرجل إذا أدار منها تحت ذقنه وهو المأمور به ، فإذا لم يدرها فهو المنهى عنه، فإذا أدارها على بعض فمـه فذلك اللثام وإذا أدارها على فمه فهو اللفام ، فإن بلغ بهـا أصل فمه فذلك النقاب ، فإذا لم يظهر منه إلا العينان فهو الاحتجار والتوصيص . ولم تزل العرب تلهج بذكر النعال والفرس تلهج بذكر الخفاف ، وبنو الحارث بن سدوس لا تلبس نعلاً قط إذا نقبت .

الإبل والبيوت

وكان الجمل عند العرب ذا قيمة ، فكان يركب للتنقل ويستخدم في حمل الأثقال، ويشرب لبنه ويؤكل لحمه وتتخذ الثياب والفرش والبيوت من وبره[1]. ويقرر القرآن الكريم ذلك الواقع فيقول: « والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء ومنافعُ ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم »[2]. وقال : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفُّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى[3] حين » . وقد اختلفت أسماء البيوت عند العرب باختلاف أنواعها . فالخباء ما كان من صوف الغنم وهو على عمودين أو ثلاثة ، والبِجَاد ما كان من وبر الإبل ، والفسطاط ما كان من شعر الماعز ، والسرادق ما كان من قطن ، والقَشْع ما كان من الجلد اليابس، والطراف ما كان يتخذه الأغنياء

---

(١) محاضرات في تاريخ الامم الإسلامية .

(٢) سورة النحل ٥ — ٧ .

(٣) النحل ٨٠ .

من الأديم وهو الجلد المدبوغ، والحظيرة: بيت كانوا يتخذونه مما يقطع مما تفرق من أغصان الشجر ، وكانت تعمل للإبل لتقيها الريح والبرد ، والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر، والأقنة بيت يبنى من حجر ، والكُنَّة بيت يبنى من لِبن . وهذه البيوت أحب لأهل البوادي من القصور المشيدة [1] .

وقد أدّت الإبل للمسلمين أجل الخدمات في فتوحهم، فكانت أداة المواصلات والنقل من أرباض شبه الجزيرة ، وكان عليها المعول في قطع القفار واجتياز المفاوز الجافة . وليس سوى الجمل حيوان يحتمل هذا مع الصبر على العطش ، فإذا حضر الماء شربت وروت. وكانوا إذا أوردوها الماء كل يوم قالوا سقيناها رفهاً ، وإذا أوردوها يوماً وتركوها في المرعى يوماً قالوا سقيناها غِبّاً ، وإذا أقاموا في المرعى بعد يوم الشرب يومين ، ثم أوردوها في الثالث قالوا سقيناها ربعاً، لأنهم يحسبون يوم المقام مع يوم الشرب... وتمام ظمأ الإبل في الغالب ثمانية أيام فإذا أوردوها الماء في التاسع منه وهو العاشر من الشرب الأول قالوا سقيناها عِشْراً ، وإذا زادوا على العشرة يوماً ، قالوا أوردناها رفهاً بعد [2] عشر .

تدل هذه المفردات من لغة العرب على أن الإبل كانت ترد الماء في اليوم أو اليومين أو أكثر حتى عشرة أيام تصبر على ذلك ، وأن الغالب في تمام ظمئها تسعة أيام ، فأي حيوان سوى الجمل حباه الله بهذه الخاصية ، بل ولا المركبات الميكانيكية الحديثة تستطيع ذلك ، فإن مشاكل إمدادها بالماء والوقود في الحملات تعد من أعقد مشاكل الحملة وتضع لها القيادات خطتها كاملة لضمان ذلك وإلا فشلت التحركات .

---

(١) بلوغ الأرب ٣ / ٣٩٤ .

ولم يكن العرب رغم سكناهم شبه الجزيرة بمعزل عن العالم الخارجي كما قد يتوهم ، ولم يكونوا أقواماً تعيش في مجاهل من الأرض . ولكنهم كانوا يتابعون العالم الخارجي ويتصلون به اتصالاً ربما لم يكن يقل عن اتصال أي دولة أو شعب حينذاك بالدول والشعوب الأخرى إن لم يكن يزيد . فنراهم ينزحون ويرحلون الى حدود جيرانهم من الدول ، ويتصلون بغيرهم اتصالاً تجارياً في رحلة الشتاء والصيف . وكانوا يعرفون عن غيرهم الكثير ، ولقد رأينا اهتمام المسلمين والمشركين بما كان بين فارس والروم حتى نزل فيه الوحي بقرآن (أول سورة الروم) . قال الهمداني [١] في : « الوشي المرقوم » « ... وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ... » إذاً فقد كان العرب يتابعون أحداث العالم المعروف ، في حين لم يكن ذلك العالم يكاد يعرف شيئاً عن بلاد العرب ومن فيها قبل أن ينساب المسلمون منها كما يخرج المارد من القمقم .

---

(١) بلوغ الارب ٣ / ٢١٣ .

حروب العرب

كان[1] للحروب أيام العرب قبل الإسلام عندهم وعند غيرهم صفة من اثنتين عرض لهما المؤرخ ابن خلدون . ننقل عنه مـــا قال مع بعض الإضافات والتصرف .

الحرب أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل ، وهو إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ودينه ، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده .

فالأول : اكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة .

والثاني : وهو العدوان ، أكثر مـــا يكون من الأمم الر عشية الساكنة بالقفر ، كالعرب والترك والتركان والأكراد وأشباههم ، لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ، ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنمـا همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٨٥ – ٥٠١ . وبلوغ الارب ٢/٥٦ – ٦٨ .

والثالث : وهو المسمى في الشريعة بالجهاد .

والرابع : هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها .

فهذه أربعة أصناف من الحروب ، الصنفان الأولان منهـــا حروب بغي وفتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل .

وصفة الحروب الواقعة بين أهـل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين ، نوع بالزحف صفوفاً ، ونوع بالكر والفر . أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم . وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب . وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر ، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى صفوف الصلاة ، القدم مع القدم والكتف مع الكتف ، بل وجرت عادة الفرس والروم أحياناً على أن يربطوا هذه الصفوف بالسلاسل ، ثم يمشون بصفوفهم إلى عدوهم قدمـــاً فتكون أثبت عند الصراع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنـــه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته . وفي التنزيل « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص[1] »أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات. وفي الحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

ومن هنا تظهر حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف، فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام ، فمن ولى العدو ظهره فقد أخلّ بالصف وباء بإثم الهزيمة إن وقعت ، وصار كأنه جرهـــا على المسلمين وأمكن منهم عدوهم ، فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه فعُدّ من الكبائر . وفي الصحيحين [2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

---

(١) سورة الصف ٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٤ .

رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل يا رسول الله وما هن ؟ قال الشرك بالله والسحر وقتـل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع . أما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف ، إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف .

التعبئة

أما الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك، فكانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ، ويسوّون في كل كردوس صفوفه . وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة ، وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب وتداولوا مع عدوهم الطعن والضرب ، فيخشى من اختلاطهم وتدافعهم فيما بينهم لجهل بعضهم ببعض . لذلك كانوا يقسمون الجند جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع . ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ، ويسمون هذا الترتيب « التعبئة » وهو مذكور في أخبار الفرس والروم في صدر الإسلام، فيجعلون بين يدي القائد العام عسكراً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة . ثم عسكراً آخر ناحية اليمين عن موقف الملك أو القائد وعلى سَمْتِه يسمونه الميمنة . ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة . ثم عسكراً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة [وهو المؤخرة] كأنه يسوق الجيش من خلفه ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربعة ويسمون موقفه القلب . فإذا تم لهم هذا الترتيب سواء في مدى

واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها أو كيفما أعطاها حال العساكر في القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة .

هذه الصفوف في الجيوش القديمة هي التي يمثلها سلاح المشاة في الجيوش المعاصرة الحديثة حتى الحرب العالمية الثانية . فسلاح المشاة كان هو المسؤول عن تغطية الجبهة والاحتفاظ بالأرض . ولئن اختلف سلاح المشاة بين القديم والحديث فإنه مجرد اختلاف في الشكل وإن كان اتفاقاً في الجوهر والهدف . لقد زال التراص بمعنى أن يكون القدم مع القدم والكتف مع الكتف ، ولكن بقيت الوظيفة كما هي ، ولم تكن تعتبر سائر الأسلحة إلا معاونة له . كانت تغطية الجبهة في حالتي الهجوم والدفاع حتى لا يكون فيها ثغرة ينفذ العدو من خلالها ، واجب المشاة.* وقد استعيض عن تراص الصفوف في تحقيق هذه الوظيفة باستعمال البنادق والرشاشات الخفيفة وأسلحة المشاة الأكثر ثقلاً والمضادة للدبابات . فأصبح في الإمكان أن تبتعد الأقدام وأن ينفرج ما بين الأكتاف ، ولكن بشرط أن تكون المسافات الفاصلة بين الجنود في الجبهة مستورة بنيران أسلحتهم التي في أيديهم .

الكر والفر

ومما يذهب إليه أهل الكر والفر ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات ، فيتخذونها ملجأ للفرسان في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أقرب إلى الأخذ بأسباب النصر، وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة . فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح ورماة النبل والرايات ، يصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها

حصون ، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم . وقد رأيناهم في القادسية قدموها أمام صفوفهم وجعلوها نواة لفرقهم يلتف حول كل فيل فرقة منهم .

أما الروم وملوك القوط بالأندلس فكانوا يتخذون الأسرّة، فينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه . وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والمشاة فيعظم هيكل السرير ويصير ملجأ للكر والفر ، وقد اتخذ رستم مثل ذلك في القادسية .

أما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة، فيصفون إبلهم والظهر الذي يحمل نساءهم ، فيكون فئة ومرجعاً لهم ويسمونها المجبوذة [أو الفدائية] وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد .

وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً ، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران ، أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم . والثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان وطلب الشهادة ، والزحف إلى الاستماتة أقرب .

وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس[1] مروان ابن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده . فتنوسي قتال الزحف

---

(١) عبأ خالد بن الوليد جيش المسلمين في اليرموك كراديس ثمانية وثلاثين كردوساً عام ١٣هـ قبل مروان . غير أننا نرى أن التعبئة بالكراديس نوع من الزحف بالصفوف . فهو ليس إبطالاً للصف وإنما تطوير له .

بإبطال الصف ، ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف ، وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء ، فلما حصلوا على الترف وسكنى البيوت والقصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر ، نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها ، فخلّفوا النساء في الأسفار وحملهم الترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية واقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والخيام وكان لا يغني كل الغناء ، لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال ، فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيعات (الهيعة صوت العدو المخيف) وتُخرِّمُ صفوفهم .

ويتأكد حق القائد في ضرب المصاف في الخلف ليكون عوناً للمقاتلة في الأمام ، ولا بد أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف ، وإلا مضوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزموا وانهزم السلطان بإجفالهم .

أما قتال الترك فكان رمياً بالسهام وتعبئة الحرب عندهم بالصفوف . فكانوا يصفون ثلاثة صفوف صفاً وراء صف ، ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتراشقون بالسهام وهم جلوس . وكل صف عون للذي أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين . وهي تعبئة غريبة .

الخنادق

كان من مذاهب الأوائل في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذراً من التبييت — الهجوم الليلي — لما في ظلمته ووحشته

من الأثر النفسي ومضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلام ستراً من عاره ، فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا خيامهم كنوع من الدفاع ، ويديرون الحفائر عليهم من جميع جهاتها، وكانت للدولة عليه قوة واقتداراً بجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم .

[انتهى ما نقلناه عن ابن خلدون بتصرف] .

معارك الاسلام الاولى

مما سبق، نفهم أن العرب قبـــل الإسلام كانوا يقاتلون على طريقة الكر والفر. ولكننا نستطيع أن نقرر أن ذلـــك كان غالباً ، وذلك لاعتمادهم في حروبهم على الفرسان أكثر من اعتمادهم على المشاة (الرَّجّالة) . أما معارك الإسلام الأولى في حياة الرسول ﷺ فنلاحظ أنها لم تكن كذلك . فقد بدأ ظهور الإسلام والمسلمون ضعفاء فقراء قليل عددهم ، قليل المال في أيديهم ، قليلة الخيل عندهم . ففي غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة كان جيش المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً راجلاً لم يكن بينهم سوى فارسين . وفي معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة كان المسلمون سبعمائة فيهم مائــة دارع وفرسين ، لم تزد فرساً عن غزوة بدر . ثم في العام الخامس من الهجرة وقعت غزوة الخندق وكان المسلمون ثلاثة آلاف ولم تتجـــاوز خيلهم ستاً وثلاثين فرساً، هي التي شهدت بني قريظة في أعقاب الخندق . وبعث رسول الله ﷺ ببعض سبايا بني قريظة فبيعت في نجد واشترى بثمنها خيلاً وسلاحاً . أما في مؤتة في العام الثامن من الهجرة فقد بلغ المسلمون ثلاثة آلاف مقاتل، ارتفعوا في غزوة تبوك في العـــام التاسع للهجرة الى ثلاثين ألفاً ، فيهم عشرة آلاف فارس . ولا شك أن هذا الرقم يعد طفرة بالنسبة لما سبق . وغني عن الذكر أنه في الفترة موضوع بحثنا كان كل من دخل الإسلام هو في صفوف جنود المسلمين ، فعدد جيش المسلمين يومئـــذ هو عدد المسلمين من الرجال البالغين

الصالحين للقتال جميعاً . هذا وقد بلغ جيش المسلمين على عهد عمر بن الخطاب أكثر من مائة وخمسين ألفاً ، أنشأ لهم ديوان الجند في العام الخامس عشر من الهجرة ليقوم بتسجيل أسمائهم وأعطياتهم وتموينهم وعائلاتهم .

وقبل ذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من اتخذ بيت المال فكان يشتري من موارد ذلك البيت الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله .

ولما كان الإسلام ديناً يتناول جميع شؤون الحياة فليس شاذاً أن نجده يتعرض للقتال وأساليبه . فقد حفظ قدر القتال بطريقة الزحف بالصفوف المتراصة وهي التي اتبعها الرسول ﷺ في مواجهاته مع قريش ، ونجد في كتاب الله سورة اسمها : « سورة الصف » وهو الصف للقتال ، نقرأ فيها « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ». وبذلك أقر الإسلام طريقة القتال بالصفوف وحث المسلمين عليها ورغبهم فيها . وروي عن أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » . وعن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم . وهذا تعليم من الله للمؤمنين . وقال : وقوله تعالى « كأنهم بنيان مرصوص » أي ملتصق بعضه ببعض من الصف في القتال . وقال ابن عباس : مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض [١] .

هذا وقد كانوا ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣٥٨ .

ولا يستطيع أن ينزل في ذلك الموضع إلا أهـل البأس والشدة، ولذلك قال المهلهل [1] :

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنـا وأخو الحرب من أطـاق النزولا

ولقد فعل ذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفي والمسلمون في معركة الجسر بالمروحة ، كذلك سنرى شيئاً من ذلك في معركة القادسية .

(١) بلوغ الارب ٢/٧٦ .

الباب الثالث

عدة الحرب

الخيل والفروسية

مجـــد الإسلام الخيل ، وهي عماد طريقة الكر والفر في الحرب . قال ﷺ [١] : « الخيل في نواصيها الخـــير الى يوم القيامة » . واختصها القرآن الكريم بالذكر من كافة اعتدة القتال فقال : « وأعدوا لهم مــا استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون بــه عدو الله [٢] وعدوكم » . وعن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقوله : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » [٣] . وفي الكتاب الكريم سورة اسمها العاديات (من العــدو وهو الجري) والعاديات هي الخيل التي تعدو في الحرب ، وقـــد وصفها القرآن الكريم ورفع شأنها حيث أقسم بها إذا جرت في سبيله فعَدَتْ وضَبَحَتْ (والضبح هو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو [٤]) فقال : « والعاديات ضبحا، فالموريات

---

(١) البخاري ١٢ / ١٣٦ كتاب الجهاد والسير – عن مالك عن نافع عن ابن عمر .

(٢) الانفال ٦٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٥٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٤١ .

قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا » .

ومن عجيب الأمور أن هذه الآيات قد جمعت خواص سلاح الفرسان التي تميز بها حتى عصرنا هذا إذ تقرر الآيات أن العاديات تتميز بخفة الحركة والسرعة (والعاديات) ، وبالضجيج والصوت الذي تحدثه (ضبحا) ، (فالموريات قدحا) يعني اصطكاك حوافرها بالصخر فتقدح منه الشرر. وتقرر صلاحيتها للعمل النهاري، (فالمغيرات صبحا) يعني الإغارة أول النهار وقت الصباح ، وإثارتها للغبار الذي يماثل اليوم قذائف الدخان (فأثرن به نقعا)، واستخدامها في فتح الثغرات في صفوف العدو ودق الإسفين في دفاعاته (فوسطن به جمعا) . وإيراد القرآن لهذه الصفات والمعاني كأنما يقصد به الإشارة الى جوهر السلاح وصفاته وواجباته لا الوقوف عند شكله. فما كانت تقوم به الخيل قديماً وحتى مطلع القرن العشرين تقوم به اليوم الدبابات والمدرعات ذات العجل وذات الجنزير ونصف الجنزير ، وقد تقوم به غداً مركبات أخرى يبتكرها الإنسان . وكلها عاديات .

هذا وقد جعل الإسلام نفل الراجل سهماً ونفل الفارس ثلاثة أسهم، ففي الوقت الذي كان المسلمون يتفانون فيه في الثبات والقتال بالصفوف الزاحفة المتراصة ، طعموا ذلك بالفرسان لتزيدهم قوة الى قوتهم وثباتاً على ثباتهم ، وتوسعوا في ذلك حتى صارت قوتهم الضاربة كلها من الفرسان في فتح المدائن وغيرها من معاركهم، والفرسان هي التي مكنت لهم، بما لها من سرعة وخفة حركة، وبحسن استخدامهم لها ومرانهم عليها، مكنت لهم من النصر ومن كسب معركة إثر أخرى حتى مال توازن القوى في العالم الى صالحهم . وتأرجحت ميادين القتال بين المشاة والفرسان . وقد كاد شارل مارتل — من قياصرة الروم ، توفي ٧٤١ م بعد قرن من بدء الفتح الاسلامي — أن يحول جنود مشاته من الفرنجة الى فرسان لكي يناهض فرسان المسلمين . وفي ٨٥٥ م أخر ببيان نداء الجندية شهرين عن موعده المحدد له، من شهر مارس (آذار) — إله الحرب

عندهم – الى شهر مايو (أيار) ، وأصبحت ساحة مارس (آذار) ساحة مايو (أيار)، وذلك حتى يتسنى له إعداد العلف اللازم لجيش كله من الفرسان [1] . هذا التطور الكبير يقف على قدم المساواة في تطور الحروب مع اختراع البارود والدبابة والغواصة .. الخ .

ولقد جهل العالم القديم حدوة الحصان التي تهبه قدماً راسخة ، والسرج والركاب التي تهب الفارس ثباتاً أعظم . ولكن هذه الأدوات عرفها شرق البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الرابع الميلادي [2] . وكان الركاب قديماً يصنع من الخشب ، فكان الرجل يُضْرَب ركابه فينقطع ، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له مُعْتَمَد ، فكان المهلب بن أبي صفرة (حوالي ٦٠ هـ) أول من أمر بصنع الرُّكب [3] من الحديد .

غير أن استعمال الخيل عند غير العرب له مشاكله الجسيمة . فإن امتلاك دواب الحرب ودوام تجهيزها الكامل شيء كثير الكلفة ، وليس أمام الرئيس الذي يعنيه أن يكون له جيش من الفرسان إلا إحدى اثنتين : إما أن يدعو الإقطاعيين الأغنياء القادرين على تمويل فرسانهم ، وإما أن يهب هو الآخرين الوسائل التي يواجهون بها هذه النفقات ، وموارده بطبيعة الحال ليست بالتي لا تنفد ! ومن هنا فلن يكون جيش الفرسان كبير العدد قط . فضلاً عن ذلك فإن زمن الحملات الحربية لا بد وأن ينحصر في نطاق ثلاثة أشهر على الأكثر هي شهور العلف، وهي من مايو (أيار) الى أوائل أغسطس(آب)، تلك هي فترة الحصاد وجني الكروم . ولذلك لم يكن يدعى الى القتال في الدولة الرومانية إلا من كان يمتلك أربع وحدات من الأرض (١٠–١٥ هكتار) وفوق

---

(١) تاريخ الجيوش ٣٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الكامل للمبرد ٢ / ٢١٩ .

هذا، لم يكن الرجال يجندون إلا من المناطق المجاورة لميدان [1] القتال .

ولذلك لم يكن غريباً أن نجد أن الحصان لم يستعمل في فرنسا مثلاً إلا في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، للتنقل أولاً ثم للقتال بعد [2] ذلك.

أما عن الخيل عند المسلمين الأوائل فلم يكن لها مشكلة . كان الفرَس ملكاً خاصاً لصاحبه ولم يكن ملكاً للدولة ولا للقبيلة . فكان المسلم يتطوع بنفسه وبفرسه ، لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً ، إنما كانوا ينزحون بنسائهم وأثقالهم على إبلهم يجنبون الخيل ويسحبونها من ورائهم ، كما كانوا يتنقلون في ديارهم من شبه الجزيرة ويقنعون بما يصيبون من الغنائم ، إذ كان لهم أربعة أخماس الغنيمة .

فإذا كان الفارس قد نشأ على شظف من العيش ودرج على الكفاف من الحياة ... فكذلك كان فرسه ، لم يكن يشتري له علفاً أو ينتظر له موسم الحصاد أو الكروم، إنما كان يتنقل به في شبه الجزيرة وراء الماء والكلأ الذي ينبت مع سقوط المطر هنا وهناك ... لا تكلفة ولا مشاكل . الحياة عند العربي تنقل وراء الماء ، وحيثما وجد الماء فهناك الكلأ . نعم لقد اقتضت عناية بعضهم بخيله أن يطعمها الحبوب كالشعير وغيره . وبلغت ببعضهم أن كان يسقي خيله لبناً حتى بعد الفطام ، إلا أن عامة خيلهم لم يكن ثمة عناء في إطعامها، فقد كانت الخيل وكل دوابهم تأكل ورق السَّمر (النبق) وورق الشجر عامة، كما كان بعضها يأكل العذرة (وهي القمامة والفضلات) . يروي البخاري في حديث الهجرة : « ... وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة فقال له رسول الله ﷺ : على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي. فقال أبو بكر : وهل

---

(١) تاريخ الجيوش ٣٧ — ٤٠ .

(٢) تاريخ الجيوش ٥٠ .

ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر»[١].
ويروى أيضاً عن زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ سأله رجل عن اللقطة فقال: « اعرف وكاءها – أو قال وعاءها – ثم عرفها سنة ثم استمتع بها فإن جاء ربها فأدها إليه . قال فضالّة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه – أو قال احمر وجهه – فقال مالك ومالها ! معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر فذرها حتى يلقاها ربها . قال فضالّة الغنم ؟ قال : هي لك أو لأخيك أو للذئب » [٢]. وجاء في تاريخ الطبري[٣] رواية عن أبي سفيان أنه قال في العام الرابع للهجرة « إن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام ترعى فيه الإبل الشجر ونشرب فيه اللبن » .

ولقد كانت الخيل أول الإسلام قليلة نادرة في المدينة ومكة ، لأنهما كانتا حاضرتين ولم تكونا باديتين ولم يكن أهلها بدواً ، كذلك قلّت الخيل في اليمن حيث كثرت الإبل ، في حين كثرت الخيل في نجد من الخليج الى البحر الأحمر . فإذا خرج المسلمون من شبه جزيرتهم الى العراق أو الشام فالكلأ أكثر والمرعى أرتع .

وخيل العرب أجود خيول الدنيا ، وكانت عند العرب أعظم عددهم للحرب وعليها مدار أمرهم ، وبها يجولون في كرهم وفرّهم . وكانوا إذا ساروا لحرب ركبوا الإبل وقادوا الخيل ليريحوها – كما يحدث الآن بالنسبة للدبابات ، فإنها تحمل على عربات حتى ميدان القتال حيث تنزل لتقاتل – فإذا اقترب العرب

(١) البخاري ٢ / ٢١٢ – والخبط الذي يسقط من الشجر بخبطه بالعصا .

(٢) البخاري ١ / ١٨ .

(٣) الطبري ٣ / ٤٢ .

من عدوهم أو أرادوا الغـارة نزلوا عن إبلهم وركبوا [١] الخيل . ونستطيع أن ندرك حمولة الإبل من هذه القصة التي رواها ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبدالعزيز أنه كتب الى حيان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .

وبتتبع تحركات ذلـك العصر التي علمت مسافاتها وجاءت مقترنة بذكر أزمانها، نجد أنها كانت تتم على ظهور الإبل بمعدل يتراوح حوالي خمسة وأربعين كيلو متراً في اليوم . ولقـد اعتبر اليوم الذي هو وحـدة لقياس المسافات ٤٤,٣٥٢ كيلو متراً ، ويبدو أن هـذا المعدل كان لتحركات قوافل التجارة المحملة بالأثقال وما شاكل ذلك، أما تحركات الحملات الحربية فكانت تصل الى خمسين، وربما ستين كيلو [٢] متراً. أما التحرك السريع بالخيل كنقل الأخبار وحمـل الرسائل والغارات الخاطفة فيمكن اعتماد الروايات التي تصل بسرعتها الى مائة أو مائة وعشرة كيلو مترات في اليوم [٣] .

وكان للعرب في تربية خيولهم مزيـداً من العناية في الجاهلية والإسلام ، وكان الرجل يؤثر فرسه على نفسه وأهله وولده فيبيت طاوياً ويشبع فرسه[٤]. ولذلك وقفوا على أحوالها وأوصافها المحمودة والمذمومة ما لم يقف عليه غيرهم، وعلموا من عللها وأمراضها وأدوائها وعلاجها مـا لم يعلمه سواهم . ووصفوا مشيها وعدوها وألوانها ، وسموها بأسماء ناسبت أحوالها، وامتدحوها وبالغوا

---

(١) بلوغ الارب ٢ / ٧٦ .

(٢) قطع خالد بن الوليد ما بين الانبار وعين التمر (حوالي ١٣٠ كيلو متراً) في ثلاثة أيام.

(٣) عـاد المثنى من المدينة الى الحيرة (حوالي ١١٠٠ كيلو متراً) في عشرة أيام . وقطع خالد ما بين الفراض بشمالي العراق الى مكة (حوالي ١٥٠٠ كيلو متراً) في اسبوعين .

(٤) بلوغ الارب ٢ / ٨٢ .

في رعايتها وحفظوا أنسابها . وقد كتب ابن هشام الكلبي كتاباً في نسب الخيل وأخبارها في الجاهلية والإسلام مما يشعرنا بقيمة الفرس عند العربي وحرصه على تسجيل نسبه لتقدير أصالته ، فداحس مثلاً هو الفرس المشهور أيام عبس وذبيان، أبوه ذو العقال وأمه جلوى، والغبراء خالته وأخته لأبيه.. وهكذا . ومن أشهر الشعر العربي وصف امرىء القيس لجواده :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عَلِ

ولكي تتخلص الخيل العربية المقاتلة من الترهل كانوا يعمدون الى الفرس فيجيعونها أياماً لا تعيش إلا على السوائل الخفيفة، حتى إذا خمص بطنها جللوه بالجلال (وهو ما يشد على وسط الدابة) وشدوه على بطنه ثم أخذوا يقدمون له الغذاء يزيدونه قليلا قليلاً حتى يظل خصره دقيقاً ولا يتفلطح كرشه . وكانوا يسمون ذلك تضمير الخيل. وقد ساعد هذا التخفف من اللحم والشحم خيل العرب على أن تكون أسرع عَدْواً من غيرها وأخف حركة من سواها. ولقد عقد رسول الله ﷺ مسابقة بين الخيل المُضَمَّرَة لمسافة طويلة كما عقد سباقاً للخيل التي لم تُضَمَّر لمسافة أقل . وفي هذا تقرير للآثار التي تنشأ عن التضمير . وفي مختار الصحاح : تضمير الفرس أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده الى القوت (وهو ما يقوم به البدن — الكفاف) وذلك في أربعين يوماً وهذه المدة تسمى المضمار . والموضع الذي تُضَمَّر فيه الخيل أيضاً مضمار . وفي القرآن الكريم [1] « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

قال ابن القيم : « الفروسية أربعة أنواع أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها. والثاني الرمي بالقوس. والثالث المطاعنة بالرماح. والرابع المداورة بالسيوف ، فمن استكملها استكمل الفروسية » .

---

(١) سورة الحج ٢٧ .

وقال الشاعر :

ومـا أدرك الأوطار مثلُ مُحَقّقٍ بأجردَ طاوٍ كالعسيب المُشَذَّبِ[1]
وأسمرَ خطّيٍّ وأبيض باترٍ وزَغفٍ دِلاصٍ كالغدير المُثَوَّبِ

وكانت الفرس وسيلة العربي في مطاردة صيده لإشباع جوعه أولاً وللرياضة ثانياً. ولم تكن العرب تعد المال في الجاهلية إلا الخيل والإبل. وقال الجاحظ: « الفرس من طبعه الزهو في المشي [2] ويحب سائسه ويعجبه راكبه، ولا يحب الأولاد ، وهو غيور ويعرف المصيبة » . وكان العربي يتعلم ركوب الخيل منذ صباه .

التدريب على الخيل

قال ابن الهذيل : « أعلم — أرشدك الله — أن أصل الفروسية الثبات ، وأن مبتدأها إنما هو الركوب على العري من الخيل (بدون سرج ولا ركاب). ومن لم يتدرب أولاً على العري لم يستحكم ثبوته في الغالب، بل يكون أبداً قلقاً في سرجه ، لا سيما عند خببه وركضه ، فلا يؤمن سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته هنة ... فمن أراد التفرس على العري فليلبس ثياباً خفافاً مشهرة ويلجم فرسه ويشد عليه جُلّ صوف أو شعر وثيق الحزام واللبب [3] ، فإن

---

(١) أجرد طاو : فرس يطوي المسافات . العسيب : هو سعف النخل شبهه بـه لرفع قوامه ونحافته . أسمر خطى هو الرمح . وأبيض باتر هو السيف . وفي المنجد الزعف : الدرع الواسعة الطويلة . ودلاص : لين براق فهو سهل الحركة يتموج مثل سطح الغدير لا يعوق حركة لابسه .

(٢) قيل إنه سمي خيلاً لاختياله في مشيه .

(٣) موضع القلادة من الصدر . واللبب مـا يشد من سيور السرج في صدر الدابة ليمنع استئخار السرج (المنجد) .

الراكب على الجُل [1] أثبت منـه على المجرد . ويقف عن يسار فرسه عند منكبه ويمسك عنان لجامه بيده اليسرى ، وإن أخذ العرف مع العنان فـلا بأس به . ويثب بسرعة وخفة ، فإذا استوى على ظهره جمع يديه في العنان عند كاهل الفرس (ما بين كتفيه) ونصب ظهره وضغط بفخذيه موضع دفتي السرج من ظهر الفرس ، ويتقدم قليلاً ، فالتقدم أحسن على العري من التأخر، ويمد ركبتيه وساقيه وقدميه الى كتفي الفرس حتى يمكنه أن ينظر الى إبهامي قدميه ، وليكن اعتماده على الضغط بفخذيه ، فبذلك يحوز الثبات . وكل من لزم ركوبه غير ذلك فلا ركوب له ولا [2] ثبات » .

ولا شك أن هـذا التدريب يحتاج الى قوة عضلية ولياقـة بدنية عالية ، كانت دائماً هي سمة الفرسان المسلمين .

قـال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « علموا أولادكم العوم والرمـاية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ، وروّوهم ما يجمل من الشعر [3] » .

---

(١) ما يشد على جسم البعير من قماش .

(٢) الفروسية العربية ٤٧ .

(٣) الكامل للمبرد ١ / ١٢٦ .

أدوات الحرب عند العرب

وهي متعددة . أهمها السيف والرمح والقوس والسهم والدرع ، أما الخيل فقد تقدم ذكرها .

السيف [1]

هو أحسن آلاتهم وأشهرها ذكراً وأقربهـا الى نفوسهم ، ولذلـك كثرت أسماؤه عندهم ولهجوا به في أشعارهم . وأول من عمل الحديد من العرب هو الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة . ولذلك قيل لبني أسد القيون (جمع قين وهو الحدّاد) ، كما قيل لكل حداد هالكي . والأبيض من أسماء السيوف [2] عند العرب .

وكان من أحسن السيوف عند العرب السيوف المَشْرَفية . والمَشْرَفي هو السيف المنسوب إلى مشارف ، وهي على الأرجح مشارف الشام ، وقيل كانت موضعاً باليمن . ومن أحسنها أيضاً السُّرَيجِيَّة نسبة الى سُرَيْج وهو رجل من بني أسد أيضـاً كان حداداً يصنع السيوف . والمهنـد هو السيف صناعة الهند .

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٦٢ و ٣/٣٥٤ .
(٢) مختار الصحاح .

وكان أحسن سيوفهم المصقول الحاد القاطع الرقيق الذي لا ينثني . وكانوا يكرهون السيف الضعيف الذي علاه الصدأ ، وإذا ضرب به لم يقطع . وقد بلغ من اهتمام العرب بالسيف أن وضعوا أسماء لأجزائه المختلفة مثل الذبابة [١] وهي طرفه الذي يضرب به والذؤابة وهي علاقته ، والظُّبَة وهي أيضاً الحد والطرف الذي يضرب [٢] به ، والغرار وهو حد السيف ، والعمود ، والجوهر وهو الفرند يعني الوشي ، وكذلك فعلوا بغمده .

وكانوا لتمكنهم من استخدامه وإلفهم له يقولون عن السيف : إنه يغنى عن غيره ولا يغنى عنه غيره ويعمل به عمل السلاح كله . فكانوا يطعنون به كالرمح ويضربون به كالعمود ويقطعون به كالسكين ويجعلونه سوطاً ومقرعة ويتخذونه جمالاً ووجاهة في الملأ وأنيساً في الوحدة ورفيقاً للسائر. قال ﷺ مشيداً بفضله ومحبباً فيه : « لا تتمنوا لقاء العدو ولكن اذا لقيتموه فاثبتوا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

ولقد بلغ من اعتداد العرب بالسيف أن حفظوا تاريخ المشهور من سيوفهم. مثال ذلك صمصامة عمرو بن معدي كرب الزبيدي . يروي هشام بن محمد الكلبي أن رسول الله ﷺ وجّه خالد بن سعيد الى اليمن فمر برهط عمرو بن معدي كرب الزبيدي من مَذْحج، فأغار عليهم، فسبا امرأة عمرو وعدة من قومه ، فعرض عليه عمرو أن يمن عليهم ويسلموا ففعل فوهب ، له عمرو الصمصامة وقال :

خليل لم أهَبْه مِن قِلاهُ ولكن المواهب للكرام

---

(١) المنجد .

(٢) يقال أصابته ظبة السيف وظبة النصل والمراد به موضع المضرب من السيف – الكامل للمبرد ١/٦٥ .

خليل لم أخُنْه ولم يَخُنْـتي كذلك ما خِلاليَ أو نِدَامي
حَبَوْتُ به كريما من قريش فَسُرَّ به وصين عن اللِّئام

واستشهد خـالد بن سعيد يوم مرج الصُفَّر وفي عنقه الصمصامـة فأخذه معاوية فكان عنده ، ثم نازعه فيه سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية فقضى له به عثمان فلم يزل عنده . فلمـا كان يوم الدار (دار عثمان بن عفان) وضرب مروان على قفاه وضرب سعيد، أخذ الصمصامة منه رجل من جهينة فكان عنده حتى دفعه الى صَيْقَل ليجلوه ، فأنكر الصيقل أن يكون للجهني مثله ، فأتى به مروان بن الحكم وهو والي المدينة ، فسأل الجهني عنه فحدثه حديثه ، فقال أما والله لقد سُلِبت سيفي يوم الدار وسُلب سعيد بن العاصي سيفه . فجـاء سعيد فعرف السيف فأخذه وختم عليه وبعث به الى عمرو بن سعيد الأشدق وهو على مكـة . ومات سعيد فبقي السيف عنـد عمرو بن سعيد، ثم أصيب عمرو بدمشق وانتهب متاعه فأخذ السيف محمد بن سعيد أخو عمرو لأبيـه ، ثم صـار الى يحيى بن سعيد . ثم مات فصار الى عنبسة بن سعيد بن العاصي، ثم الى سعيد بن عمرو بن سعيد، ثم مات فصار الى محمد بن عبد الله بن سعيد . ثم صار الى أبان بن يحيى بن سعيد فحلاّه بحلية ذهب، فكان عند أم ولد له. ثم إن أيوب بن أبي أيوب بن سعيد بن عمرو بن سعيد باعه من الخليفة المهدي بنيف وثمانين ألفاً فرد المهدي حليته عليه . ولما صار الصمصامة الى موسى الهادي أمير المؤمنين أعجب بـه وأمر الشاعر أبا الهول أن ينعته ففعـل، ثم دعى الواثق بصيقل وأمره أن يُسقِنَه فلمـا فعل ذلك تغير[1] . هذا تاريخ سيف أثبتناه كمثال .

وكان العرب يعتقدون أن السيف اذا سل من غمـده دون أن يضرب به أورث الجبن . وهم يعرفون لهذا السلاح خطره فمن عمل به دون دراية ودربة

---

(١) الطبري ٣/٢٦٤ – فتوح البلدان ١٤٢ .

ربما أصاب أذنه أو رجله أو أذن فرسه أو عضده. ولذلك كان للتدريب على استعماله أصول وقواعد . يقول ابن الهذيل في ذلك :

« ومن أراد التعلم بـه والتمرن في الضرب فليعمد الى قصبة رطبـة، أو قضيب رطب، ويثبت أصله في الأرض ويتوثق منه ، ثم يتباعـد عنه ويجعله على يمينه ، ويُجري فرسه ملء فروجه (بأقصى سرعته) ، فإذا دنا منـه سل سيفه بسرعة وحذر وخفة،ونفح به ما يحاذي رأسه من ذلك القضيب أو القصبة (النفح الضرب الى خارج اليمين) ، أو يضرب شزراً بلباقة وخفة (الشزر الضرب عن يمين وشمال) ، يفعل ذلك مراراً يقص في كل طلق منه ما أمكنه الى أن يبقى قدر ذراع ويُدمِن العمل حتى يصير له عادة ويخف عليه العمل به » . ا.هـ .

كذلك قال القدمـاء ، اذا أراد الفارس العمل بالسيف طرّف رجله في ركابه بحسب ما يمكنه اعتماده عليه (يعني لا يدخل رجله كلها في الركاب) ويضرب بالسيف نفحاً وشزراً إلا ما كان قبالة وجهه فيكون حينئذ أشد حذراً على نفسه وفرسه ، ويعتلي يده عند الضرب بـه الى الخارج ليكون آمناً ويجعل مقابله عن يمينه أبداً في كل حال .

والسيف كان سلاح الفارس والراجـل على السواء ، وهو في الراجلـين (المشاة – أو الرَّجَّالة) أكـثر . وكان العرب يجيدون المبارزة بالسيوف ركباناً ومشاة وقعوداً وجثياً على الركب – وقـد ورد ذكر ذلك في قتال القادسية – وهو أسلوب دفاعي في المبارزة، غير أنه مربك جداً لمن لم يألفه ويعجز عن مواجهته ، فهو يمكّن صاحبه من إصابـة خصمه من أسفل بينما يعجز المبارز الواقف أن يصيب المبارز الجاثي. مثل هذا الاسلوب في المبارزة نلحظـه في يومنا هـذا بين المتبارزين بالعصي في لعب التحطيب المشهور في صعيد مصر وريفها .

الرمح

وأجود الرماح عند العرب الآزنيّة – أو اليزنية – نسبة الى ذي يزن الملك . كذلك الرماح الخطيـة نسبة إلى الخط، وهي جزيرة بالبحرين كانت مرفأ لسفن الرماح الواردة من الهند او من جنوب فارس . وقيل كانت قد وقعت إليها سفينة فيها رماح وأرفئت بهـا في السنين المتقدمـة فقيل لتلك الرماح الخطيـة ثم عم كل رمح هذا النسب [١] . وكذلك الرماح الرُدينية نسبة الى امرأة اسمها رُدَيْنَة كانت تعمل الرماح .

والرمح عبارة عن قناة من الخشب ركب فيهـا سنان من الحديـد . قال المتنبي :

كلمـا أنبت الزمان قنـاة ركب المرء في القناة سِنَانا

ويختلف اسم الرمح باختلاف صفته ، فيسمى صَعْدة إذا كانت قناتـه نبتت مستوية دون تسذيب . والعنزة مـا كان أطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زُج كزج الرمح (الزُج الحديدة في أسفل الرمح)، فاذا طالت العنزة شيئاً وفيهـا سنان دقيق فهي نيزك ومطرد . فإذا زاد طولها وفيهـا سنان عريض فهي ألـّةٌ وحربة . ويقال للرمح سمهري إذا كان شديداً ، وصدق اذا كان صلباً . فإذا اجتمع فيه الطول والسنان فهو القناة والرمح . ومن الأسنة نوع يقال له القعضبية نسبة الى قعضب ، وهو رجل قشيري كان يعملها . ومن أحسن الرماح الصلب (المتين) اللـّدْن (المرن) المستقيم الذي إذا هزه صاحبه لم ينثن واذا طعن به لم ينقصف .

قال ساعدة يصف رمحاً :

---

(١) الكامل للمبرد ٧٨/١ .

لَدْنٌ بِهَزِّ الكف، يَعْسِلُ مَتْنُهُ فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ[1]

وأردؤها الرمح الملتوي المعوج المتلم السنان الصلب الخشبة الذي لا لين فيه . قال النبي ﷺ « عليكم بالقنا والقسى فبهما نصر نبيكم وفتح لكم في البلاد » . كما قال « جُعِل رزقي تحت ظل رمحي وجُعِل الذلة والصغار على من خالف أمري[2] » .

والرمح من سلاح الفرسان والمشاة على السواء . وهو في الفرسان أكثر وأنسب من السيف . وشأن كل أدوات الحرب يحتاج استعمال الرمح إلى تعليم ومران ودربة . قال ابن الهذيل فيمن أراد أن يركب جواده ورمحه معه .

« ... أنه يأخذ رمحه بيمينه وعنانه بشماله مع قربوس[3] سرجه ، ويضع زُجَّ رمحه بالأرض ويبعد منها قليلاً ، ويضع صدر قدمه اليسرى في ركابه الأيسر، ثم يعتمد على الرمح ويرفع نفسه على فرسه وينهض وهو يدير الرمح على كساء الفرس إلى الجانب الأيمن حتى يستقل بسرعة ، ثم يضع الرمح في يساره مع العنان ويسوي ثيابه وآلته بيمينه ، ثم ينقل رمحه إلى يمينه . ولا ينبغي أن يتعرض الرجل لأخذ رمحه من الأرض وهو راكب فربما وطئه الفرس فكسره أو ضربه فأبعده عنه . وحين ينزل بالرمح يأخذه بيساره ويضع زجه بالأرض عند يد فرسه اليسرى ويأخذ القربوس بيده اليمنى ثم ينزل . وحين يصير إلى الأرض يأخذ رمحه بيمينه بسرعة لئلا يدور عليه الفرس فيحطمه أو يصيب الأرض بسنانه أو يصيب أحداً .

---

(١) الكامل للمبرد ١٧٦/١ . وقال: يقال مر الذئب وهو يَعسلُ اذا مشى خفيفاً كالهرولة .

(٢) البخاري .

(٣) قربوس السرج: هو حنوه أي قسمه المقوس من قدام المقعد ومن مؤخره فهما قربوسان — المنجد .

وللتدريب على العمل بالرمح يغرز الفارس عوداً أو شبهه قائماً بالأرض قدر ارتفاع الفارس ويتوثق من أسفله ويشد في أعلاه حلقة أو حبلاً ملتوياً يشبه الحلقة ، ثم يتباعد عنه ويجري فرسه بأقصى سرعته فإذا قرب من ذلك العود تأبط رمحه وأخرج منه عن إبطه بقدر ما يخف عليه حمله وتحتمله قوته [لأن للرمح مع طوله ثقل] ثم يأخذ سنانه تلك الحلقة ثم يلوي رمحه بسرعة ليخلص السنان من الحلقة [1] » .

وقد وردت روايات تفيد استخدام المشاة للرمح وقوفاً وجثياً على الركب ، شأن استعمال السيف . خطب عمرو بن العاص [2] جنوده يوم اليرموك فقال : « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فامهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثبة الأسد ... »

القوس

وأجودها القسي العصفورية نسبة إلى رجـــل اسمه عصفور . والقسي الماسخية نسبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة . وكان لهم علم بالرمي بالنبال أخذوه بالمزاولة والممارسة . وقد وردت روايات كثيرة تفيد أن من المسلمين من حذق الرمي بالسهام إلى درجة تفوق مهـــارة القناصة بالبنادق اليوم . وكان سعد بن أبي وقاص يستطيع أن يصيب حمامة بعينها من سرب حمـام بري يطير في سماء مكة . وفي فتح الأنبار حاصر المسلمون حصنها وكان أهلها يرمون المسلمين من أعلى الحصن فأمر خالد رمـاته أن يرشقوهم بالسهام وأن يتوخوا العيون، فأصابوا يومها ألف عين حتى سميت تلك الموقعة ذات العيون. وقد كتب أقوام في علم الرمي بالقوس رسائل كثيرة بينوا فيها كيف يقف

---

(١) الفروسية العربية ٤٣ .
(٢) عبقرية خالد ١٦٧ .

الرامي وكيف يمسك القوس وحال الرامي قرباً وبعداً وارتفاعاً وانخفاضاً وبيان أحوال السهام وبري النبال وغير ذلك . قال ﷺ : « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي، ألا ان القوة الرمي » . وروى بكر بن عبدالله الانصاري عن النبي ﷺ أنه قال : « علموا أبناءكم السباحة والرماية . ونِعْم لَهْوُ المؤمنة في بيتها المِغْزَل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك [1]» .

وكانت [2] العرب تتخذ القسيّ من شجر الضّال والنبع والشّوْحَط والسدر والشِّرْيان والسراء والتين والأشكل والحماط والتالب والنشم .

وقد وضعوا للقوس ولأجزائها أسماء كثيرة فقالوا : القوس ، وكبدها ما بين طرفي العلاقة (وهو وسطها) ، والكُلْيَة تلي ذلك ، ثم الأبهر يلي الكلية ، ثم الطائف وهما طائفان الأعلى والأسفل ، والسِّية وهي ما عُطِفَ (إلتَوَى) من طرفيها ، ويدها أعلاها ورجلها أسفلها ، والعَجْس (أو المِعْجَس) مقبضها ، وإنسيها ما أقبل على الرامي (الوجه المقعر منها) ، ووحشيها ما كان جهة الهدف (الوجه المحدب منها) ، والفرض والفرضة الحزة التي يقع فيها طرف الوتر المعقود، وما فوق الفرضة الظفر. والكُظْرَة والنعل العقبة التي تلبس في ظهر السية ، والجلائز العقب [3] على طائفيها وأصول سئتيها ، والخِلَل الجلود التي على ظهر السئتين ، والمذروان ما عن يمين المقبض وشماله ، والرصائع السيور المضفورة تشد اليها العلاقة ، وهي التي علقت به، والغِفَارة رقعة على الفرضة والسية ليلف فوقها إطنابة الوتر، وهي

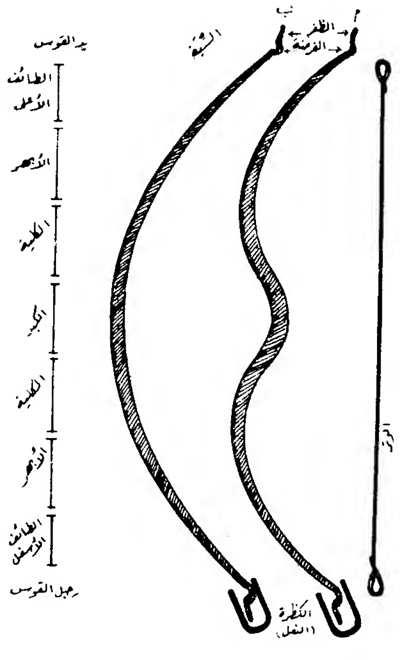
---

(١) اسد الغابة ٤٨٨ – اخرجه ابن منده وأبو موسى .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٣/٣٥٥ .

(٣) العقب هو العصب الذي تصنع منه الاوتار – المنجد .

سير يوصل بطرف الوتر . والشِّرعة الوتر . والدِّرْكة حلقة الوتر التي تقع في الفرضة [١] .



(شكل ١ — القوس)

الكظرة تلف بشرائط من الجلد على طرفي القوس حتى لا يخرج الوتر عن الفرضة

والعَتل القسي الفارسية . وقوس فِلْق وشريجة إذا كانت من شقة لا من غصن صحيح . والقضيب التي من غصن صحيح . وقوس فجَّاء وفجواء وفارج إذا بعد وترها عن كبدها وتكون بالتي للقتال لا للصيد (شكل ١ — ب) أما التي اقترب كبدها من وترها فهي التي للصيد (شكل ١ — أ) . والكتوم التي ليس بها شق . ويقال نزعت في القوس أي رميت بها ، والنزع هو الرمي ، يقال رجل شديد النزع يعني بعيد مدى الرمي . وعروتا الوتر عقداه . وكلما كانت القوس لينة مرنة كلما كانت أشد نزعاً . وتلين القوس كلما زادت كمية الرطوبة فيها وتيبس بقلَّتها . ولذلك كانوا يتركونها بعد قطعها من شجرها في الظل لتتشرب ماء اللحاء . قال الشماخ بن ضرار [٢] :

فَظَّعَها حولين ماءَ لِحائِها　　　ويَنْظُرُ منها أيها هو غامِزُ

(١) بلوغ الارب ٣/٣٥٦ .

(٢) الكامل للمبرد ١/٣٥ — وقال : يقال : تمظع الرجل الظل ، اذا تحول من مكان الى مكان [فيه] .

مظعها أي شرّبها ، فقوله مظعهـا حولين أي تركها حولين حتى تشرب ماء اللحاء ، وقالت الخنساء تشكو شيخوختها[1] :

لقد قُصمَتْ مني قناة صليبةٌ ويُقصَمُ عود النبـع وهو صَليبُ

والإصابة [2] بالسهام على سبع درجات من حيث شدتها وقوتهـا . ذكر الإمام الشافعي رضي الله عنه أربعاً منها — وقد كان الإمام الشافعي راميـاً يرمي عشرة أسهم في عشرة أهداف فما يخطىء — وهي:

١ — الخاصل وهو الذي يقرع القربة ولا يخدشها .

٢ — الخازق وهو الذي يخدشها ولا يثقبها .

٣ — الخاسق وهو الذي يثقبها ويثبت فيها .

٤ — الحابي وهو أن يدني الرامي يده من الأرض فيرميه فيمر على وجـه الأرض كأنه يحبو فيصيب الهدف .

وأضاف أصحاب الشافعي ثلاثاً أخر وهي :

٥ — المارق وهو الذي يمرق في القربة ويثقبها وينفذ فيها .

٦ — الخارم وهو الذي يخرم طرف القربة أي يقطعها .

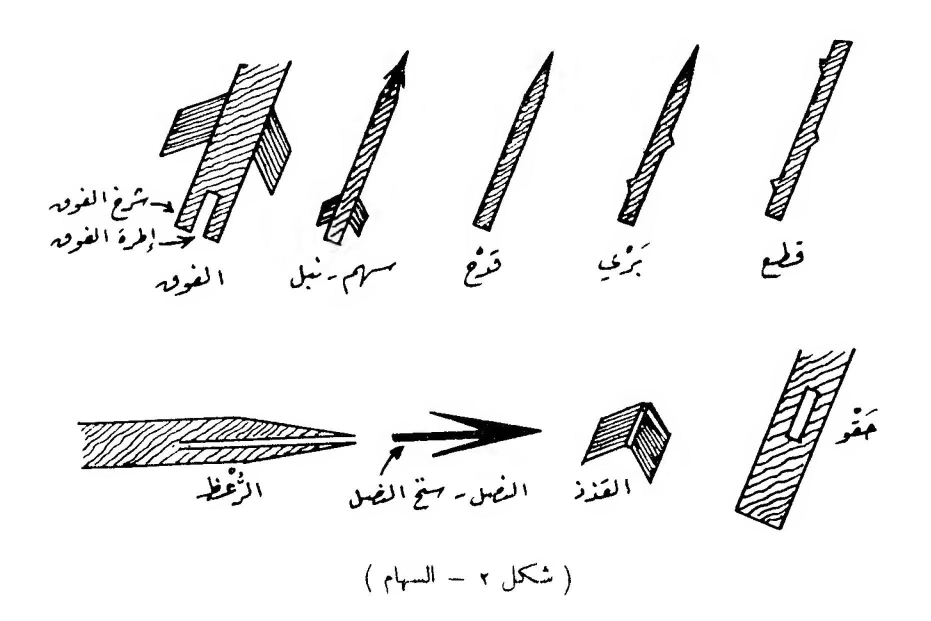
٧ — المزدلف وهو الذي يسقط بقرب الهدف ثم يشتن (يزدلف) فيصيب الهدف. ويحدث مثل هذا اليوم في ضرب النار ويقال له « اكسترما » .

---

(١) الخنساء ١١٠ .

(٢) بلوغ الارب ٣/٣٥٤ .

والسهم هو الذي يرمى به القوس . وأول ما يقطع العود ويقتضب يسمى قطعاً . ثم يبرى فيسمى بَرْياً وذلك قبل أن يقوّم . فإذا قُوّم وصار صالحاً أن يُراش (يوضع في مؤخره الريش) وأن يُنصَل (يوضع في مقدمه النصل) فهو القدح . فإذا ركب له الريش والنصل صار سهماً [١] ونبلاً .



(شكل ٢ — السهام)

وأجود السهام كانت سهام بِلاَد ، وسهام يثرب وهما قريتان من قرى اليمامة . ويقال للسهم أيضاً النبل والنشّاب ، أما المريخ فسهم طويل له أربعة آذان يُغالى به . وكان نوع من السهام عريض النصل اسمه المِعبَلة

---

(١) بلوغ الارب ٣/٣٥٧ .

والمِشقَص . وقيـــل المعبلة [١] واحدة المعابل وهي سهم خفيف . وخشب السهم قبل أن يعمل اسمه َنضيّ (وجمعه أنضاء) ، فإذا خرق موضع نصله فهو ِقدْح . ويقال ُفوِّق السهم اذا جعل له ُفوق وهو برد طرفه من موضع الوتر ، وشرخا الفوق جانبـــاه ، والأطـْرَة العَقب الذي على الفوق . والحَقـْو موضع الريش ومستدقـــه ، والزافرة مستغلظه ، والمتن وسطه ، والرُّعْـظ هو الخرق الذي يدخل فيه سنخ النصل ، ويقال ارتدع السهم إذا رجع النصـــل متأخراً في [٢] السِّنخ . والقذذ ريش السهم ، والأقذ السهم الذي لا ريش له ، والمُرَيَّش الذي له ريش ، ونصل السهم حديدتـــه ، والكـُليتان عن يمينه وشماله . وكان الهدف يسمى قرطاساً .

روى البلاذري [٣] عن أبي رجاء الفارسي عن أبيـــه عن جده قال : « حضرت وقعة القادسية وأنا مجوسي ، فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول ُدوك ُدوك ، نعني مغازل ، فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا . لقد كان الرجل منا يرمي عن القوس «الناوكيّة»فما يزيد سهمها على أن يتعلق بثوب أحدهم ، ولقد كانت النبـلة من نبالهم تهتك الدرع الحصينة والجوشن المضاعف مما علينا » .

وكان للسهام سوق في المسجد حيث يجتمع الناس. عن جابر [٤] أنه قال : « مر رجل في المسجد ومعه سهام فقال له رسول الله ﷺ أمسك بنصالها » .

والكنانة ، والجعبة ، والوفضة ، محفظة النبال . ومنها الكنائن الزُّغـَرية

---

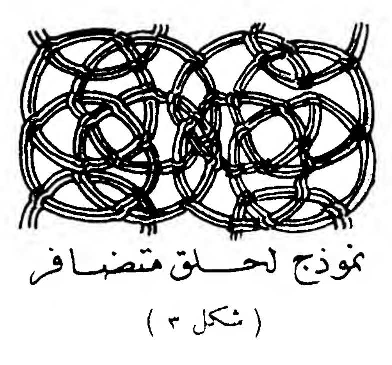
(١) الكامل المبرد ١/١٦٥ .
(٢) الكامل المبرد ١/١٩ .
(٣) فتوح البلدان ٣١٨ .
(٤) البخاري ١/٥٩ .

نسبة إلى زُغَـر موضع بالشام كانت تصنع بـــه كنائن حمر مذهبة لامعة . والقرن والجفير جعبة مشقوقة في جنبها لتهوية السهام حتى لا يتآكل ريشها .

الدرع

هو القميص المتخذ من الزَّرَد – أو السَّرْد – وتنسب إلى فرعون مصر فيقال فرعونية . كما تنسب الى داود وسليمان عليهما السلام . كذلك تنسب الى الحطم بن محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن عبد قيس بن أفصى ، أو إلى حُطم أحد بني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبـــة فيقال : « الحـُطمية » . والدرع السلوقية نسبة الى سلوق ، قرية باليمن . وقد لبس رسول الله ﷺ الدرع في الحروب ، وكان له درع اسمهـا البتراء كانت على الحسين يوم قتـل ، وكان على سعد بن معاذ يوم الأحزاب درع من حديـد مقلصة خرجت منها ذراعه كلها .

والدروع نوعان: نوع عبارة عن صفائح صلبة من حديد تثبت بالقميص فتبدو كفلوس السمك. ومن دروع الصفائح نوع صفائحه كبيرة وتتحرك مـع المفاصل بمفصلات . ونـوع من الحلق المتضافر المتداخل بعضه في بعض


نموذج لحـلق متضـافر
(شكل ٣)

بحيث يصد السيف والسهم والرمح فلا تنفذ منه . وكلما كان الدرع أقوى واستعصى خرقه أو النفوذ فيه ، وكلما خف وزنه مع هـذا كلما كان أفضل وأجود . ولذلك يعتبر الدرع المزرود من الحلق المتضافر أفضل من درع الصفائح . ومن دروع الحلق ما كان حلقه مزدوجاً زيادة في قوته ، يقال له التـُّؤام جمع توأم.

قال أوس [١] بن علفاء الهجيمي :

أعان على مراس الحرب زَغْـفٌ ... مُضاعَفةٌ لهـا حَلَـقٌ تُؤامُ
ومُطـَّرِدُ الكعوبِ ومَشْـرَفيٌّ ... من الأولى مَضارِبُـه حُسامُ
ومُرْكِضَةٌ صَريحيٌّ أبوهـا ... يُهان لهـا الغلامـةُ والغلامُ

وقد كان داود عليه السلام أول من صنع الدرع من الحلق المتضافر، وفي القرآن الكريم « ولقد آتينا داود منا فضلاً ، يا جبالُ أوِّبي معه والطيرَ وألَـنّـا له الحديد، أن اعمَل سابغات وقدِّر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريح غدوُّها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القِطـْر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزِغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داودَ شكراً وقليل من عباديَ الشكور [٢] » .

قيل [٣] كان داود لا يحتاج أن يدخل الحديد النار، ولا أن يضربه بمطرقة بل كان يفتلـه بيده مثل الخيوط ، ومثل هـذا القول لا يتأتى عن فهم واستنتاج وإنما يلزمه الرواية والنقل وهو ما لم يقدمه من قال به فضلاً عن أن الآيات لا تفيده . وقيل كان داود يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم . وقوله : « وقدِّر في السرد » أي احسب ما يلزم فـلا ترقق الحلق

---

(١) دولة النساء لعبد الرحمن البرقوقي، زغف: درع محكمة ، مطرد الكعوب : يعني الرمح ، والمشرفي : السيف ، ومركضة : الفرس تركض .

(٢) سورة سبأ ١٠ – ١٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٧ .

فينكسر ولا تغلظه فيثقل دون داع ، وإنما اجعله بقدر . والسرد هو حلق الحديد ، فيقـال درع مسرودة إذا كانت من الحلق . ومن الواضح أن عصر داود وسليمان قد صاحبته نهضـة صناعية خارقـة سخرت فيها الجن فأقامت لسليمان المحاريب، وهي البناء الحسن، وقيل هي بنيان دون القصور. وأقاموا له جفاناً (جمع جفنة) كالجواب (جمع جابية) وهو الحوض الذي يجبى فيه الماء . والقدور الراسيات:الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول لِعَظمها، وهذا وذاك ممـا يلزم الصناعة وصهر المعادن والمسبوكات ، كما أسيلت له عين القطر ، والقطر هو النحاس المنصهر . وأي صناعة لا تقوم على حديد لان في يد الصانع يشكله كيف شاء، ونحاس منصهر يصنع به ما يريد.

والدروع هي المقصود الثاني في الآية « وجعل لكم سرابيل تقيكم [١] الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يُتم نعمته عليكم لعلكم تُسلِمون » .

ادوات اخرى

ومن آلة الحرب أيضـاً البيضة، وهي ما يلبس في الرأس مثل الخوذة من الحديد . والمِغفر وهو : زَرَدٌ ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة . ومنها المِجَن [٢] ، والتُرْس ، والدَّرَقة ، وهي ثلاثة أسماء لمسمى واحد ، وهو ما يعمل من بعض الجلود بلا خشب ولا ظهر يتقون به وقع السيوف على أبدانهم ، ويحملونها على أذرعهم .

ومنها المنجنيق وهي آلة لرمي الحجارة، والعَرّادات أصغر من المنجنيق.

---

(١) سورة النحل ٨١ .

(٢) مختار الصحاح – وفي حديث مرسل أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقطع إلا في ثمن المجن . وكان ثمن المجن يومئذ ديناراً – أسد الغابة ٣٥٣ .

وهما من آلات حصار الحصون . وقد نصب رسول ﷺ منجنيقاً على أهل الطائف، ونصب سعد بن أبي وقاص عشرين منجنيقاً على أسوار بهرسير .

ومنها الدبابات وهي عربة كانت تصنع من الخشب المكسو بالجلد يدخلها الرجال ويقتربون بهـا من جدران الحصون حتى تلتصق بها لينقبوها ، وهي تحميهم من سهام عدوهم وحجارتهم وزيتهم المغلي ونيرانهم ، وكانت أحياناً لا تفي بتوفير الدفاع ضد جميع هذه الأنواع من المقاومة والأساليب المضادة . ولم يكن العرب يصنعونها ولكن حدث أن اشتروهـا من الشام . يروي[1] المقريزي في حصار الطائف أن النبي ﷺ أرسل إلى جرش [2] وهي مدينة كانت في أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق، في عمـل الدبابات والمنجنيق وكانت تصنعها . وسميت كذلك لأنها كانت تدب دبيباً . ويروي أيضاً أن المسلمين دخلوا تحت دبابتين وزحفوا بها إلى جدار حصن الطائف ليحفروه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فحرقت الدبابتين وكانتا من جلود البقر ، فأصيب من المسلمين جماعة وخرج من بقي تحتها فقتلوا بالنبل .

الرايات والاعلام

كان اللواء –وهو العَلَم– في الأصل يمسكه رئيس الجيش، ثم صار يحمل على رأسه [3] ، يحمله عنه غيره حتى يتفرغ هو للنظر إلى المعركة . واللواء غير الراية ، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، أما الراية فهي ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح . فاللواء دون الراية وهو علامة لمحل

---

(١) امتاع الأسماع وهامشه ٣٦٦ و ٤١٧ .

(٢) هي الآن من أعمال شرقي الاردن الى الشمال من عمان بحوالي ٣٠ كيلومتراً .

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٦٧/٢ .

الأمير يدور معه حيث دار ، وقد يكون لأمراء وحدات أصغر من القائد العام . والراية يتولاها صاحب الحرب . وكان من عادة العرب اتخاذ اللواء في حروبهم . وفي فتح خيبر فرّق رسول الله ﷺ الرايات . ولم تكن راية قبل خيبر إنما كانت ألوية . فكانت راية النبي ﷺ سوداء تدعى العُقاب (النسر) من بُرْد (رداء) للسيدة عائشة رضي الله عنها ، وكان لواؤه أبيض . ودفع راية إلى علي بن أبي طالب ، وراية الى الحباب بن المنذر وراية الى سعد بن عبادة [1] . ولما رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع في غزوة تبوك عام ٩ هـ عقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر رضي الله عنه ورايته العظمى الى الزبير بن العوام، وراية الأوس الى أسيد بن الحضير ولواء الخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء أو راية [2] . كما عقد في يوم حنين ويوم الفتح لعمه العباس راية سوداء [3] .

وكانت عناية الفرس بالرايات والأعلام أعظم بكثير جداً من عناية العرب بها في الجاهلية أو في الإسلام. ففي حين لم تكن عند المسلمين سوى شيء — أي شيء — يرفع كعلامة تدل على مكان الأمير واتجاهه إذا تحرك ليتجمع حوله قومه، كانت عند الفرس مظهراً من المظاهر، انعكست عليها كل أبهة المُلك وفخفخة الدولة. فكانوا يصنعونها من الحرير الزاهي الألوان الكثير الرسم والشعارات .

كان من راياتهم وشاراتهم الحربية راية من النسيج شريطية الشكل، طويلة

---

(١) امتاع الاسماع ٣١٣ .

(٢) امتاع الاسماع ٤٠٠ .

(٣) صبح الاعشي ٣/٢٧٠ .

ورفيعة ، تشبه الرباط تخفق على عصا . وفي بعض [١] النقوش الخاصة ببهرام الثاني ظهر حامل الراية ممسكاً بقناة ثبت بها عارض من الخشب يعلوه ثلاث كرات ، واحدة على كل من طرفيه والثالثة فوق القناة مباشرة. وكانوا عندما يبدؤون الهجوم يلوحون بعلم ناري اللون . وكان من أعلامهم ما عليه صورة أسد أمسك في مخالبه دبوساً وسيفاً، وهو قريب الشبه بشعار إيران الحديثة ، وعلم آخر أسود اللون عليه صورة ذئب ، وعلم عليه صورة نمر وأعلام أخرى عليها غزال أو خنزير بري أو نسر ملكي أو تنين له سبعة رؤوس متقابلة ، وعلم عليه صورة حمار وحشي وآخر عليه صورة ثور ، وعلم له أهداب عليه صورة قمر بلون أرجواني .

أما علم الدولة وراية فارس الكبرى، فهي العلم الملكي الساساني المشهور في التاريخ، المعروف[٢] بـ « دِرَفْش كابيان » أو « دِرَفْش كاوْيان ».وتقول بعض الأساطير القديمة أنه كان من فوطة حداد يدعى كاوه، كان قد بدأ يثير الناس على الملك الظالم الغاصب الضحاك الذي حكم الدنيا ألف عام ، فرفع كاوه الجلد الذي يأتزر به على رمح ودعا الناس لعزل الضحاك وانتهت الثورة بسقوط الجبار واعتلاء أفريدون عرش الدولة القديمة . فدرفش كابيان معناه علم كاوه ، وقيل بل معناه العلم الملكي . وما وصلنا من أوصافها يرجع إلى آخر العهد الساساني – عهد الفتح الإسلامي . وقد وصف هذا العلم كثير من الكتاب الفرس والرواة العرب، كما رآه الفاتحون في القادسية، قال الطبري: « إنه راية كسرى وكانت من جلود النمر عرض ثمانية أذرع في طول اثني عشر ذراعاً [حوالي ٤ × ٦ متر] » . ويقول البلعمي: «إن الفرس وقد ظفروا في

---

(١) إيران تحت حكم الساسانيين ٢٠٠ .

(٢) ايران تحت حكم الساسانيين ٤٨٣ .

جميع المعارك التي رفرف عليها هـــذا العلم أضافوا إلى زينته بعض الجواهر عقب كل انتصار . وكان موشىً بقطع الذهب والفضة والجواهر واللآلىء » .
وأضاف المسعودي الى وصف الطبري: «انه على خُشُب طوال موصّلة، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر». وقال الخوارزمي: « إنه كان من جلد دب وقيل من جلد أسد . وكان يتيمن به ملوك الفرس ، فغشوه بالذهب ورصعوه بالجواهر الثمينة». وقال الثعالبي: «إنهم كانوا يتبركون بها ويتنازعون الزيادة فيها والمغالاة بجواهرها ويتنافسون في محاسنها، حتى صارت على امتداد الأيام يتيمة الدهر وكريمة العمر وبكر الفلك ونكتة الحقب، فكانوا يقدمونها بين أيديهم في الحروب ولا يؤثرون بها إلا السالار [الرئيس] المقدم والرئيس المعظم من قوادهم وأصحاب جيوشهم . ثم إذا قضوا منها أوطارهم ردوها الى خازنها المحتاط عليها ».

ويقول مطهر بن طاهر المقدسي: انه كان أولاً من جلد الماعز أو الأسد فجعله الفرس من الذهب والديباج . إن درفش كابيان والتاج كانا من شعائر الملك، وكان يوضع حين الحرب بجانب تخت الملك، وكان هذا يعين خمسة من الموابذة [كبار رجال الدين] ليحملوه أمام الجيش وهو يسير للقتال . وكان يعطى أثناء المعركة لأكفأ أبطال الملك. ويقول ابن خلدون: « إن هذه الراية قد طرز عليها طلسم أعد على حساب النجوم». ويقول الفردوسي :« إن علم الملك كان عليه صورة الشمس بلون بنفسجي ومن فوقها قمر مذهب». ويقول المسعودي:«إنها وقعت يوم القادسية في يد ضرار بن الخطاب فعوض عنهـــا بثلاثين ألف درهم وكانت قيمتها ألفي ألف ومائتي ألف (٢,٢٠٠,٠٠٠ ، وفي موضع آخر قال ألفي ألف دينار ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار)» . أما الثعالبي فيقول :«إنها وقعت بيد رجل من النخع فضمها سعد بن أبي وقاص الى جملة ما

أفاء الله على المسلمين من روائع يزدجرد ونفائس جواهره وحملها مع التيجان والمناطق والأطواق المرصعة وغيرها الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر بحلها وفتقها وقسمها بين المسلمين » .

وهذا الخلاف في الرواية عن من سقطت في يده درفش كابيان بالإضافة الى هذا المصير الذي صارت اليه أشهر راية في التاريخ ، ينم عن مـــدى اهتمام المسلمين الأوائل بهذه المظـــاهر . كان الفرس في واد وكان المسلمون في واد جد بعيد .

ركوب البحر عند العرب

تحيط البحار بالجزيرة العربية من شرقهـا وجنوبها وغربها ، وقد يتبادر إلى الذهن أن يتيح هذا للعرب أن يكونوا أمة بحرية . ولكننا إذا نظرنا الى الواقع وجـــدنا أن الشاطىء الغربي لجزيرة العرب الواقع على البحر الأحمر تحرسه من الشمال إلى الجنوب شعاب مرجانية غاطسة تشكل أكبر الخطر على الملاحة ، فضـــلاً عن أن سكان تلك الجهات لم يتصلوا بجيرانهم من الروم والأحباش اتصال صناعة ، ولم نقف قط على أنه كانت هناك صلات بحرية بين العرب والروم ، وإنما كانت تجارة قريش تسلك المسالك البرية فحسب، حتى أنه حين هاجر بعض المسلمين الى الحبشة ــ إبان الاضطهاد الوثني في بدء ظهور الإسلام وعبروا البحر في هجرتهم تلك ــ كان ذلك حدثاً في تلك البيئة، حتى عرفوا بأصحاب السفينة . غير أن الاتصالات بين اليمن والحبشة تقطع بوجود الملاحة في تلك الجهات الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة . أمـــا اذا سرحنا بأبصارنا تجاه الشرق وجدنا الخليج العربي « بحر فارس » وكان للفرس فيـه ملاحة، ولسفن الهند والسند [هي اليوم باكستان الغربية] والصين غدو ورواح نحو الأبلة، بل وكانت تدخل في دجلة وفي الفرات حتى الحيرة، فكان من الطبيعي أن نجد عرب تلك التخوم قـــد عرفوا ركوب البحر وذكروه في شعرهم

وقصيدهم . وفي معلقة عمرو بن كلثوم – وكان من ربيعة – قوله في الفخر :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   ونحن البحر نملؤه سفينا

وفي القرآن الكريم ترداد لذكر ركوب البحر من مثل قوله: « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً »[١]. وقوله: « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»[٢].وقد عرفوا السفن الشراعية والسفن بالمجاديف[٣] ، ولم يعرف الملاحة النهرية منهم إلا الذين نزلوا العراق .

---

(١) سورة الإسراء ٦٦ .

(٢) سورة الإسراء ٧٠ .

(٣) بلوغ الارب ٣/٣٦٦ .

مصادر السلاح للعرب

من أين للعرب بهذا السلاح المتنوع ، ولم يكونوا أمة صناعية بل لقد كانوا يحتقرونها على ما ذكر ابن خلدون ؟ فمن أين لهم بهذه الأنواع المتعددة ؟

ذكرنا فيما سبق أن بعض العرب كان يصنع سلاحاً مثل الرماح الردينية والقسي الماسخية ومثل السيوف الهالكية ، غير أنه وبدون شك كان ذلك قليلاً جداً لا يفي بحاجة قبائل العرب في شبه الجزيرة . ومن المعلوم أن العرب كانت لهم تجاراتهم مع جيرانهم، مع اليمن والحبشة ومع الحيرة وفارس ومع الشام . وكانت لقريش[1] بصفة خاصة رحلتان تألفها وترجع آمنة في أسفارها لتعظيم سائر العرب لها ، ذكرهما القرآن الكريم في سورة قريش فقال : « لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . كانت رحلة الشتاء الى اليمن فتعود بمصنوعات اليمن وحاصلاتها وما انتقل الى اليمن من الحبشة أو الهند أو فارس . وكانت رحلة الصيف الى الشام والى الحيرة بالعراق فتأتي بمنتجات الشام ودولة الروم ، كما تأتي بمنتجات الحيرة وما انتقل اليها من فارس والهند والصين . كذلك كانت تنقل بضائع هذه الأسواق الى بعض .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٥٥٣ .

وبطبيعة الحال كان السلاح مما ينتقل الى شبه الجزيرة فيما ينتقل إليها من جميع هذه الأسواق مما يحتاج اليه العرب. يعني السلاح الرومي والسلاح الفارسي والهندي والحبشي . وهذا مصدر ثان.

كذلك كان اليهود الذين سكنوا شبه الجزيرة في المدينة وفي خيبر أهل صناعة يجيدون الصياغة والسبك بصفة خاصة. كانوا صاغة يسبكون الحلي من الذهب فينتقل إليهم عرب شبه الجزيرة يشترون الحلي لنسائهم ... كما كانوا يسبكون السلاح ولا سيما السيوف والدروع يبيعونها لمختلف القبائل العربية ليتقاتلوا ويقتل بعضهم بعضاً حتى يتسنى لهم هم العيش الآمن خلف حصونهم ، شأن تجار الحروب في كل زمان ومكان . وما زال ذلك دأبهم الى يومنا هذا، وقد برع اليهود في هذه الصناعة التي ظلت تنتقل إليهم جيلاً بعد جيل منذ كان داود وسليمان عليهما السلام .

نستطيع إذاً أن نقرر أن السلاح الذي كان في أيدي العرب قبل الإسلام وصدره حتى بدأت حركة الفتوح عام ١٢ هـ قد انتقل إليهم من كافة هذه المصادر . كان لديهم سلاح قليل صنعوه ، وكان لديهم سلاح من الحبشة ومن الهند وسلاح من فارس ومن الشام . ونستطيع أن ندرك أن السلاح الفارسي أو الرومي لم يكن هو السلاح الرسمي – الميري – الذي كان يتسلح به جيش الفرس أو جيش الروم ، وإنما هي أنواع أخرى من الصناعة الشعبية – كذلك كان لدى العرب سلاح يهودي صنعه يهود شبه الجزيرة وباعوه الى العرب أو وقع في أيدي المسلمين كغنيمة حرب . فقد نتج عن غزوة بني النضير في العام الرابع الهجري أن جلوا عن المدينة ولهم ما حملت الإبل إلا الحلْقة [يعني السلاح] فغنم المسلمون منهم خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً [1] . كما غنم المسلمون من بني قينقاع ٥٣٠٠ قطعة سلاح ، منها ٢٥٠٠

---

(١) امتاع الاسماع ١٨٠ – ١٨٣ .

سيف و٣٠٠ درع و ٢٠٠٠ رمح و١٥٠٠ ترس وحَجَفة ، وبعث رسول الله ﷺ بطائفة من سباياهم الى الشام لبيعهم وشراء سلاح [١] وخيل بثمنهم . وفي فتح خيبر في العام السابع الهجري غنم المسلمون من حصن الصعب آلة الحرب ومنجنيقاً ودبابات كما وجدوا في أرض خيبر ٥٠٠ قوس عربية و ١٠٠ درع و٤٠٠ سيف و١٠٠٠ [٢] رمح . وفي العام التاسع للهجرة فتح خالد بن الوليد دومة الجندل بأمر رسول الله ﷺ – وهذه لم يكن أهلها يهوداً – وصالح أكيدر بن عبد الملك صاحب حصنها على أشياء منها: ٤٠٠ درع و٤٠٠ رمح و٢٠٠٠ بعير و٨٠٠ رأس [٣] . أما بعد الانتصارات الأولى للمسلمين في فتوحهم فمما لا ريب فيه أنهم غنموا سلاحاً فارسياً ورومياً .

كان سلاح المسلمين إذاً متعدد الماركات، متنوع الشكل والجودة وجهة الصنع . كان في يد كل منهم ما تسنى له الحصول عليه شراء أو مغنماً أو صنعاً . وهذا يفسر لنا إطلاق أسماء على قطع السلاح ، فمثلاً كان الرسول ﷺ سيفه العَضْب[٤] الذي شهد به بدرا . وغنم في بدر سيفه[٥] ذا الفِقار. وأصاب من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف ، القَلَعي والبتار والحتف ، وكان عنده بعد ذلك المِخزَم ورسوب أصابهما من القلس [٦] . كما أصاب من بني قينقاع ثلاثة رماح وثلاثة قسي هي : الروحاء وقوسا شَوحَط [من شجر

---

(١) امتاع الاسماع ٢٤٥–٢٥٢ .

(٢) امتاع الاسماع ٣١٣ .

(٣) امتاع الاسماع ٤٦٥ .

(٤) العضب في اللغة هو القاطع – الكامل للمبرد ٢٦/١ .

(٥) امتاع الاسماع ٩٥ .

(٦) الطبري ١٨٥/٣ .

الشوحط] تدعى البيضـاء،وقوسا صفراء تدعى الصفراء من شجر النبع ،
وأصاب منهم ايضاً درعين : السعدية وفضة . وكان عليه يوم أحد درعه ذات
الفضول ودرعة فضة ، وكان عليه يوم خيبر درعـه ذات الفضول ودرعة
السعدية ، وكان له ترس فيه تمثال رأس كبش [1] . كما غنم سعد بن ابي وقاص
يوم بدر سيفه ذا الكتيفة . وغنم مالك بن أسيد سيفاً اسمـه المرزبان [2] .
نقول: لو لم تختلف هذه الأسلحة في أشكالها وصفاتها لما تعددت أسماؤها.

---

(١) الطبري ٣/١٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٨٣ .

الباب الرابع

الدولة الساسانية

بنو ساسان

كانت العراق قطعة من سلطان فارس تحت حكم بني ساسان حين غزاها المسلمون عام ١٢ هـ . وبنو ساسان[1] -الأسرة المالكة- تنسب الى رجل من عائلة نبيلة عاش في أواخر عهد الدولة الإشكانية ، وكان سادناً لبيت نار أناهيد في إصْطَخْر ثم خلفه ابنه بابك في وظيفته ، واستطاع هذا أن يعين أحد أولاده الصغار أرْدَشِير في الوظيفة العسكرية الكبرى على مدينة دارابجرد . وفي حوالي ٢١٢ م أصبح أردشير سيداً على كثير من مدن الإقليم بالغلبة أو بقتله حكامها . بينما ثار أبوه بابك على قريبه الملك جوتُشهر وقتله وولي مكانه . ومات بابك فارتقى مكانه ولده الأكبر سابور واشتعلت الحرب على تنازع السلطة بينه وبين أخيه أردشير ، ولكن سابور مات فجأة وكان له إخوة آثروا السلامة فمنحوا التاج دون منافسة إلى أردشير فقبله منهم، غير أنه خشي من وجودهم فقتلهم .

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٧٤ – ٨٣ .

وغزا أردشير كرمان وسواحل الخليج الفارسي والأهـواز وميسين Mésene عند مصب نهر دجلة . وفي هذا الوقت وفدت قبائل عربية من التي نزحت من اليمن بعد انهيار سد مأرب واستقرت في الحيرة غربي الفرات في زمن معاصر لنشوء الدولة الساسانية ، فنشأت إمارة عربيـة تابعة للدولة الساسانية واعتبرت حصنهم حيال العرب الرحل . ثم نشبت معركة أخيرة بين أردشير وجيش الإشكانيين الذي قـاده أردوان آخر ملوكهم وانتصر أردشير في ٢٨ ابريل (نيسان) ٢٢٤ م ودخل المدائن . ثم أخضع بابـل لطاعته ثم ميديا وهمـدان وأذربيجان وأرمينية ثم سجستان وخراسان وخوارزم وبلخ . وأرسلت أقاليم أخرى سفراءها اليه معترفين بسيادته ، فتوّج نفسه شاهنشاه [يعني ملك الملوك] لفارس وتابعه أبناؤه على ذلك فكانوا يصفون أنفسهم بأنهم كائنات إلهيـة آل اليهم الحق الإلهي في ملك فارس . ونقل أردشير عاصمته من إصطخر الى سلوقية [المدائن] التي كانت خارج الأراضي الفارسية بالمعنى الحقيقي وكانت دولة الروم الكبيرة على أبوابها. ومات أردشير في ٢٤١ م وتوالى على عرش فارس حوالي ثلاثون من بني ساسان كان آخرهم الأكاسرة الآتية أسماؤهم :

كسرى الثاني بن هرمز الرابع	٥٩٠	٦٢٨م	وهو كسرى برويز .
قباذ الثاني [شيرويه] ابن كسرى الثاني	٦٢٨	٦٣٣	بدأت حملة خالد بن الوليد مايو(ايار)—ابريل(نيسان) ٦٣٣ في عهده، وتوفي قباد في أواخر مايو(ايار) ٦٣٣
أردشير الثالث بن شيرويه	٦٣٣		

شهربراز [ثورة وقتل أردشير]	٦٣٤	٦٣٤م	في عهده كانت موقعة بابل مع المثنى بن حارثة. ومات شهربراز مع الهزيمة في أواخر مايو (ايار) بعد أن ملك ٤٠ يوماً .
آزرميدخت			ملكت بضعة أشهر قبل بوران .
بوران بنت كسرى برويز		٦٣٥	حتى آخر سبتمبر (ايلول) ٦٣٥ .
يزدجرد الثالث بن شهريار بن كسرى برويز			آخر الأكاسرة .

طبقات المجتمع الفارسي

كان في فارس أيام الساسانيين سبع طبقات [1] .

الملوك

وهم الطبقة الأولى (شهرداران) ويحملون لقب ملك . وقد سوغ هذا لملك فارس أن يحمل لقب ملك الملوك [شاهنشاه] . وتشمل هـذه الطبقة الأمراء التابعين الذين يحكمون أطراف الدولة وحكام الإمارات، وأولئك الذين ضمن لهم ملك فارس الإمارة لهم ولذويهم من بعدهم نظير خضوعهم مع التزامهم بوضع قواتهم الحربية تحت تصرفه وأداء جزية معينة . وربما كان من هؤلاء ملوك الحيرة والبحرين . وقـد كانت الدولة مقسمة الى أربع إيالات يحكم كل إيالة منها مرزُبان من هذه الطبقة يحمل لقب شاه . وكان يضاف اليهم الحكام المنتسبون الى الأسرة الساسانية . ولقد كان أبناء الملوك يولون حكم الإمارات، وخاصة الذين يؤمل فيهم ارتقاء العرش ، كنوع من المران على الحكم .

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٨٤ .

الاشراف

وهم الطبقة الثانية (واسبوران) – وهي طبقة العائلات السبع الممتازة – وكان لكل من هذه الأسر منطقة نفوذ من مناطق فارس تقيم بها ويظهر فيها سلطانها ، هذا الى جوار انخراطهم في البلاط . وجميع الألقاب التي تنتهي بمقطع « آن » تدل على أسرات إقطاعية أو فروع منها . وكان الرعايا ملزمين بدفع الضرائب إما الى سيد الإقطاع أو الى الدولة أو اليهما جميعاً ، كما كانوا ملزمين بأداء الخدمة العسكرية تحت رئاسة سيد الإقطاع . كذلك كان للدولة إقطاعات يديرها حكام من قبل الملك مباشرة تشمل قسماً له أهميته واعتباره من مساحة فارس .

وقد كانت بعض المناصب العامة تورث بين أفراد الأسر السبع الممتازة مثل وظائف تتويج الملك ، وإدارة شؤون الحرب والإدارات المدنية وفض المنازعات بين المتخاصمين الراغبين في التحكيم ، وقيادة الفرسان وجباية الضرائب ورعاية الكنوز الملكية، والعناية بالأسلحة والتعبئة الحربية. ويذهب كريستنسن الى أن الوظائف الوراثية في الدولة لا بد كانت وظائف شرفية استناداً الى أنه لا يعقل أن تكون وظيفة هامة كقيادة الجيش تنتقل بالوراثة وألا يكون للملك حق الخيار بين مستشاريه . والذي نراه أن هذه الوظائف لم تكن تورث كما يورث العرش وإنما كانت حكراً على طبقة معينة محصورة في هذه الأسر السبع، فلم يكن الملك ليختار قائد جيشه من عامة الشعب حتى ولو ظهرت بطولته . وهو ما نلحظه في كل ما ورد عن قادة الفرس الذين قاتلوا المسلمين . فقد كان هرمز قائدهم في ذات السلاسل من بيوتات الشرف وله قلنسوة تدل على ذلك.وكان قباذ وأنو شجان على ميمنته وميسرته وهما يمتان إلى بني ساسان بأواصر القربى ، وكان نرسي قائدهم في السقاطية من هؤلاء الأشراف . وكان بندويه بن بسطام وأخوه تيرويه قائدا ميمنته وميسرته ابني خال كسرى وابني خال نرسي . وكذلك رستم قائدهم في

القادسية وكان قبلهـــا أميراً على خراسان . كذلك مهران بن بهرام جوبين قائدهم في عين التمر ، ومهران بن باذان قائدهم في البويب وكان أبوه عامـل كسرى على اليمن،ومن هذه البيوتات أيضاً كان بهمن جاذويه قائدهم في معركة الجسر ... الخ .

وقد لبث الواسبوران يتساندون زمناً طويلاً بعد سقوط الدولة الساسانية. كتب ابن حوقل في القرن الرابع الهجري [العاشر الميلادي] يقول : « وبفارس سنّة جميلة وعـادة فيما بينهم كالفضيلة من تفضيل أهل البيوتات القديمة وإلزام أهل النعم الأولية ، وفيهـا بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمـال الدواوين على قديم أيامهم الى يومنا هذا » .

رجال الدين

والطبقـة الثالثة رجـال الدين ، وقـد اعتبر الساسانيون الدين المجوسي الزرادشتي هو الدين الرسمي، ورفعوا شأن رجال الدين ، وكان عددهم كبيراً جداً ، فقد دعي الى المجلس الأول منهم ثمانون ألفاً وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك ، ثم اتخـذ الملـك منهم مجلساً من سبعة للمشاركة في الأمور ، هم أعظم الجمع في التقوى والمعرفة ، وكانت بلخ هي مقر المجوسية ومركزها . وكانت أمـلاكهم واسعة وكان من سلطتهم فرض الضرائب . ومن الأقـوال المنقولة عن زرادشت منشىء هذه الديانة — وكانوا يلقنونها الناس: « ولو أن حسناتكم تتجاوز عدد أوراق الشجر وقطرات المطر ونجوم السماء ورمـال الشاطىء، فلن تكون نافعة مقبولة إلا إذا قبلها الموبذان! [رجل الدين]».

ولم يسمح أردشير بأي دين آخر في فارس ، ونتج عن ذلـك اضطهـاد الأديان الأخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية . وقد اشتد اضطهاد المسيحية بصفة خاصة بعد اشتباك الفرس والروم في حروب مستمرة . وبالرغم من ذلك فقد ظل عرب الحيرة وعرب الجزيرة من اللخميين الذين انتشرت فيهم

النصرانية موالين للفرس في كافة حروبهم مع الروم . كما ظل عرب الشام من الغساسنة الذين انتشرت فيهم النصرانية أيضاً موالين للروم. ولم تشفع نصرانية هؤلاء ولا هؤلاء للحيلولة دون أن يلتحموا كلما التحمت فارس والروم . ومن أجل ذلك لم يكن غريباً بل كان طبيعياً أن نجد هؤلاء وهؤلاء كل قد انضم الى أسياده في قتال المسلمين غزاة العراق أو الشام . ولكن ظل هؤلاء العرب بعيداً عن دين الفرس لم يعتنقوه .

وكان على رأس رجال الدين الزرادشتي ُموبذان موبد وهو بمثابة البابا عند النصارى . وكانوا عدة أقسام ، فمنحهم الحكام ، والعباد ، والمغان وهم السدنة الروحانيون للدين الزرادشتي ، والزهاد والسدنة [الهربدان] ثم علماء مختلفون ، ثم المراقبون [دستوران] والمعلمون . وكانوا من قبيلة واحدة [مغان] . وقد ساروا مع نبلاء الإقطاع جنباً الى جنب . وكان لرجال الدين إجراء أحكام الطهارة والاعتراف والعفو والغفران والحكم بالغرامة بعد الإقرار بالذنب [ككفارة] ومراسم الزواج والميلاد والجنازات وقراءة الطالع . وكان على الفرد أن يصلي للشمس أربع مرات نهاراً وللقمر وللنار وللماء . وكان التعليم الابتدائي والعالي بأيدي رجال الدين .

رجال الحرب

والطبقة الرابعة رجال الحرب (ارتشتاران) وعلى رأسهم إيران سباهبد، وهم من الفرسان وكانوا زهرة الجيش الساساني، ثم الرَّجّالة(المشاة)، ولكل من القسمين رتبه وموظفوه . وكان ضباط الجيش يسمون الأساورة ، وكانوا يعيشون إبان السلم من ريع أراضيهم . وكان إيران سباهبد يجمع بين وزارة الحرب والقيادة العامة للجيش والقيام بمفاوضات الصلح ، كما كان من مستشاري الملك . وكان من مزايا القواد أن يدخلوا المعسكرات على صوت الطبل . وكان من رجال الحرب أيضاً الحرس الملكي . أما فرق المشاة فكانوا

يستخدمون في الأقاليم كشرطة أو جلادين ، كذلك كانت فرق الرماة تلحق بالقرية . وكان هناك موظف كبير هو مؤدب الأساورة مهمته تعليم أبناء المحاربين في المدن والرساتيق حمل السلاح وآدابه . ولم يكن يحق لسوى هذه الطبقة أن يتولى وظائفها . ولعل هذه الطبقة كانت جانباً من الطبقة الثانية، طبقة الأسر السبع الممتازة إذ لم يكن الفرسان الأساورة يخرجون عن هذه الطبقة .

الكتاب

الطبقة الخامسة كتاب الدواوين (دبيران) على رأسهم إيران دبيربد، وينقسمون الى كتاب الرسائل وكتاب الحسابات وكتاب الأقضية ... الخ ويدخل فيهم الشعراء والأطباء والمنجمون .

الدهاقين

والطبقة السادسة دهكانان ، وهم الدهاقين رؤساء القرى وكانوا يستمدون قوتهم من الملكية الوراثية للإدارة المحلية . وكانوا أساساً متيناً للإدارة، فهم الرؤساء وملاك الأراضي والقرى ولم تكن أملاكهم واسعة جداً كالإقطاعات، وإنما كانوا أشبه بالعُمَد. وكانت وظيفتهم الأصيلة استلام الضرائب، واليهم يرجع الفضل في تمويل الدولة . وكانوا مثقفين الى حد ما وقد ظلوا الى ما بعد سقوط دولتهم بعدة قرون يحفظون شيئاً من تاريخهم وآداب ديانتهم [١] .

الشعب

أما الطبقة السابعة فهي طبقة الشعب من الفلاحين والصناع، ويدخل فيهم الرعاة والتجار وأهل الحرف . وكان كثير من التجار يستطيع القراءة والكتابة والحساب ، أما عدا ذلك فثقافة أفراد الشعب كانت ضئيلة جداً .

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٤٠٠ .

النظام الحربي للفرس[1]

اتجهت سياسة أردشير وخلفاؤه الأوائل إلى حماية حدود الدولة في الشرق والشمال والغرب وإعداد الدفاع عنها . وقد أدمجت طوائف الجند التي كانت تتبع قبل ذلك صاحب الإقطاع في الجيش المنظم . وكان أكبر الألقاب العسكرية وراثياً في الأسرة المالكة ، كما كانت وظيفتا رئيس شؤون الجيش وقائد الفرسان وراثيتين في اسرتين من الأسر الكبيرة .

وصف الضابط الروماني آمين مارسلن Ammien Marcellin جيش الفرس فقال :«إن نخبته كانت تتكون من الفرسان الدارعين النبلاء (أسواران — وهم الأساورة) ، وكان لهم المقام الأول في المعارك ، وكانت نتيجة المعركة تتوقف على قوتهم وشجاعتهم . وكان الفرس يلقون ضد الروم بأفواج منظمة من الفرسان المدرعين في صفوف كثيفة كل الكثافة ، فكان بريق الدروع يعكس هيبة تبهر الأبصار . وكانت هذه الفرق كأنها صيغت من حديد وقد غطي كل جسد بألواح ملتصقة تتحرك مفاصلها الحديدية في يسر وفقاً لحركة أعضاء الجسم ، كما كان للوجه قناع يحميه ، فكان من المتعذر إصابة الفارس ما لم يسدد الطعن أو يوجه السهم الى الفتحات الصغيرة قبالة العينين ، أو ثقبي

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ١٩٦ .

التنفس الدقيقين أمام الأنف . وكان بعض الفرسان المسلحين بالحراب يقفون بلا حراك حتى كأنهم جمادات ، ويقف بجانبهم الرماة ، وقد مدوا أذرعهم ليشدوا الأقواس المرنة بحيث يلمس الوتر الجزء الأيمن من صدورهم ، بينما السهم معلق في أيديهم اليسرى ، وكان السهم ينطلق فيدوي في الفضاء نحو هدفه».
ويقول آمين : « إن الفرس مع ذلك لم يكونوا ذوي بأس في الحروب ولم يتعودوا النضال في جسارة إلا أن يكونوا على مسافة بعيدة من أعدائهم ، فإذا بدأت فرقهم في التراجع فإنهم يتقهقرون سراعاً كالريح ، مطلقين سهامهم من خلفهم — ليخففوا من ضغط مطارديهم» .

قال آثر برني [1] Arthur Birnie : « كانت قوة الفرس عموماً قائمة على الفرسان والرماة ، وكان أسلوبهم في القتال أن يمطروا العدو سهاماً ، ثم يكتسحوه بهجوم الفرسان في التوقيت الملائم . وقد نجح هذا الأسلوب مع الرماة الميديين ومع الفرسان حاملي الرماح الليديين ومع المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها فشلت مع الإغريق بسبب ضعف فرق المشاة الفارسية ، فإذا ما تمكن جنود الإغريق من الاقتراب — ويتوقف كل شيء على هذا — عاجلوا مشاة الفرس بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة » . وأغفل الكاتب الغربي كعادة الغربيين فشل هذا التكتيك الفارسي في مواجهة المسلمين ، ولكن القائد المسلم المثنى بن حارثة الشيباني ذكره في حديث له مع قواد وحدات جيشه بعد معركة البويب [2] ، قال : « ... فلا يروعنكم زُهاءٌ [منظر] ترونه ولا سواد [كثرة] ولا قِسِيٌّ فُجٌّ [أجود أنواع القسي] ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » . وسنرى أنه كلما التقى المسلمون بالفرس عاجلوهم

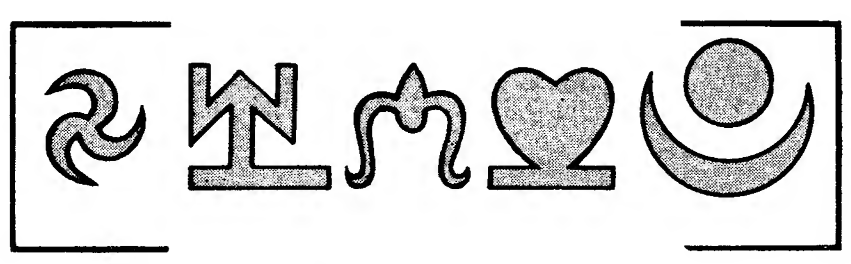
---

(١) عبقرية خالد ١٨٦ عن The Art of War .

(٢) انظر معركة البويب في الجزء الثالث .

بالهجوم حتى يلتحموا بهم . والسيف هو سلاح الالتحام الذي يتفوق بـــه المسلمون على الفرس وليحرموهم من فرصة استعمال القسي والسهام التي يجيدون استخدامها ، والتي كان المسلمون أيضاً يجيدون استخدامها ، ولكن الاشتباك بسلاح يبزون فيـــه أعداءهم ، كان أصلح لهم من الاشتباك والتراشق بسلاح يتساوون في مهارة استخدامه .

وكان لدى الساسانيين فرقــة من عشرة آلاف من الفرسان المختارين تسمى « فرقة الخالدين » وفرقة أخرى من الفدائيين تمتــاز بالجرأة وتحدي الموت . وقد وجــد في بعض النقوش الساسانية علامات على بعض القلنسوات الطويلة لرجال يلتفون حول الملك ، لعلهــا العلامات التي كانت تميز الضباط من الفرق المختلفة منها :



شكل رقم (٤) — اشارات ضباط الفرق الفارسية

وكان الفرس يستخدمون الأفيال في القتال . وكانت الفيلة تتخذ مكانهــا خلف الفرسان، وكانت أصواتها وروائحتها ومناظرها غـــير المألوفة لاعدائهم تلقي الرعب فيهم وفي خيلهم . وكان سائسوهــا يركبونها وفي أيديهم اليمنى سكاكين ذات مقابض طويلة ، فإذا مــا ذعر الفيل فارتد الى صفوف الفرس يدوسهم ، وكان هذا يحدث أحياناً، فيبادر الفيّال الى قتله بإغماد السكين بين عظام رقبته .

وكانت مؤخرة الجيش تتألف من (بايكان) وهم[1] المشاة من أهل القرى الذين يسخرون للحرب دون أجر او غيره من المثوبة، وكانوا على الأقل مدرعين بدروع مستطيلة ومقوسة من الخيزران المتشابك المغطى بجلد غير مدبوغ . وهم جنود غير مهرة بوجه عام . خطب الامبراطور الرومي جوليان في جنده فأشار بإصبعه الى بعض الأسرى الفرس وقال : « إنهم مَعِزٌ قذرة قد مسختهم القذارة وهم يلقون السلاح ويولون الأدبار قبل أن يبتدرهم أحد بالحرب » . وكانت الفرق المجندة من الشعوب المحاربة في أطراف الدولة (مثل عرب الحيرة) أكثر نفعاً في الحرب من المشاة الفلاحين . وكانت الوحدات الكبيرة من الجند تسمى « كُنْد » ، أما « دِرَفْش » فكانت فرقاً أصغر (درفش معناها لواء) ، وكانت وحدات أصغر من ذلك تسمى[2] «وَشْت» .

وفي عهد كسرى[3] أنوشروان ٥٣١ – ٥٧٩ م أجرى إصلاحاً مالياً قضى به على الظلم الذي كان واقعاً على دافعي الضرائب واستهدف به في الوقت نفسه، أن تكون الأموال تحت يده في أي وقت لأغراض الدفاع والحرب . وتبع ذلك إصلاح حربي. فقد كان أفراد الجيش مجبرين على الجندية بلا أجر، بل كان عليهم فوق ذلك أن ينفقوا على أسلحتهم . وكان المشاة من الفلاحين البؤساء يعملون في الجيش لهدم الأسوار وسلب القتلى وخدمة الفرسان. وتفقد أنوشروان الأساورة ، فمن لم يكن منهم ميسوراً أمده بالدواب والعدة وأجرى لهم ما يقويهم . وكان سلاح الفارس أيام أنوشروان ثقيلاً يتكون من تجافيف (دروع للفرس[4] وللإنسان) ودرع وجوشن (درع صدر لا ظهر له)

---

(١) كريستنسن ١٩٨ .

(٢) ايران في عهد الساسانيين ٢٠٠ .

(٣) ايران في عهد الساسانيين ٣٥٢ .

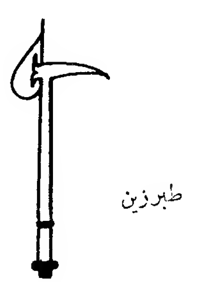
(٤) المنجد .

وساقين وسيف ورمح وترس وجرز (عمود من حديد) تلزمه منطقة، وطبرزين (بلطة[1] للقتال) او عمود وجعبة فيها قوسان بوتريها وثلاثين نشابة، ووترين مضفورين يعلقها الفارس في مغفر له ظهرياً . وكان السلاح الرئيسي عندهم القوس والنشاب ، وهو السلاح التقليدي القـــديم لدى الفرس الذي يحسنون استخدامه منذ أقدم العصور . وقـد شهد لهم بروكوب القيصري Procope من ضباط الروم، الذي يعتبر ما كتبه من المصادر الرئيسية عن حروب الروم مع الفرس في عهـــد قباذ الأول وكسرى أنوشروان ، فقال : « إن الفرس يجيدون جميعاً رماية السهام وهم أمهر الناس في استعمال هذا السلاح ، ولكن رميهم السهم يحتاج دائماً الى قوة لأن أوتار الأقواس ليست محكمة الشد».

وقد نقل ابن قتيبـــة عن الآيين (بعض كتبهم) بعض تعاليم الفرس وتعليماتهم لمقاتليهم . فيذكر عن الكمائن أنه ينبغي أن تختار لها أماكن قريبة من الماء حتى ينال الجند منه إن طال مكثهم ، وألا يخيفوا سباعاً ولا طيراً ولا وحشا . وأن يكون إيقاعهم كضريم الحريق وأن يجتنبوا الغنائم ، وينهضوا من المكمن متفرقين اذا ترك العدو الحراسة وإقامـة الرماة ، واذا سرّح دوابه للرعي . ويذكر أيضاً البيات (الهجوم الليلي) ومـا يجب ان يصحبه من ضجة وضوضاء لإلقاء الرعب في نفوس الأعداء ، وأن ينتهزوا فرصتها اذا هبت الريح ، او في أصوات خرير الماء وأن يتوخى بالوقعة نصف الليل أو أشد ما يكون إظلاماً، وأن يصير جماعة من الجند في الوسط ليسمع

---

(١) الطبر والطبرزين الفأس من السلاح — المنجد .



بالضجة والضوضاء من ذلك الموضع وأن يُشرد قبل الوقعة من دوابهم بقطع أرسانها (أحبالها) وهمزها بالرماح في أعجازها وأن يهتف هاتف ويقول : «يامعشر أهل العسكر: النجاء النجاء فقد قتل قائدكم فلان وقتل وهرب خلق»، ويقول آخر: «أيها الرجل استحيني لله»، ويقول آخر: «العفو العفو»، وآخر يقول : «أوّه أوّه»، وهكذا. ويتناول أيضاً حيل محاصرة الحصون وكيفية الوصول الى أسرار أهل الحصن وكيفية إفزاعهم، وذلك بأن يدس فيهم من يصغر شأنهم ويؤيسهم من المدد . أو بكتابات ترسل اليهم على نشابة فيها تثبيط لهممهم مثل « إياكم أهل الحصن والاغترار وإغفال الحراسة ، عليكم بحفظ الأبواب فإن الزمان خبيث وأهله أهل غدر ، فقد خُدِع أكثر أهل الحصن واستميلوا » . وأن يطاف حول الحصن ويشار اليه بالأيدي كأن فيه مواضع حصينة وأُخَر [1] ذليلة .

وفي الآيين : من إجادة الرمي بالنشاب في حالة التعلم إمساك المتعلم القوس بيده اليسرى بقوة عضده الأيسر، والنشابة بيده اليمنى وقوة عضده الأيمن ، وكفه أصدريه [2] ، وإلقاؤه ببصره الى مُعَلَّم الرمي [الهدف] وإجادته نصب القوس بعد أن يطأطىء من سيتها بعض الطأطأة وضبطه إياها بثلاث أصابع وإضاؤه السبابة على الوتر وإمساكه بثلاثة وعشرين كأنها ثلاثة وستون وضمه الثلاث ضماً وتحويله ذقنه إلى منكبه الأيسر وإشرافه [رفعه] رأسه وإرخاؤه عنقه ، وميله مع القوس وإقامته ظهره وإدارته عضده ومغطه القوس مترافعاً ، ونزعه الوتر [شده] الى أذنه ورفعه بياض عينيه من غير تصريف لأسنانه وتجويل لعينه وارتعاش من جسده ، واستبانته موضع [3] رجحة النشاب .

---

(١) عيون الأخبار ١٠ .
(٢) الأصدران عرقان تحت الصدغين – المنجد .
(٣) عيون الاخبار ٢٩ .

ومنذ عهد كسرى أنو شروان أصبحت لكلمة أساور [فارس] قيمة أخرى وأصبح الفرسان وأبناء الملوك هم الطبقة الأولى في بلاط كسرى ، وكان الملك يختارهم رفقاء في السفر، وقد كلف عدد منهم بتربية أبناء كسرى برويز . وقد استخدم أنو شروان الأسرى في الأغراض الحربية حتى أنه غزا اليمن بقائد من قواده في جند من أهل الديلم . وألغى أنو شروان وظيفة إيران سباهبذ ووزعها على أربعة إصبهبذين ، واحد للمشرق وخراسان والثاني للعراق حتى حدود الدولة البيزنطية، والثالث لليمن، والرابع لأذربيجان وما والاها . ولكل واحد من هؤلاء خليفة هو المرزبان ، ويبدو أنه كان أشبه بالمحافظ أو المدير في إقليمه .

المجوسية

الأوستا هو الكتاب المقدس للدين الزرادشتي، وكان يسمى ونديداد ومعناها الشريعة المضادة للشيطان . وهو باللغة الأوستية القديمة ، ويحوي مجموعة من القواعد والمراسيم التي تختلف فيما بينها باختلاف الأقـــاليم الفارسية وبينها تناقضات واضحة . ويتناول الونديداد الأنواع المختلفة من النجاسات والآثام ووسائل الطهر والتوبة ، ثم يبحث في العدوان وقتل (الكائنات الأهورية) ، الرجال والكلاب وكلاب الماء ، وما يفعل بالجثث ، فقد حرمت الديانـــة الزرادشتية تحريماً باتاً تلويث العناصر بدفن الجثث أو حرقهـا ، فإن دفنهـا يلوث التراب وحرقها يلوث الهواء ! وإنما توضع فوق منصة من الآجر — اسمها دخمة ، وهي برج الصمت، وجمعها دخمات — وتترك كي تنهشها جوارح الطير، ويؤكد هذا ما رواه السائح الصيني البوذي هيون تسيانج الذي زار إيران في عهد الساسانيين ، قال إن الجثث كانت غالباً تترك [1] . وحين حوكم سياوش أقوى رجال الدولة في عهد قباذ الأول بسبب فشله في مفاوضة الروم، وكانت المحكمة عازمة على شنقه ، وجهت اليه اتهامات أخرى عقوبتها الإعدام منهـا أن زوجته ماتت قبيل المحاكمة فدفنها دون أن يعرض جثتها على الدخمة حتى تلتهمها الطيور ، وحكم عليه بالقتل . ثم أراد قباذ الأول أن يحمل أهـل

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٢٤ .

جورجيا النصارى على قبول الدين الزرادشتي وحرم عليهم أن يدفنوا جثث موتاهم وأوجب عليهم أن يعرضوها على الدخمات وفقاً للمراسم المجوسية، مما دعا جورجين ملك جورجيا –وكان تابعاً لملك إيران– أن يستجير بامبراطور الروم فأجاره ووقعت الحرب بين فارس [1] وبيزنطة . هذا يؤيد ما ذكره رواة الطبري – كما سنرى في صفحات هذا البحث – حينما نشبت المعارك بين الفرس المجوس وبين المسلمين من أن الفرس كانوا لا يعرضون لقتلاهم،وإنما كانوا يتركونهم في الميدان حيث قتلوا . وذكر الونديداد النجاسة التي تلحق من يمس جثة آدمي أو حيوان ميت أو امرأة حائضاً . وقد أحس الفلاسفة البيزنطيون[2] الذين آووا الى بلاط كسرى أنو شروان بخيبة أملهم، وراعهم أن يجدوا الإيرانيين يبيحون التزوج من أمهاتهم أو أخواتهم أكثر مما راعتهم عادة عرض الجيف التي هي عادة مقدسة واجبة .

وكان للشمس عندهم حرمة عظيمة، وكانوا يعبدونها ويقسمون بها . وفي إبان الاضطهاد الساساني لنصارى إيران كانوا يؤمرون بعبادة الشمس [3] . وكان تقديس عناصر الطبيعة خاصة أصيلة في الدين الزرادشتي فكانوا يحافظون على الماء والنار من النجاسة، وكانوا يقدسون الماء قبل كل شيء الى حد أنهم لا يغسلون به وجوههم ولا يلمسونه إلا للشرب أو ريّ الزرع، وكان بول الثيران أبعد أثراً عندهم في الطهارة [4] من الماء . ومع هذا فإن مكانة النار أعظم شأناً في الدين الزرادشتي .

وتتعدد الآلهة كثيراً في ذلك الدين . ويمتليء بأساطير وخرافات كثيرة

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٣٤١ .
(٢) » » » » ٤٢٢ .
(٣) » » » » ١٣٢ – ١٣٣ .
(٤) » » » » ١٣٤ .

جداً. من ذلك أن دورة الدنيا تستمر اثني عشر ألف سنة ، في الثلاثة آلاف الأولى يبقى عالم النور وعالم الظلمات متجاورين في هدوء ، وفي الثلاثة آلاف الثانية يعيش عالم النور بالقوة، وفي الثلاثة آلاف الثالثة يصطرع الخير والشر، ثم يظهر زردشت فيهدي الناس الى الحق ، وفي نهاية كل ألف من الثلاثة آلاف الأخيرة يظهر مُخَلِّص يولد من بذور زردشت المخبأة في إحدى البحيرات . ومع مولد آخر مخلص يبعث الأبطال والتنانين الشيطانية ليتقاتلوا ، ثم يبعث الموتى ويقع النجم المذنب جوتجهر على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن وتسيل على الأرض ، ويكون على جميع المبعوثين من الموت أن يعبروا هذا السيل فيكون للأتقياء كاللبن الساخن ويمضون منه الى الجنة ثم يسقط الشر الى الأبد في الظلمات وتبقى الدنيا المطهرة في سكون لا يُعَكِّر صفوه الى الأبد .

وبيوت النار كانت معابد الساسانيين . يصف المسعودي خرائب بيت نار قديم كان في إصطخر فيقول: « وللفرس بيت نار باصطخر تعظمه المجوس ... وقد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخر ، فرأيت بنياناً عجيباً وهيكلاً عظيماً وأساطين صخر عجيبة، على أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال ، محيط بذلك حيز وسور منيع من الحجر وفيه صور الأشخاص قد شكلت وأتقنت صورها ، يزعم من جاء هذا الموضع أنها صور الأنبياء » . والقاعدة في الدين الزردشتي أنه لا يجوز أن تصل الشمس الى النار المقدسة وعلى هذا الأساس كان بيت النار في وسطه غرفة مظلمة كل الإظلام يوضع فيها هيكل النار . وقد كان منظر المعبد يبعث المجوس على الاستغراق وذلك بقاعاته المظلمة، حيث تشتعل النار فوق المذبح ، والآلات المعدنية تلمع من أظرف وأهوان وشبابيث ومساند البراسما التي تشبه الهلال ، وحيث الهرابذة يتلون الأوراد التي لا تنقطع

بصوت مرتفع ولحن جميل حيناً ، وبصوت منخفض الى حـــد التمتمة حيناً آخر [1] ... الخ .

هذا الدين الذي ساد دولة الساسانيين وذكرنا لمحة مختصرة عنه لم يكن نداً بحـال من الأحوال لأن يقف أمـام الدين الإسلامي الزاحف الذي امتاز بامتزاجه بالحياة ينظمها كما ينظم أمور المعـــاد في مزج متسق ، فكان ديناً ودولة وعبادة وقيادة ومناسك ومعاملات ، مما دعا الموابذة الى تغيير كثير من أصول الزردشتية [2] بعد الفتح الإسلامي .

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ١٥٣ .

(٢) » » » » ٤٢١ .

فارس قبيل الفتح

بين الفرس والروم

عند قيـــام الدولة الساسانية كانت فتوحات الروم قد جاوزت [1] نهر الفرات واقتطعت أرض الجزيرة . ولذلك اشتبكت دولة بني ساسان بدولة الروم من عهد أردشير الأول منشىء الدولة . واتصلت الحروب بين الدولتين وأصابتهما معـاً بدمار كبير . وفي ٥٦٠ م هُزِم الروم ووقـع امبراطورهم فاليريان أسيراً في أيدي الفرس وظل سجيناً عندهم حتى مات ذليلاً . فكانت الحرب بين الدولتين سجالاً غير أن كلتاهما كانت خاسرة بها ، حتى من يحالفه النصر يوماً فقد كان نصراً باهظ التكاليف ثم لا يلبث أن ينقلب الى هزيمة . وانتصر سابور على الروم في أرض الجزيرة ومع ذلك فقد أصاب الجزيرة دمار كبير على أيدي الجيش الفارسي . وكان يحدث للجيش الفارسي أن يعزل أو يهلك جوعاً حتى وهو منتصر كما وقع له وهو محاصر القسطنطينية ، فقد تركه هرقل أمام أسوارها وزحف بجيش رومي الى فارس من طريق آخر ، فاكتسحها ودمرها وسبى نساء كسرى .

وكان من أهداف ملوك الفرس من وراء تلك الحروب نهب خيرات وأموال

---

(١) الخراج في الدولة الإسلامية .

البلاد المفتوحة ، غير أن ذلك النهب كان يؤول الى الملك ، في حين يدفع الشعب بأكمله نفقات الحملة . وفضلاً عن حروب الروم ، فقد كان للفرس حروبهم الأخرى على حدودهم الشرقية والشمالية مع قبائل الهون حتى اضطروا في بعض الأحيان الى أن يدفعوا لهم جزية ، كما كانت لهم حربهم ضد الأحباش باليمن .

كسرى انو شروان

وحتى عصر كسرى أنو شروان ٥٣١ م كان نظام المقاسمة سائداً بين الملوك والزراع ، فكان الملك يقاسم أصحاب الأرض محصولاتهم على نسب تتراوح بين السدس [١] والثلث . ولكن بعد ٥٣١ م عدل عن هذا النظام الى نظام المساحة ، وذلك بفرض خراج محدد على الأرض . وكان لذلك فائدة مزدوجة للمزارعين والملوك . ففيما يختص بالمزارع أصبح عليه مقدار معلوم محدد يؤديه نقداً وهو حر التصرف في محاصيله ، لا استيلاء ولا مقاسمة . وفيما يختص بالملوك أصبحت خزائنهم عامرة بالنقود اللازمة لتمويل الحروب ، فالضرائب تجبى نقداً وليست عيناً وهذا أصلح لمواجهة الطوارىء . وقد فرضها كسرى على الرؤوس وعبر عنها بالجماجم ، كما فرضها على سبع غلات هي الحنطة والشعير والأرز والكرم والرطاب والنخل والزيتون ، وترك ما سوى ذلك ، وكان الخراج يجبى على ثلاثة أقساط سنوية . أما الجماجم فتجبى على كل رجل بين العشرين والخمسين من عمره . وقد وضعت هذه الضرائب على عموم الشعب ، أما الطبقات الممتازة من الواسبوران والمرازبة والأساورة والموابذة والهرابذة والكتاب ومن كان في خدمة الملك فلم يكن عليهم ضرائب .

---

(١) الخراج في الدولة الإسلامية ٦٩ .

بعد انو شروان

كان عهد كسرى أنو شروان قمة مجد الامبراطورية الساسانية ، وكان ذلك قبل الزحف الإسلامي بخمسين عاماً . ثم خلفه ابنه هرمز الرابع ٥٧٩ م ، ذكر بعضهم أن عدالته فاقت عدالة أبيه ، وقيل عكس ذلك ، ويبدو على الأرجح أنه كان ظالماً فاسداً . فقد ظلم عماله الناس ونهبوهم ، فثارت أقاليم بابل والسوس وكرمان ، وغزا الروم الجزيرة وآشور ، وغزا الترك خراسان والأقاليم الشرقية ، وكادت الدولة أن تدول لولا شجاعة وحنكة قائدها المشهور بهرام جوبين. وتجددت الحرب مع بيزنطة ٥٨١م ولم يظفر فيها الفرس، فانتزع هرمز الرابع القيادة من بهرام جوبين (الرجل الخشبي) بطريقة مهينة . فثار بهرام وعم البلاد التمرد والتذمر ، وكان هرمز قد سجن بندويه وهو أحد معارضيه ، فخلصه أخوه بسطام من سجنه واقتحما معاً القصر الملكي وخلعا هرمز وسجناه ثم سملا عينيه ونصبا ابنه كسرى برويز (يعني المظفر) مكانه. وقتل هرمز بعد ذلك بقليل . وتجرأ بهرام جوبين وطلب العرش ففر كسرى برويز ولجأ الي امبراطور بيزنطة فأنجده بينما دخل بهرام المدائن ووضع التاج على رأسه غير أن الأمر لم يستتب له . وانتصر كسرى برويز بمعاونة الروم ، وفر بهرام الى بلاد الترك حيث قتل بعد قليل وانتهت ثورته . وعاد كسرى الى العرش ومعه زوجة رومية نصرانية تدعى شيرين اختصها بكل حبه ، وقيل بل كانت فارسية من أسرة وضيعة. وفي بيزنطة قتل موريق الذي آوى كسرى فاتخذها هذا ذريعة لشن حرب جديدة مع الروم استمرت ربع قرن ٦٠٣ — ٦٢٨ م .

سورة الروم

واكتسح كسرى الروم أمامه ، فاستولى على حران والرها وحلب وأرمينيا وآسيا الصغرى وانطاكية ٦١١ م وقيصرية ودمشق ٦١٤ ثم أورشليم

٦١٥ ، وانتزع الصليب الأعظم وبعث به الى المدائن. وأرسل قائده شهربراز فغزا مصر ٦١٦ هـ واستولى على الاسكندرية ٦١٧ ، وفرض على كل ما فتح جزية باهظة ، وهدم معابدها وسلب أموالها ، وحمل الى بلاده كل ذهبها وفضتها ورخامها وصناعها المهرة ، ولم يضع لهذه البلاد أي نظام . وقد أتاح له كل ذلك أن يزيد ما كان فيه من ترف [1] ومتعة . وجمع كسرى برويز من الأموال ما لم يجمعه أحد من الملوك.

غلبة الفرس هذه هي التي نزل فيها قوله تعالى: « آلم ، غُلِبَت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلَبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون [2] » . لقد رأينا طرفاً من الوثنية المجوسية ونستطيع الآن أن ندرك لماذا كان المسلمون يميلون الى جانب الروم بمشاعرهم ضد الفرس وقد كانوا ما زالوا بمكة يعانون من اضطهاد قريش الوثنية . عن ابن عباس [3] قال : « كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب » . وقد راهن أبو بكر قريشاً على أربع قلائص — وهي النوق الشابة — على أن الروم سينتصرون على الفرس في سبع سنين — وكان ذلك قبل تحريم الرهان — فمضت السبع ، ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك وشق ، على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « ما بضع سنين عندكم ؟ » قالوا : دون العشر ، قال : « اذهب

(١) الطبري ١٥٧/٢ — مروج الذهب ١٢١/١ .

(٢) سورة الروم ١ — ٦ . وعلى ذلك فتقديرنا أن سورة الروم قد نزلت في عام ٦١١ م قبل الهجرة بعشر سنوات ، أو في العام الرابع من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أبا بكر كسب الرهان قبل الهجرة بقليل ، فقد كانت الهجرة عام ٦٢١ م .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٢/٣ .

فزايدهم وازدد سنتين في الأجل » ، فما مضت السنتان حتى جاء الركبان بظهور الروم على الفرس ، وعاث هرقل الروم في بلاد الفرس وقتل رجالها حتى انتهى الى المدائن فقتل من بها ، وأخذ جميع ما فيها من أموال ، وسبى نساء كسرى وحريمه ، وحلق رأس ولده وأركبه على حمار ، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة. وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم .

أوقف هرقل زحف الفرس، واستعاد آسيا الصغرى وأرمينيا وآذربيجان، وفي ٦٢٣ و٦٢٤ استولى على مدينة جنزك ، وهرب منه كسرى حاملاً النار المقدسة ، واستولى هرقل على القوقاز ثم غزا وادي دجلة ، واستولى في ٦٢٨ على قصر الملك في دستجرد .

كسرى برويز

وقد أثر عن كسرى [١] برويز أنه كان فاسداً جشعاً شرهاً يحتقر الناس ويستخف بهم . وكان بينه وبين قائده شهربراز عداء خفي ، وقد أرسل كسرى اليه أثناء محاربته الروم ثلاث رسائل ظهر منها نية القتل ، فامتنع شهربراز (ومعناها خنزير الدولة) عن الحضور اليه ، وانضم الى ملك الروم وهو الذي رسم له الطريق الى فارس . وقد جمع كسرى برويز في مدة حكمه الثماني والثلاثين عاماً كل ما استطاع من أموال كدسها في خزائنه . ففي عام ٦٠٧ — ٦٠٨ كانت خزائنه التي نقلها الى بيت المال الجديد بالمدائن تحتوي على ٤٦٨مليون مثقال من الدراهم، خلاف مقادير هائلة من الجواهر والكسي جمعها من الناس بفرض خراج استثنائي . وفي العام الثالث عشر من حكمه كان لديه ٣٠٠ مليون مثقال من الدراهم . وجاء في الطبري : وكذلك في النهاية ، أنه

---

(١) ايران في عهد الساسانيين .

كان في قصره ثلاثة آلاف امرأة للوطء، رألوف من الجواري اتخذهن للخدمة والغناء ، وثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته ، وكانت له ثمانية آلاف وخمسمائة دابة لمركبه ، وسبعمائة وستون فيلاً ، واثنا عشر ألف بغل . وكان يجمع النساء من أنحاء مملكته حسب الطلب ففي بعض الكتب التي بعث بها الى العمال :

« خير النساء التي تفكر في عشق الرجل ، وكانت بين الطول والقصر ، عريضة الصدر ، استوى منها الرأس والعجز والرقبة ، الصغيرة القدمين ، من كانت بين السمن والهزال ، مقوسة الأخمص ، سبطة البنان لينة الجسم معتدلته ، تفاحية الثديين ، بيضاء الأظافر كالثلج ، رمانية اللون ، ملوزة العينين ، دقيقة الحاجبين كصوف الضأن الصغير ، لؤلؤية الثغر رقيقة ، سوداء الشعر مع ميل الى الاحمرار طويلته ، لا تتكلم بطريقة لا تواضع فيها » .

وقد عدد البلعمي والثعالبي اثنتي عشرة عجيبة لكسرى —وزادها بعضهم عن ذلك — منها: قصر المدائن ودرفش كابيان وزوجته شيرين (روضة الحسن وضرة البدر) وشيرين بالفارسية معناها : الحلوة ، وقد عشقها وتزوجها في أوائل حكمه ، واحتفظت بتأثيرها [١] فيه ، والمطرب سركش (سرجس) والمطرب فهلبذ ، والخادم خوش أرزو ، والفرس شبديز (لون الليل) ، وفيلا أبيض . وكان له كنوز منها : كنز فيء الرياح ، وذلك أنه حين حاصر الفرس الاسكندرية، حاول الروم أن ينقذوا نفائس المملكة فجمعوا خزائنهم وذخائرهم في سفن كثيرة ، فلما خرجت في البحر عصفت الريح فسيرتها إلى صفوف الفرس حتى ظفر بها القائد شهربراز وبعث بها الى المدائن ، فأعجبت كسرى واستولى عليها . وكنز الثور ، كان أحد الفلاحين يحرث أرضه بمحراث يجره ثوران ، فدخل سلاح المحراث في عروة قمقم مملوء ذهباً، فذهب

(١) ايران في عهد الساسانيين ٤٥٧ .

به الى باب الملك فأمر بحفر الأرض ، فأسفرت عن مائة قمقم مملوءة ذهباً وفضة وجواهر من كنوز الإسكندر الأكبر وعليها ختمه فاستولى عليها . وكنز العروس ويتكوّن مما تدفع الهند والصين من جزية . وكنز الديباج الملكي ، وكنز آفر أسياب، وكنز المحرق، وكنز اللآلىء والماء الطيب، وكنز شادورد ، وتاج الإيوان . ونفائس كثيرة مثل الشطرنج المنحوت من الياقوت الأحمر وقصب الزمرد ، والنرد المتخذة من البسد والفيروز ، ومائتا مثقال من الذهب كالشمع اللين، كان يخرج من بين الأصابع اذا قبض عليه وينطبع، ويتخذ منه التماثيل ، ثم يعاد الى حاله ، فيعود كما كان .

وكان أعظم نفائس كسرى التخت الذي يشبه القبة ، وهو سرير من العاج والساج ، صفائحه ودرابزيناته من الذهب والفضة ، طوله مائة وثمانون ذراعاً وارتفاعه خمسة عشر ذراعاً ، وفي مراقيه (درجاته) سرر من الشيز والأبنوس مضببة بالذهب وعليه طاق من الذهب واللازورد فيه صور الفلك عليه البروج الإثنا عشر والكواكب السبعة السيارة والقمر الوضاء وما يجتاز من بروج ، ويرى فيه المنجمون النجم الثابت والسيار ، ويرون فيه كم انقضى من الليل وكم سارت السماء فوق الأرض ، وفيه الأقاليم السبعة وصور الملوك وهيئاتهم في المجالس والحروب والمصائد . وفيه أيضاً ما يدل على معرفة ساعات النهار، وله على مقداره اربعة بسط من الديباج المنسوج المرصع باللآلىء واليواقيت يختص كل واحد منها بما يشاكله ويوافقه من فصول السنة . وكان في حديقة قصره الذي خربه هرقل في دستجرد ٦٢٨ م النعام والغزلان وحمر الوحش والطواويس والديوك البرية والسباع والنمور [١] . كذلك كان من هذه العجائب بساط كسرى، وكان يسمى القِطْف وهو الذي غنمه المسلمون حين دخلوا المدائن ، ثقل على يزدجرد حمله في فراره فتركه . وبقي القطف بعد توزيع غنائم المدائن لم تعتدل قسمته،فبعث به سعد بن أبي وقاص مع الأخماس

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٤٥١ .

إلى عمر بن الخطاب، فكان ستين ذراعاً في ستين ذراعاً! بساطاً واحداً مقدار جريب [$\frac{1}{3}$ فدان]. « فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من حرير على قضبان الذهب، ونوّاره بالذهب والفضة وأشباه[1] ذلك». «وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين. فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه، فكأنهم في رياض. أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب[2] ».

نكتفي بهذا القدر الذي يعتبر ضئيلاً بالنسبة لما ورد عن فخفخة ذلك العصر وأبهته لرسم صورة عنه مقابلة للصورة التي رسمناها لبيئة المسلمين.

بعد برويز

كان ذلك قبل زحف المسلمين الى العراق بخمس سنوات، حين مرض كسرى برويز، فنقلوه الى المدائن ليرتب وراثة العرش ومعه زوجته شيرين وولديه منها مردانشاه وشهريار، وكان في نيته تثبيت مردانشاه. وعلم بذلك قباذ الملقب بشيرويه، وهو ابن كسرى من زوجة أخرى، ويبدو أنه كان أكبر إخوته، فعزم على الدفاع عن حقوقه ورتب أمره. وذات صباح سمع كسرى المريض الناس يصيحون فرحين: « قباذ شاهنشاه »، فأخذه الهلع وهرب فاختبأ في حديقة القصر، حيث عثر عليه. وقبض عليه، فسجن في مخزن، ثم قتل بسهم. وأمر شيرويه ففتح سجنهم الرهيب المعروف بقلعة النسيان، وأفرج عن عدد كبير من مسجوني الدولة فانضموا اليه.

---

(١) الطبري ١٧٧/٤، عن المهلب بن عقبة الاسدي وطلحة بن الاعلم وزياد بن سرجس ومحمد بن عبد الله وعمرو وسعيد.

(٢) الطبري ١٧٨/٤ عن عبد الملك بن عمير.

وأمر شيرويه بقطع أيدي إخوته السبعة عشر وأرجلهم ، حتى يفقدوا صلاحيتهم للملك ، فلا ينافسوه عليه ، ثم قتلهم . من هؤلاء كان شهريار بن كسرى برويز وابن شيرين ، شهريار هذا كان والد يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان. ثم مات شيرويه بعد ذلك مسموماً أو بالطاعون[1] الذي انتشر ، وقال عنه الطبري : « هلك فيه الفرس إلا قليلاً[2] منهم » . في عهد شيرويه هذا ، بدأ زحف خالد بن الوليد نحو العراق عام ١٢ هـ ٦٣٣ م .

وولي بعده ابنه أردشير ،ومكث ملكاً عاماً ونصف عام حتى أقبل القائد شهربراز ،فاقتحم المدائن واستباحها واغتصب الملك ومكث فيه أربعين يوماً. وسيأتي في الأجزاء التالية إن شاء الله تعرّض آخر لأحوال فارس الداخلية المعاصرة لحركة الفتح عند انتقالنا الى خطوات الفتوح .

يقول [3] برون في Aliterary History of Persia : « إن فارس ولو أنها كانت في المظهر تبدو رائعة فخورة ، إلا أنها كانت في صميمها متعفنة ، حياتها مملوءة بالدسائس ، تغلي داخلها بالسخط وتمزقها المنازعات الأهلية » .

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٤٧٥ — ٤٧٨ .

(٢) الطبري ٢/١٦٦ .

(٣) الخراج في الدولة الإسلامية ٨٢ .

العراق

ذكرنا في عرضنا لجغرافية جزيرة العرب أنهـا تفسر لنا ، كونهـا قاعدة هجوم سمحت بالانسياح منهـا الى خارجهـا ، ولم تسمح بالعكس . ولا بد لاستكمال هذه الصورة ، ونحن بصدد دراسة فتح العراق أن نلقي نظرة على أرض العراق تتيح لنا معرفة طبيعتها مع الاهتمام بالتعرف على ما طرأ من تغير على مدى ذلـك الزمن بغية الرجوع بخريطتهـا الى ما كانت عليه في عصر الفتح .

ومن الناحية الجغرافية التاريخية ، كان العراق يحتل موقعاً استراتيجياً بالغ الأهمية لأنـه كان يقع ضمن الجسر البري الذي يربط القارات الثلاث : آسيـا وأوروبا وأفريقيا ، كما كان يصل المحيـط الهندي براً بالبحر الأبيض المتوسط . وقد كان لذلك كله أثره على تجارة الترانزيت ، فكان لموقعه دور هام في عهد طرق القوافل التي كانت تعبره من آسيا إلى أوروبا ، مثل طريق الحرير المشهور الذي كان يمر الحرير خلاله من الصين الى الدولة الرومانية ، كما كانت تنقل خـلاله التوابل والعاج والسكر والكحل والبخور والأحجـار الكريمة . ولم يفقد موقع العراق أهميته تلك إلا بعـد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ثم بعد شق قناة السويس [1] .

---

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ٦ .

وأرض العراق سهل منخفض حتى لكأنه واحة كبيرة وسط ما حوله ، فمن الشرق يحصره إقليم الجبال ، ومن الشمال تحده جبال أرمينيا وأذربيجان ، ومن الغرب صحراء السماوة التي ترتفع عن مستواه . وفي جنوبه وجنوبه الغربي العروض ونجد . ولقد عُرف العراق عند العرب باسم السواد ، وذلك لسواده بالزرع والأشجار ، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التي قل الزرع فيها والشجر ، كانوا إذا خرجوا من أرضهم اليه ظهرت لهم خضرة الزرع والشجر ، وهم يجمعون بين الخضرة والسواد في الأسماء ، فسموا خضرة العراق[1] سواداً. ومن هذا ما وصف به القرآن الكريم الجنة [2] بقوله : « ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان » . والأدهم هو الأسود . والعراق في لغة العرب الاستواء ، سموه عراقاً لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض . ويشق العراق من شماله الى جنوبه النهران الكبيران : دجلة والفرات ، ولذلك عرف منذ القدم ببلاد بين النهرين .

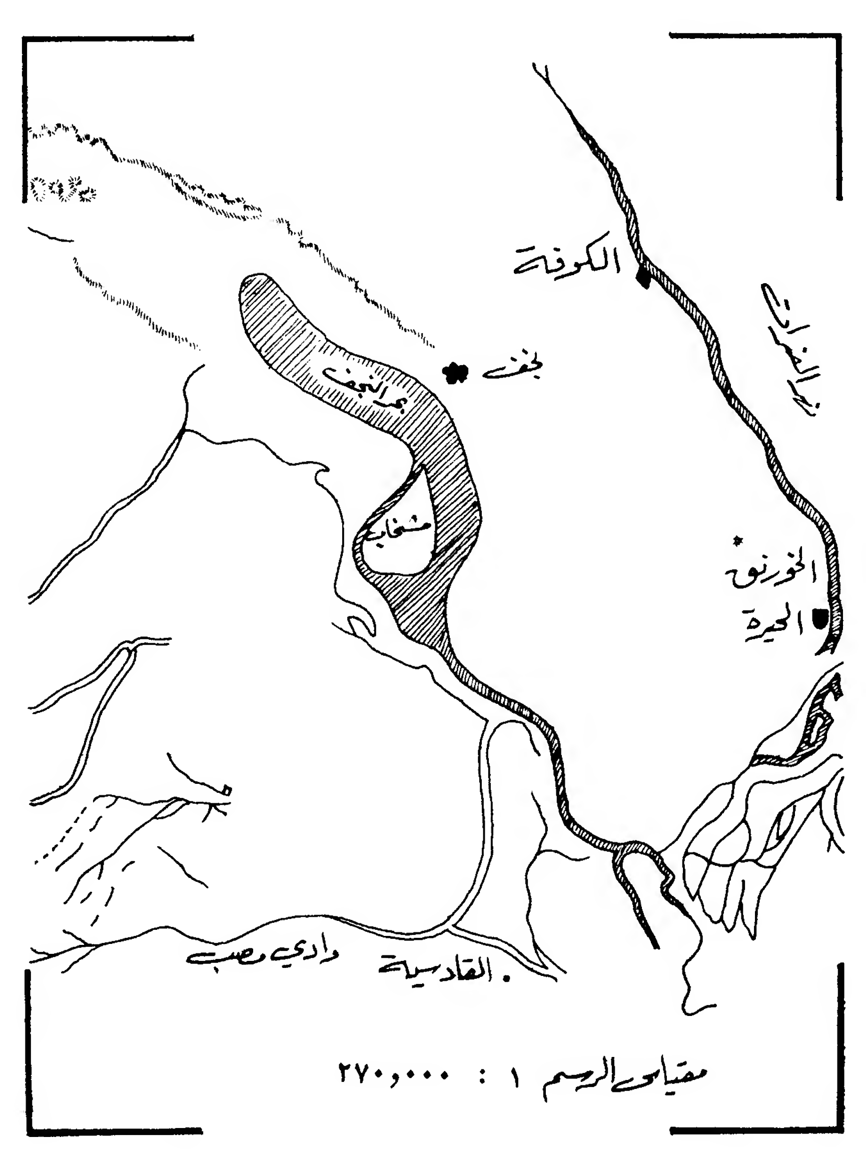
والفرات ينبع من الأراضي التركية على ارتفاع ٣٠٠٠ متر عن سطح البحر ، وينشأ عن عدة منابع تلتقي وتتجمع بشمال العراق ، ثم يمتد [3] ١٧٨٠ ميلاً [حوالي ٣٣٠٠ كيلومتراً] ، ويمر بجسر منبج ثم بالس وصفين والرقة والرحبة وهيت حتى يصل الى الأنبار ، فتأخذ منه أنهار مثل : نهر عيسى ونهر النيل ونهر الملك وغيرها ، فتصب في دجلة ، ويعلو مستوى الفرات في هذا المكان عند الفلوجة سبعة أمتار عن مستوى دجلة المقابل له والذي لا يبعد عنه اكثر من ٥٠ كيلومتراً ، ولذلك نجد الأنهار الواصلة بين النهرين في هذا الجزء من السواد ، تنحدر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي

---

(١) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ١/٢١٥ .

(٢) سورة الرحمن ٦٢ – ٦٤ .

(٣) العراق قديماً وحديثاً ٥٩ .



خريطة رقم (٦) – منطقة الحيرة

من الفرات الى دجلة ، أما في الجنوب فالأمر على العكس ، إذ يعلو مستوى دجلة عن مستوى الفرات . ويستمر الفرات في رحلته إلى الكوفة ونرسي والطفوف حتى يصل الى البطيحة التي بين البصرة وواسط . واذا أردنا أن نستشف شيئاً مما كان عليه الفرات القديم في منطقة من أهم المناطق التي دارت عليها معارك فتح الحيرة والقادسية بين المسلمين والفرس ، وجدنا المسعودي[1] يصف لنا ذلك فيقول : « وقد كان الفرات الأكثر من مائه ينتهي الى بلاد الحيرة ، ونهرها بيِّن الى هذا الوقت — وقته — وهو يعرف بالعتيق ، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم ، وهي وقعة القادسية ، فيصب في البحر الحبشي ، وكان البحر حينذاك في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت ، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند الى ملوك الحيرة ... فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر براً ، فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة ، ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا ، وكتنقل الدجلة العوراء[2] ، فصار بينها وبين الدجلة في هذا الوقت مسافة بعيدة ، وصارت تدعى ببطن جوخي [أو بطن حرحي] ، وذلك من جهة مدينة فارس من أعمال واسط الى دانوقاء الى نحو بلاد السوس ، وكذلك ما حدث في الجانب الشرقي ببغداد من الموضع المعروف برقة الشماسية ، وما نقل الماء بتياره من الجانب الغربي من الضياع التي كانت بين قُطْرُبُّل ومدينة السلام [بغداد] كالقرية المعروفة بالقب ، والموضع المعروف بالبشرى [أو اليسرى] ، والموضع المعروف بالعين [بالعمر] ، وغير ذلك من ضياع قطربل ، وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقي ممن ملك رقة الشماسية في أيام المقتدر بحضرة الوزير أبي الحسن ... فإذا كان الماء في نحو من ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من سُبع ميل فإنه يسير ميلاً في قدر مائتي سنة ، فإذا تباعد النهر أربعة آلاف ذراع من موضعه الأول ، خربت بذلك

---

(١) مروج الذهب ١/١٠٣ .

(٢) الدجلة العوراء : الاسم القديم لشط العرب .

السبب مواضع وعمرت مواضع ، واذا وجد المـاء سبيلاً منخفضاً وانصباباً ، وسّع بالحركة وشدة الجريان لنفسه ،فاقتلع المواضع من الأرض من أبعد غايتها ، وكلمـا وجد موضعاً متسعاً من الوهاد ملأه في طريقه من شدة جريتـه حتى يعمل بحيرات وبطائح ومستنقعات» . هذا وقد أمدتنا مديرية الآثار العراقية ببغداد مشكورة بخريطة الحيرة (خريطة ٦) – مركز قضاء النجف – ، تدعم ما ذكر المسعودي ، وقد أفادتنـا كثيراً عند تصوير سير المعارك على هذه الأرض .

واعتباراً من جنوب المسيب يتفرع الفرات الى فرعين كبيرين ، ثم يتفرع كل من هذين الفرعين وتجتاز أفرعها أرض السواد حتى تعود الى التجمع مرة أخرى قبل التقائهـا بدجلة [١] ، وهي في هذا تشكل شبكة معقدة غاية التعقيد .

أما دجلة فينبع من جنوب شرقي تركيا ،وطوله من منبعه الى مصبه ١٧١٨ ميلاً ، ويصب فيه كثير من الروافد مثل: الزاب الكبير والزاب الصغير فوق مدينة السن ، يأتيان من بلاد أرمينيـا وأذربيجان ، ثم ينتهي الى تكريت وسر من رأى والمدائن ، فيصب فيه الخندق والصراة ونهر عيسى وغيرهـا من الأنهـار التي تأخذ من الفرات ، وأنهار أخرى تنحدر من جبال ايران . فإذا خرج دجلة من مدينـة واسط تفرقت في أنهـار أخرى الى بطيحة [٢] البصرة .

ويلتقي النهران عند القرنة ليسلكا مجرى واحداً ، بعد ذلك يعرف بشط العرب – وكان يسمى قديماً دجلة العوراء ، ويبلغ طوله [٣] حوالي ١١٠ كيلومتراً

---

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ١٧٤ .

(٢) مروج الذهب ١/١٠٥ .

(٣) جغرافيا العراق الطبيعية ١٨٠ .

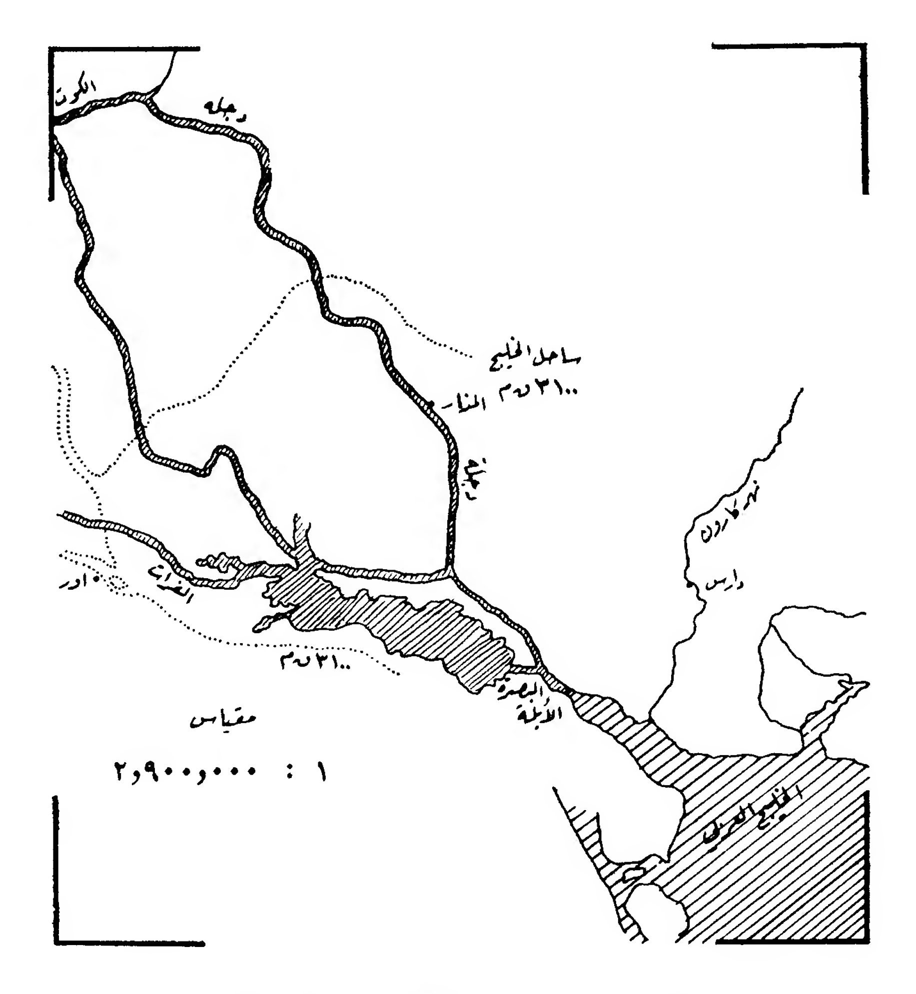
ويبلغ عرضه عند المصب أكثر من كيلومترين ، بينما يضيق عند البصرة الى حوالي كيلومتر واحـد . ويتأثر شط العرب بأحوال المد والجزر في الخليج العربي الذي يتكرر مرة كل حوالي ١١ ساعة ، ويصل الفرق بـين منسوب المد ومنسوب الجزر الى ١,٧٠ متراً صيفاً ، حيث تهبط مياه الأنهار . ويقل الى مـا يقرب من ٢٥ سم خلال موسم الفيضان الذي يستمر حوالي شهراً في الجنوب هو شهر أبريل (نيسان) .

ومن المؤكد أن شط العرب لم يكن على طوله الحالي في عصر الفتح ، ولا كان ساحل الخليج الفارسي حيث هو اليوم . فإن الترسبات التي تجلبها مياه دجلة والفرات تملأ رأس ذلك الخليج بمعدل٧٢ قدماً في السنة أو ميل ونصف في القرن الواحد. وإن الرأي السائد، أن الأراضي الواطئة في جنوب العراق والتي لا تزال تشغل بعض جهاتهـا المستنقعات قد تكونت من الترسبات التي جلبتها أنهار دجلة والفرات والروافد الصغيرة التي تنحدر من هضبة إيران . ومن المعتقد أن الخليج كان يمتد الى شمال موقع بغداد بحوالي ٦٤ كيلومتراً في حوالي سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، وأنه في زمن السومريين كان يمتـد الى موقع مدينة الناصرية على الفرات ، فإن أنهار العراق تصب في الخليج ، وحدوث ظاهرة المد والجزر به مرتين كل يوم قمري ، ينتج عنه مد عال يدخـل الى شط العرب ، فيرتفع مستوى الماء فيه ، ويؤثر في بطء مجراه مما يساعد على ترسيب الطمي وتجمعه . وفي خريطة بمقياس ١ : ٢ مليون نشرتهـا مديرية الآثار العراقية ببغداد ، رسمت حدوداً معينة لساحل الخليج الفارسي عـام ٣١٠٠ قبل الميلاد . بينما كتب ابن بطوطة عن رحلته في منتصف القرن الثامن الهجري ، يقول: « ... والخليج الملح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها — من البصرة — فإذا كان المد غلب المـاء المالح على العذب، وإذا

---

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ٢٥ .

كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح ... » ثم يروى أنــه ركب من ساحل البصرة في قارب صغير الى الأُبُلـَّة ، وبينهــا وبين البصرة عشرة أميال ، فكأنها كانت قريباً جداً من الخليج . فإذا قارنا ذلك كله ببعضه تأكد لدينا



خريطة رقم (٧) – ساحل الخليج في عصر الفتح الإسلامي

أن معدل الترسيب الحالي (ميل ونصف في كل قرن) لم يكن هو المعدل الثابت على مدى العصور . وهذا أمر طبيعي ، فقد تكون كمية الطمي ثابتة ، ولكن اتساع الخليج وعمقه ليس ثابتاً في كل أجزائه . وقد خرجنا من هذا كله بخط تقديري لما كان عليه مكان الخليج من النهر في عصر الفتح الإسلامي التزمناه بعد ذلك في خرائطنا (خريطة ٧) ، كما التزمنا ما سبق أن ذكرنا (خريطة رقم ٦) لمنطقة الحيرة والنجف.ويذكر المسعودي[١] الموضع المعروف بالجرارة (أو الحدارة) فيقول : « ... وهي دخلة من البحر الى البر تقترب من نحو بلاد الأبُلَّة ، ومن أجلها ملح الأكثر من أنهار البصرة . ولهذه الجرارة اتخذت الخشبات في فم البحر مما يلي الأبلة وعبادان عليها أناس يوقدون النار بالليل (مثل الفنار) على خشبات ثلاث كالكرسي في جوف الليل خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرهما ، أن تقع في تلك الجرارة وغيرها فتعطب ، ولا يكون لها خلاص... وهذه الديار عجيبة في مصبات مياهها ، واتصال البحر بها والله أعلم » .

وروافد دجلة المنحدرة إليه من هضبة إيران أكثر من روافد الفرات الذي يشق طريقه وسط الصحاري ، تجعل مياه دجلة أغزر من مياه الفرات . وتقل مياه النهرين كثيراً صيفاً وخريفاً ، حتى يصبح في إمكان الرجل عبور النهر خوضاً في أماكن[٢] متعددة. ولكنها تبدأ في الازدياد شتاء حتى يفيض أحدهما أو كلاهما لكثرة الأمطار على منابعهما بجبال أرمينيا وكردستان . وفي الربيع تذوب الثلوج على الجبال ، وتكثر السيول ويمتلىء حوض النهرين عما يؤدي إلى فيضانات خطيرة ، وتغرق البلاد ، وتنتشر الأمراض ولا سيما الملاريا .

---

(١) مروج الذهب ١/١٠٥ .

(٢) العراق قديماً وحديثاً ٥٩ .

وفضلاً عن تلك الشبكة المتشعبة من الأنهار والنهيرات ، فقد غمرت البحيرات الكبيرة والصغيرة والمستنقعات ثلث أراضي العراق الجنوبي ، وبينما تبلغ بحيرة الحبانية ١٤٠ كيلومتراً مربعاً ، تبلغ مساحة بحيرة الحمار وحدها ٥٢٠٠ كيلومتراً مربعاً. وفي تقرير خاص بعثت به إلينا مديرية الآثار العراقية ببغداد أنه : « عندما كان نهر كَرْي سعده عامراً ، كانت منطقة هور الحمار أرضاً عامرة بالمزارع والقرى ، وما زالت آثار الأبنية القديمة قائمة في منتصف البحيرة ، كتل شعيب وأم الساح وأبو زركي وأبو صلابيخ » . ونهر كري سعده كراه [يعني حفَرَهُ] سعد بن عمرو بن حرام بأمر من سعد بن أبي وقاص . وقد أشار سعد بن أبي وقاص إلى شيء من هذه البطائح ، وهو يصف موقع القادسية في رسالته ، الى عمر بن الخطاب: «..وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاحٍ [متجه] الى الحيرة ... وإن ما عن يمين القادسية الى الولَجَة فيض من فيوض مياههم ». والولجة كانت بالصحراء جنوبي الفرات بجنوب العراق. وفي رسالة من عمر الى سعد : « إنك تقدم على بلد منيع وإن كان سهلاً ، كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه ، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض » .

وأصل هذه البطائح ، أنه في عهد [١] قباذ الأول بن فيروز ، قبل الفتح الإسلامي بقرن من الزمان، انبثقت المياه في فيضان عظيم جنوب كَسْكَر، وغلب ماؤه فأغرق كثيراً من الأراضي الواطئة العامرة . وأعاد كسرى أنو شروان استصلاح بعض تلك الأراضي ، وأقام المسنيات [السدود] لحمايتها . ولكن في عام ٦ أو ٧ من الهجرة ، فاض النهران فيضاناً لم يحدث مثله ، وغرقت الأراضي وحاول كسرى برويز أن يصدها ، واشتد في ذلك حتى أنه صلب في يوم أربعين عاملاً – وقيل سبعين – فلم يقدر على حيلة .

---

(١) فتوح البلدان ٧٤١ – ٧٤٥ .

وغزا المسلمون العراق وانشغلت الفرس في الحروب ، فكانت البثوق تنفجر والجسور تنهار فلا يلتفت اليها أحد . واتسعت البطيحة وعظمت حتى قدّرها ابن رسته بأنهـا كانت ثلاثين فرسخاً في ثلاثين ، وقدّرهـا لي سترانج حديثاً بأنها كانت خمسين ميلا عرضاً في مائتين طولاً ، وهي مساحة قريباً من تقدير ابن رسته (١) . وقد تم استصلاح كثير منها في عهد الأمويين .

والرياح السائدة في العراق شمالية غربية معظم أيام السنة . ويدوم الشتاء من يناير (كانون الثاني) إلى أوائل مارس (آذار) ، ويكون الجو معرضاً للأعاصير التي ينقلب فيها اتجاه الريح الى جنوبية شرقية . ويدوم الصيف من أول يونيه(حزيران) الى آخر سبتمبر(ايلول)أو أوائل اكتوبر(تشرين الأول)، وتزداد الرطوبة صيفاً في الجنوب عنها في منطقة المدائن وبغداد ، مما يجعل السكان يشعرون بالضيق . وفي أشهر الصيف تشرق الشمس من ١٢ الى ١٤ ساعة في اليوم ، وتكون السماء صافية خالية من الغيوم . وشهر يوليو (تموز) أحَرّ شهور السنة ، وتصل الحرارة أحيانـاً في وسط وجنوب العراق الى ٥٠ مئوية . وأحياناً تمر في الصيف عواصف رملية — ربما صادفت أغسطس (آب) — وتدوم فترة الحر الشديد أربعين يوماً، اعتباراً من العشر الأواخر من يونيه (حزيران) حتى نهاية يوليه (تموز) . وتشتد الرياح في بعض أيام الصيف ، فتصل سرعتها الى ٦٥ كيلومتراً ، وكلما ازدادت سرعتهـا ازدادت كمية الغبار الذي تحمله معهـا من صحراء السماوة . وشهور الصيف جافة خالية من المطر .

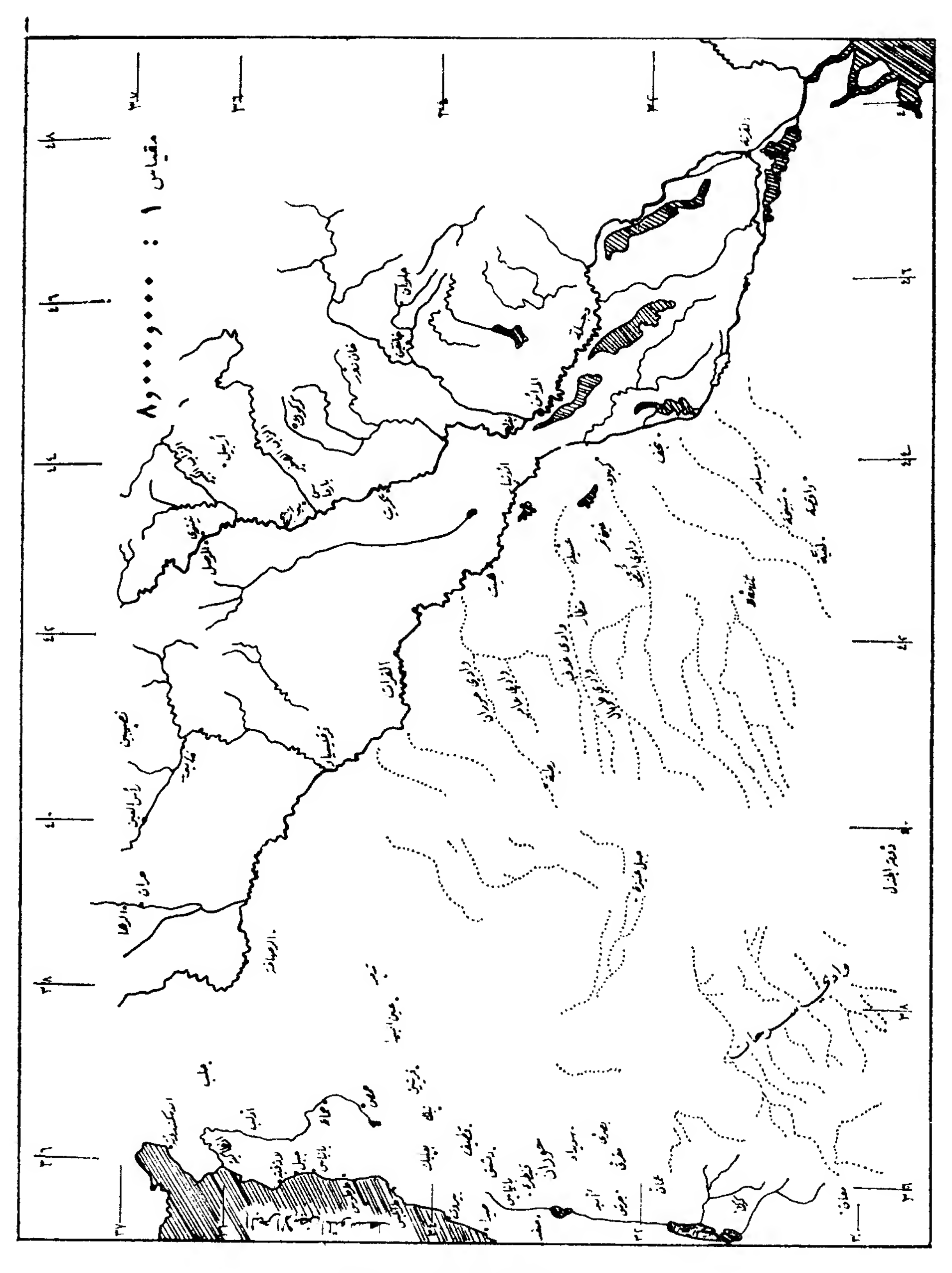
وتفصل صحراء السماوة بين العراق في الشرق والشام في الغرب ، وقد أتاح هذا للمسلمين ميزة استراتيجية ، وهي أنهم في فتح الشام وفي فتح العراق

---

(١) الخراج في الدولة الإسلامية ١٧٩ .

كانوا في مركز يتيح لهم حرية توجيه الضربات يميناً الى الفرس أو شمـالاً الى الروم ، ويسمح لهم بنقل قواتهم بين الميدان الشرقي وبين الميدان الغربي وبين شبه الجزيرة في جهالة تامـة من الفرس ومن الروم الذين لم يكن لهم أن يعلموا أين ومتى وكيف توجه اليهم الضربات . وبادية السماوة لا عيون ولا آبار بها ، وغاية ما يبل الصدى غدران أو برك طبيعية متباعدة وخزانات صناعية يحفظ بها ماء المطر كان يعرفها أهل تلك الجهات ولا يفطن اليها سواهم [١] .

(١) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٦ .



خريطة رقم (٨)– العراق

الباب الخامس

المقاييس

وحدات القياس

يصادف من يتعرض لدراسة التاريخ الإسلامي بوحدات للقياس تختلف عما يجري به العمل اليوم ، فنجد البريد والفرسخ والميل والذراع لقياس المسافات والأطوال ، ونجد الدينار والدرهم كوحدات للمعاملات . ولا بد لمتابعة البحث من الوقوف على الصلة بين هذه الوحدات والوحدات المعلومة لنا. وقد تعرض لهذا الأمر كثير من المؤلفين العرب والمستشرقين ، واختلفوا فيما وصلوا اليه اختلافاً كبيراً ، وذهب كل منهم يدلل على وجهة نظره ويسوق أدلة تحقيقه . ولا نرغب أن نعيد هنا ذكر ذلك ، فهو ليس من أهداف هذا البحث ، وحسبنا أن نجتزىء النتيجة التي نطمئن اليها . ونزكي ما توصل اليه الاستاذ المحقق محمد ضياء الدين الريس وضمّنه نحواً من تسعين صفحة من كتابه « الخراج في الدولة الإسلامية » ، فهو بحث مفيد ونافع ولا غنى عنه لدارس التاريخ الإسلامي .

المسافات والأطوال

اليوم = ٢ بريد = ٨ فراسخ = ٤٤,٣٥٢ كيلومتراً .

البريد = ٤ فراسخ = ٢٢,١٧٦ كيلومتراً .

الفرسخ = ٣ ميل = ٥٥٤٤ متراً = ١٢٠٠٠ ذراعاً مرسلة = ٩٠٠٠ ذراعاً هاشمية .

المرحلة = من خمسة فراسخ الى ستة [من ٢٨ الى ٣٣ كيلو ومتوسطها ٣٠,٥ كيلومتراً] .

الميل = ٤٠٠٠ ذراع مرسلة = ٣٠٠٠ ذراع هاشمية = ١٨٤٨ متراً .

وقد جاء في The Concise Oxford Dictionary أن الميل البحري أو الجغرافي الذي هو دقيقة من دائرة الأرض الكبرى قد حددته البحرية البريطانية بأنه ٦٠٨٠ قدماً . والقدم الانجليزي ٣٠,٤ سم ، يعني أن الميل البحري = ١٨٤٨,٣٢ متراً . وهو مقدار الميل العربي .

الغلوة = $\frac{١}{١٠}$ ميل = ١٨٤,٨ متراً .

الذراع الأساسي = ٤٦,٢ سم . وله أسماء أخرى ، فهو الذراع الأصلي، والشرعي ، والمرسلة، والمصري العتيق ، والصحيح ، وذراع القياس ، وذراع اليد ، وذراع الكرباس ، وذراع العامة، والذراع الآدمي ، والذراع الصغير .

الذراع السوداء = ٥٠,٦٩ سم .

الذراع القديم = ٥٣,٩ سم وهو ذراع الملك الفارسي .

الذراع الهاشمي = ٦١,٦ سم وهو ذراع الملك ، وهو ذراع المساحة .

الذراع البلدي = ٥٧,٧ سم وهو ذراع النجار .

القدم = ٣٠,٨ سم [القدم الانجليزي ٣٠,٤ سم] .

المساحات

الجريب = ٣٦٠٠ ذراعاً مربعة من الأذرع الهاشمية = ١٣٦٦ متراً مربعاً .

والفدان المصري الحالي = ٣,٠٧ جريب = $\frac{٥}{٦}$ ٤٢٠٠ متراً مربعاً . أما الفدان القديم الذي كان على عهد دخول الفرنسيين مصر فقد كان ٥٩٢٩ متراً مربعاً .

الفرسخ المربع = ٥٠٠ ٢٢ جريب .

القفيز = $\frac{١}{١٠}$ جريب = ١٣٦,٦ متراً مربعاً .

العشير = $\frac{١}{١٠}$ قفيز = ١٣,٦٦ متراً مربعاً .

والجريب والقفيز أيضاً اسمان لمكيالين .

المكاييل

الصاع = ٢,٧٥ لتراً = قدح وثلث .

القسط = ١,٣٧ لتراً = $\frac{٢}{٣}$ قدح .

القفيز = ٣٣ لتراً = ١٢ صاعاً = ٤٨ مُدّاً = ٢ كيلة مصري .

وهو الذي وضعه عمر بن الخطاب على سواد العراق مع الدرهم عند فتحه، وهو الذي كان موضوعاً من عهد كسرى أنو شروان .

الجريب = ٨ قفيزاً .

الكر = ٦٠ قفيزاً .

الموازين

الأوقية = ٤٠ درهماً.

الشعيرة = $\frac{١}{٦٠}$ من الدرهم .

النش = ٢٠ درهماً.

النواة = ٥ دراهم .

النقود [1]

تهتم الشريعة الإسلامية بالنقود في ميدان العبادات والمعاملات ، وذلك لاتصال النقود بالزكاة والخراج والعشور والجزية والصداق والعقود والوقف والديات والعقوبات ... الخ . وقد مرت النقود في تاريخ المسلمين بأدوار من الزيادة والنقصان في فئة العملة المتداولة ، مما استدعى معرفة نوع العملة ومقدارها في العصر الذي نبحثه . وقد استخدم المسلمون في ذلك العصر نوعين من العملة هما: الدينار والدرهم .

الدينار

كان الدينار أصلاً عملة رومانية ذهبية عرفها العرب وتعاملوا بها قبل الإسلام وبعده . وقد أشار اليها القرآن الكريم [2] في قوله : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنْه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً » . وحين أصلح عبد الملك بن مروان النظام النقدي في الدولة الإسلامية سنة ٧٤ هـ ، لم يمس عيار هذه العملة ، وإنما عمل على ضبط وزنها عن طريق صنج زجاجية غير قابلة للزيادة أو النقصان وإلا انكسرت فبطلت ، ومن ثم أصبح الوزن الشرعي للدينار الإسلامي منذ تعريبه هو وزن المثقال ، ولم يتغير وزن الدينار عن هذا ابداً في أي عصر من العصور [3] وهو٤,٢٥ غراماً، وكان عيار الدينار العربي وأجزائه مرتفعاً، وكان في الغالب ٢٣ ٣/٤ قيراطاً . فإذا أردنا حساب قيمته بعملة اليوم ، نجد أن غرام الذهب من هذا العيار في ١٩٦٩/٤/٣٠ بسوق الموسكي بالقاهرة

---

(١) النقود العربية ٦ .
(٢) سورة آل عمران ٧٥ .
(٣) الخراج في الدولة الإسلامية ٣٣٦ .

يساوي ١١٠ قرشاً مصرياً . نخلص من هذا الى أن ذلك الدينار كان فيه من الذهب ما يساوي ٠,٦٧٥ جنيهاً مصرياً في التاريخ المزكور . وبطبيعة الحال يتغير هذا السعر من يوم لآخر ومن سوق لآخر ، وهذه طبيعة أسواق النقود يتغير سعر المبادلة فيها بتغير الزمان والمكان.فعلى من يريد أن يقدر قيمة ذلك الدينار، في أي وقت ، أن يحسب قيمة ما فيه من الذهب ، إذ ليست النقود في واقع أمرها إلا سلعة عيارية يرتضيها الجميع كأداة للمبادله وتقييم لها . وقد كانت النقود في ذلك الوقت تستمد قيمتها من قيمة ما فيها من المعدن الثمين ، وليس من سعر إلزامي يفرضه القانون كما هو شائع في عملات اليوم من المعادن الرخيصة أو العملات الورقية .

الدرهم [١]

هو عملة فضية اشتق اسمها من الدراخمة اليونانية . وقد استعار العرب استعماله من الفرس . وقد ذكر البلاذري[٢] أنه كانت ترد عليهم دراهم الفرس البغلية [نسبة الى ملك اسمه رأس البغل] كما قال : « إن الدراهم الواردة من بلاد الفرس كانت مختلفة الأوزان ، صغاراً وكباراً ، فكان منها ما هو مثقال وزن عشرين قيراطاً ، وكان منها ما هو اثنا عشر قيراطاً ، وكان منها ما هو عشرة قراريط »، وذكره الماوردي أيضاً . وقد حدد عمر بن الخطاب وزن الدرهم بالوزن المتوسط بين هذه الأنواع الثلاثة فكان وزنه ١٤ قيراطاً ، وبذلك يكون ١٤ / ٢٠ من المثقال أي ٧ / ١٠ ، واعتبر هذا هو الدرهم الشرعي الذي انعقد عليه الإجماع منذ صدر الإسلام . غير أن ما فعله عمر بن الخطاب كان درهماً حسابياً فقط ، ولكنه لم يضرب نقوداً جديدة على هذا الوزن .

---

(١) النقود العربية ١٠ .
(٢) فتوح البلدان ٥٧١ .

وحين أصلح عبد الملك بن مروان النظام النقدي حدد وزن الدرهم بسبعة أعشار وزن الدينار ، أي أنه كان ٢,٩٧٥ غراماً ، وضرب الدراهم بهذا الوزن . وكان الدرهم الساساني المستخدم في فجر الإسلام[1] قطعة مستديرة من الفضة على أحد وجهيها نقش يمثل الجزء العلوي من صورة كسرى، ويظهر وجهه في وضع جانبي [بروفيل] ، وعلى رأسه التاج الساساني المجنح . أما الوجه الثاني للدرهم ، فعليه حارسان مسلحان أو كاهنان بينهما بيت نار . وتشير الكتابات البهلوية المنقوشة على الدرهم إلى اسم الملك ، وأحياناً عبارات دعائية له ولأسرته . وفي الهامش الخارجي للدرهم توجد ثلاثة أو أربعة أهلة، وفي داخل كل هلال نجمة إشارة الى كوكب الزهرة عند تقابله مع القمر ، وهو دلالة على الرخاء عند منجمي الفرس . وقد كان الفرس أهل تنجيم يعتقدونه ويرسمون تصرفات حياتهم بمقتضاه .

تطور النقد العربي[2]

كان العرب يحصلون من معاملاتهم مع الشام على أرباح طائلة تصل الى ١٠٠٪ وكانوا يحصلون أحياناً من قافلة تجارية واحدة الى الشام على خمسين ألف دينار من الذهب [حوالي ربع مليون جنيه مصري] . ولقد كانت تصل الى شبه الجزيرة الى جوار النقود البيزنطية والفارسية قطع قليلة من النقود الحميرية من اليمن . وكانوا يسمون الدراهم الفارسية الساسانية الوَرِق ، والورق في اللغة هو الفضة ، وفي سورة الكهف: « فابعثوا أحدكم بورِقكم هذه إلى المدينة.. » وعرفوا الدنانير البيزنطية الذهبية على أنها تبر ، كما كانوا يسمونها « العين » . فلما جاء الإسلام أقر الرسول ﷺ تعامل الناس بهذه النقود وقال : «المكيال مكيال المدينة ، والميزان ميزان مكة » ، وقد كانت النقود من الموازين ،

---

(١) النقود العربية ٢٤

(٢) النقود العربية ٢٢ .

والوزن يراد به الذهب والفضة خاصة . وقد تعامل الرسول نفسه بها فزوّج علياً رضي الله عنه ابنته فاطمة رضي الله عنها على صداق قدره ٤٨٠ درهماً، وجعل زكاة المال خمسة دراهم عن كل خمس أوقيات من الفضة ، ونصف دينار عن كل عشرين ديناراً من الذهب . وكان تعامل العرب بهذه النقود بالوزن ، ولم يكن بالعدد .

وسار أبو بكر رضي الله عنه بسنة النبي ﷺ في إقرار العمل بهذه النقود، فلم يغير منها شيئاً . فلما ولي عمر ، وفتح الله على المسلمين بلاد فارس ، أقر التعامل بالنقود الساسانية في العراق وفارس ، كما هي بلغتها وحروفها البهلوية وشاراتها وشمائرها غير الإسلامية ، حتى أسماء دور السك وتاريخ الضرب استمر باللغة البهلوية كذلك . وقد ورد على هذه الدراهم التي ضربها المسلمون على الطراز الساساني أسماء ما يقرب من مائة دار للسك كانت تسكها . وفي عام ١٨ هـ ، ضرب عمر بن الخطاب الدراهم بنفس النقش حتى بصورها ، غير أنه زاد عليها عبارة : « الحمد لله » ، وفي بعضها : « محمد رسول الله » ، وفي بعضها : « لا إله إلا الله وحده » .

وفي عهد عثمان ، ضربت دراهم نقش عليها : « الله أكبر » ، وظل الدرهم يحمل الطابع الساساني ، وأسماء وصور بني ساسان أكثر من نصف قرن تحت الحكم الإسلامي ، حتى كتب الحجاج بن يوسف الثقفي اسمه بالعربية على الدراهم، ثم اختفى تماماً هذا الطراز الساساني في إصلاح عبد الملك بن مروان للنظام النقدي للدولة سنة ٧٤ هـ .

ومثل ذلك جرى مع الدينار الرومي، فقد قبل عمر بن الخطاب النموذج البيزنطي للدينار عندما ضرب [١] نقوده . وظلت الدنانير تحمل الشارات

---

(١) النقود العربية ٢٦ .

المسيحية والصلبان فوق تيجان الأباطرة، وفوق عصا المطرانية ، ثم بدأ ذلك يختفي في تطور تدريجي طويل لتظهر بدلاً منها الكتابات العربية ، وصور الخلفاء حتى صارت عربية تماماً في عهد عبد الملك بن مروان .

ومن الثابت فيما يختص بسنوات الفتح ، وما قبلها ، وما بعدها أن بلاد العراق وفارس اختصت بالدراهم الفضية ، بينما اختصت الشام ومصر والمغرب بالدنانير الذهبية ، ذلك أن البيزنطيين كانوا قد عقدوا مع الساسانيين معاهدة بشأن النقود تقضي بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة ، وألا يتخذوا نقوداً ذهبية سوى النقود البيزنطية الجارية في التعامل ، ولا غرابة في هذا ، فقد كان الساسانيون يفتقرون الى الذهب في القرن السابع الميلادي نتيجة الحروب التي شنوها على الروم ، ثم الهزيمة التي أوقعها بهم هرقل ، وما تبع ذلك من فوضى ، وارتفاع نفقات الحرب ، والجزية الحربية .

أما قبول المسلمين لاستمرار سك النقود على الطراز الساساني بما فيه من بيوت النار ، وصور الأكاسرة الذين بادوا وبحروف بهلوية ، أو على الطراز البيزنطي بما فيه من صلبان وصور ملوك الروم والنقش عليها بحروف رومية ، هذه الظاهرة لا ندري لها تعليلاً أكيداً ، ولكننا نظن أنها تتمشى مع روح الإسلام المتسامحة في احترام حرية العقيدة والرأي ، وما دام أهل فارس ما زالوا مجوساً ، فلتكن نقودهم على شعاراتهم ، وما دام أهل الشام ومصر ما زالوا على نصرانيتهم ، فلتكن النقود المسكوكة لتعاملهم حاملة لصلبانهم وشعاراتهم كما يريدون . تسامح المسلمين مع الشعوب المفتوحة أمر معروف ، وقرآنهم هو الذي يعلمهم : « لا إكراه في الدين » . أما بعد أن دخلت هذه الشعوب أفواجاً في دين الإسلام ، ومال أهلها عن دياناتهم الأولى إلى دين الإسلام ، فلم يعد ثمة معنى لاستمرار سك النقود على الطرازات الساسانية أو البيزنطية ، وإنما تصبح شعارات الإسلام هي المناسبة لهم ، وهو ما فعله عبد الملك بن مروان عام ٧٤ هـ ، بعد حوالي ستين عاماً من الفتوح .

وقد كانت الأوقية عند العرب ٤٠ درهماً = ١١٩ غراماً ، ونصاب الزكاة في الفضة خمس أواقي = ٥٩٥ غراماً ، وهذه كان عليها خمسة دراهم . أما النصاب من الذهب فهو ٢٠ ديناراً = ٨٥ غراماً من الذهب ، وكان فيه نصف دينار . هذان المقداران من نصاب الذهب والفضة كانا متساويين في القيمة . ومعنى هذا أن ثمن الوزن من الذهب كان سبعة أمثال نفس الوزن من الفضة . ولما كان الدينار يزن مثقالاً في حين يزن الدرهم ٧/١٠ مثقال ، فإن هذا يعني أن الدينار الواحد كان يساوي في قيمته عشرة دراهم . يؤيد هذا أن عمر بن الخطاب جعل في الجزية أربعة دنانير على أهل الذهب معادلة لأربعين درهماً على أهل [1] الفضة .

هذا ونستطيع أن نجد بعض أسعار ذلك العصر من قيمة الدية بنفس القيمة من أصناف متنوعة ، فقد كانت كالآتي [2] :

- ١,٠٠٠ دينار على أهل الذهب .
- ١٠,٠٠٠ درهم على أهل الفضة .
- ١٠٠ من الإبل .
- ٢٠٠ من البقر .
- ٢,٠٠٠ من الغنم .
- ٢٠٠ من الحلل .

إذاً ، فقد كان الجمل مساوياً مائة درهماً أو عشرة دنانير ، والبقرة خمسين درهماً ، والشاة خمسة دراهم ، والحلة خمسين درهماً . هذه نماذج من القوة الشرائية لتلك النقود في ذلك العصر .

---

(١) فتوح البلدان ١٤٨.
(٢) الخراج في الدولة الإسلامية .

وقد استعرض الأستاذ الريس بعض تقديرات المؤلفين المحدثين لقيمة هذه العملة. وانتهى الى أن تقدير الدينار بأنه ستين قرشاً مصرياً هو الأقرب الى الصحة، وبناء على ذلك، فإن قيمة الدرهم في تقديره [وهو عشر الدينار] تساوي ستة قروش. ولنا على هذا اعتراض، إذ من المحال أن نعتبر الدينار الذي يحوي من معدن الذهب ما قيمته ٤,٦٧٥ جنيهات مصرية أن قيمته ستون قرشاً، وإنما قيمته ترتبط قطعاً بقيمة ما فيه من ذهب. أما اذا أردنا تقييم الدرهم بنفس الطريقة، فإننا نجد أن سعر غرام الفضة في سوق الموسكي بالقاهرة في ١٩٦٩/٤/٣٠ = ٢٨,٨٤ مليماً، ومن حيث أن الدرهم كان يزن ٢,٩٧٥ غراماً، فإن قيمته إذاً تعادل ٨٥,٧٩٩ مليماً مصرياً [حوالي ٨٦ مليماً]، وفي هذه الحالة نجد أن النسبة بين الدرهم والدينار قد اختلت كثيراً، فلم تعد ١ : ١٠، وإنما صارت نحواً من ١ : ٥٥. هذا الاختلال في النسبة نتج عن اختلاف قيمة الفضة بالنسبة للذهب تماماً، كما اختلت النسبة في القيمة بين البقر والذهب أو الفضة. فإن البقرة كانت تساوي خمسة دنانير أو خمسين درهماً، ولكنها اليوم لا تساوي هذا ولا ذاك، فإذا استخرجنا قيمتها على قاعدة الذهب كانت ٢٣,٣٧٥ جنيهاً مصرياً، وإذا استخرجنا هذه القيمة على قاعدة الفضة كانت ٤,٢٩٠ جنيهات مصرية، في حين أن البقرة في مصر في التاريخ المذكور تساوي ١١٠ من الجنيهات.

التقويم

كان من المفيد كثيراً في بحثنا هذا، أن نربط التقويم القمري الهجري بالتقويم الشمسي الميلادي للفترة التي ندرسها. ولقد أفادنا هذا في مطابقة الأحداث مع فصول السنة وطبيعة المناخ والمحاصيل والفيضانات، كما أفادنا في الضبط والترجيح بين بعض التواريخ المختلف عليها. ولقد أخذنا مطالع العام الهجري من قاموس المنجد، وكذلك أيام الأسبوع منسوبة إلى التقويم الشمسي، ومزجنا ذلك كله. بطبيعة الحال تختلف بدايات ونهايات الشهور

القمرية باعتبار ما اذا كان الشهر السابق ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين ، وهو ما لا يمكن اليوم ضبطه تفصيلاً لذلك العصر ، بل إن نتائج اليوم لعصرنا الذي نعيش فيه لتعجز عن ضبطه ، ولذلك فهناك احتمال لفروق مقدارها يوم . ومع ذلك فقد حاولنا جهدنا الإقلال من هذا الاحتمال بتطبيق ما علم لنـــا من التاريخ القمري منسوباً الى أيام الأسبوع ، كأن يذكر الرواة أن رسول الله ﷺ توفي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ١١ هـ، وان السيدة فاطمة توفيت ليلة الثلاثاء الثالث من رمضان ١١ هـ ، وأن وقعة أجنادين كانت سنة ثلاث عشرة في جمادي الأولى لليلتين بقيتا منه يوم السبت قبل وفاة أبي بكر رضي الله عنه بأربع وعشرين ليلة ، وأن وفاة أبي بكر ، كانت مساء الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة عام ١٣ هـ وهكذا ...

وبذلك تمكنا من تحديد التاريخ الميلادي لكل حادثة أو معركة بأقرب ما يمكن من الدقة ، وأثبتنا التاريخ الميلادي الى جانب التاريخ الهجري كما سيمر معنا .



الجزء الثاني



الباب السادس

مدخل الى الفتوح

مع الردة

تمهيد

كانت حركة الفتوح من ناحيتيها السياسية والحربية امتداداً لعمليات ردع الردة في جزيرة العرب . ولذلك كان علينا لكي ندخل العراق من أبوابه مع جيوش الفاتحين أن نبدأ من الردة، فنذكر عجالة جد مختصرة عنها ، وعن ما وقع فيها .

توفي رسول الله ﷺ في الثاني من ربيع الأول ١١ هـ ، وولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة . وقد أمر الرسول قبل وفاته ببعث أسامة بن زيد بن حارثة الى تخوم الشام ، فبادر أبو بكر بتنفيذ ذلك في آخر ربيع الأول ١١ هـ . وكما جاءت وفود العرب من قبل الى رسول الله ﷺ معلنة إسلامها ، فقد جاءت الآن الى أبي بكر [1] لتعلن ارتدادها. وجاءته الأخبار من أرجاء شبه الجزيرة أن العرب قد انتقضوا ومنعوا ما كانوا يؤدونه الى رسول الله

---

(١) الطبري ٢١٢/٣ عن عبيد الله بن سعيد ، عن عمه عن سيف . و س ش س ، عن هشام بن عروة عن أبيه .

ﷺ من الزكاة ، إلا قريشاً وثقيفاً وأهل المدينة . وذهب بعض من ارتد الى أبعد من ذلك قبل وفاة النبي ، فادّعى النبوة ! مثل الأسود العنسي باليمن ومسيلمة بن حبيب الكذاب في بني حنيفة باليمامة ، وطليحة بن خويلد في بني أسد ، وقد اجتمع اليه المرتدون من طيء وغطفان وأشجع . وتذبذبت هوازن فقدمت رجلاً وأخرت أخرى ، وارتد بعض من سُلَيْم ، وكذلك سائر الناس بكل مكان. وجاءت كتب أمراء النبي ﷺ من كل مكان بانتقاض من انتقض وتبسطهم بالتنكيل والتمثيل بالثابتين [١] على إسلامهم .

وأُخِذَ المسلمون بالموقف لولا أن قيّض الله أبا بكر الذي يعدل إيمانه إيمان أمة . قال عبد الله بن مسعود : « لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله مَنّ علينا بأبي بكر ، أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون، وأننا نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم ، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ، ومن قتل منا في الجنة ، وأن يَدُوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم [٢] ».

كان طبيعياً أن ينتظر أبو بكر رجوع أسامة وجيشه قبل أن يتحرك لردع المرتدين ، غير أن عبساً وذبيان عاجلوه وخرجوا في زحف يريدون المدينة ، فبادرهم في جمادى الأولى أو الثانية عام ١١ هـ وقاتلهم قبل رجوع أسامة . وكان على ميمنة أبي بكر النعمان بن مقرّن المزني ، وعلى ميسرته أخوه عبد الله بن مقرن ، وعلى الساقة [المؤخرة] أخوهما سويد بن مقرّن

---

(١) الطبري ٣/٢٢٢ عن عبيد الله عن عمه عن سيف . و س ش س ، عن هشام بن عروة عن أبيه .

(٢) ابن الاثير ٢/١٣٠ .

المزني [١] ، وخرجوا من آخر الليل ، فما طلع الفجر إلا وهم والمشركون في صعيد واحد ، ما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما بزغت الشمس حتى ولوا الادبار ، وغلب المسلمون المرتدين على أرضهم ، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة ، فوضع فيها النعمان بن مقرن في عدد ، ثم عاد الى المدينة . ووثب المشركون من عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة ، وفعل من وراءهم من المشركين مثل فعلهم في سائر القبائل، فحلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة بمن قتل من المسلمين [٢]. وانضمت فلول عبس وذبيان إلى طليحة في بزاخة من مياه بني أسد . ومع رجوع أبي بكر الى المدينة جاءته صدقات من ثبت على إسلامه من القبائل ، منهم عدي بن حاتم الطائي جاء بزكاة مسلمي بني طيء .

جيوش حروب الردة

وعاد أسامة وجيشه بعد أربعين يوماً من مخرجه – وقيل بعد سبعين – فأبقاهم أبو بكر بالمدينة ليريحوا ظهورهم (خيلهم وإبلهم) ، وبعدما استجموا عقد أبو بكر أحد عشر لواء وجهها الى المرتدين في مواطنهم من أرجاء شبه الجزيرة . وكانت هذه الجيوش [٣] كالآتي :

١ – خالد بن الوليد الى طليحة بن خويلد في بني أسد ومن انضم اليهم من مرتدي طيء وعبس وذبيان . فإذا فرغ منه فإلى مالك بن نويرة ، زعيم ردة بني تميم بالبطاح .

---

(١) النعمان بن مقرن وإخوته ، سيتردد ذكرهم كثيراً في الفتوح .

(٢) الطبري ٣/٢٢٤ س ش س ، عن سهل بن يوسف ، عن القاسم بن محمد .

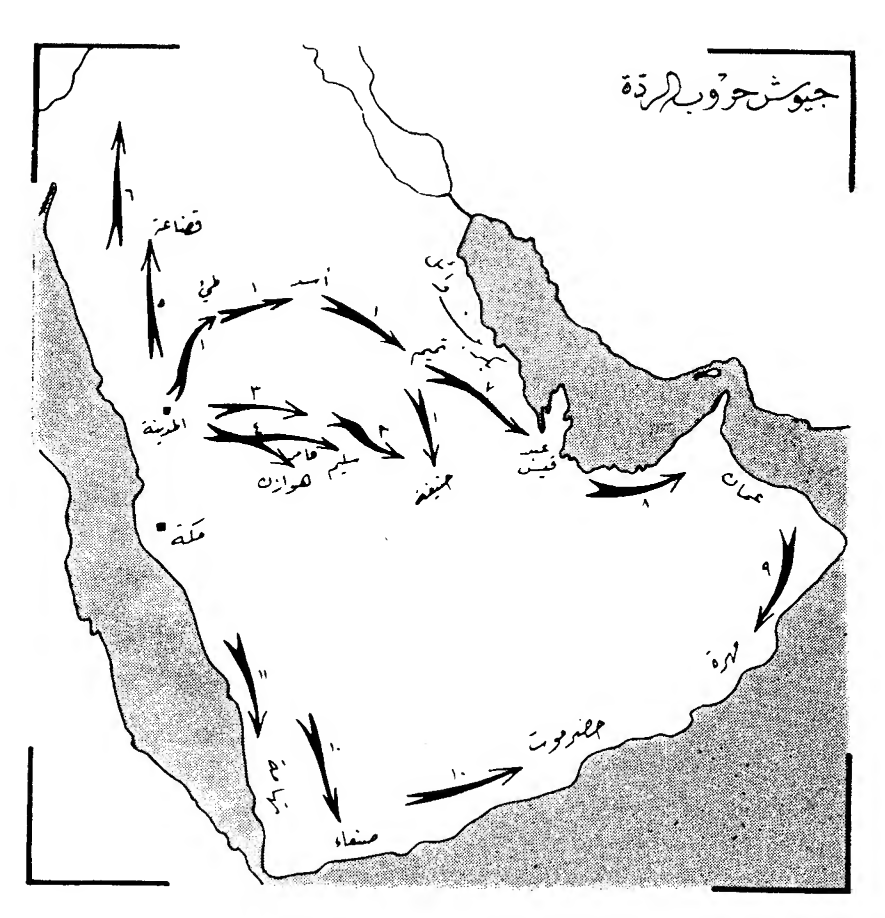
(٣) الطبري ٣/٢٢٥ س ش س، عن سهل بن يوسف ، عن القاسم بن محمد .
وهذا الترقيم للجيوش من عندنا .

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل الى مسيلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة .

٣ ـ شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة ولنفس الهدف .

٤ ـ طريفة بن حاجز الى بني سليم ومن معهم من هوازن .

٥ ـ عمرو بن العاص الى قضاعة ووديعة والحارث .



خريطة رقم (٩) – جيوش حروب الردة

٦ — خالد بن سعيد الى مشارف الشام .

٧ — العلاء بن الحضرمي الى البحرين .

٨ — حذيفة بن محصن الغلفاني الى دَبا بعُمان .

٩ — عرفجة بن هرثمة الى أهل مهرة .

١٠ — المهاجر بن أبي أمية الى الأسود العنسي بصنعاء ثم الى حضرموت .

١١ — سويد بن مقرّن الى تهامة اليمن .

منشور الخليفة الى القبائل

وكتب أبو بكر الى جميع قبائل العرب كتاباً من صيغة واحدة[١]، هي:

« بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ الى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه .

سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والعمى .

فإني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ، نقر بما جاء به ونكفّر من أبى ونجاهده .

أما بعد ، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده الى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ويحق القول

---

(١) الطبري ٣/٢٢٦ س ش س، عن عبد الله بن سعيد، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك .

على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب اليه، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه حتى صار الى الإسلام طوعاً وكرهاً . ثم توفي رسول الله ﷺ وقد نفد لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه ، وكان الله قد بيّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال : « إنك ميت وإنهم ميتون [1] » . وقال : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون [2] » . وقال للمؤمنين : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضُر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين [3] » . فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حيٌّ قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه .

وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاءكم به نبيكم ﷺ ، وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلي ، وكل من لم يعنه مخذول . فمن هداه الله كان مهتدياً ومن أضله كان ضالاً ، قال الله تعالى : « من يهد الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً [4] ». ولم يُقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلاً [5] » .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٣٠ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٤ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ .
(٤) سورة الكهف، الآية ١٧ .
(٥) سورة الكهف، الآية ٥٠ .

وقال : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير »[1] .

وإني بعثت اليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه ، وأن يُحْرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله، وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان . فإن أذّن المسلمون فأذّنوا ، كفّوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم . وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم » .

تعليمات الى قادة الجيوش

خرجت الرسل بالكتب أمام الجنود وخرجت أمراء الجيوش في جيوشهم على آثارهم ومعهم عهود هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته . وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام الى أماني الشيطان بعد أن يعذر اليهم فيدعوهم بداعية الإسلام . فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، لا يُنظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب الى أمر

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٦ .

الله عز وجل وأقرّ له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسرّ به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام . فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه . ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه . وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يُدْخل فيهم حَشْواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوناً [جواسيس] ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول » .

عمليات الجيش الأول

والثاني والثالث والرابع

خالد يجتاح بني اسد

هذا الجيش الأول الذي تجمع في ذي قصة خارج المدينة على بريد منها نحو نجد ، كان عدته أربعة آلاف أقلهم من المهاجرين، وكان فيهم من الأنصار ما بين أربعمائة الى خمسمائة عليهم ثابت بن قيس ويحمل رايتهم أبو لبابة ، وكان أكثرهم من القبائل القريبة من المدينة ، بعضهم من كنانة . وعقد أبو بكر لواء الحملة ثم عرض إمارتها على زيد بن الخطاب ، فاعتذر عنها بأنه ينشد الشهادة ، وأن قائد الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه . فعرضها على أبي حذيفة بن عتبة ، فاعتذر عنها للسبب نفسه . فعرضها على سالم مولى أبي حذيفة فكان كسابقيه ، فأمّر على الجيش[1] خالد بن الوليد . يدلنا هذا على أن خالداً حتى ذلك التاريخ ، ورغم أنه سيف الله المشهود له في ميادين الحرب ، لم يكن بين الصحابة المرشح بالتزكية ، بل كان هناك من ينظر اليهم على الأقل بأنهم أنداد له وأقران .

---

(١) عرجون ، وعبقرية خالد ٩٦ و ١٦١ .

أقام طليحة في منازل بني أسد ببزاخـة ، وقد انضمت اليه فلول عبس وذبيان الذين هزمهم أبو بكر رضي الله عنه . وأرسل طليحـة الى جديلة والغوث [بطنين من طيء] ، فتعجل أقوام منهم إليه وأوصوا قومهم باللحاق بهم. غير أن عدي بن حاتم الطائي – وكان ممن ثبت على إسلامه من بني طيء، وقدم على أبي بكر بالمدينة بإبـل الصدقة ، ثم خرج مع خالد في جيشه – استمهل خالداً أياماً حتى يثني طيئاً عن ردتهم [1] ، وأفلح في ذلك، وأرسلوا في استرجاع من سبق منهم الى بزاخة، فرجع إليهم خمسائة فارس من الغوث. فقال خالد : « يا أبا طريف ألا نسير الى جديلة ؟».

قال عدي : « يا أبا سليمان لا تفعل . أقاتل معك بيدين أحب إليك أم بيد واحدة ؟ »

قال : « بل بيدين » .

قال : « فإن جديلة إحدى يدي » .

فكف عنهم خـالد فأتاهم عدي فدعاهم الى الإسلام فأسلموا . فحمد الله وسار بهم إلى خالد وهم في أهبة الحرب . فلما رآهم خالد في عدتهم ظن أنهم جاءوا لحربه ، فنادى في جيشه ، فقيل إنمـا هي جديلة أتت تقاتل معك ، ففرح بهم. وقالوا له: « نحن لك حيث أحببت»، فضمها خالد الى جيشه وعقد لواء طيء، غوثها وجديلتهـا لعدي [2] بن حاتم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب أوشكوا أن يكونوا عليهم . فكان عدي أبرك رجل على قومه ، وبذلك صار جيش خالد خمسة آلاف . وكانت سليم مـا زالت مترددة في ردتها ، فلما سار خالد نحو بني أسد ، كتب خالد الى معن بن حاجز عامل

---

(١) راجع ترجمة عدي بن حاتم في آخر الكتاب .

(٢) صادق عرجون ١٣٠ ، خالد بن الوليد .

أبي بكر على سليم أن يسير بمن ثبت معه على الإسلام . فسار إليه معن وقد استخلف على عمله أخاه طريفة بن حاجز قائد الجيش الرابع من جيوش ابي بكر لقمع الردة . هؤلاء الذين سار بهم معن من سليم لم نقف على عددهم .

وشغلت نجد كلها بهذه المعركة التي على الأبواب . كان ضرار بن الأزور من فرسان بني أسد المشهورين ، ومن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مع خالد في جيشه وهو يتجه الى قومه من بني أسد. وقد كان من القادة الذين اعتمد عليهم خالد في حروب الردة وفي فتوح العراق والشام . كانت لضرار مكانة في أهل المنطقة ، وكان أخوه عبد الرحمن بن الأزور ثابتاً على إسلامه ، ولكنه لبث في بلاد قومه من بني أسد حيث ظهرت الردة ، فبعث الى ضرار ليحرض الأنصار على جهاد المرتدين قصيدة مطلعها :

قد قلت للمرء الشقيق ضرار طال البكاء لفرقة الأنصار

كذلك أرسل مهلهل بن زيد الخيل الطائي الى ضرار [1] يقول : « في حال محاربة طليحة ، إن دهمكم طليحة فأعلمني فإن معي حد العرب [قوتهم] ونحن بالإكثار [مكان] بجبال فيد » ، أولئك مسلمون ارتفعوا بإيمانهم فوق النزعة القبلية ، وقد كان بين أسد وبين طيء حلف في الجاهلية أراد طليحة أن يستغله في تجنيد طيء معه .

ولما تراءى [2] جند طليحة قال عدي بن حاتم لخالد : « يا أبا سليمان اجعل قومي مقدمة أصحابك » . فقال له خالد : « يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب وأنا أخاف أن أقدم قومك، فإذا لحمهم القتال انكشفوا فانكشفت

---

(١) الاستيعاب ٢/٢٠٣ – الإصابة ٤١٧٢ – ٦٣٦٨ – ٨٤٧٣ . وكان لضرار فرس من مشاهير خيل العرب اسمها : المحبر ، فكان يقال له : فارس المحبر [بلوغ الأرب ٢/١١٧] .
(٢) عرجون ١٣١ .

من معنا ، ولكن دعني أقدم قوماً صُبُراً لهم سوابق ، وهم من قومك [يقصد المهاجرين والأنصار] » ، فقال عدي : « الرأي ما رأيت » . ولا شك أنها كانت نظرة صائبة من خالد تدل على إدراكه أصول علم النفس العسكري .

ودارت المعركة بين خالد وبين طليحة ، وقد اجتمع اليه جيش يربو على جيش خالد بألف مقاتل أو يزيد [1] . وانهزم المرتدون ، فقام طليحة الى فرس له فحمل عليه امرأته وهرب الى النقع من منازل كلب على تخوم الشام ، وانفض جمعه ، وقتل منهم من قتل ، وهرب منهم من هرب ، وأقر من بقي بالإسلام .

وكتب أبو بكر الى خالد: « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً . واتق الله في أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جُدَّ في أمر الله ولا تَنِيَنّ . ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ، ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حادّ الله أو ضادّه ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله » .

فأقام خالد في بزاخة شهراً يُصَعِّد عنها ويصوِّب ، ويرجع إليها في طلب الفارين ممن مثل بالمسلمين ، فنكل بهم [2] ، منهم من أحرق ومنهم من أوثقه ورضخه بالحجارة ، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال ونكسهم في الآبار وخزقهم بالنبال كما فعلوا بالمسلمين فعل بهم على سبيل القصاص .

قبائل ألقت السلاح

وكانت بنو عامر وسليم وهوازن على مقربة ترقب مجرى الحوادث ، فلما رأوا ما كان قالوا: «ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله» ، فعادوا إلى

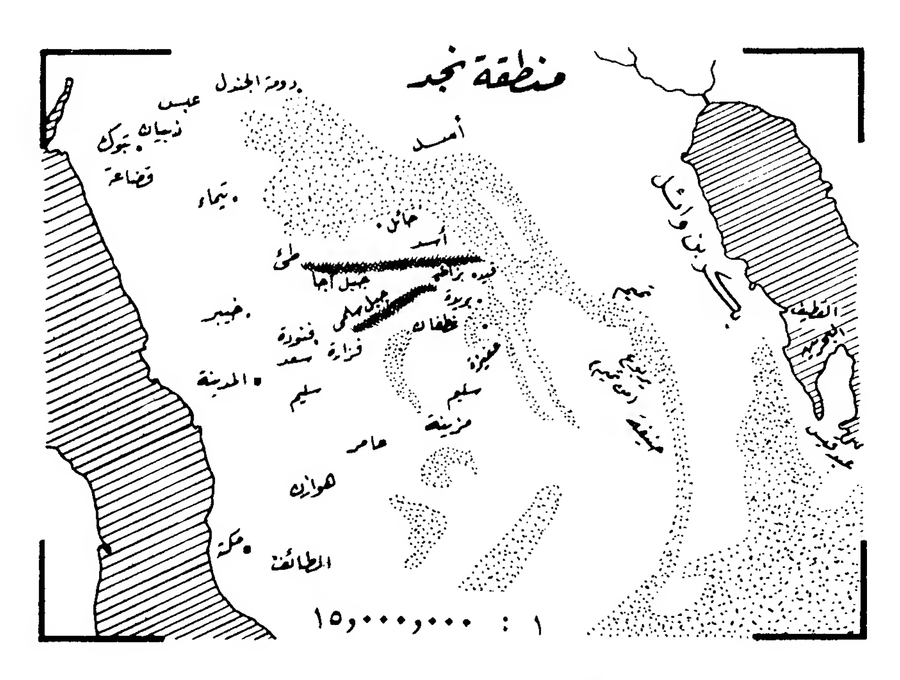
---

(١) عبقرية خالد ٩٩ .

(٢) الطبري ٣/٢٣٣ س ش س ، عن أبي عمرو ، عن نافع .

الإسلام . وفي رواية أخرى ، أن طريفة بن حاجز [الجيش الرابع] قاتلهم حتى هزمهم . وظفر خالد بقُرَّة بن هبيرة صاحب ردة بني عامر ، فلم يقتله لأنه كان قد اكتفى بمنع الزكاة دون أن يقتل أحداً من المسلمين أو يمثل به ، فأرسله الى أبي بكر ليرى فيه رأيه ، وكتب[1] الى أبي بكر .

« ... ولم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيؤوني بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة وبعثت إليك بقُرَّة وأصحابه » .



خريطة رقم (١٠) – منطقة نجد

(١) الطبري ٣/٢٣٣ س ش س، عن أبي عمرو وأبي ضمرة، عن ابن سيرين .

أما هؤلاء الذين عادوا الى الإسلام من بعد ردة ، فلم يكن ليعدو عليهم ، وقد أسلموا ، ولم يكن ليطمئن اليهم وقد تذبذبوا بين الكفر والإسلام ، فاكتفى بنزع سلاحهم واستحلفهم على ما غيبوا منه حتى جمع منهم شيئاً كثيراً استعمله في قتال اعدائه ، وأعطاه لمن يحتاج اليه من جنده ، ثم أعاد جمعه منهم بعد القضاء على الردة ،فقدمه الى أبي بكر فضمه الى ما كان قبضه من أسد وغطفان من السلاح والكراع . فلما توفي أبو بكر اعتبره عمر أنه كان استعارة لوقت الحاجة فرده الى أصحابه والى ورثة من مات [1] منهم .

وعلم طليحة بانتهاء ردتهم فأسلم هو الآخر ، وخرج نحو مكة معتمراً ، ثم عاد الى المدينة في عهد عمر فبايعه ، ورجع الى داره في بزاخة بني أسد وظل مقيماً بها حتى خرج الى العراق .

حدث في تميم

أما تميم فقد اختلفت بطونها فمنهم مرتد ومنهم ثابت على إسلامه . وتزعّم مالك بن نويرة ردة بني تميم . وادعت امرأة اسمها سجاح النبوة في بني تغلب من أرض الجزيرة بشمال العراق ، وزحفت في جموعها لتغزو أبا بكر ! فلما بلغت الحَزْن من منازل بني تميم راسلت مالك بن نويرة فحالفها ووادعها ، فأقبلت اليه ثم جاوزته الى مسيلمة في اليمامة . وخشي مسيلمة أن تشغله سجاح عن قتال أبي بكر في الوقت الذي يترقب زحف المسلمين اليه ، فعرض عليها أن يتزوجها ليضم قوتها الى قوته ويأكل بقومه وقومها العرب [2] ، فقبلت وتزوجها . غير أننا نجدها لا تلبث أن تكر راجعة الى الجزيرة .

---

(١) عرجون ١٣٨ .

(٢) الطبري ٣/٢٣٩ .

ولما أراد خالد الخروج الى بطاح بني تميم اعترض الانصار وتخلفوا عنه وقالوا : « ما هذا بعهد الخليفة البنا . إن الخليفة عهد الينـا إن نحن فرغنا من بزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا » . فقـال خالد : « إن يكن عهد اليكم هذا، فقد عهد إليّ أن أمضي ، وأنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار . ولو أنـــه لم يأتني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد الينا فيه فلم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمـل به . وهذا مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد اليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرهكم » .

وخرج خالد من بزاخة بني أسد . وعاد الأنصار يقلبون الأمر فيما بينهم. قالوا : « إن أصاب القومَ خيرٌ إنه لخير حرمتموه . وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس » . فأجمعوا على اللحاق بخالد وأرسلوا اليه رسولاً فأقام على الطريق حتى لحقوا به ثم ساروا جميعاً . فلما قدموا منازل بني تميم بالبطاح لم يجد جمعاً [١] . إذ كان مالك بن نويرة قد فرق قومه في مياههم ونهاهم عن الاجتماع وأمرهم بالرجوع الى الإسلام . وأرسل خالد خيله فجاءته بمـالك بن نويرة في نفر من قومه فقتلهم ، وكان ضرار بن الأزور الأسدي هو الذي ضرب عنق مـــالك ، وتختلف الروايات اختلافات كثيرة حول الظروف والملابسات التي صاحبت مقتل ابن نويرة . وتزوج خالد امرأة مالـك وكان هذا وذاك سبباً في غضب عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد .

ردة بني حنيفة

أما عكرمة بن أبي جهل [الجيش الثـــاني] الذي بعثه أبو بكر إلى

---

(١) الطبري ٣/٢٤١ س ش س، عن الصعب بن عطية بن بلال .

مسيلمة وأتبعه بشرحبيل [الجيش الثالث] ، فقد تعجل الأمر وصادم مسيلمة قبل أن يأتيه شرحبيل فغلبه مسيلمة. وأدرك الخبر شرحبيل فأقام بالطريق. وكتب عكرمة الى أبي بكر بالذي كان فغضب لذلك وكتب اليه ألا يرجع إلى المدينة فيوهن الناس ، وأمره أن يمضي فيساند حذيفة وعرفجة على قمع ردة عمان ومهرة .. ثم يتم دورته حول شبه الجزيرة الى اليمن . رضي الله عن أبي بكر ، ما أجمل رأيه وفكره . كما كتب الى شرحبيل أن يقيم حيث كان بأدنى اليمامة حتى يأتيه أمره .

ورجع خالد من البطاح (بني تميم) الى أبي بكر لمساءلته عن مقتل مالك ابن نويرة ، فسمع عذره وقبل منه ورضي عنه ثم وجهه الى مسيلمة وجمع له الناس . ورجع خالد الى عسكره بالبطاح حتى يدركه الجمع الجديد ، فلما وافاه نهض الى اليمامة، وبنو حنيفة يومئذ كثير قدرهم بعض الرواة بأربعين ألف مقاتل في قراهم .

وأعاد شرحبيل غلطة عكرمة فتعجل القتال مع بني حنيفة ودارت الدائرة عليه ، وأدركه خالد فلامه على فعلته . وأمد أبو بكر خالداً بسليط ابن قيس من أصحاب بدر من الأنصار كمؤخرة له ليحمي ظهره حتى لا يؤتى من خلفه. وجمع مسيلمة جموعه ثم خرج الى عقرباء وجعل على ميمنته المحكّم وعلى ميسرته نهّار الرجال. وقدّم خالد شرحبيلاً وجعل على مقدمته خالد بن فلان المخزومي وعلى ميمنته زيد بن الخطاب وعلى ميسرته أبا حذيفة. وجعل راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس . وكان في هذا الجيش عبد الرحمن بن أبي بكر ووحشي الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب يوم أحد [وهو الذي قتل مسيلمة] . وكانت أم تميم التي تزوجها خالد بن الوليد بعد مالك بن نويرة تصحبه وتقيم في فسطاطه ، وقد عهد اليها أن ترعى أسيراً من كبار قوم مسيلمة اسمه مُجاعة أسره المسلمون بالطريق .

إذا أردنا أن نقدر جيش خالد وجدنا أنه خرج من ذي القصة في أربعة آلاف، انضم اليهم الف فارس من طيء، ثم انضم اليه معن بن حاجز بعدد غير معلوم لنا ممن ثبت على إسلامه من بني سليم، وأمده أبو بكر بعدد آخر لا نعلمه قبل أن يتحرك الى اليامة، ثم بعدد آخر عليه سليط بن قيس، هؤلاء جميعاً لحقوا بشرحبيل بن حسنة الذي كان يقود الجيش الثالث، والذي لا يقل في تقديرنا بأي حال عن ألفين. كذلك لحق بخالد من ثبت على إسلامه من بني تميم. فهذه سبعة آلاف معلومة بأعدادها، وأمداد غير معلومة العدد من سليم وتميم ومدد الخليفة والردء الذي كان عليه سليط. فنستطيع القول أن خالداً كان يقود في اليامة جيشاً لا يقل عن عشرة آلاف، وربما تجاوز ذلك الى اثني عشر ألفاً أو نحوها.

والتحم الجمعان بعقرباء. وتفوقت بنو حنيفة حتى أزالوا خالداً عن فسطاطه، واقتحموه وفيه أم تميم ومجاعة مقيداً في الحديد، فهمّوا بقتلها ولكن مجاعة أجارها فتركوها ومزقوا الفسطاط بالسيوف. واستبسل المسلمون وزحفوا فردوا المرتدين الى حديقة عرفت بحديقة الموت وفيها مسيلمة. واقتحمها المسلمون عليهم وقتلوا مسيلمة وأكثروا القتل في بني حنيفة. وقد صبرت بنو حنيفة يومها للمسلمين من مطلع الشمس الى صلاة العصر [١]. وكانت المصيبة في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية. وقتل من الصحابة وقرّاء القرآن جمع كبير، وبلغ عدد من قتل من المهاجرين والأنصار وتابعيهم بإحسان ١٢٠٠ منهم ٣٦٠ من أهل المدينة وحدها، بينما قتل من بني حنيفة حوالي عشرون ألفاً. ويبدو أن معركة اليامة قد استأصلت بني حنيفة إذ لم يظهر لهم بعد ذلك ذكر في الفتوح أبداً، ولم يذكر لنا التاريخ بطلاً من بني حنيفة خلافاً لما ذكر لنا من سائر القبائل. قال خالد بن الوليد: « فما ضرب

---

(١) ابن الاثير ٢/١٣٩.

أحد من بني حنيفة بعده بسيف [1] » .

وجمع خالد ما كان خارج الحصون ثم نادى بالرحيل لينزل على حصون بني حنيفة . وكلمه مُجاعة فأوهمه أن الحصون مملوءة رجالاً ، ولم يكن بها فعلاً إلا النساء والصبيان . وطلب منه الصلح على أن يسلموه ما عندهم من الذهب والفضة [الصفراء والبيضاء] والسلاح وربع السبي والخيل وحائطاً من كل قرية ومزرعة ، وأن يعصم دماءهم على أن يسلموا . وقبل خالد . وبذلك انتهت ردة اليمامة أكبر حركات الردة ، فنزل خالد وادياً من أودية اليمامة اسمه الوبر فجعل منزله به . وفي قتال مسيلمة قال ضرار بن الأزور [2] الأسدي :

ولو سئلت عنا جنوب لخبّرت عشية سالت عقرباء بها الدم
عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المَشْرَفي المصمّم

(١) عرجون ١٦٤ .
(٢) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٢/٦٢ في أبيات .

عمليات الجيش السابع [1]

الردة في البحرين

أمـا أهل البحرين من ربيعة [وهم بنو عبد قيس وبنو بكر بن وائل] فقد كان أسبقهم الى الإسلام الجارود بن المُعَلّى بن عمرو بن حنش حين ارتاد المدينة، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلم.ثم أرسل النبي العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوي العبدي كبير عبد قيس فدعاه الى الإسلام فأسلم . وأقام العلاء بالبحرين أميراً من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم مات المنذر بعد وفـاة الرسول بقليل . وارتد من كان بالبحرين من عبد القيس وبكر بن وائل . قالت عبد قيس : « لو كان محمد نبياً لما مات » . وبلغ ذلك الجارود بن المعلى فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال :

–«يا معشر عبد القيس إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموني ولا تجيبوني إن لم تعلموا .

– سل عما بدا لك .

---

(١) لم نذكر عمليات الجيشين الخامس والسادس ، لانه لم يكن لهما دور في الفتح ، بل انتهت مهمتها في حروب الردة .

– تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟

– نعم .

– تعلمونه أو ترونه ؟

– لا بل نعلمه .

– فما فعلوا ؟

– ماتوا .

– فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . وأكفّر من لا يشهد .

– ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا ».

وثبتوا على إسلامهم حين ارتدت سائر ربيعة واجتمعت بالبحرين . ارتد الحُطَم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمن تبعه من بكر بن وائل وانضم اليه من غير المرتدين من لم يزل كافراً . ونزل القطيف وهَجَر ، وبعث الى المرتدين في دَارِين فأقاموا له حتى يحصر عبد قيس المسلمين بينه وبينهم . وأرسل الى المنذر بن النعمان بن المنذر – وكان يسمى الغَرُور ، وهو من آل المنذر الذين ملكوا الحيرة يوماً – فبعثه الى جُوَاثا وقال له : « اثبت فإني إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة » .

واشتد الحصار على المسلمين من عبد قيس في جواثا حتى كادوا أن يهلكوا. وفي ذلك قال شاعرهم عبد الله بن حَذَف أحد بني أبي بكر بن كلاب :

ألا أبلغ أبا بكر رسولا   وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكُمْ الى قومٍ كرامٍ   قعودٍ في جُوَاثا مُحْصَرِينا

كأن دماءهم في كلّ فجٍّ شعاع الشمس يغشي الناظرينا
توكلنا على الرحمن أنّـــا وجـدنا الصبر للمتوكلينا

العلاء يتحرك

فأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين، ولحق به ثمامة بن أثال في مسلمي بني حنيفة، وقيس بن عاصم في مثل عسكر العلاء من بني تميم. وسلك العلاء الدهناء وبات في بحبوحتها بين الخنّانات والعزّافات عن يمينه وشماله ، ثم سار حتى ينزل هجر . وأرسل العلاء الى الجارود أن يضم قواتـــه في عبد قيس حتى ينزل عليه من ناحيته . وتجمع المرتدون والمشركون – إلا أهل دارين – إلى الحطم. وحفر كل من المسلمين والمشركين خندقاً حول عسكره ، فكانوا يتراوحون القتـــال ، ثم يعودون كل خلف خندقه ، واستمروا على ذلك شهراً .

وفي ليلة، سمع المسلمون ضوضاء شديدة في عسكر المشركين، فقال العلاء: « من يأتينا بخبر القوم ؟ » قال عبد الله بن حذف – وكانت أمه عجلية من بني عجل – : « أنا آتيكم بخـبر القوم » . فخرج حتى إذا دنا من خندقهـم اشتبهوا فيــه ، ورابهم أمره فأخذوه ، فقالوا له : « من أنت ؟ » فنسب نفسه اليهم ، وجعل يصرخ وينادي على أحد أخواله من بني عجل ويقول : « يا أبجراه » ، فجاءه أبجر بن بجير ، فعرفه وقال : « ما شأنك ؟ » فأثار عبد الله فيه النزعـــة القبلية وقال : « لا أضيعن بين اللهازم ! علام أُقتل وحولي عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة؟أيتلاعب بي الحُطم ونُزّاع القبائل وأنتم شهود ؟ » فخلصه من أيديهم وهو يقول : « والله إني لأظنك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة ». قال عبد الله: « دعني من هذا وأطعمني، فإني قد مِتُّ جوعاً » فقرب له طعامــاً ، فأكل ثم قال : « زودني واحملني وجوّزني [يجعله يجتاز المنطقة] انطلق الى طِيَّتي [أهلي] » . وكان أبجر

قد غلب عليه الشراب ففعل وحمله على بعير وزوده وجوّزه ، فخرج عبدالله ابن حذَف حتى دخل عسكر المسلمين ، فأخبرهم أن القوم سكارى .

ولم يُضع العلاء الفرصة فتحرك من فوره ، وخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا مواقعهم وأخذوهم بالسيوف . وأُخذ المشركون على غرة فاقتحموا الخندق ليهربوا ، فمنهم من تردى فيه ومنهم من نجا ومنهم من قتل أو أسر . واستولى المسلمون على ما في معسكرهم ، فلم يفلت رجل إلا بما عليه . أما الحطم فقد ضربه أبو ضبيعة فقطع رجله من الفخذ وتركه ، فقال الحطم : « أجهز عليّ » ، قال : « لا أحب أن تموت حتى أُمِضَّك » [أتركك تشعر بالمضض]، فكان الحطم لا يمر به في الليل أحد من المسلمين إلا قال: «هل لك في الحطم أن تقتله ؟ » حتى مر به قيس بن عاصم التميمي ، فقال له ذلك ، فمال عليه فقتله [1] .

وخرج المسلمون يطلبون الفارين ، وقد بلغ أكثرهم دارين – وهي جزيرة في الخليج الفارسي – فركبوا اليها السفن ، ورجع آخرون الى بلاد قومهم . ولما أصبح الصباح قسّم العلاء الأنفال ، ونفّل رجالاً من أهل البلاء ، ثم كتب الى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل ، فأرسل الى عتيبة بن النهاس العجلي وإلى عامر بن عبد الأسود وإلى خصفة التيمي والى المثنى بن حارثة الشيباني بلزوم أماكنهم ، وأخذ الطرق على أهل الردة . وأمر مِسْمَع بمبادرتهم ، فمنهم من أناب وعاد إلى الإسلام فقبلوا منه وضموه إليهم ، ومنهم من أبى فمنع من الرجوع الى مقصده فعادوا حتى عبروا الى دارين، فاجتمعوا بها مع من سبقهم إليها.وأقام العلاء حتى جاءته رسائل من كاتبهم من بكر بن

---

(١) وقيل : قتله الحارث بن عوف العبدي أحد عبد قيس ، وقيل : بل أخوه حبيب . وقيل : قتله الشماخ الشاعر .

وائل بقيامهم بأمر الله وغضبهم لدينه ، فاطمأن الى أنه لن يؤتى من خلفه من جهة البحرين فبدأ يتجه الى دارين .

العلاء يفتح دارين

جمع العلاء قواته وخطبهم فقال : « إن الله قد جمع لكم أحزاب الشيطان وشُرَّد الحرب في هذا البحر ، وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر ، فانهضوا الى عدوكم ، ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم». فقالوا : « نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا » . فارتحلوا حتى اذا أتى ساحل البحر اقتحموه رجالاً وركباناً، على الصاهل والحامل والشاحج والناهق ، الراكب والراجل ، وكان العلاء والمسلمون يدعون : « يا أرحم الراحمين، يا كريم يا حليم، يا أحد يا صمد يا حيّ يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا ». واجتازوا مياه الخليج وهم على ذلك يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات .

هل هي معجزة ؟ هل ُشقّ لهم البحر كما شقه الله لموسى ؟ سوف نتطرق لذلك عند التعرض لعوامل نجاح الفتوح ، ونبين أن زمن المعجزات قد انقضى بانقضاء النبوات وأن علينا أن نجد لكل شيء سبباً . ولنا لهذا الحادث تعليل مقبول . فإن دارين جزيرة في الخليج الفارسي ، وهذا الخليج شأن كل الخلجان يتعرض لظاهرة المد والجزر ، ولا بد أن يكون المسلمون قد صادفوا انحسار المد وعبروا والجزر في أظهر حالاته وهو ما يفهم من ذلك الوصف « ... يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل » . فهي لا تدخل في باب المعجزات ، ولكنها ظاهرة طبيعية لا تخرق سنن الكون .

طلع المسلمون على المرتدين بالجزيرة التي حصروا أنفسهم فيها فأذهلتهم

المفاجأة واقتتلوا قتالاً شديداً فما ترك المسلمون بها مُخْبِراً، وسبوا الذراري واستاقوا الأموال فبلغ نفل الفارس ستة آلاف درهم والراجل ثلث ذلك . فلما فرغوا عادوا أدراجهم حتى عبروا رجوعاً كما ذهبوا . رجعوا الى البحرين وقد انتهت الردة بها ، وعز الإسلام وأهله وذل الشرك وأهله . فمن أراد الرجوع من جيش العلاء رجع ومن أراد المقام [1] أقام .

نكتفي بهذا القدر عما كان من شأن ردة القبائل التي كانت على طريق العراق . أما سائر جيوش قمع الردة فقد قامت بما وكل اليها . فانتهت ردة أهل عُمَان ومَهْرَة واليمن ، وقضي على ردة الأخابث من عك وعلى ردة حضرموت . سقطت الردة وعادت شبه الجزيرة الى الإسلام . وتم ذلك قبل انتهاء عام ١١ هـ .

---

(١) الطبري ٣/٢٦٠ عن عبيد الله بن سعيد ، عن عمه عن سيف عن اسماعيل بن مسلم، عن عمير بن فلان العبدي .

آثار حروب الردة

انتهت الردة إثر معارك طاحنة اشتعلت بهـا شبه الجزيرة جميعها ، فلم تكن حدثاً عابراً انتهت وانتهى كل شيء بانتهـائه ، وإنمـا تركت في التاريخ آثاراً وآثاراً .

١ – لزوم فتح جبهة جديدة

وأول هذه الآثار أن الردة حدثت في شبه الجزيرة بعد أن صارت لأول مرة منذ بدء الخليقة دولة.فهي إذن حرب أهلية لا نغالي إذا قلنا إنهاشملت كل فرد فيها.فقد كان كل فردٍ واحداً من اثنين، مرتداً أو ثابتاً على إسلامه ولا ثالث لذلك ، ولم يكن هذا أو ذاك بمنأى عن تلك الأحداث . فكان بكل مكان من شبـه الجزيرة عشائر قتـلى ، ومصابون من الخارجين على سلطان الدولة ، وعائـدون الى الدين الحنيف من بعـد ردة ، وثابتون على إسلامهم لم يقترفوا ردة . كيف يتعايش هؤلاء جميعاً في صفاء قلب وهدوء نفس في بيئة درجت على طلب الثأر ؟ لم يكن بد — من الناحية السياسية البحتة — من فتح جبهة جديدة تشد انتباه الناس كافة واهتماماتهم عما كان يجوز أن يشغلهم في ديارهم بشبه الجزيرة . فكان من أهم آثار الردة أنهـا ولـّدت الشعور بضرورة فتـح جبهات تنسى الأمة ما كان من أمرها وتسحب عليه ستائر النسيان لتجمعها

من جديد على هدف واحد يصرفها عن تذكر الخلافات داخل شبه الجزيرة ، فكانت الفتوح . نعم لم تكن الردة – أو قمع الردة – هي العامل المؤثر على بعث الجيوش الى الفتح ، وإنما كانت فريضة الجهاد لنشر الإسلام هي الباعث الأول بلا ريب ، وسنعود الى هذا عند التعرض لبواعث الفتح ، غير أن الردة وما أسفرت عنه هي التي ولّدَت حركة الفتوح وأقتتها بميقات حتمتها فيه .

٢ – طاقات جاهزة للتعبئة

ومن جانب آخر ما كان في الإمكان أن تبدأ حركة الفتوح وفي شبه الجزيرة ردة . فتمهيد شبه الجزيرة وإخضاع جميع ربوعها لسلطان الدولة ، ودخول أهلها جميعاً في عقيدة الإسلام كان أمراً لا بد منه ولا محيص عنه حتى يمكن الاتجاه الى خارجها. إن جزيرة العرب هي قاعدة الفتوح، فكيف كان يتسنى الفتح إذا لم تكن له قاعدة أو كانت هذه القاعدة مضطربة غير مستقرة . أما الآن فقد أصبح ممكناً تعبئة كل طاقات شبه الجزيرة وحشدها للأعمال الحربية التي تلت . هذه السياسة كانت مما سنّ رسول الله ﷺ قبل وفاته ، أن لا يقبل من عربي يسكن شبه الجزيرة غير الإسلام ، وأن يجلي من سوى ذلك من اليهود والنصارى ، فتم إجلاء اليهود في حياته وأوصى بإجلاء نصارى نجران فأجلاهم عمر بن الخطاب مع تعويضهم عن ديارهم تعويضاً مجزياً.

٣ – تدريب لا بد منه

أثرٌ آخر كانت له أهميته الكبرى في الصلة بين الردة والفتوح وقنطرة ما بينها ، ذلك أن معارك الردة بحكم ترتيبها الزمني واتساع رقعتها وكبر حجمها ، كانت أول تدريب حربي عملي لكافة المسلمين في جزيرة العرب ، كانت أول « مناورات بالذخيرة الحية » سواء في ذلك أهل الحضر وأهل

البادية . كانت تدريباً على كافة شؤون الحرب على مستوى الجيوش الكبيرة ابتداء من الحشد والتعبئة العامة الى التحركات والسير، الى الالتحام الى أعمال الدوريات والحصار ، الى المخابرات وتدبير الشؤون المعيشية للقوات فرسانها ومشاتها ، نسائهم وذراريهم على السواء . كانت الحروب بين العرب قبل ذلك حتى عصر النبوة على مستويات أقل من ذلك بكثير. فكانت الردة أول حرب اشتعلت فيها كل الجزيرة واشترك في معاركها عشرات الألوف ، ولمدة غير قصيرة أدت بنا الى أن رأينا في الفتوح مقاتلين من طراز فريد مارسوا الحروب وعركوها. ولا نعدو الواقع إذ نقرر أن أي مقاتل من جيوش الفرس والروم لم ينل من التدريب ما نال المقاتل العربي المسلم . يؤيد ذلك أن كانت نتيجة المبارزة التي تسبق المعارك دائماً في صالح المسلمين كما سنرى .

٤ – ظهور قيادات حربية

وكما كانت حروب الردة مجالاً لتدريب المقاتلين على كافة المستويات ، فقد كانت فرصة مواتية لتكوين وإظهار قيادات حربية كان يتحتم عليها لكي ترقى سلم الخبرة والكفاءة والقيادة ، أن تتدرج من قيادة عمليات صغيرة الى قيادة عمليات أكبر ثم الى أكبر منها ، وهكذا حتى تتيح لهؤلاء القادة أن تنمو مواهبهم وأن يظهروا ويثبتوا وجودهم وجدارتهم .

هذه الأسماء التي ظهرت في عملية صنع ذلك المجد الذي قل نظيره من أمثال : القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم بن عمرو وزهرة بن الحوية وجرير بن عبد الله والمثنى بن حارثة وعدي بن حاتم والنعمان بن مقرن وإخوته ، وغيرهم كثير وكثير ، ما أحوج مكتبتنا العربية اليوم ، بل والمكتبة الحربية للعالم كافة الى من يزيح عن هذه الأسماء تراب الزمن حتى تلمع لأبناء جيلنا نجوماً وشموساً كما أضاءت بهم الدنيا يوماً . لقد ظهر الكثير عن رؤوس القادة مثل : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص ، وفي رأينا

أنها لم توف وما زال ينقص الكثير لتبيان كفاءاتهم الحربية ، ولكن قصرت الهمم أن تقدم لنا ما يناسب هؤلاء الفرسان المسلمين النبلاء . ما كان أدرى خـــالد بن الوليد بالقعقاع بن عمرو أو عتيبة بن النهاس أو الإخوة العشرة أبناء مقرّن أو غيرهم حتى يستعملهم على أعمال كبيرة في حرب العراق إن لم يكونوا رشحتهم كفاءاتهم التي ظهرت في ماضيهم المشرق المشرف في ميادين الحرب قبل الفتوح ؟

بل مــا الذي رشح خالد بن الوليد نفسه عند أبي بكر ليسند اليــه فتح العراق ثم فتح الشام ؟ إنه ماضيه الذي بدأ رويداً في عصر النبوة ، ثم ازداد لمعاناً وإشراقاً في حروب الردة . في الردة أخرج أبو بكر أحد عشر جيشاً عليها أحد عشر قائداً ، وكانت اختباراً عسيراً لكفاءة هؤلاء ، ونتيجة هذا الاختبار هي التي رشحت خالد بن الوليد ولم ترشح عكرمة بن أبي جهل أو شرحبيل مثلاً لقيادة فتح العراق .

لقد كانت حروب الردة مرحلة وسيطة – من حيث الحجم وكل ما يترتب على الحجم – بين غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين المعارك الكبرى للفتــوح التي غيّرت شكل الأرض وخريطة العــالم مثل اليرموك أو القادسية وما بعدهما . وبالرغم من أنها مرحلة في تدرج ودرجات في سلم ، فإننا إذا نظرنا للزمن الذي استغرقه هذا التدرج لوجدنا أنه طفرة وأي طفرة .

إننـــا نجد الدول الكبرى في عصرنا الذي نعيش فيه كثيراً ما تفتعل الحروب والمعارك ، أو تكون بمنأى عنها فتحشر أنفها فيها ، مثــل الحرب الأهلية في إسبانيا التي اشتركت فيها قوات من ألمانيـــا وإيطاليا وانجلترا وفرنسا لتكون ميداناً لتجربة أسلحتها الجديدة واختبار تخطيطها وأفكارها في الحرب وتدريب جنودها وإنشاء قادة صقلتهم معارك حقيقية . مثل ذلك أفاده المسلمون من حروب الردة . لم يفتعلوها ، ولكنها كانت حرباً حقيقية أفادوا منها تجربتهم في الحروب .

٥ – ثقة في النظام وقدراته

ثم لا شك أن النصر الذي أحرزه المسلمون في تلك الحروب قد منحهم ثقة لا حدود لها بأنفسهم وبقدراتهم وبنظامهم الذي انتصر بهم في هذه المعارك وانتصروا به . هذه الثقة شيء هام جداً في مواجهة قوى عاتية أكبر من القوة المادية والعددية للمسلمين حين خرجوا من ديارهم فاتحين . لقد صار مستقراً في أذهانهم أنه ليس هناك شيء اسمه مستحيل ، فإذا كان هناك مستحيل فهو ألا ينتصروا.إذا كان هناك مستحيل فهم صانعو هذا المستحيل.

بل إن هذه الثقة قد جاوزتهم الى أعدائهم، فلايسمعون باسم مثل خالد بن الوليد حتى يكون هذا في حد ذاته مثاراً لرعبهم وعاملاً من عوامل هزيمتهم.

إن لكل قتال جانبيه المادي والمعنوي . الجانب المادي هو القوة بكل مكوناتها من عدد وعُدة وعتاد وتدريب وخبرة وجندية وقيادة ومخابرات.. الخ. والجانب المعنوي يشمل الإيمان بالهدف والروح المعنوية والحالة النفسية.. الخ . ونستطيع أن نؤكد أن مصير أي معركة يتحدد في قلوب المتعاركين فيها قبل أن يتحدد على أرضها . وقد خرج المسلمون فاتحين يملؤهم الأمل والثقة في النصر ، يدعم ذلك ويؤكده سوابق من الردة رأوا فيها الحلم حقيقة والأمل واقعاً .

من هنا نرى أن معارك الردة كانت ذات قيمة فنية لا تقدر . وإذا كان التاريخ قد نعى كثرة من قتل فيها من أعلام المسلمين وحفاظ القرآن ، فإننا نرى أنه كان لا بد من هذا سداداً لثمن خبرة الحرب التي اكتسبها المسلمون ، فمكنت لهم من أعدائهم وذللت لهم النصر على الفرس وعلى الروم على السواء. فمن حيث كان شهداء الردة ثمناً دفعته الأمة نقول : إنهم لم يكونوا لكسب حروب الردة فحسب، وإنما كانوا ثمناً لقمع الردة وللفتوح بعدها. كانوا ضريبة الحياة لهذه الأمة وانسياح الإسلام في الشرق والغرب .



الباب السابع

حملة خالد بن الوليد

[ثمانية عشر الفا يحبون الموت]

القائد العام خالد بن الوليد

القائد المشهور ذائع الصيت على مدى القرون والأجيال ، الذي خاض عشرات المعارك ، منها الكبير الحاسم ، في جزيرة العرب والعراق والجزيرة والشام ، لم يفقد منها معركة واحدة.وصفهُ داهية الحرب المعاصر له عمرو بن العاص [1] فقال : « له أناة القطاة ووثوب الأسد » . كان خالد جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً ، غنياً متقشفاً راسخ العقيدة ، شديد الثقة بربه وبنفسه وبعمله وبكفاءة معاونيه وجنده ، خبيراً بهم فخوراً بهم ،مقداماً. المسؤولية ضالته أنـّى وجدت كان الأحق بحملها ، وكان إذا تولى مسؤوليـة منح نفسه أوسع السلطات لإنفاذها ، واذا ولاّها أحداً من معاونيه ، منحـه أيضاً أوسع السلطات للتنفيذ .

---

(١) قادة فتح العراق ١٥٦ عن اليعقوبي ٢/١٠٨ .

كان عميق النظر في الحرب، ذكياً ، فطناً، لمّاحاً، سريع الحركة، نهّازاً للفرص ، قوي الإرادة ، جسوراً موفقاً في جسارته ، خطيراً على أعدائه ، ميمون الطائر مباركاً له ، عالي اللياقـة البدنية ومبارزاً جيد التدريب على كافة أسلحة عصره ، مبتكراً يقظاً على المجالين التكتيكي والاستراتيجي . كان ذا أعصاب فولاذية ، لا يبطره الفوز ولا يهزه تحرج الموقف ، قادراً على أن يتخذ بسرعة الموقف الذي يصوّبه التاريخ إذا ما درسه خبراء الحرب ملياً بعد قرون وأجيال ، فاكتسب من الماضي أمجده ، وأدرك في عصره ما انتهى إليه علم الحرب الحديث . كان يعرف هدفه ويحدده ويحافظ عليه ، هجومياً في كافة عملياته ، قادراً على ابتكار المفاجأة لأعدائه ، مفاجآت مذهلة مؤلمـة تشل تفكيرهم وتعجزهم عن المقاومة رغم تفوقهم العددي، يدرك قيمة الحرب النفسية وأثرها في الميدان، قدرته فائقة على توفير الحشد الذي يلزمه، مقتصداً في القوى ، فلا يدفع الى معركة بأكثر مما تستحق ، آخذاً بمبدأ توفير الأمن لقواته حتى لا يؤتى من وجه لم يحسب حسابه ، متمتعاً بمرونـة نادرة وخفة حركة شاذة محققاً للتعاون والتنسيق بين كافة الوحدات التابعة لقيادته . أما عن الروح المعنوية التي كان يتمتع بها أو يستطيع أن يبثها في جنده، فلم يكن لهـا حدود . كذلك أثبت خالد أنه في مجال الإدارة لم يكن بأقل منه في ميدان الحرب . لذلك كله كان المسلمون يحبون أن يقاتلوا معه ، وأن يقودهم خالد .

أثر قريش في خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرّة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن قريش . يلتقي برسول الله ﷺ في جدهما مرّة ، من قبيلة قريش التي سكنت مكة وقامت على أمر الكعبـة بيت الله الحرام . وقد كان عرب شبه الجزيرة يعظمونه في الجاهلية ، كما عظموه بعد ذلك في الإسلام. وبهذا البيت اكتسبت قريش بين قبائل العرب منزلة خاصة.

وتقاسمت البطون الكبرى من قريش المسؤوليات الهامة في مكة .

بنو هاشم ، كانت لهم سقاية الحاج .

بنو أمية ، كانت لهم راية الحرب يخرجونها عند القتال .

بنو نوفل ، كانت لهم الرفادة ، وهي إعانة الحاج بالمال .

بنو عبد الدار ، كانت لهم السدانة والحجابة واللواء .

بنو أسد ، كانت لهم المشورة .

بنو تيم ، كانت لهم شؤون الديات والمغارم .

بنو مخزوم — عشيرة خالد بن الوليد — ، كانت لهم القبة ، يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش ، كما كانت لهم الأعِنَّة ، وهي قيادة الفرسان .

بنو عدي ، كانت لهم السفارة .

بنو جمح ، كانت لهم الأيسار والأزلام .

بنو سهم ، كانت لهم الحكومة [التحكيم] والأموال المحجرة .

وظلت هذه الوظائف متوارثة في كل بطن من بطون قريش حتى ظهور الإسلام . ويذهب العقاد الى أنه لم تكن بينها سلطات فعالة خليقة ، أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات هي: السلطة الروحية لهاشم وعبدالدار ، والسلطة السياسية لأمية ، والسلطة الحربية لمخزوم .

واشتدت المنافسة على شرف قريش بين بني هاشم وبني مخزوم ، حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم بالرسالة ، فكان طبيعياً أن نجد بني مخزوم من ألد خصوم الدعوة الى الإسلام . قال أبو خالد — الوليد ابن المغيرة — : « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك

أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين ؟ » ونزلت في عناده للرسول والرسالة عديد من آيات الكتاب الكريم . وكان الوليد كثير المال ، قدر ماله باثني عشر ألف دينار وكان صاحب بساتين فيما بين مكة والطائف . وكان يكسو الكعبة عاماً وتكسوها قريش مجتمعة عاماً . وكان لبني مخزوم وحدهم في وقعة بدر ثلاثون فرساً من مائة لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد. في هذا الثراء والغنى نشأ خالد بن الوليد فلم يذكر أحد من الرواة أو المؤرخين أنه كان ذا عمل يقوم به قبل إسلامه . لعل هذا ، بالإضافة الى لياقته البدنية فضلاً عن مسؤولية بني مخزوم عن القبة والأعنة ، قد أتاح له الانصراف الى هوايته المفضلة من ممارسة الفروسية وركوب الخيل والتدرب على استخدام السيف والرمح والقوس . ولا شك أن بروز خالد في ذلك كان واضحاً حتى اسلمته قريش شؤون حربها . كان خالد في حوالي العشرين من عمره حين بعث الله محمداً برسالة الإسلام ، فوقف من الإسلام والمسلمين موقف أبيه .

أثر أحد في خالد

في السنة الثالثة من الهجرة وقعت موقعة أحد ، فجاءت قريش بخيلها ورجلها تريد المسلمين ، كانوا ثلاثة آلاف فيهم مائتان من الفرسان ، وكان خالد على هذه الخيول ، وكان المسلمون ألفاً ليس فيهم سوى فارسان ، فأسندوا ظهورهم الى جبل أحد كموقع دفاعي وجاءت اليهم قريش من بطن الوادي . كان خالد قد بلغ السادسة والثلاثين ، وكانت أُحد أولى معاركه . ومن رأينا أنها تركت فيه من الأثر والانطباع ما لازمه في كافة حروبه بعد ذلك . ذلك أنها كانت تجربة وجد فيها خالد نفسه واكتسب أسلوبه الخاص به في القتال. ذلك أن المسلمين أحرزوا نصراً على المشركين شرعوا على آثاره يولون الأدبار والمسلمين يطاردونهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد وكل

حماية ظهر المسلمين الى بعض الرماة الذين اتخذوا أماكنهم على الجبل . فما أن رأى هؤلاء قريشاً تنهزم تاركة متاعها وأدواتها في الميدان، وإخوانهم المسلمين يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم حتى تركوا أماكنهم للمشاركة في ذلك. ولم يفت خالد أن يلتقط الموقف وقد اكتشف انكشاف ظهر المسلمين بنزول حماة الجبل من عليه . فدار بالميمنة وارتقى الجبل الخالي من الدفاع بخيله وأتى المسلمين من خلفهم يضرب ويقتل ، وعاد فرار قريش لمواجهة المسلمين وانقلبت هزيمة المشركين نصراً ونصر المسلمين هزيمة .

هذه التجربة الأولى لخالد تعلم منها دروساً . فإن ذلك الموقف الذي اتخذ فيه خالد قراره في برهة ، قد لا تقاس بالثواني ، وما أسفر عنه من نتائج لا بد وأنه ظل يتأمله ويحلله ويدرسه بعد ذلك بينه وبين نفسه . بل لا بد وأنه كان أيضاً محل مناقشة ومدارسة بينه وبين سادة قريش وفرسانها من أمثال عمرو بن العاص وأبي سفيان وضرار بن الخطاب وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم ، بحيث تبلورت نتيجة أحد في نفس خالد الى تجارب ودروس ذات عناصر محددة ظهرت بعد ذلك في المعارك التي خاضها .

تعلم أن العبرة في النصر أو الهزيمة ، إنما يكون بالنتيجة النهائية للمعركة وليس ببعض مراحلها، ومن ثم فإن تحرج الموقف لم يكن ليحرجه أو يذهب بلبه ، كما وأن بعض الظفر لم يكن لينشيه ويبطره فيركن إليه .

وتعلم أن يحتفظ بشجاعته وهدوء نفسه وصفاء تفكيره ، وإن دارت عليه الدائرة وبدا الموقف معقداً، مطمئناً الى أن هذه الدائرة إنما هي مرحلة.

وتعلم أن لا يطمئن الى أنه أحرز النصر إذا دارت الدائرة له على عدوه حتى يجعل من ذلك النصر نتيجة نهائية للمعركة ، ثم للحرب كلها .

وتعلم – وهو الأهم – أنه في المراحل الحاسمة من المعارك حين تخرج

المعركة عن جمودها وتبدأ في الحركة له أو عليه ، أن نوعاً من الخلل يحدث في صفوف كل من الطرفين ، وأن عليه أن يلمح ذلك الخلل في صفوف عدوه، ويبادر الى دس خابوره ودق إسفينه في الوقت المناسب لذلك تماماً . فإن لم يفعل فاتته الفرصة . كان خالد يرى ذلك حتى وإن كان الموقف العـــام في صالح خصمه ... كان يرى أنه تأتي لحظات ربما تقاس بالدقائق أو بالثواني تكون مناسبة تماماً لانتزاع الموقف برمته .

هذا الدرس الذي خرج به خالد من أحد ، كان يتيح له استخدامـــه والاستفادة منه ما جبل عليه من كفاءة حربية وشجاعـــة لا تهتز وبديهة لا تخونه وقوة عضلية ولياقة بدنية يستطيع أن يعتمد عليها . بهذه النظرية في الحرب ، استطاع خالد أن ينتزع النصر في اليمامة بعد أن اكتسحت جنود مسيلمة فسطاطه الذي لا بد أن كان مقاماً في قلب المسلمين ، وبه امرأته أم تميم ، وهتكوه بأسيافهم . وبها استطاع أن ينتزع النصر من الروم على ضفاف اليرموك ، وقد اقتحمت فرسانهم فسطاطـه أيضاً . ثلاث معارك كبرى في حياة خالد وتاريخ الإسلام ، أحال نصر عدوه المؤكد الى هزيمة محققة اعتماداً على أسلوبـه الذي اكتسبه أول مرة يوم أحد ، القائم على البحث عن الخلل في صفوف عدوه المنتصر ، واختطاف الموقف بسرعة . ثلاث معارك هامـة لا تذكر دون أن يذكر خالد .

خالد مع الأحزاب

في العام الخامس من الهجرة ، تحزبت قبائل الشرك بتحريض من اليهود ، وزحفت الى المدينة في عشرة آلاف ، وهو عدد ندر أن يجتمع لجيش عنـد العرب ، وكان خالد من قادته . وخشي المسلمون مغبة ذلك الزحف، فأشار سلمان الفارسي على رسول الله ﷺ بحفر الخندق في الجانب المكشوف من المدينـة . وفوجىء المشركون حين بلغوا المدينة بهذا الخط الدفاعي فوقفوا

أمامه ووقف المسلمون قبالتهم خلفه ، فأوقفوا هذا الزحف الرهيب عن بلوغ مرامه واقتحام يثرب . ووقفت الأحزاب أياماً في زمهرير الشتاء قبل أن تعود أدراجها يائسة . في هذه الأيام التي مكثتها تبادلت الرمي بالنبال مع المسلمين، وتناوب المشركون مناوشة المسلمين، فكان أبو سفيان وأصحابه يوماً ، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص يوماً ، وهبيرة بن وهب يوماً ، وعكرمة بن أبي جهل يوماً ، وضرار بن الخطاب يوماً .

وفي السنة السادسة خرج رسول الله وأصحابه من المدينة الى مكة للعمرة في غير موسم الحج ووقفت قريش تمنعه من دخولها ، وكان على خيلها يومذاك خالد بن الوليد . وانتهى الأمر باتفاق بين النبي وبين قريش على أن ينصرف المسلمون من عامهم هذا على أن يعودوا في العام التالي ، فتخرج قريش من مكة ويدخل النبي والمسلمون ثلاثة أيام ليس معهم إلا السيوف في جرابها ، وغضب خالد من ذلك الصلح وأقسم أن يخرج من مكة حتى لا يرى المسلمين يدخلونها .

إسلام خالد

اختلفت الروايات حول قصة إسلام خالد وتاريخ ذلك . ونثبت هنا ما رواه ابن سعد في طبقاته عن الحارث بن هشام كما سمعها من خالد . قال : « لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قذف في قلبي حب الإسلام وحضرني رشدي ، وقلت قد شهدت المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإني أرى في نفسي أني موضع في غير شيء وأن محمداً سيظهر. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية، خرجت في خيل قريش فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر إماماً ، فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا ، وكان فيه خير، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به، فصلى

بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعاً وقلت : الرجل ممنوع، وافترقنا ، وعَدَلَ عن سنن خيلنا ، وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت في نفسي : « وأي شيء بقي ، أين المذهب ؟ أإلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده . أفأخرج الى هرقل ، فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية ؟ أفأقيم في عجم أو أقيم في داري فيمن بقي » ؟ وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضاء وتغيبت فلم أشهد دخوله . وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في تلك العمرة ، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتاباً ، فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام يجهله أحد ؟! وقد سألني رسول الله ﷺ ، فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتِ به الله . فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين ، كان خيراً له ولقدمناه على غيره . فاستدرك يا أخي ما فاتك فقد فاتتك مواطن صالحة » .

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله ﷺ ، ورأيت في النوم كأني من بلاد ضيقة جدبة ، فخرجت الى بلد أخضر واسع ، فقلت : إن هذه الرؤيا حق . فلما قدمت المدينة قلت : لأذكرها الى أبي بكر ، فذكرتها . فقال : هو مخرجك الذي هداك للإسلام والضيق الذي كنت فيه الشرك .

فلما أجمعت الخروج الى رسول الله ﷺ قلت : « من أصاحب الى محمد ؟» فلقيت صفوان بن أمية فقلت: أما ترى ما نحن فيه وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرف محمد شرف لنا . فأبى عليّ أشد الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته ابداً . فافترقنا وقلت :

هذا رجل موتور يطلب وتراً ، قتل أبوه وأخوه ببدر . ولقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، وقال لي مثل ما قال صفوان ، فقلت له : فاطو ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره .

وخرجت الى منزلي فأمرت براحلتي تخرج الى أن ألقى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فقلت : إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أريد ، ثم تذكرت من ُقتل من آبائــه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : ومـــا عليَّ وأنا راحل ساعتي . فذكرت له ما صار الأمر اليــه ، وقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب لو صب عليه ذنوب ماء خرج . وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفج مناخــة . وواعــدني إن سبقني الى يأجج أقــام ، وإن سبقته أقمت عليه [يأجج على ثمانية أميال من مكة على طريق المدينة] .

وخرجنا جميعاً فأدلجنا سحراً فلما كنا بالهدة إذا عمرو بن العاص فقال : مرحباً بالقوم . قلنا : وبك ؟ قال : أين مسيركم ؟ فأخبرناه . وأخــبرنا أنه يريد النبي ﷺ ليسلم . فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ أول يوم من صفر سنة ثمان ، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأُخْبر بنا رسول الله ﷺ ، فقال: « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . ثم لبست من صالح ثيابي وعمدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيني أخي ، فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ أُخبر بقدومك ، فسر به وهو ينتظر. فأسرعت المشي ، فلما طلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة ، فرد عليَّ السلام بوجــه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمــد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمــك إلا إلى خير » . وبايعت رسول الله ﷺ وقلت : استغفر لي كل ما أوضعت فيــه من حق عن سبيل الله . فقال : « إن الإسلام يجب ما كان قبله » . قلت : يا رسول الله على ذلك . فقال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل مـــا أوضع من حق عن

سبيلك » ثم تقدم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فأسلما وبايعا الرسول ، فوالله ما كان رسول الله من يوم أسلمت يعدل بي أحداً فيما يحز به » .

في مؤتة

وفي نفس هذا العـــام الثامن كانت غزوة مؤتة . فقد بعث رسول الله ثلاثة آلاف وجعل أميرهم زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتـــل فعبدالله بن رواحة وكان خالد في هذا البعث . ولمـــا بلغوا تخوم الشام وجدوا الروم قد استعدوا لهم بمائة ألف خـــلاف من انضم اليهم من عرب الشام . وتردد المسلمون بين الالتحام أو الإحجام فلم يكن هنـــاك أي تكافؤ بين القوتين ، ثم اختاروا الالتحام فاقتتلوا قتالاً شديداً قتـــل فيه زيد بن حارثة برماح الروم ، فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية ابن رواحة فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم وصاح في الناس:«يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » قـــالوا : أنت . قال : مـــا أنا بفاعل ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد فأخذ الراية ودافـــع الروم حتى جمع المسلمين وقد كادوا أن يتشتتوا ، ثم بدأ يتراجع بهم . وأرخى الليـــل سدوله فحال بين الفريقين والقتال . وقدر خـــالد الموقف ورأى انه لا بد من الانسحاب فأصبح وقد بدل أوضاع قواته فجعل الميمنـــة في الميسرة والميسرة في الميمنة والمقدمة في المؤخرة والمؤخرة في المقدمة حتى يلقى في روع الروم أنهـــا غير قوات الأمس وأن أمداداً قد وصلت . واقتتل يومه ذاك حتى الليـــل وهو ينسحب الى قرية مؤتـــة ثم قفل راجعـــاً الى المدينة . ووقف رسول الله على منبره فأنهى الى المسلمين أخبار جيشهم في كلمات حزينة الى أن قال : «...ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء ، هو أمّر نفسه ... اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره » فمنذ يومئذ سمي خالد سيف الله .

كانت مؤتة أول مشاهد خـــالد في الإسلام ولم يكن ممن ولاّهم رسول الله

ﷺ من أمراء الجيش ، ولكن الظروف فرضته لما ادلهم الخطب وتأزم الأمر فوجد المسلمون أن الموقف يتطلبه . وإذا كان قد اكتسب شهرته في التاريخ من مواقعه ، لا سيما ما كان منها بعد ذلك في حروب الردة وفتوح العراق والشام ، فقد كان انتخابه قائداً في مؤتة في ظروف كانت تجعلها معركة ميئوساً منها شهادة مبكرة ممن شهدها بأحقيته وجدارته . ليس بين أيدينا ما يفيدنا عن السبب في أن رسول الله ﷺ لم يضع خالداً في قائمة أمراء الجيش . أفكان ذلك لأن الثلاثة الذين عينهم الرسول أكفأ في مجال الحرب من خالد من وجهة نظره ﷺ ؟ لا نعتقد ذلك بل نستبعده من افتراضاتنا . فهل كان لسابقتهم على خالد في الإسلام ؟ وأيضاً لا نعتقد أن يكون ذلك هو السبب فمناصب الحرب لا تكون بالسبق الى الإسلام بل بالسبق الى استكمال أسباب الغلب . ولقد استخدم أبو بكر خالداً لقمع الردة ولم يستخدم عبد الرحمن بن عوف مثلاً وهو أقدم سابقة من خالد . فما السر إذاً أن يُترك قائد كبير في جيش يحتاجه دون منصب له فيه . هل كان اختباراً وتمحيصاً وإثباتاً لحسن إسلام خالد أو ترويضاً له ؟ ربما كان ذلك والله أعلم . فقد كان صد خالد عن الإسلام يستند الى كبريائه والى صلف بني مخزوم ، والإسلام يساوي بين المسلمين ، فهم سواسية كأسنان المشط ، فليكن خالد جندياً في جيش يقوده زيد بن حارثة عتيق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أثبت خالد جدارته وأهليته كمسلم عقيدة وقائد حرب ، وأثبت أنه لم يدخل الإسلام طمعاً في شرف أو جاه بعد أن بدأ الدهر يولي قريشاً ظهره .

وأمام انسحاب خالد ، نقف وقفة قصيرة . فهل يعتبر الانسحاب هزيمة؟ بذلك قال صبيان المدينة فاستقبلوا الجيش العائد بالتراب يحثونه في وجوههم ويقولون لهم : يا فرّار ، وهكذا يظن بسطاء الناس عادة ، ومن ليس له بالحرب علم ولا معرفة . ولكن كثيراً ما يكون الانسحاب الناجح أكبر نصر

للجيش ، وأعظم عمل لقائده اذا كان في مأزق لا أمـــل فيه ، فيكون الانسحاب الذي هو نجاة للقوات من خطر الإبادة الى أن يتهيأ لها ظرف أفضل هو أعظم نصر . وبذلك قال رسول الله ﷺ : « بل الكرار إن شاء الله».
ولقد كان انسحاب خالد بالمسلمين من مؤتة عملاً ينطوي على الصواب كل الصواب من الناحية الحربية ، كما ينطوي على الشجاعة كل الشجاعة من الناحية الأدبية اذا أخذنا في اعتبارنا أن وراءه بيئـة تلتهب بالحماس ، وقـد استشهد قبله ثلاثة قادة .

فتح مكة

وفي العام الثامن من الهجرة أيضاً حدث فتح مكة . فقد نقضت قريش عهدهـا مع رسول الله فقرر فتح مكة ، وحشد حشوده وكتب الى من أسلم من قبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم ، كما اجتمع اليه أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فكانوا جميعاً عشرة آلاف . وكان النبي حريصاً على أن يتم الفتح دون دماء،فاعتمد لذلك على المفاجأة وتكتم في تحركاته وما اعتزم عليه. خرج المسلمون من المدينة في العاشر من رمضان. وخرج بعض القرشيين للاستطلاع، فرأوا جمعاً لم يجتمع للمسلمين من قبل.وقبيل مكة عند ذي طوى عبّأ النبي ﷺ جيشه ، فقسمه الى أربع لواءات ، كان خالد بن الوليـد على واحد منها ليدخل مكة من الليط في جنوبهـا ، وكان معه من القبائل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة . وكان الزبير بن العوام على لواء ثان ليدخـل مكة من كدى بشمالها ، وكان سعد بن عبادة على الأنصار ليدخلها من كداء بغربيها ، ثم كان أبو عبيدة بن الجراح ليدخلها من أعلاها بحذاء جبل هند . وأمر النبي كل الفرق ألا تقاتل إلا إذا أكرهت على ذلك.وتصدى عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أميـة وسهيل بن عمرو في بعض من اجتمع إليهم لصديقهم القديم خالد بن الوليد ، وناوشوه فاشتبك معهم وقتل منهم ثلاثـة عشر ، كما قتل في هذا القتال ثلاثة من المسلمين . وطلع الرسول ثنية كداء ،

فنظر الى جهة خالد ورأى ما يحدث فقال:« ما هذا وقد نهيت عن القتال؟» قالوا : « نظن أن خالداً قوتل وبديء بالقتال ، فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك » . وسأل رسول الله ﷺ خالداً عن ذلك فقال : « هم بدأوا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا بالنبل ، وقد كففت يدي ما استطعت . قال : « قضاء الله خير » .

بعد مكة

فتحت مكة ، وطهّر المسلمون الكعبة من الأصنام فحطموها ، ثم أرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارس الى بطن نخلة حيث كان هيكل العزى من أكبر أصنام قريش، فهدمها خالد في الخامس والعشرين من رمضان. وفي شوال أرسله النبي أميراً لسرية في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار داعياً ـ ولم يبعثه مقاتلاً ـ الى بني جذيمة بن عمار بن عبد مناة بن كنانة بأسفل تهامة . فلما رأوا خالداً أخذوا أسلحتهم فقال لهم خالد : « ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا » . فقال رجل منهم اسمه جحدم : « ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر ، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق ، ووالله لا أضع سلاحي أبداً ». قال له رجال من قومه:« يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وآمن الناس ». ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم سلاحهم، فأمر بهم خالد فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف ليقتل منهم ، فأنكر عليه ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فزجره خالد فسكت عبد الله ، فأنكر عليه سالم مولى أبي حذيفة وراجعه واشتد الجدل بينهما، ثم نفذ خالد ما أراد فقتل منهم رجالاً وجحدم يقول : « يا بني جذيمة ضاع الضرب قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه » . وانتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع يديه الى السماء وقال : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ودعا علي بن أبي طالب وأعطاه مالاً وقال له : « اخرج الى هؤلاء القوم

فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ». وأدى علي إليهم ديات من قتل وما أصيب من أموال ، وبقي معه من المال شيء فقال لهم : « أبقي دم أو مال لم يؤد لكم ؟ » قالوا : « لا » . قال : « فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون » . وسرّ رسول الله لتصرف علي وقال له : « أصبت وأحسنت » . وأثار تصرف خالد كثيراً من النقد والجدل بين متهم له مغلظ عليه وبين مدافع عنه ومحاول تبرير تصرفه . ويغنينا عن الخوض في ذلك ما كان من رسول الله ﷺ : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » . وودى الدماء والأموال ، ولكنه ظل يستعمل خالداً .

وبعد فتح مكة علمت هوازن أنها غير متروكة ، فعزمت على أن تبدأ هي بغزو مكة . واتجه الرسول الى غزوها في ديارها الى الجنوب الشرقي من مكة، وخرجت هوازن ومعها ثقيف، كلهم ثلاثون ألفاً، حتى نزلوا حنيناً وهو وادٍ ضيق من وديان تهامة يقودهم مالك بن عوف . وخبأ مالك خيله ومن ورائها مشاته في شعاب الوادي وعلى رؤوس الجبال . وكان خالد في مائة فرس هي خيل بني سليم مقدمة لجيش المسلمين الذي بلغ اثني عشر ألفاً . فلما انحدروا في وادي حنين انصبت عليهم هوازن من مخابئها والمسلمون حُسَّر ليس عليهم دروع ، وهوازن قوم رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، فرشقوهم رشقاً لا يكادون يخطؤون فبغتتهم ، واضطرب أمر المسلمين فولوا الأدبار حتى قام فيهم النبي ينادي : « إليّ أيها الناس ، أنا رسول الله » . بطبيعة الحال كان خالد ممن دهمتهم المفاجأة ، وقد انسحب مع المقدمة . وفي موقف كهذا لم يكن بد من ذاك حتى لا يبقى بين المطرقة والسندان ، فلما ناداهم الرسول عاد خالد ومن كان معه، وقاتل أشد قتال وقاتلوا معه حتى أصيب بجراحات كثيرة، وأتاه النبي ﷺ في رحله بعد أن هزمت هوازن ليعرف خبره ويعوده فنفث في جرحه فانطبق. ورغم هذه الجراح ظل خالد على رأس ألف كمقدمة

للمسلمين في زحفهم نحو ثقيف . حاصروهـا زمناً في حصونها فلم يتسن لهم فتحها ، فأذن الرسول للناس بالرحيل . وقد جاءت ثقيف بعـد ذلك الى النبي مسلمة .

وفي رواية أن الرسول أرسل الوليد بن عقبـة الى بني المصطلق ليجمع صدقاتهـا ، فخرجوا يستقبلونه ، فظن أنهم خرجوا لقتاله ، فرجع وأخـبر الرسول بذلك ، فأرسل إليهم خالد بن الوليد فوجدهم على الإسلام . ثم أرسله النبي في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبدالملك صاحب دومة الجندل، وكان نصرانياً ، فزحف خالد إليه من تبوك وفاجأه في دومة الجندل فأسره وقتل أخاه حسان ، ثم صالحـه على ألفي بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، ودخل المسلمون الحصن وعـاد خالد الى الرسول بأكيدر .

وبعث النبي خالداً الى ثقيف ليهدم اللات فأمر خالـد المغيرة بن شعبة الثقفي أن يهدمهـا بنفسه ، فأخذ المعول وسواها بالأرض وحفر أساسهـا وأخرج ترابها .

ثم بعثه النبي في أربعمائة الى بني الحارث بن كعب بنجران من أرض اليمن وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً قبـل أن يقاتلهم ، فإن استجابوا فليقم فيهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، وإن أبوا فليقاتلهم . فأسلموا ولم يقاتلوا وأقام خالد بينهم بما أمره به رسول الله ﷺ. ثم أرسل اليه النبي أن يعودوا ومعهم وفد منهم ففعل .

وتوفي رسول الله ، وارتد من ارتد من العرب ، وأخرج أبو بكر جيوشه لردع الردة ، فكان خالد قائد جيشه الأول وهو أكبرها وأهمها جميعاً . قال أبو بكر : « إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : نعم عبد الله أخو العشيرة ، خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله على الكفار » .

---

(١) الإصابة ٢٢٠١ .

المثنى بن حارثة

قائد عام آخر

قبائل العرب كانت تحج إلى مكة ، فكان الرسول يعرض دعوته عليها . وجاءت جماعة من بني شيبان، فتلا الرسول عليهم : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم [1] ... » ثم تلا : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ...[2]» فقال المثنى: « قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك وأعجبني مـا تكلمت به ،ولكن علينا عهـد من كسرى لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً ، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما يكرهه الملوك. فإذا أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي بلاد العرب فعلنا». فقال النبي ﷺ : « ما أسأتم إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه بجميع جوانبه » . ثم نهض النبي .

وبنو شيبان قبيلة المثنى ، أحد فروع بكر بن وائل من ربيعة من معد بن عدنان . فمن ربيعة كانت أسد ، ومن اسد كانت جديلة ، ومن جديلة بكر بن وائل بن قاسط ، ومن بكر كان شيبان بن ثعلبة جد المثنى . والمثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعيد بن ذهل بن شيبان . وكانت ديار ربيعة بين الجزيرة والعراق إلى البحرين على شواطىء الخليج الفارسي . ولم تكن لهم مدن ولا قرى ، وإنما كانوا أصحاب مضارب وخيام ، وأهل حلّ وترحال .

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

وكانت في الجاهلية حروب ووقائع بين بكر وتغلب ابني وائل ، واستمرت حتى كانت الغلبة لبكر على تغلب ، فتفرقت تغلب بينما انتشرت بكر فيما بين اليمامة والبحرين الى أطراف السواد ، ومن الأبلة إلى هيت . اقتسمت ربيعة تلك المناطق تجاور بني تميم وتتداخل معها أحياناً . وكانت منازل ربيعة كثيراً ما يلحقها الجدب ، بينما كانت منازل تميم (من مضر) في نجد بشمال جزيرة العرب وتمتد الى البصرة ، كانت أكثر خصباً ، ولذلك كثيراً ما كانت ربيعة تغير على جيرانها من تميم ، فاشتعلت الحرب بينهما اثنتي عشرة مرة ، فازت تميم منها بست وفازت ربيعة بست . في هذه البيئة نشأ المثنى وساد قومه ، فقد كان أكثرهم شجاعة وفروسية وعزيمة وصدقاً وجلداً وصبراً وإقداماً ونظراً في الحروب . ومن المؤسف أن ذلك الفارس القائد النادر لا نكاد نجد شيئاً عن شخصه خارج نطاق معاركه وفتوحه .

وكان للفرس سلطان في البحرين وعمان واستوطنها بعضهم ، وكثيراً ما وقع الصدام بينهم وبين بني شيبان . وقد انتصر بنو شيبان انتصارهم الكبير على الفرس في ذي قار من أرض العراق. واكتشف المثنى بأس قومه في القتال كما اكتسب جرأة على قتال الفرس واقتحام سوادهم . يقول ابن الأثير : إن الإسلام جاء وليس في العرب أعز داراً ولا أمنع جاراً ولا أكثر حليفاً من بني شيبان .

وقد عاش مع المثنى أخواه المعني ومسعود وشاركاه معاركه الرائعة ضد الفرس . ولزوج المثنى ذكر في التاريخ ، شهدت معه معاركه ضد الردة في شبه الجزيرة وضد الفرس في العراق وهي سلمى بنت خصفة التيمية . وفي رواية أنها وفدت مع المثنى على رسول الله ﷺ وأسلمت معه ، فهي على هذا صحابية .

ولما انتقل المثنى إلى رحاب الله،وقد كان ينتظر قدوم سعد بن أبي وقاص إلى العراق، ترك له وصيته بأن يقاتل الفرس على حدود أرضهم ، ونقل المعني

وصية أخيه إلى سعد ، وكانت تصحبه سلمى فخطبها سعد من المعني فقبل ، وصارت هذه المرأة المسلمة المجاهدة زوجاً لسعد بن أبي وقاص ، وشهدت معه القادسية .

وحين استطرد المثنى في تعقبـه المرتدين حتى دخـل إلى مناطق السيادة الفارسية الكاملة من حوض الفرات ، ترامت أنباؤه إلى الخليفة أبي بكر في المدينة فقال :

« من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟! »

وكان هناك قيس بن عاصم المنقري ، حكيم بني تميم، خصوم بني شيبان قبل الإسلام فقال :

« هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ! هذا المثنى بن حارثة الشيباني » .

الباب الثامن

اكتساح العراق الجنوبي

غارات للمثنى

كان عرب البحرين من ربيعة يتاخمون العراق ، وكثيراً ما دخلوه ولهم عليه جرأة . وكان منهم من يعرف مسالكه . ولعلنا نذكر أن فرات بن حيان الذي كان دليل قريش في جاهليتها لتجارتها مع الحيرة بالعراق ومع الشام ، وأسرته سرية زيد بن حارثة ، كان عجلياً من بني عجل من بكر بن وائل. ولعلنا نذكر أن وقعة ذي قار التي كانت بين ربيعة والفرس في الجاهلية كانت على صحراء العراق . وأخيراً في العام الحادي عشر للهجرة، سار المثنى ابن حارثة الشيباني في مطاردته المرتدين ، حتى دخل جنوب العراق .

وإذ انتهت حروب الردة سار المثنى حتى قدم المدينة على أبي بكر رضي الله عنه ، وطلب منه التصريح بعمليات [1] حربية بهذه الجهات فقال له : « أمِّرْني على من قِبَلي من قومي أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفيك

(١) فتوح البلدان ٦٠١ – الاستيعاب ٣/٤٩٦ .

ناحيتي » ، فقبل أبو بكر ذلك . ورجع المثنى فجمع قومه وأخذ يغير على أسفل العراق ، تارة على نواحي كسكر فيما بين دجلة والفرات وتارة على أسفل الفرات . وكان المثنى ذا نظر حربي ثاقب ، فأعمل فكره في الأمر ، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة الى أبي بكر بالمدينة يسأله المدد ويقول: «إن أمددتني وسمعت بذلك العرب أسرعوا إليّ وأذل الله المشركين ، مع أني أخبرك يا خليفة رسول الله ﷺ أن الأعاجم[1] تخافنا وتتقينا » .

خطة أبي بكر لغزو العراق

فما لبث أبو بكر أن نظر إلى موضوع العراق نظرة أخرى،ورسم خطته أن يطبق عليه بفكي كماشة بجيشين[2] ، جيش من أسفله وجيش من أعلاه ، بحيث يلتقيان في الحيرة . فكتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة بعد أن فرغ من أمر مسيلمة وبني حنيفة :

« إنّ الله فتح عليك . فسر إلى العراق[3] وابدأ بفرج[4] أهل السند والهند، وهي الأبلة [ليوم ٍ قد سماه] حتى تلقى عياضاً. وتألّف أهل فارس ومن كان في ملكهم » .

كما كتب إلى عِياض بن غَنْم وهو بالعراض[5] بين النباج والحجاز على بعض قوات حروب الردة :

«أن سِرْ حتى تأتي المُصَيَّخ فابدأ بها ثم ادخل العراق من أعلاها وعارق[6]

---

(١) الاستيعاب ٤٩٧/٣ .

(٢) الطبري ١٩/٤ س ش س ، عن محمد بن عبد الله ، عن أبي عثمان . وطلحة عن المغيرة والمهلب ، عن سياه وسفيان، عن ماهان .

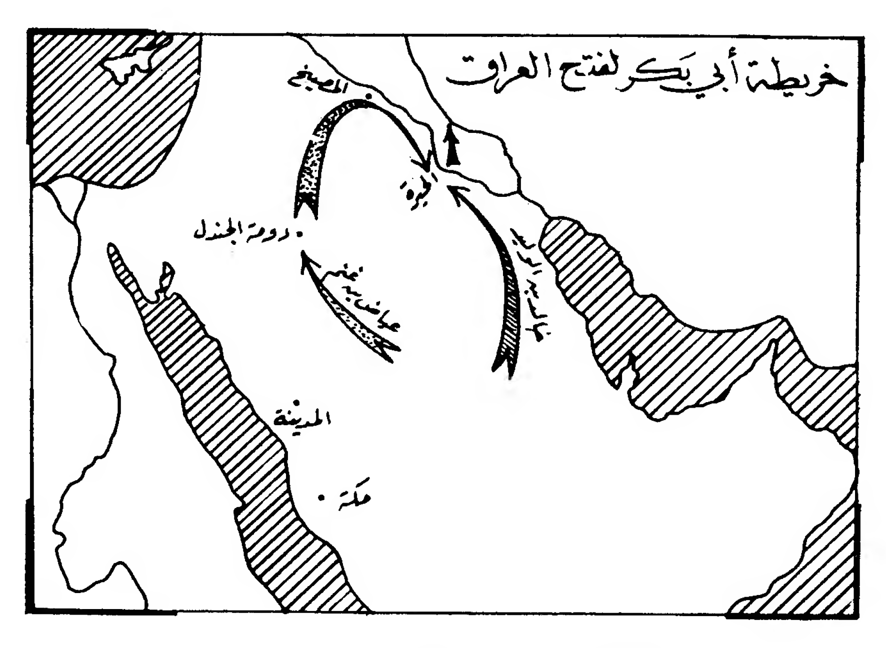
(٣) وفي رواية « فعارق » .

(٤) ميناء .

(٥) الإصابة ٦٣٩٠ في ترجمة عبد بن عوف [او ابن غوث] الحميري .

(٦) عارق : أي ائت العراق .

حتى تلقى خالداً . وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره . ثم استبقا إلى الحيرة، فأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه. وإذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس [حصونها] وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءاً [عوناً] للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن ، وجالدوهم عما في أيديهم واستعينوا بالله واتقوه وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما . واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصي ومعاجلة التوبة ، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة » .



خريطة رقم (١١) – خطة أبي بكر لفتح العراق

خطة رائعة تلك التي رسمها أبو بكر، يضع بها قوات الفرس غربي الفرات بين فكي كماشة، بحيث تواجه هذه القوات أحد الجيشين وهي مهددة من خلفها

بالجيش الثاني . إنه تخطيط يوقع قوات الفرس وقادتهم في ارتباك من حيث استكناه معرفة أهداف كل جيش ومقصده ، ومن حيث توزيع قواتهم لملاقاة كل من الجيشين في وقت واحد ، ومن حيث اختيار أماكن الدفاع والمرابطة ، ومن حيث عدم اطمئنان أي قوة للفرس تتواجد غربي الفرات فتبقى قلقة في أرضها من الناحية النفسية والمعنوية ، إذ يزحف اليها جيشان من اتجاهين متضادين . ثم يكون لكل من الجيشين المتقدمين أن يجد العون والنجدة من الجيش الثاني ، فضلاً عن أن الطريق الواحد بمياهه المحدودة وكلئه قد لا يحمل عدد الجيشين، فكان من الأفضل – أو من الألزم – أن تقسم مسؤولية الفتح على حملتين تتخذ كل منهما مساراً مستقلاً . ثم هي منافسة فاضلة ومباراة ممتعة شيقة بين جيشين من جيوش المسلمين تحفز الهمم وتستثير الحماسة والحمية .

جيش الفتح يحتشد

أذِنَ كل من خالد وعياض لمن شاء ممن معهما بالرجوع، فرجع أهل المدينة وما حولها ونقصت قواتهما حتى لم يبق مع خالد إلا ألفان ، فكتب كل منهما الى أبي بكر يطلب المدد، فأمد أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي[1]. فقيل له : « أتمد رجلاً قد انفضّ عنه جنوده برجل ؟ » وكان أبو بكر عليماً بالرجال، قال : « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » كما قال : « لَصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل » . وأمد عياضاً بعبد بن عوف الحميري . وكتب اليه والى خالد : « أن استنفروا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يغزُوَنّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي » . فلم يشهد هذه المعارك من سبقت له ردة حتى سُمح لهم في عهد عمر بذلك فيما بعد ، لما ظهرت توبتهم وحسن إسلامهم ، وعلى ألا يتولوا رئاسات . حتى في هذا الوقت الذي يفتقر فيه أبو بكر الى أعداد من

(١) راجع ترجمة القعقاع بن عمر في آخر الكتاب .

الجند ، لم ينس الهدف من الفتح وأنه جهـــاد الدين الحنيف للشرك الوثني الخبيث فكان يتخير لجيوشه المسلمين الذين ثبتوا على إسلامهم حين فتن الناس وارتدوا، فلم يسمح لمرتد سابق أن يساهم في الفتح .

وكان مع المثنى أمير من أمراء الجند من بني عجل هو مذعور بن عدي ، نازع المثنى وتكاتبا الى أبي بكر ، فكتب أبو بكر الى مذعور يأمره بالمسير مع خالد .

نزل خالد [1] النباج [على عشرة مراحل من البصرة، بين البصرة واليمامة وبينه وبين اليمامة أربعة أيام، لبكر بن وائل[2]] على رأس ألفين بقوا معه . وكتب الى المثـنى وكان بخفّان أن يأتيه وبعث اليــه بكتاب من أبي بكر يأمره بطاعته جـاء [3] فيه : « إني قد وليت خالد بن الوليد فكن معه » وكان بسواد الكوفـة حينذاك، فجاء المثنى اليه مسرعـاً. كما كتب خالد الى أمراء الجند الآخرين ، مذعور بن عدي العجلي ، وسُلْمى بن القين التميمي، وحرملة بن مُرَيْطَـة التميمي أن يلحقوا به [4] . هؤلاء الأمراء الأربعة كان تحت إمرتهم ثمانية آلاف مقاتل . ثم حشد خالد ثمانية آلاف أخر من بينـه وبين العراق من ربيعة ومضر ، فاكتمل جيشه ثمانية عشر ألفاً كلهم متطوع

---

(١) الطبري ٣/٤، عن هشام الكلبي ، عن أبي الخطاب حمزة بن علي ، عن رجل من بكر بن وائل – فتوح البلدان ٦٠١ .

(٢) معجم البلدان .

(٣) الإصابة ٧٧٢٢ من حديث الأصمعي ، عن سلمة بن بلال .
الاستيعاب ، عن أبي رجاء العطاردي .

(٤) سلمة وحرملة كلاهمـــا من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وكلاهما له صحبة وهجرة الى النبي صلى الله عليه وسلم – الإصابة ١٦٦٥ – ١٦٦٨ – ٧٨٦٤ – ٣٤١٣ – الاستيعاب ١٢٤/٢ .

لم تسبق له ردة ، دخل بهم خالد العراق . نستطيع أن نتبين من ملامحهم الآتي :

٥٠٠ فارس من الغوث — من طيء .

٥٠٠ فارس من جديلة — من طيء .

ضمهم عدي بن حاتم الطائي الى جيش خالد قبل أن يصل الى بزاخة بني أسد في حروب الردة .

١٠٠٠ من تميم ومن قضاعة وقليل من الصحابة. وقد أمّر خالد الحارث[١] ابن مرة على من كان من قضاعة ، وكان من كماة الصحابة . وقيل بل أمّر جرير بن عبد الله الحميري [٢] .

٨٠٠٠ من ربيعة ومضر جمعهم خالد .

٤٠٠٠ من بني شيبان وسائر بكر بن وائل مع المثنى [٣] بن حارثة .

٢٠٠٠ من بني عجل وسائر بكر بن وائل مع مذعور بن عدي .

١٠٠٠ من تميم مع سلمى بن القين .

١٠٠٠ من تميم مع حرملة بن مريطة .

١٨٠٠٠

كان فيهم من اللهازم أمّر عليهم خالد عتيبة بن النهاس [٤] العجلي ، كان

(١) الإصابة ١٤٨٠ .

(٢) الإصابة ١١٣٧ .

(٣) هذه وما بعدها من تفاصيل الارقام تقديري . ولكن إجمالها وارد منصوص عليه أنهم كانوا ٨٠٠٠ مع الامراء الاربعة .

(٤) الإصابة ٦٤١٤ .

شريفاً في قومه ومن الكماة الشجعان وكان معه ابنه المغيرة ، من رواة أحداث هذه الحملة منذ بدء سيرها .

وكان فيهم من بني ذهل ، وعليهم سويد بن قطبة الذهلي [١] .

وكان فيهم من هوازن عليهم يزيد [٢] بن نبيشه من عامر بن صعصعة ، وأبو حبيش [٣] بن ذي اللحية العامري من كماة الصحابة .

---

(١) فتوح البلدان ٦٠٢ .

(٢) فتوح البلدان ٦٠٥ .

(٣) الإصابة ٢١٢ كنى .

ذات السلاسل

محرم ١٢ هـ – مارس(آذار) / ابريل (نيسان)٦٣٣ م

يبدأ بالأبلة

سار خالد نحو الأُبُلّة، وهي ميناء على شط العرب وإليها كانت ترسو السفن الوافدة من الهند والسند ، وهي يومئذ أعظم موانيء فارس شأناً وأشدها شوكة. كانت بلدة كبيرة في منطقة القنوات من دلتا نهر دجلة شرقي البصرة، وكانت تقوم على الضفة اليمنى لهذا النهر وعلى الجانب الشمالي للقناة الكبيرة المعروفة بنهر الأبلة [1] . ومكان الأبلة يبعد عن موضع البصرة [ولم تكن البصرة قد اختطت بعد] أربعة فراسخ [٢٢ كم] كما تبعد عن بيان خمسة فراسخ [2] [٢٨ كم] . وعلى ركن الأبلة في نهرها خور عظيم الخطر. وربما سلمت السفن من سائر الأماكن في البحر وغرقت في هذا الخور ، يعرف بخور الأبلة [3] . قال خالد بن صفوان [4] : « ما رأينا أرضاً مثل

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) قدامة بن جعفر ١٩٤ .
(٣) المسالك والممالك للاصطخري ٥٧ .
(٤) البيان والتبيين ٢٩٧/٢ .

الأبلة أقرب مسافة ولا أطيب نطفة [النطفة المـاء الصافي أو الكثير] ولا أوطأ مطية ولا أربح لتاجر ولا أخفى لعابد » . وهي في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينـة البصرة ونهر الأبلة كان يعد من جنان الدنيا [١] . قال الخوارزمي : « وأما نهر الأبـلة فهو بالبصرة وحواليه من ميـادين النخل والأترج والنارنج وسائر الأشجار،وفيها من أصناف الزرع وأنواع الخضروات ما لا ينظر أحسن منه ، وعليه من القصور المتناظرة والأبنية الرائقة ما تحار فيه العيون وتهش له النفوس ، وفيه يقول ابن عيينة [٢] :

ويا حبذا نهر الأبـلة منظراً إذا مُدّ في أثنائه الماءُ أو جُزِر

وكان نهر الأبـلة الطريق المائي الرئيسي الذي يمتد من البصرة ثم يسير جنوبـاً بشرق حتى دجـلة ثم الى عبادان والبحر . والقول الغالب أن طول هذه القناة أربعـة فراسخ أو بريدان . وجزء من هـذا النهر حفر بعد بنـاء البصرة عام ١٧ هـ ولم يكن كله على عهد خـالد بن الوليد حين اتجه اليهـا من النباج . ويذهب ابن خرداذبة [٣] الى ان الأبلة هي دَسْت ميسان [أو بهمن أردشير كما في الطبري] ، ولكن دائرة المعارف الإسلامية تذكر أن هـاتين الولايتين يجب أن يلتمس موضعهما على الضفة المقابلة لدجلة . وهي من إنشاء اردشير الأول . ثم أصبحت في المكان الثـاني بعد البصرة ، ولكنها ظلت بلدة كبيرة طوال الخلافـة العباسية ، وكانت قد بعدت عن البحر بمـا يرسبه النهر دائماً من طمي.وكانت مشارف الأبلة كلها بستاناً واحداً كما ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري . ثم ذكر ابن بطوطـة في القرن الثامن نهر الأبـلة ولم يذكر مدينة الأبلة وكأنها كانت قد درست .

---

(١) فهرس فتوح البلدان – تحقيق المنجد .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١/١٨٦ .

(٣) المسالك والممالك ٧ .

إعلان الحرب

كان أمير الأبلة من قبل فارس رجـلاً يدعى هُرْمُز . وكان من أسوأ أمرائها جواراً للعرب ، فكل العرب له كاره حتى ضربوه مثـلاً في الخبث والكفر ، فكانوا يقولون : أخبث من هرمز وأكفر من هرمز . وكان يحارب العرب في البر والهند في البحر .

وقبل أن يبرح خالد النباج كتب الى هرمز رسالة أرسلها اليه مع آزاذبة [أبي الزباذبة الذين باليمامة] جاء فيها [1] :

« أمـا بعد . فأسلم تسلم واعتقد لنفسك وقومك الذمـة وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ».

أراد خـالد أن يستوفي ركنين شرعيين ، الأول أداء واجب الدعوة قبل الحرب ، والثاني إعلان الحرب في حالة الرفض . كما لا شك أن خالداً كان يهدف الى إحداث الأثر النفسي بإلقـاء الرعب في قلب خصمه بما اشتمل عليه الكتاب من تهديد ووعيد . ولا بد أن يكون آزاذبـه حين سلم الرسالة الى هرمز قد ذكر له ما يعرف عن خالد بن الوليد وما فعله باليمامة وغير اليمامة ، وعن مقدار الحشد الذي يزحف به والذي لم تجمع العرب مثـله من قبـل في غاراتها على أطراف العراق .

وقسم خالد جنده الى ثلاث فرق سبقته في خروجه من النباج ولم يحملهم على طريق واحد بل سلكت كل فرقة طريقاً .

فسرّح المثنى بن حارثة قبله بيومين ، ودليله ظفر بن دهى وجعله على المقدمة .
وسرّح عاصم بن عمرو التميمي ، ودليله سالم بن نصر وجعله على الميمنة .
وسرّح عدي بن حاتم الطائي ، ودليله مالك بن عباد وجعله على الميسرة .

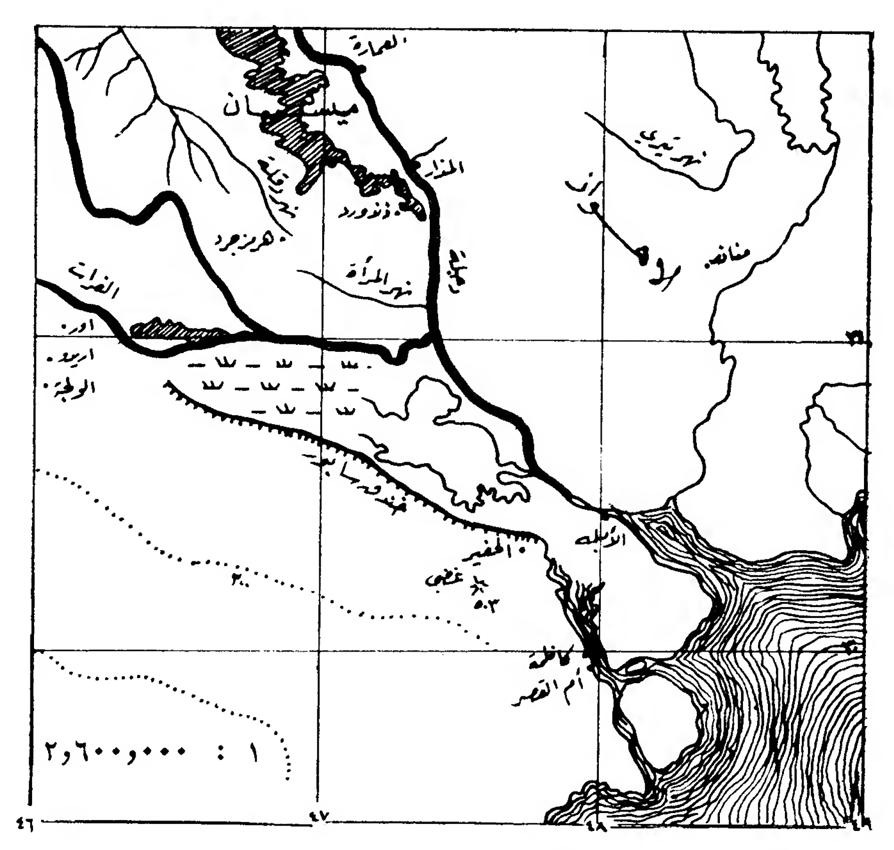
---

(١) الطبري ٤/ه ، عن عبيد الله ، عن عمه ، عن سيف ، عن المجالد ، عن الشعبي .

عدي وعاصم أحدهما قبل صاحبه بيوم .

ثم خرج خالد ودليله رافع بن عميرة الطائي .

وواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصادموا به عدوهم . والحفير مـاء لبني باهلة [١] على أربعة أميال من البصرة [حوالي سبعة كيلومترات] .



خريطة رقم (١٢)ـ كاظمة

(١) عرجون ١٩٣ . والحفير أول منزل من البصرة لمن يريد مكة [الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ١٩٠] ، وقال ابن خرداذبة من البصرة الى المنجشانية ، ثم الى الحفير ، ثم الى الرُّحيل ... الخ [المسالك والممالك ١٤٦] .

لماذا قسم خالد جيشه وفرقه على الطرق ؟ ربما كان ذلــك لضرورات الطريق حيث لا يحتمل طريق واحد من الطرق الصحراوية القديمة أن يحمل ثمانية عشر ألفاً . وربما كان ليعمي وجهته عن عدوه فيظل في حيرة من أمره حتى آخر لحظة . وربما كان هذا وذاك معاً .

ولما قدم كتاب خالد الى هرمز كتب بالخبر الى شيرويه بن كسرى برويز وكان هو الملك ، والى أردشير بن شيرويه . وجمع جموعه [1] وكانوا من أهل الأهواز وفارس ومن أهــل السواد والجبل . ثم تعجل الى الكواظم [أو كاظمة] وهي ماء عذب على ساحل الخليج الفارسي يبعد يومين عن البصرة [٨٨ كم] على طريقها الى البحرين [2] . تعجل في أسرع من معه وسبق خيله الى الكواظم فلم يجد طريق خالد ، وبلغه أن المسلمين قد تواعدوا الحفير فمال اليها ليبادر خالداً فيها ، ونزل بها فعبأ قواته وجعل على ميمنته

(١) الطبرى ٤/٧ ، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف ، عن زياد والمهلب، عن عبد الرحمن ابن سياه الأحمري .

و س ش س ، عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس الاحمري وعبد الله بن سياه الاحمري . والاهواز شرقي شط العرب ، وفارس شرقي الخليج الفارسي ، والسواد هو العراق ، والجبل هو الحد الغربي لهضبة ايران .

(٢) وفي معجم البلدان ساق ياقوت الحموي قول الشاعر :

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة يسعى على قصرات المرخ والعشر

وفي صبح الاعشى يصف بحر فارس [الخليج الفارسي] « ... ثم يمتد مغرّباً بميلة يسيرة نحو الشمال الى مدينة عبادان من أواخر بلاد العراق من الشرق على القرب من البصرة عند مصب دجلة في هذا البحر ، ثم ينعطف ويمتد جنوباً الى كاظمة، وهي جَوْنٌ على ساحل البحرين مما يلي البصرة على مسيرة يومين منها ، ثم يمتد الى القطيف من بلاد البحرين ... » (٣/٢٤٣) - وكاظمة على ساحل الخليج الفارسي في الطريق من البصرة الى البحرين ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها مشروب (معجم البلدان)- وذكر ابن خرداذبه كاظمة على الطريق من البصرة الى اليمامة وجعل بين البصرة وبين كاظمة منزلا (المسالك والممالك ١٥١). وطابقه على ذلك قدامة بن جعفر (الخراج وصنعة الكتابة ١٩٣)، فعلى هذا فهي على الطريق من الابلة الى جزيرة العرب قبل أن تفترق شعبة منه الى البحرين وأخرى الى اليمامة .

قُباذ وعلى ميسرته أنو شجان، وهما أخوان ينتسبان الى آل ساسان، البيت المالك في الدولة .

واختلفوا حول ربط الجند في السلاسل . فقال من لم ير هذا الرأي لمن أخذ به : « قيدتم أنفسكم لعدوكم ! فلا تفعلوا فإن هذا طائر سوء » . فأجابوهم : « أما أنتم فيحدثوننا أنكم تريدون الهرب » . وكان المثنى عيونه التي تأتيه بالأخبار ، فعلم خالد وهو بالطريق بنزول هرمز بالحفير ، وعلم أنهم على تعبئة وأنهم مقترنون في السلاسل .

الماء لأكرم الجندين

ولعل خالداً أراد أن يرهقهم ، أو أنه لم يشأ أن ينزل بعد مسيره الطويل على قوم قد تَعَبَّئُوا له [صفوا صفوفهم] ، فعدل طريقه الى كاظمة . وبلغ هرمز ذلك فبادر الى كاظمة وسبق خالداً اليها، فنزلها وقد استبد به الغيظ. وأعاد تعبئة جنده واقترنوا مرة أخرى في السلاسل وقد استحوذوا على الماء فهو في أيديهم ومعهم فيل من أفيال القتال .

وجاء خالد فنزل على غير ماء . فقالوا له في ذلك فأمر مناديه فنادى : « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » . فأدخل خالد حافزاً إضافياً للقتال فجعله أيضاً من أجل الماء في الصحراء .. من أجل الحياة .

خطة غادرة لهرمز

حطت الأثقال من على ظهور الابل. والخيل وقوف ، وصف خالد قواته. ورسم هرمز خطته على الغدر بخالد ، فخرج بين الصفين وطلب المبارزة فنادى : « رجل ورجل .. أين خالد ؟ » وكان قد عهد الى فرسانه بالغدر

وتواطؤوا على ذلك . ونزل خالد بين الصفين وخرج هرمز . ومشى اليه خالد والناس من الطرفين ينظرون مـا يكون . فالتقيا فاختلفـا ضربتين ، ضرب خالد ضربة فتلقاها هرمز ، ثم ضرب هرمز ضربة فتلقاها خالد . ولم يمهـله خالد بعد ذلك إذ فاجأه بأن هجم عليه واحتضنه . وغـدرت حامية هرمز فهجموا على خالد وهو مشتبك مع هرمز وأحاطوا بهما من كل جانب حتى اختفيا بينهم ، فما شغل ذلك خالداً عن قتله . ولما رأى القعقاع بن عمرو ما صنع الفرس قاد المسلمين وأنشب القتـال وهجم عليهم والتحم بهم فكشفهم عن خالد فإذا به يقاومهم ويبارزهم .

هكذا بدأت المعركة،وكان من حسن استهلالها أن فقد العجم قائدهم أمام أعينهم بغدر فاشل . وقل في الأبطـال الصناديد بطل مثل خـــالد ومثل القعقاع . وأخذ الرعب العجم فبدأت هزيمتهم وركب المسلمون أكتـافهم الى الليل [١] . وجمع خالد جرحى العجم المقترنين في السلاسل فكانت حمل بعير ألف رطل، فسميت الموقعة بذلك « ذات السلاسل » وأفلت قباذ وأنو شجان هاربين .

وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قـدر أحسابهم في عشائرهم ، فمن تم شرفه فله قلنسوة قيمتها مائة ألف درهم [٢] . فكانت هذه القلانس أشبه بتيجان أو نياشين تدل على رتبة صاحبها ومكانته في الدولة . وكان هرمز من هؤلاء الذين تم شرفهم عند العجم فقلنسوته بمائة ألف ، وقد نفـّلها أبو بكر خالداً ، وكانت مفصصة بالجوهر .

---

(١) الطبري ٤/٦ ، عن عبيد الله ، عن عمه، عن سيف ، عن عبد الملك بن عطاء البكائي، عن المقطع بن الهيثم البكائي .

(٢) حوالي ٨٦٠٠ جنيهاً مصرياً .

بعد اندحار الفرس وفرار من فر منهم ، تبعهم المسلمون في مطاردة ، وما أن رجع المطاردون حتى نادى منادي خالد في الناس بالرحيل في نفس اليوم ، وسار بالناس وأثقالهم من خلفهم حتى ينزل بموضع الجسر الأعظم من مكان البصرة . وبعث خالد بأخبار النصر ، وبما بقي من الأخماس وبالفيل ، وكان قد وقع في أيدي المسلمين ، الى أبي بكر مع زر بن كليب [1] . فلما قدم الفيل المدينة، طيف به ليراه الناس ، وقد أدهشهم منظره حتى تساءلت بعض النساء إن كان من خلق الله أو من صنع البشر . ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه ، ولا المسلمون من هواة الاستعراضات ، ولم يكن له فائدة لديهم ، فضلاً عن تكاليف إعاشته ، إذ المعروف عن الفيل أنه يحتاج إلى ستمائة رطل من الأغذية في اليوم الواحد ، فرده أبو بكر مع زر ومات في طريق العودة .

وتقدم خالد حتى أتى منطقة البصرة ، وبها سويد بن قطبة الذهلي في جماعة من قومه ، يريد أن يفعل بالبصرة مثل فعل المثنى بجهة الحيرة [2] . قال سويد لخالد : « إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ، ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك » . فقال خالد : « فالرأي أن أخرج من البصرة نهاراً ثم أعود ليلاً ، فأدخل عسكرك بأصحابي فإن صبحوك حاربناهم » . أراد خالد استدراج قوات الأبلة إلى معركة خارجها ، وكان هذا أفضل من مهاجمتها وجيشها متحصن فيها . ونفذ خطته ، فتوجه بجيشه نحو الحيرة ، فلما أظلم

---

(١) زر بن عبد الله بن كليب الفقيمي التميمي . له صحبه ووفادة في نفر من بني تميم ، وفد على النبي فأسلم، ودعا له النبي ولعقبه. كان من أمراء الجيوش في فتح خوزستان ، وكان على جيش في حصار جندي سابور وفتحها صلحاً .

(٢) فتوح البلدان ٣٠٢ .

الليل رجع بجيشه فدخل عسكر سويد خلسة . فلما أصبح الصباح ، خرج جيش الأبلة الى سويد وهم يعلمون أن خالداً قد انصرف إلى الحيرة ، فلما اقتربوا ورأوا كثرة من في المعسكر ، أسقط في أيديهم وانكسرت معنوياتهم. فقال خالد: «احملوا عليهم فإني أرى هيئةقوم قد ألقى الله في قلوبهم الرعب». فحملوا عليهم فهزموهم ، وكثر القتل فيهم ، وغرق طائفة في دجلة البصرة . ثم مر خالد بالخريبة ففتحها وسبى من فيها ، واستخلف بها شريح بن عامر من بكر بن هوازن ، وكانت الخريبة من مسالح العجم .

نزل خالد موقع البصرة،وبعث المثنى بن حارثة في آثار المجوس في مطاردة عميقة . وأرسل معقل بن مقرّن المزني أحد الإخوة العشرة إلى الأبُلّة [1] ، فخرج حتى جاءها فجمع مالها وسبيها. وانطلق المثنى قائد المقدمة حتى انتهى إلى نهر المرأة وعليه « حصن المرأة » كان لأميرة فارسية تدعى كامورزاد . ولم يشأ أن يوقفه الحصن عما هو بسبيله، فخلف أخاه المعنى بن حارثة لحصاره ومضى هو الى « حصن الرجل » ، وقد كان به زوج كامورزاد فحاصره ثم فتحه واستنزل من به عنوة فقتلهم واستفاء أموالهم . وما أن علمت كامورزاد بذلك حتى صالحت المثنى وأسلمت وتزوجها المعنى .

سبى خالد أولاد المقاتلة الذين قاتلوه ممن كان يقوم بأمر الأعاجم . أما

---

(١) يذكر الطبري أن هذه الرواية خلاف ما يعرفة أهل السّير عن فتح الأبلة وما جاءت به الآثار الصحاح.وأن فتحها إنما كان أيام عمر بن الخطاب على يدي عتبة بن غزوان ١٤ هـ . ولكننا نستبعد أن يوغل خالد في العراق تاركاً الأبلة وراء ظهره تشكل خطراً عليه ، فضلاً عن أنه لم يكن هناك ما يمنعه من دخولها ، وقد دحر جيشين لها . وقد سبق في خطاب أبي بكر اليه إذ أمره بالسير الى العراق أن يبدأ بالأبلة . والذي نراه ونطمئن اليه ان خالداً فتح الأبلة عام ١٢هـ ثم انسحب المسلمون منها حين انسحبوا من اكثر الاراضي التي استولوا عليها، وذلك حين انتقل خالد الى الشام على ما سيأتي شرحه ، ثم اعاد عتبة فتحها عام ١٦ هـ اثناء دخول سعد بن أبي وقاص المدائن .

الفلاحون فقد نفذ ما أمره به أبو بكر بشأنهم ، فلم يحرك أحداً منهم وأقرهم على أرضهم وجعل لهم الذمة . وبلغ سهم الفارس في ذات السلاسل ومعارك النهر ألف درهم، والراجل على الثلث من ذلك. وقد كان لهذا الظفر أثره البالغ في معنويات المسلمين، فقد رأوا أن الفرس —وقد كانت لهم رهبة عند العرب— ليسوا من طينة تختلف عن طينة الناس ، وقد رأوا خالداً يقتل قائدهم أمام أعينهم كما قتلوا هم جنده ، وقد رأوا أن النصر الذي حالفهم ضد المرتدين يستطرد الآن معهم في حربهم ضد الفرس . كما أن ما غنموه كان من الجسامة بحيث لم يكن لهم بمثله عهد .

معركة المذار [1]

أول صفر ١٢ هـ – ١٧ ابريل (نيسان) ٦٣٣

موقع المذار

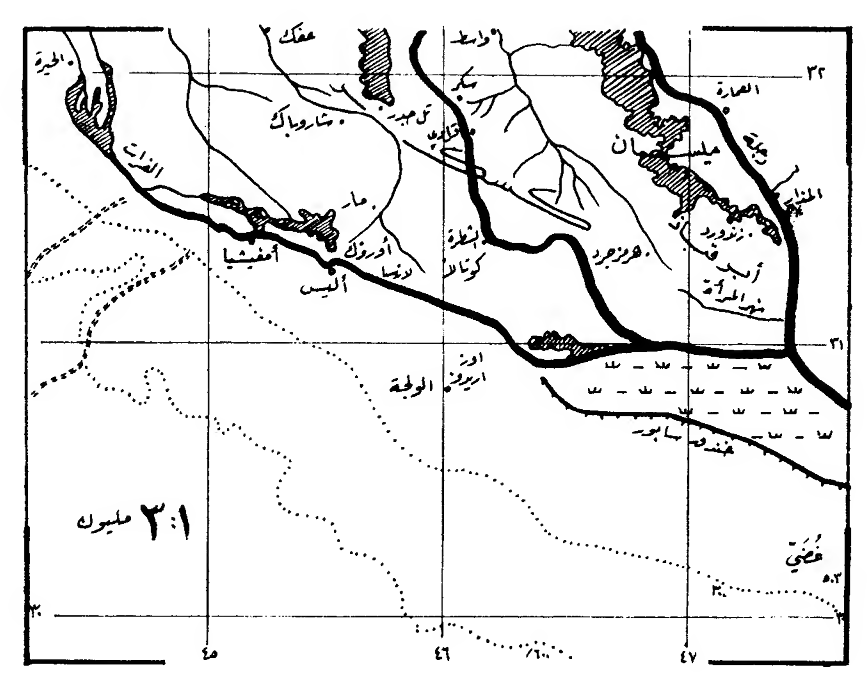
كانت ذات السلاسل في محرم ١٢ هـ [أواخر مارس (آذار) ٦٣٣ أو أوائل ابريل (نيسان)] . وبعدها كانت موقعة المذار . والمذار موقع يقع على الشاطىء الشرقي لدجلة ، عند التقاء بعض روافده المنحدرة إليه من الشرق [2] ، وعندها تتشعب الطرق إلى الأهواز والجبل وفارس والسواد على مكان تلتقي به أنهار ، يصفه الرواة بقولهم : « على مجمع الأنهار إلى النهر

---

(١) الطبري ٤/٧ ، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف ، عن زياد والمهلب ، عن عبدالرحمن ابن سياه الاحمري . و س ش س ، عن زياد بن سرجس الاحمري وعبدالرحمن بن سياه الاحمري ، وسفيان الاحمري والمهلب بن عقبة .

(٢) قال الاصطخري : « وللبصرة مدن: فأما عبادان والأبلة والمفتح والمذار فعلى شط دجلة وهي مدن صغار متقاربة في الكبر عامرة .. » (المسالك والممالك ص ٥٧) – وقال قدامة بن جعفر : من المذار الى البصرة (وكانت فيه دواب للبريد في عصره) ثلاث سكك (محطات) (الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٢٦)– وقال الطبري: « .. على النهر المغيث والمغاث » (٤/٧) وقد حددنا مكان المذار على الخريطة نقلاًعن خريطة العراق الاثرية لمديرية الآثار العراقية ببغداد.

المغيث والمغاث » على مسافة أربعة أيام شمال البصرة بالقرب من واسط عاصمة ميسان [حوالي ١٧٥ إلى الشمال من الأبلة] . وكانت المعركة في صفر ١٢ ﻫ على ما ذكر الرواة ، وتقديرنا أنها كانت في أوله [١٧أبريل(نيسان)٦٣٣ م].



خريطة رقم (١٣) – معركة المذار

تحرك ساساني مضاد

بلـّغ هرمز بكتابيه الى أردشير وإلى شيرويه بكتاب خالد إليه وزحفه نحوه من النباج ، فأمداه بقارن بن قريانس . خرج قارن من المدائن مدداً لهرمز غير أنه لم يدركه . كان قارن يتحرك نحو الأبلة حتى إذا انتهى إلى المذار

بلغته أخبار الهزيمة ومصرع هرمز ، ووصلت إليه فلول ذات السلاسل ، فتباحثوا وتجادلوا وتحاضوا على الثبات ، وقالت فلول الشرق من الأهواز وفارس لفلول الغرب من السواد والجبل: « إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً، فاجتمِعوا على العودة مرة واحدة فهذا مدد الملك وهذا قارن لعل الله يديلنا ويشفينا من عدونا وندرك بعض ما أصابوا منا » . فتماهدوا على ذلك .

وعسكر قارن بالمذار ، وقد جعل دجلة عن يمينه والرافد الذي يمده وراء ظهره وقد كدس فيه السفن. وجعل على ميمنته قُباذ وعلى ميسرته أنو شجان اللذين كانا على مجنبتي هرمز بالكواظم . وكان المثنى والمعنى قد تقدما في هذه الأرض فبلغهما خبر هذا الجمع فكتبا الى خالد . وكأنما أراد خالد أن يصفي حسابات ما سبق ، وأن يشجع جنده على ما بعدها ، فبادر الى قسمة الفيء على من أفاءه الله عليه ، ونفّل من الخمس ما شاء ، وبعث مع الوليد بن عقبة ببقيته وبالفتح الى أبي بكر ، وبأخبار اجتماع العجم بالمذار . ثم تحرك نحو المذار داخل أرض العراق ، وقد ترك صحاريه وراء ظهره . وأراد أن يأمن المفاجأة فسار على تعبئة واستعداد للالتحام متى ظهر العدو ، فسار شمالاً بحذاء دجلة في أثر المثنى ومر بزندورد من إقليم كسكر ، فافتتحها بعد أن كانت من أهلها مراماة للمسلمين ساعة ، وافتتح دُرْنَى وما في ذمامها بأمان. وأتى هرمزجرد فآمن أهلها أيضاً [1] وفتحها .

ثلاثون ألف قتيل

وخرج قارن من القلب يدعو للمبارزة ، فبرز اليه خالد بن الوليد ومعقل ابن الأعشى بن النباش المعروف بأبيض الركبان ، واستبقا اليه فسبق معقل وقتله في المبارزة . وتزاحف الصفان فاقتتلوا على حنق وحفيظة قتالاً أشد مما كان في ذات السلاسل .

---

(١) فتوح البلدان ٦٠٣ .

وقتل عاصم بن عمرو التميمي، قائد الميمنة، أنو شجان قائد ميسرة المجوس، كما قتل عدي بن حاتم الطائي، قائد ميسرة المسلمين، قباذ قائد ميمنة العجم. وكان قارن ممن تم شرفه مثل هرمز، ولم يقاتل المسلمون بعده أحداً ممن تم شرفه من العجم في هذه الحملة، وقتل من العجم ثلاثون ألفاً [1]، ولجأ الباقون الى السفن ليعبروا، وغرق بعضهم في محاولته تلك. ولم يكن مع المسلمين سفن فمنعتهم المياه من طلب عدوهم، ولولا ذلك لأتوا على آخرهم. ولم يفلت منهم من أفلت إلا عراة وأشباه عراة.

أقام خالد بالمذار. وسلم الأسلاب [2] لمن سلبها بالغة ما بلغت، وقسّم الفيء ونفّل من الأخماس أهل البلاء، ثم بعث ببقية الأخماس مع سعيد بن النعمان أخي بني عدي بن كعب من قريش ووفد معه. وقد زاد سهم الفارس في المذار على سهمه في ذات السلاسل، وأقام خالد على النهر يسبي أُسَر المقاتلين ومن أعانهم، وسار سيرته مع الفلاحين فأقرهم على أرضهم، ومن أجاب الى الخراج من جميع الناس وقبلوا الجزية. وكان في سبي المذار حبيب أبو الحسن البصري وكان نصرانياً، ومافنّة مولى عثمان وأبو زياد مولى المغيرة ابن شعبة.

---

(١) الطبري ٤/٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن أبي عثمان.

(٢) الطبري ٤/٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن زياد والمهلب، عن عبد الرحمن ابن سياه الأحمري. وس ش س، عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس الأحمري وعبدالرحمن بن سياه الاحمري وسياه.

والسلب هو ما يأخذه المحارب مما على قتيله في الحرب. ومن الاحكام المتغيرة بتغير الزمان أخذ المحارب لما يجده مع قتيله المستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»، فإن مَنح السلب للقاتل من قبيل التحريض على القتال في ظروف دعت اليه. وللحاكم أن يفعله وألا يفعله بحسب ما يرى من مصلحة. فهو ليس من قبيل الشرع العام الثابت الذي لا تجوز مخالفته. (عن مجلة العربي – مايو (ايار) ١٩٧٠ – زكريا البري، قسم الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت).

ونظر خالد فرأى أن منطقة الأبلة التي يريد أن يخلفها وراء ظهره ليتقدم نحو الحيرة ثم المدائن منطقة لها أهميتها الاقتصادية القصوى وخطرها الاستراتيجي . فهي أكبر ثغور إيران البحرية ، وهي الطريق المائي الوحيد بين المدائن والشرق [الهند والسند والصين] ، وهي مدخل السفن الى دجلة والى الفرات ، فضلاً عن أنها باب يمكن السير منه الى الحيرة [وهي الخطة التي وضعها أبو بكر والتزم خالد بتنفيذها] ، ومنها يمكن أن يمخر وسط السواد بين دجلة والفرات في أقصر خط مستقيم الى المدائن ، ومنها يمكن عبور شط العرب للتوغل في الأهواز أو فارس والجبال . وهذا كله قد يدفع الفرس الى محاولة استردادها ، بمعنى أنه من الاحتمالات التي توضع في الحسبان أن يوجه الفرس جيوشهم الى هذه المنطقة سواء من الحيرة ، أو من وسط السواد ، أو بحذاء الشاطىء الشرقي لدجلة كما حدث في المذار ، أو من الأهواز ومرتفعات إيران في الشرق ، أو من الجنوب براً أو بحراً .

لذلك ، وتأميناً لسلامة قواته ، وضع خالد حاميات مناسبة تجاه كل تلك المداخل حتى تكون يقظة لما عسى أن يأتي منها . وضع حاميات تجاه الأبُلة والخريبة بناحية موضع جسر البصرة على شط العرب وبأسفل دجلة . فخلّف سويد بن قطبة الذهلي على ناحيته من منازل بني ذهل من جهة البصرة ، وقال له [1] وهو يسلمه هذه المسؤولية : « قد عركنا هذه الأعاجم بناحيتك عركة أذلتهم لك » . واستخلف قطبة بن قتادة بن جرير [2] السدوسي على جهته . واستخلف بالخريبة شريح [3] بن عامر بن قين من بني

(١) فتوح البلدان ٦٠٢ ، عن الكلبي – وذهل من بكر بن وائل ، فكانت صحراء تلك المنطقة من مساكنهم .

(٢) الإصابة ٧١٢٢ – الاستيعاب ٣/٢٤٧ . وسدوس من بكر بن وائل .

(٣) فتوح البلدان ٦٠٢ .

سعد بن بكر بن هوازن . فكانت هذه الحاميات أشبه بنقط الحدود تشرف على منافذ المنطقة وتقف عليها وينظر بعضها الى بعض ، وتنتهي قيادتها جميعاً الى سويد بن مقرّن المزني الذي أمّره خالد على الجزية وأمره بنزول الحفير في موقع خلفي متوسط بأطراف الصحراء ليجعلها قاعدة له وليحمي ظهر جيش المسلمين المتقدم . وأمره ببث عماله ووضع يده في الجباية . وسويد بن مقرّن أحد الإخوة العشرة كلهم في جيش خالد وسيأتي ذكرهم . مر بنا ذكره مرتين . كان مع أبي بكر رضي الله عنه في قتاله مرتدي عبس وذبيان حين هددوا المدينة ، خرج معه من المدينة ليلاً وكان على الساقة [المؤخرة] وكان أخوه النعمان على الميمنة وأخوه عبد الله على الميسرة حتى دهموا المرتدين في ذي قصة وهزموهم، هذه مرة . ثم أرسله أبو بكر قائداً للجيش الحادي عشر لقمع ردة تهامة اليمن . أما اتجاه الحيرة فسيتولى خالد أمره بنفسه . وأقام خالد بالمذار قليلاً يجمع المعلومات ويتحسس أخبار عدوه ويرقب اتجاه مساراته .

كمين في الولجة [١]

٢٢ صفر ١٢ هـ – ٣ مايو (ايار) ٦٣٣ م

تحرك ساساني جديد

بلغ خبر موقعة المذار الى المدائن فبعثت جيشاً آخر يقوده أنْدَرْزَغر، وكان فارسياً من مواليد السواد ومن سكانه القاطنين بـه ، فلم يكن ممن ولد بفارس ولا بالمدائن أو نشأ بها . وكان قبل ذلك أميراً على خراسان . أرسله أرْدَشَيْر على عجل وأرسل في أثره بهمن جاذَوَيْـه بجيش آخر، وأمره أن يتبع نفس طريقه حتى يدركه .

وخرج أندرزغر من المدائن حتى أتى كسكر [٢] ثم جازها الى الولجة [٣]

---

(١) الطبري ٤/٨ ، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عمرو، وعن زياد بن سرجس، عن عبد الرحمن بن سياه ، وعن محمد ، عن أبي عثمان .

و س ش س ، عن المهلب،عن أبي عقبة وزياد بن سرجس وعبد الرحمن بن سياه .

(٢) منطقة واسعة بين الكوفة والبصرة – معجم البلدان . وقد اوضحناها على الخريطة .

(٣) لم نقف على ما يحدد لنا على وجه الدقة موضع الولجة من الخريطة خلاف ما ذكره الطبري من انها كانت على البر مما يلي كسكر . وقد يدلنا اسمها على اشتقاقه من الفعل ولج يلج بمعنى دخل يدخل فيكون اسمها مستمداً من أنها من مداخل الصحراء الى العراق .

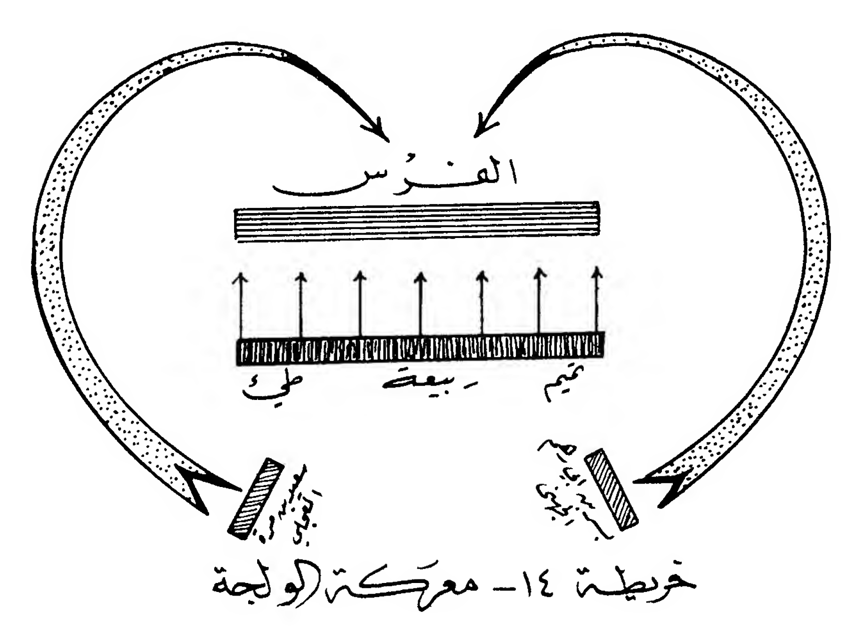
وهي في الصحراء خارج كسكر. وخرج بهمن جاذويه في أثره ولكنه خالف فسلك طريقاً غير طريقه إذ اتجه إلى وسط السواد . والظاهر أنه أراد أن يحصر خالداً بين جيش أندرزغر الذي يخرج من السواد الى تخوم الصحراء ليلتف حوله ويتقدم اليه من ورائه وبين جيشه هو من أمامه في وسط السواد. وتاريخ بهمن جاذويه مع جيوش المسلمين بعد ذلك ينم عن أنه كان من أكبر قادة الحروب لدى الفرس ومن أكثرهم كفاءة ودراية وحسن تصرف .

وانضم الى جيش أندرزغر حشود أخرى حشرت اليه على عجل من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا الى جنب عسكره بالولجة الى الخارج من مجرى الفرات . فلما اجتمع له ما أراد واستتم ، أعجبه ما هو فيه وعزم على السير الى خالد دون انتظار بَهْمَن جاذَوَيْه .

خالد يفلت من الكماشة

انتهت هذه الأخبار الى خالد وهو ما زال بالمذار فقدر الموقف تقديراً سليماً وآثر أن يخرج من المذار شرقي دجلة الى طريق الصحراء جنوبي الفرات ، ونادى في جيشه بالرحيل وعاد أدراجه الى الجنوب قبل أن تطبق عليه تلك الكماشة . وتقدّم الى من خلّف في أسفل دجلة وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار . كان خالد يعلم أن عدوه تزداد مقاومته في كل معركة عن سابقتها. وإذا كان قد انتصر في معركتين قبل ذلك، فليس معنى هذا ضمان دوام النصر،وإن أخطر ما يصاب به المقاتل في الميدان الغرور والغفلة واختلال الموازين . ولم يكن خالد ممن ينتشي بالنصر فينسيه الحقائق وما ينبغي عليه من وسائل مواجهتها . كان دائماً مالكاً لأعصابه في حالات النصر كما كان يملكها في الشدائد والمحن فلا يعميه هذا أو ذاك عن أمره. كان خالد يتحرك الى الولجة للقاء أندرزغر وهو يعلم أن جيشاً آخر يقوده بهمن جاذويه في طريقه اليه .

نزل خـالد على أندرزغر بالولجة ونظر فوجد أن ميدان المعركة أرض منبسطة لا تتخللها مسالك ولا مسطحات مائية، فهي ميدان يسمح بالمناورة. صف خالد قواتـه وأخفى في الخلف قوتين في ناحيتين لعمل كمين ، إحداهما عليها بُسْر بن أبي رهم الجهني ، والثانية عليها سعيد بن مرة العجلي . واقتتل



خريطة ١٤– معركة الولجة

المسلمون والعجم ومعهم من ناصرهم من العرب قتالاً شديداً، حتى ظن الفريقان أن الصبر قـد فرغ . المجوس يشد من أزرهم أملهم في أن يصل اليهم بهمن جاذويه ، وخالد يدخر كمينه ويستبطئه حتى ينهك عدوه فيخرج عليه وقد بلغ منه الجهد مبلغـه ، فإنه إذا خرج عليهم وهم في أوج نشاطهم لأمكنهم، استناداً الى وفرة عددهم، أن يواجهوه من الخلف كما يواجهون خالداً من الأمام، فإنه من أصعب الأمور على التصور وأشقهـا في التنفيذ أن تحصر قوة صغيرة قوات أكبر منها في أرض منبسطة مفتوحة . أما إذا أجهدوا ، فإن التصور

الطبيعي المتوقع أن ترتبك صفوفهم وأن يفقدوا توازنهم وأن يعمدوا الى الفرار . وما دامت قوات خالد صامدة متماسكة فلا ضير أن ينتظر .

وأخيراً حين اطمأن الى أن خطته نضجت على النار ، أطلق خالد فرقتي الكمين من وجهين . من خلف ميمنته ومن خلف ميسرته . ودارت كل فرقة منهما حول جناح العجم المواجه لها لتطلع عليه من خلفه ... من حيث كانوا ينتظرون المدد. وأذهلت المفاجأة الفرس وحلفاءهم فبدأت الهزيمة في صفوفهم ثم عمدوا للفرار.وشدد عليهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم واختلط أمرهم حتى لم ير رجل منهم مقتل صاحبه ، وفرّ أندرزغر من الميدان ومضى في هزيمته نحو الصحراء حتى مات عطشاً .

وقام خالد يخطب المسلمين ويرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب. قال : « ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب [كثير التراب] ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء [الدعوة] الى الله عز وجل إلا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه » . إشارة الى من تخلف عن الخروج معهم للجهاد .

وسار في الفلاحين بسيرته السابقة فلم يقتلهم أو يحركهم عن أرضهم ، ودعاهم الى الجزية والذمة فأجابوا . وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم . وكان ممن قتل يومئذ ابن لجابر بن بجير وابن لعبد الأسود من زعماء نصارى بكر ابن وائل ، من العرب الذين أعانوا المجوس وانضموا اليهم .

وفي يوم الولجة قال القعقاع [1] بن عمرو يفخر بالمسلمين :

ولم أر قوماً مثل قوم رأيتهم ... على ولجات البر أحمى وأنجبا
وأقتل للرواس من كل مجمع ... إذا ضعضع الدهر الجموع وكبكبا

(١) ولجات: فتحات ، وهي ايضاً اسم المكان « الولجة » — الرواس: الرؤساء — كبكب: كبها على وجهها (مختار الصحاح) .

أليس ونهر الدم [1]

٢٥ صفر ١٢ هـ – ٦ مايو (ايار) ٦٣٣ م

عرب مع المجوس

أعان نصارى بكر بن وائل من عرب الحيرة المجوس على المسلمين في الولجة وقُتل بعضهم. وكان فيمن قُتل اثنان من أبناء زعمائهم هما جابر بن بجير وعبد الأسود . فلما وقع ذلك غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الفرس وكاتبهم الفرس واجتمع العرب في أُلَّيْس وعليهم عبد الأسود العجلي ومعهم بعض العجم .

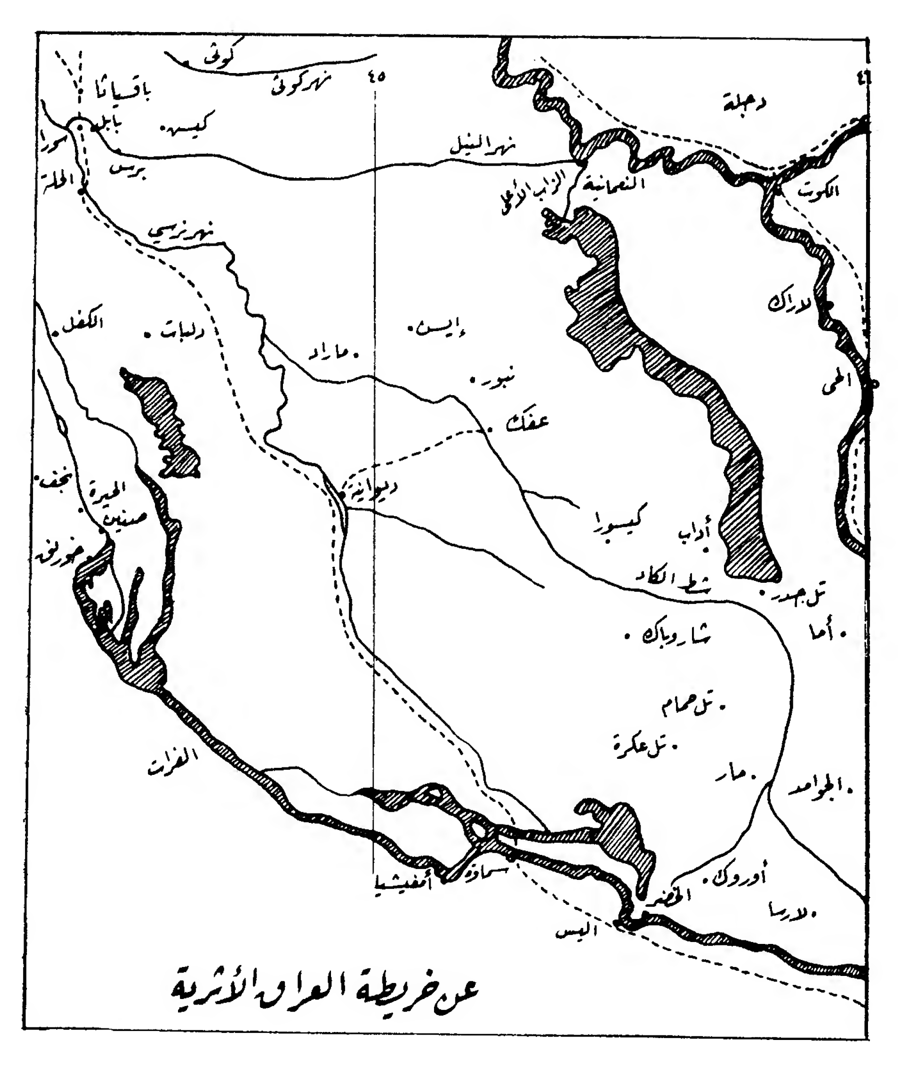
وكتب أرْدَشِير [2] الى بهمن جاذويه وكان ما زال في قسياثا أن يسير بجيشه الى أُلَّيْس حتى ينضم الى من اجتمع بها من العجم ونصارى العرب . فقدم بهمن مقدمته وعليها جابان وأمره بالإسراع ، ولكنه أوصاه في الوقت

---

(١) الطبري ٤/٩، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف ، عن محمد بن طلحة، عن ابي عثمان وطلحة بن الاعلم ، عن المغيرة بن عتيبة .

س ش س ، عن محمد بن عبد الله، عن ابي عثمان ، وطلحة بن الاعلم، عن المغيرة بن عتيبة.

(٢) هكذا في الطبري . وفي كريستنسن أن أردشير ولي ١٨ شهراً ، وكان طفلا .



خريطة رقم (١٥) — أليس وأمغيشيا

١ : ١و٤٦٠و٠٠٠

نفسه أن يكف نفسه وجنده عن قتال المسلمين حتى يلحق به إلا أن يبدؤوه .

سار جابان الى أُلَّيْس وهي على صُلب الفرات من ناحية البادية ، بينما عاد بهمن جاذويه الى المدائن لمقابلة أردشير في أمور أراد أن يحدثه فيها فوجده مريضاً فبقي الى جانبه وترك جابان وما أرسله فيه .

نزل جابان أُلَّيْس واجتمع اليه فيها مع جيشه جميع القوات الأخرى التي كانت بها من العجم ومن العرب،عليهم عبد الأسود فينصارىالعرب من بني عجل ، وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة. وكان جابر بن بجير نصرانياً أيضاً وموتوراً مثله فساند عبد الأسود وانضم اليهم زهير ومالك ابن قيس [من قبيلة جذرة] من العرب .

علم خالد بتجمع عرب الضاحية فسار اليهم . وكان تحرك العجم من قسياثا سريعاً – وربما قريباً – فلم يعلم خالد بقدوم جابان حتى التقى به . فلما طلع خالد بنفس تعبئته التي كان عليها على جابان في أُلَّيْس كان المجوس يستعدون للغداء ، فقالوا لجابان : « أنعاجلهم أم نغدي الناس ولا نريهم أننا نحفل بهم ثم نقاتلهم بعد الفراغ ؟! » ورأى جابان أن المسلمين على تعبئة ، فقال : « إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ، ولكن ظني أنهم سيعجلونكم ويعاجلونكم عن الطعام » . فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة ودعا بعضهم بعضاً وتوافوا اليها .

هجوم سريع من خالد

وانتهى خالد اليهم فوقف وأمر بحط الأثقال ، فلما وضعت وكّل بنفسه حوامي يحمون ظهره حتى لا يتكرر ما حدث من هرمز في كاظمة ، وخرج أمام الصف فنادى : « أين أبجر ؟ أين عبد الأسود ؟ أين مالك بن قيس ؟ » فجبنوا جميعاً إلا مالك فقد خرج اليه . قال له خالد : « يا ابن الخبيثة ما

جرأك عليّ من بينهم وليس فيك وفـاء[1] ! » ثم تقـدم اليه فضربه ضربة قتلته ، ثم زحف عليهم ، وكانوا قد جلسوا للطعـــام ، فأقامهم وأجهضهم عنه قبـل أن يطعموا . قال جابان : « ألم أقـل لكم يا قوم ؟ أما والله مـا دخلتني من رئيس [رئاسة] وحشة قط حتى كان اليوم » . فقالوا تجلّداً : « ندعها – يعني الطعام – حتى نفرغ منهم ونعود اليها ! » قال جابان : « وأيضـــاً أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون ، فالآن أطيعوني وسمّوها فإن كانت لكم فأهون هالك ، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئاً وأبليتم عذراً » . قالوا : « لا اقتدار عليهم ! »

عجيب أمر جابان هذا . قائد في معركة يرى الرأي ، ثم يكون من الضعف والهزال أن يعجز عن إنفاذه في جنده !وفي ماذا؟ في وجبة طعام... وجند متهافتون على الطعام لا يطيقون تأجيل وجبة أو أن يصبروا عليهـــا بحضرة عدوهم القائم على رؤوسهم بالسلاح،فيجدون في ضعف قائدهم مندوحة تسمح لهم بالخروج على رأيه. كان جيشاً من عناصر مختلطة من العرب والعجم ينقصه الضبط .

جعل جابان المجوس في القلب ، وجعل عبد الأسود ومن معه من العرب في الميمنة ، وأبجر ومن معه من العرب على ميسرتـه . وكان خالد على نفس تعبئته في المعارك السابقة ، المثنى على المقدمة ، وعاصم بن عمرو على الميمنة ، وعدي بن حاتم على الميسرة .

نهر من الدم

واقتتلوا قتالاً شديداً أشد من أي قتال سبق ، واشتدت مقاومة العجم ومن معهم بما يتوقعون من قدوم بهمن جاذويه ، فصبروا وصمدوا للمسلمين ،

---

(١) يعني لو قتلتك لا تفي بما اريد .

وظل المسلمون يشدون عليهم حتى شق عليهم الأمر ، فنذر خالد وقال :

« اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم » .

وكان المسلمون من بكر بن وائل أشد الناس على نصارى بكر بن وائل الذين جاءوا يناصرون المجوس، وكان المثنى بن لاحق أشد مسلمي بكر بن[1] وائل في ذلك . وبدأت صفوف جابان تتضعضع، فانكشفوا للمسلمين ومنحهم الله أكتافهم ، فأمر خالد مناديه فنادى في الناس: « الأسر الأسر..لا تقتلوا إلا من امتنع » ، فأقبلت خيول المسلمين بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوق الأنعام . فجمعهم خالد، وقد حبس الماء عن النهر فوكّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر يوماً وليلة على رجاء أن يجري النهر بدمائهم . وخرج المسلمون لمطاردة الهاربين يطلبونهم في اليوم التالي والذي بعده ،حتى انتهوا إلى النهرين ، ومقدار ذلك من كل جوانب أُلّيس حيث تفرقوا . فكانوا يأتون بهم وتضرب أعناقهم في النهر، والنهر لا يجري دماً حتى قال القعقاع بن عمرو وبشير بن الخصاصية وأمثال لهما لخالد : « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم . إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيلان ونهيت الأرض عن نشف الدماء ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » . وأعيد الماء إلى النهر فجرى أحمر قانياً ، فسمي لذلك نهر الدم وعرف بذلك إلى قرون بعدها . وكانت على النهر طواحين تدار بالماء ، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوتَ العسكر – ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون – ثلاثة أيام .

رجع المسلمون من المطاردة ودخلوا معسكر الحلفاء ، فوجدوا الطعام على البُسُط ووقف خالد عليه وقال :

« قد نفلتكموه فهو لكم ، كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع

---

(١) الإصابة ٨٣٦٤ .

نَفَّلَه ، وقد نفل الناس يوم خيبر الخبز والطبيخ والشواء وما أكلوا غير ذلك في بطونهم غير متأثّلِيه [1] » .

فقعد المسلمون عليه لعشائهم بالليل في مثل حفل سمر ، وجعل من لم يرَ الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول : « ما هذه الرقاع البيض ؟! » فيجيب من قد عرفها مازحاً :

« هل سمعتم برقيق العيش ؟ »

فيقولون : « نعم » .

فيقولون : « هو هذا » .

ولذلك سمي الرِّقاق ، وقد كانت العرب تسميه قبل ذلك للقِرَى .

وبلغت قتلى العجم وحلفاؤهم في أُليس سبعين ألفاً جلهم من أمغيشيا [وتسمى أيضاً منيشيا] . وبعث خالد بالخبر مع دليل من بني عجل يدعى جندلا ، فقدم على أبي بكر بالخبر وبفتح أليس وبقدر الفيء وعدة السبي وبما حصل من الأخماس وبأهل البلاء من الناس. وأعجب أبو بكر بصرامته وثبات خبره فأمر له بجارية من ذلك السبي .

(١) التأثل اتخاذ أصل المال ، يعني أكلوا ما شاءوا دون ان يحملوا منه شيئاً .

أمغيشيا [1]

٢٨ صفر ١٢ هـ - ١٤ مايو (ايار) ٦٣٣ م

مصر كبير

كانت أمغيشيا مصراً كبيراً كالحيرة على الفرات، تبعد نحواً من ٤٠ كيلومتراً عن أُلّيس . ولم تكن بأمغيشيا معركة ولم يقع فيها قتال ، إنما كانت فيئاً بغير خيل. ذلك أن خالداً بعد أن فرغ من معركة أليس أراد ألا يمنح العجم فرصة ، ومن مبادىء الحرب المطاردة لمتابعة استغلال النجاح . وكان من أهم ما يميز خالداً خفة حركته وقدرته على التحرك السريع . فنهض من أليس فأتى أمغيشيا ، وكان كثير من أهلها قد قتل في أليس ، قتل منهم حوالي أربعين ألفاً على الأقل . فلما تحرك خالد نحو أمغيشيا أعجل أهلها عما فيها فهجروها وجلوا عنها متفرقين في السواد ، وقد تركوا بها جل متاعهم . ومن يومئذ صار في السواد « مهاجرون » و « لاجئون » .

---

(١) الطبري ١١/٤ ، عن عبيد الله ، عن عمه ، عن سيف ، عن محمد ، عن ابي عثمان وطلحة ، عن المغيرة .

س ش س عن بحر بن الفرات العجلي ، عن ابيه .

وأراد خالد أن يرهب أعداءه ويهون شأن سلطانهم في أعين أهل السواد فأمر بهدم أمغيشيا، وكل شيء كان في حيّزها وقد كانت كبيرة الحجم وإليها ينتهي نهر فرات بادقلي ، وكانت أليس من مسالحها [مواقعهـا المسلحة] . وأصاب المسلمون في أمغيشيا ما لم يصيبوا مثله من قبل . ولم يصب المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا ، فقد بلغ سهم الفارس ١٥٠٠ درهمـاً [حوالي ١٢٨ جنيهاً مصرياً] سوى النفل الذي نفـّله أهـل البلاء . وبلغت أخبار أمغيشيا الى أبي بكر فقال : « يا معشر قريش عدا أسدكم [يعني خالد]على الأسد[يعني فارس] فغلبه على خراذيله[أشلائه]. أعَجَزَت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟! » .

ألم يكن من الأجدى على العجم — وقـد سبقوا الى المكان وكان يسعهم أن يختاروا — أن يجعلوا معركتهم في أمغيشيا بدلاً من أليس ؟ مـا دامت أمغيشيا كانت مصراً كبيراً كالحيرة ، وكانت بالمنطقة التي التقى بها الجيشان ، فلا شك أن تحصنهم في الدور والطرقات كان أوفق لهم من الخروج في عراء، وقد رأوا مصائر من قبلهم .

أيام

ذكرت المصادر تواريخ تلك المواقع بالشهر دون اليوم . وقد وجدنا المذار والولجة وأليس وأمغشيا كلها في صفر، فقدرنا أيامها كالآتي على أساس ما جاء في وصف كل موقعة ، وبُعدها عما قبلها وما بعدها .

محرم خرج خالد من النباج الى كاظمة — حوالي ٥٠٠ كيلومتر.

محرم موقعة ذات السلاسل في كاظمة .

صفر موقعة المذار — حوالي ٢٥٠ كيلومتراً من كاظمة .

٥	صفر	بلغ خبر هزيمة المذار إلى المدائن – حوالي ٤٠٠ كيلومتراً.
١٤	صفر	وصل أندرزغر إلى الولجة قادماً من المدائن – حوالي ٣٥٠ كيلومتراً .
١٧	صفر	علم خالد وهو بالمذار بتقدم جيش الى الولجة فسار إليهم .
٢٢	صفر	هزم خالد العجم في الولجة بعد أن سار إليهم حوالي ٣٥٠ كيلومتراً من المذار عن طريق أسفل دجلة .
٢٤	صفر	علم خالد بتجمع نصارى العرب في أُليس . قبل موقعة الولجة أرسل أردشير بهمن جاذويه في أثر أندرزغر من المدائن . فأرسل بهمن جابان إلى أليس – حوالي ٣٠٠ كيلومتراً من المدائن و ٤٠ كيلومتراً من الولجة .
٢٥	صفر	سار إليه خالد وهزمه في أُليس ثم مكث يومه وغده واليوم التالي لغده يضرب أعناق العجم حتى ٢٧ صفر .
٢٨	صفر	سار خالد ٤٠ كيلومتراً إلى أمغيشيا وهدمها .
٢٩	صفر	سار خالد من أمغيشيا إلى الخورنق التي تبعد ١٥٠ كيلومتراً.

معركة المقر[1]

ربيع أول ١٢ هـ – أواخر مايو (أيار) ٦٣٣ م

الطريق النهري إلى الحيرة

كان آزاذبه مرزبان الحيرة . وكان ممن بلغ نصف الشرف فقلنسوته من فئة الخمسين ألفاً . وكان نظام الحكم في الدولة نظاماً مركزياً إلى أبعد حد ، والسلطة كلها في المدائن ، فلم يكن أحد يمد الآخر أو يعينه إلا بأمر من الملك . فلما خرّب خالد أمغيشيا وعاد أهلها لاجئين لدى دهاقين القرى ، علم آزاذبه أنه غير متروك وأن الدور عليه ، فقد تبين حينئذ مسار الغزو واتجاه خالد ، فأخذ آزاذبه عدته وجمع جنده وتهيأ للحرب .

ونقلت عيون آزاذبه إليه أن خالداً يجمع السفن لينقل فيها جيشه. ذلك أن خالداً لم يشأ أن يعطل زحفه باجتياز أرض امتلأت بالأنهار والبطائح ، لا سيا وقد كان الفصل ربيعاً حيث يفيض النهران : دجلة والفرات ، وتغرق

---

(١) الطبرى ٤/١١ س ش س ، عن محمد ، عن أبي عثمان وطلحة ، عن المغيرة .

مياههما الأراضي ويشق السير على الإبـل ، فجمع السفن في أمغيشيا ليحمل عليها مشاته على أن تسير الخيل قريباً منها على الأرض . وقدم آزاذبـه ابنه على رأس تجريدة من الخيل وأمره بسد الفرات حتى يمنع جريان الماء فيه ، ثم خرج في أثره حتى عسكر خارج الحيرة .

أقام الابن[1] على فم نهر فرات بادقلى وقام بسده ، وكانوا يستخدمون لذلك التراب والقصب[وهو البوص والغاب والاكياب] وفتح مسالك أخرى ليسلكها الماء ، وبعث طلائع متقدمة ، فأقامت بالمقر على فم نهر العتيق .

وحمل خالد مشاته على السفن في فرات بادقلى مع الأنفال والأثقال ، فما بدأ مسيره حتى فوجيء بالسفن تجنح في النهر،فارتاع المسلمون لذلك، وأكثرهم لم يركب السفن من قبل . وعلل الملاحون — وهم من أهل البلاد — ما حدث بأن العجم فجروا الأنهار ، فسلك الماء غير سبيله ، وأن الماء لا يعود إلى هذا المجرى الذي هم فيه إلا بسد الأنهار التي فتحوها .

المياه في مجاريها

وخرج خالد بنفسه من فوره في خيل لشن غارة ، هدفها إعادة المياه إلى مجراها.اتجه شمالاً بغرب بحذاء فرات بادقلي حتى بلغ المقر[2] عند فم العتيق، فوجد خيلاً من طلائع ابن آزاذبه ، وكان طلوع خالد عليهم مفاجأة غير متوقعة ، فدهمهم وهم آمنون فأبادهم . ثم لم يتوقف وإنما سار من فوره حتى لا تسبقه الأخبار إلى القوة الأساسية لابن آزاذبه حتى وجدها على فم فرات

---

(١) لم تذكر المصادر اسمه ، وقد ذكرت بعد ذلك ابنين لآزاذبه هما : آزاذمرد وشيرزاد . ونذهب الى أن هذا غيرهما .

(٢) في معجم البلدان أن المقر من ناحية البر من جهة الحيرة .

بادَقْلى والتحم معهم حتى هزمهم . وسد خالد الأنهار وفجر الفرات ، فعاد الماء يسلك سبيله ، فأرسل إلى أصحابـه أن يلحقوا به ، وعادت السفن إلى المسير ، بينما استمر هو بمن معه من الفرسان السريعة قاصداً الحيرة ، حتى نزل بين الخورنق والنجف [1] وهي مسافة تمتد حوالي عشرين كيلومتراً . وكان الخورنق قصراً [حصناً] للنعمان بن المنذر ، بناه مهندس رومي يقال له : سنِمّار في عشرين سنة ، فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعـلاه فقتله ، حتى لا يبني [2] مثله لغيره ، فذهبت مثلاً « جزاء سنمار » . ويذهب كريستنسن إلى أن هذه القصة خرافة ، وأن القصر أقدم من زمن النعمان [3] . وكان حصن الخورنق من القرميد والسُّكُب ، والقرميد : آجر أو شيء يشبهـه ، وقيل : كل شيء كالجص يطلى به. وقيل : حجارة محرقة أو خزف مطبوخ، والسكب : النحاس أو الرصاص .

---

(١) النجف على نحو أربعة اميال من غرب الكوفة [بلدان الخلافة الشرقية]، وتبعد النجف عن جسر الكوفة ٩ كيلومترات، وعن كربلاء ٨٥ كيلومتراً . وهي قائمة على رابية مرتفعة فوق ارض رملية فسيحة . وكانت النجف قديماً مصيفاً ومتنزهاً للمناذرة ملوك الحيرة ، هواؤهـا في الصيف حر يابس ، وفي الشتاء برد قارس ، وحين تشتد الحرارة وتهب الرياح اللافحة « السموم » يلجأ سكان النجف الى سراديب منحوتة يبلغ متوسط عمق الواحد منهـا عشرين متراً [العراق قديماً وحديثاً ١٠٦ - ١٠٧] .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب ١/٢١٣ .

(٣) ويذهب البلاذري الى ان قصر الخورنق بناه النعمان بن امرىء القيس لبهرام بن يزدجرد ابن بهرام بن سابور ذي الاكتاف ، وكان بهرام جور في حجره ، ولم تكن للخورنق قبـة حتى احدثها ابراهيم بن سلمة احد دعاة العباسيين في خلافة ابي العباس [فتوح البلدان ٢٢٧] ، وفي رحلة ابن بطوطة انه خرج من النجف يريد البصرة فنزل الخورنق وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات .

مرزبان الحيرة ومعركتها

كان معسكر آزاذبه بين الغريين والقصر الأبيض . فما بلغ خالد الخورنق حتى كان آزاذبه قد انسحب بعسكره إلى ما وراء الفرات من غير قتال ، متأثراً بمصاب ابنه وبموت أردشير ملك فارس ، فلم يكن هناك من ينجده ويبعث اليه بالجيوش . انسحب آزاذبه تاركاً إقليم الحيرة يواجه مصيره ، ويدافع أهله من العرب بأنفسهم عن أنفسهم .

إن التصرف الذي اتبعه آزاذبه يستوقف النظر لما يتصف به من غباء وتواكل . فبالرغم من أن خالداً قد خاض في العراق خمس مواقع قبل المقر ، فإن ذلك المرزبان كان متخلفاً عن إدراك طبيعة خصمه . وإن اعتبار منع جريان الماء هو كل الخطة الدفاعية سذاجة ما بعدها سذاجة ، إنما كان يصلح كخطوة لعرقلة التقدم ليس إلا.ولئن كان ذلك يمنع في حالة نجاحه خالداً من استخدام السفن ، فلم يكن ليمنعه من وصوله بالمسلمين الى الحيرة . ولنفترض أن خالداً قد رضخ لإجراء آزاذبه ، فأنزل جنده من السفن إلى البر ثم سار بهم نحو الحيرة ، فأي دفاع آخر أعده المرزبان في هذه الحالة ؟ لئن كان يئس من الاحتفاظ بالحيرة ، فهو لم ينظر إليها على أنها معركة في حرب وحلقة في سلسلة، وأن واجبه نحو وطنه كان يحتم عليه استمرار المقاومة حتى ولو كانت المعركة خاسرة ، ففي الحرب يلزم أن ينزل بعدوه أكبر خسارة ، وأن يعرقله أكثر ما يستطيع ، وأن يحتفظ بأرضه وموارده أطول ما يمكن ، وأن يعمل على توسيع رقعة المقاومة والاحتفاظ ما أمكن بالمعاقل . آزاذبه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وإنما كان يريد من الملك أن يحميه دون أن يقدم هو شيئاً، وترك نصارى الحيرة لمصيرهم المحتوم يدافعون عن أنفسهم إن استطاعوا ولم يكونوا مستطيعين . كان بالحيرة أربعة حصون متقاربة ينظر بعضها إلى بعض ، فكانت أنسب مكان لجيش أن يثبت وأن يناوش ، لا سيما وقد غمر الفيضان الأرض فوحلت .

وفي يوم المقر وما قبله قال أبو مفزر الأسود بن قطبة [1] :

لقينا يوم أُلَّيْسٍ وأمْغَى ... ويوم المقر آناء النهـــار
ولم أرَ مثلها فضلات حرب ... أشد على الجحاجحة الكبار
قتلنا منهمُ سبعين ألفــاً ... بقيــة حربهم نخب الأسار
سوى من ليس يحصى من قتيل ... ومن قد غال جَوَلانُ الغبار

---

(١) فضلات: انتصارات ، الجحاجحة : جمع جحجاح وهو السيد ، النخب : الخلاصة وهو ما ينتخب ، الأسار : الأسرى .

الباب التاسع

فتح الحيرة

ربيع الأول ١٢ هـ – مايو (ايار) ٦٣٣ م

إمارة الحيرة

نشأت إمارة الحيرة [١] في تقديرات تتراوح بين عام ١٦٥ م وبين عام ٢١٢ م مع قيام الدولة الساسانية في إيران . كانت بلداً رقيقة الهواء عذبة الماء صافية الجو ، ارتفع مكانها عن عمق أرياف العراق وانخفض عن ارتفاع ما جاورها من صحراء، واتصلت بالمزارع والجنان والمتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البر على مرفأ سفن البحر الواردة من الصين والهند وغيرهما ، كانت على حافة سواد العراق وحافة البادية ، وكان فيها من مباني العرب الجاهليين

(١) الخريطة التي أثبتناها في الجزء الاول برقم ٦ أمدتنا بها مشكورة مديرية الآثار العراقية ببغداد . وقد لاحظنا ان موقع الحيرة بها يختلف عن موقعها في خريطة العراق الاثرية الصادرة عن نفس المديرية . واستناداً الى المصادر التاريخية التي حددت موقعها بأنها كانت على فرسخ(او على ثلاثة اميال) من الكوفة – ولم تكن الكوفة قد بنيت حين غزا خالد الحيرة – أخذنا بموقعها الوارد في الخريطة الاثرية وهو ما وجدناه يتفق مع الروايات ويطابقها . وقد اضفنا الى الخريطة هنا (رقم ١٦ – ص ٢٤٩) نهر البويب وخندق سابور .

قصور عظيمة منهـا قصر الخورنق [1] . وكان القصر والحصن إسمان لمسمى واحد . وبلغت الحيرة من الأهمية في ذلك العصر أن كان بالمدائن كاتب مختص بالشؤون العربية ، كما كان بها مترجم يؤجر من عرب [2] الحيرة . وكان عرب الحيرة ينزلون ما بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيها وعين التمر وأطراف البراري ، الغمير والقطقطانة وحفية ، فهم ينتشرون غربي الفرات في البادية.

كان بين الحيرة وبين موضع الكوفة نحو فرسخ [3] . وكان الجزء المهم من الحيرة على الشاطىء الغربي من الفرات في حدود البادية جنوبي موضع الكوفة، وآثارهـا ترى إلى الآن إلى الجنوب الشرقي من مشهد علي بالنجف [4] . وكانت جماعة من قبيلة تنوخ قد نزحت من اليمن لانهيار سد مأرب ، وانضموا إلى قوم يسمون : العباد ، كانوا يقيمون بالعراق ، واشتركوا جميعاً في بنـاء حصن عسكروا حوله ، وحفروا حول الحصن ومعسكرهم خندقاً ، وهكذا نشأت الحيرة على ضفاف الفرات ، وكانت تتخللها فروع منه، وصارت الحيرة عاصمة العرب اللخميين . وانتشرت المسيحية بين عرب الحيرة قبل الإسلام ، ووقع الخلاف بين مسيحييها كما وقع بين مسيحيي الحبشة والشام ونجران، بين مؤلهي المسيح ومؤلهي مريم وبين مخالفيهم. وقد أرسل النبي ﷺ الى الحارث الغساني ملك الحيرة يدعوه إلى الإسلام فيمن أرسل إليهم من الملوك والأمراء.

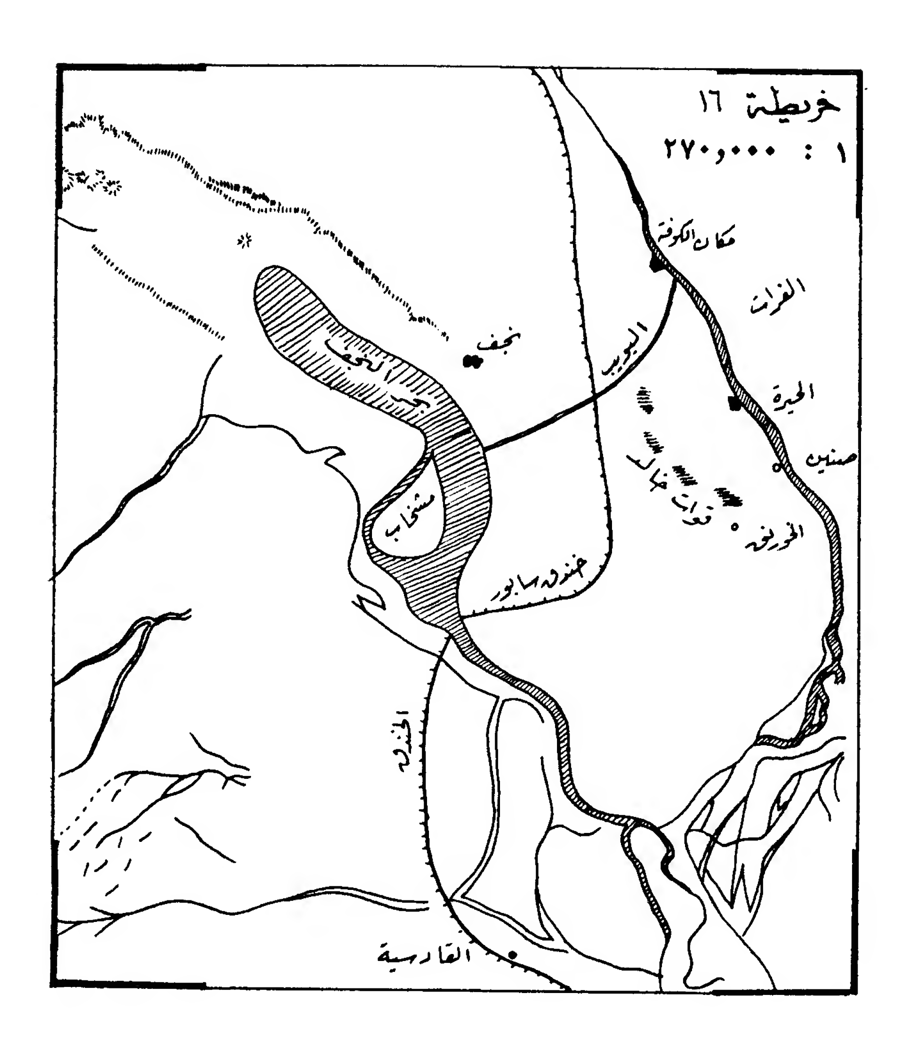
---

(١) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ٢١٣/١ .

(٢) كريستنسن ١٢٤ .

(٣) المسالك والممالك – الاصطخري ، ص ٥٨ .

(٤) الجغرافيا التاريخية الاسلامية – حسونة .



خريطة رقم (١٦) – فتح الحيرة

خالد في الحيرة

لحق جيش المسلمين بخالد ومن معه من طلائع، فتقدم بهم من الخورنق حتى نزل بالموضع الذي كان به آزاذبه وعسكره فيما بين الغريين[1] والقصر الأبيض. وتحصن أهل الحيرة في حصونهم وكانت أربعة . فقسم خالد قواته لحصارها وقتال أهلها وهم من نصارى العرب الموالين للمجوس العجم .

فحاصر ضرار بن الأزور الأسدي القصر الأبيض ، وفيه إياس بن قبيصة الطائي . ضرار كانت له مواقفه مع خالد في حروب الردة .

وحاصر ضرار بن الخطاب الفهري قصر العدسيين وفيه عدي بن عدي بن المقتول . وضرار بن الخطاب أيضاً رفيق قديم لخالد بن الوليد في مواقعه ، كان في كتيبة خالد مع المشركين يوم أحد ، وقتل ضرار يومها من المسلمين سويبق بن حاطب الأنصاري وعمرو بن معاذ بن النعمان ، وكان ضرار من فرسان قريش في غزوة الخندق الذين يجيلون خيلهم ويرمون المسلمين شأن

---

(١) « الغريين » بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن ابي طالب . وقيل الغري الحسن وإنما سميا الغريين لحسنهما في ذلك الزمان ، صنعهما المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء . والغريُّ نصب كان يذبح عليه . [معجم البلدان] .

خالد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وأبي سفيان . ثم أسلم يوم فتح مكة ولم يكن أخاً لعمر بن الخطاب إلا في الإسلام .

وحاصر ضرار بن مقرن المزني أحد الإخوة العشرة قصر بني مازن وفيه حيري بن أكال .

وحاصر المثنى بن حارثة الشيباني قصر ابن بقيلةوفيه عمرو بن عبدالمسيح. هذا الحصن هو الذي قال فيه السجستاني .

لقد بَنَيتَ للحدثان قصراً | لو أن المرء تنفعه الحصون
رفيع الرأس أقعس[1] مُشْمَخِرّاً | لأنواع الرياح به حنين

وأمر خالد كل أمير أن يدعو أهل الحصن الذي يحاصره الى واحدة من ثلاث : [الإسلام أو الجزية أو القتال] وأن يمهلوهم يوماً . وأوصاهم فقال : « لا تمكنوا عدوكم من آذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم . ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم » . وأبى أهل الحيرة أن يقبلوا واحدة من الثلاث ولَجُّوا فناوشهم المسلمون .

فلما انتهت المهلة ، نشب القتال مع كل الحصون ، وكان أول من أنشبه ضرار بن الأزور الأسدي مع أهل القصر الأبيض ، فقد أصبح الصباح وأهله مشرفون من أعلا الحصن فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال ، فاختاروا القتال ، وصاح بعضهم ببعض : « عليكم بالخزازيف » . وسمع ضرار ومن معه صياحهم ، فأمر جنده أن يبتعدوا عن مرمى الحصن وقال لهم : « تنحوا لا ينالكم الرمي حتى ننظر في الذي هتفوا به » .

ومـا لبث رأس الحصن أن امتلأ بالرجـال معلقي المخالي، يرمون المسلمين

(١) في المنجد ، الأقعس من خرج صدره ودخل ظهره فهو ضد الأحدب ، فكأن جدران الحصن كانت مقوسة .

بالخزازيف وهي المداحي من [1] الخزف . وأمر ضرار المسلمين أن يرشقوهم ، فدنوا منهم ثم قصفوهم بالنبل ، وكانوا من مهارة الرمي وإصابة الهدف بحيث أنهم ألجأوا عدوهم أن يخفضوا رؤوسهم حتى أعروا رؤوس الحيطان .

استسلام الحيرة

مثل ذلك حدث في الحصون الأخرى إذ صبّح أمير كل فرقة أصحابه بمثل ذلك ، وشنوا الغارات على ما في خارج الحصون ، فافتتحوا الدور والأديرة وأكثروا القتل. وخرج القسيسون والرهبان من أديرتهم، فنادوا أهل الحصون وقالوا لهم :

« يا أهل القصور ... ما يقتلنا غيركم » .

وأدرك أهل الحصون أن لا جدوى من المقاومة واستمرار القتال ، وقد جلا الأعاجم وانتسف المسلمون ما حول حصونهم . فنادوا المسلمين وقالوا : « يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً » .

وكان أولهم في ذلك عمرو بن عبدالمسيح. ثم تبعته أهل الحصون الأخرى.

خرج إياس بن قبيصة وأخوه من القصر الأبيض إلى ضرار بن الأزور ، وقيل : كان قبيصة بن إياس بن حية الطائي ، وكان كسرى قد أمّره على الحيرة بعد النعمان بن المنذر .

وخرج عدي بن عدي وزيد بن عدي من قصر العدسيين الى ضرار بن

---

(١) الخزف ما عمل من طين وشوى بالنار فصار فخاراً،والمداحي من الخزف ما كوّر منها. والذي نفهمه انهم كانوا يقذفونها بالمقلاع او ما يشبهه .

الخطاب . وخرج عمرو بن عبد المسيح من قصر ابن بقيلة الى المثنى بن حارثه الشيباني . وخرج حيري ابن أكال من قصر بني مازن الى ضرار بن مقرّن .

فأرسل كل أمير من خرج اليه الى خالد ومع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن : بينما ظلوا هم على مواقفهم محاصرين تلك الحصون .

ولم يجمعهم خالد وإنما خلا بأهل كل حصن منهم دون الآخرين، ثم جمعهم بعد أن فرغ من كل فريق منهم على حدة . وكان الذي بدأ بهم عدي ومن معه ، فلما أدخلوا على خالد فسطاطه قال لهم :

خالد — ويحكم .. ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟!

عدي — بل عرب عاربة وأخرى متعربة .

خالد — لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا .

عدي — ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية .

خالد — صدقت . أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم إن نهضتم وهاجرتم [جاهدتم] وإن أقمتم في دياركم . فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فالمنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم [1] .

عدي — بل نعطيك الجزية .

قبيصة — ما لنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية .

---

(١) الطبري ٣/٤ ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن اسحق ، عن صالح بن كيسان .

[لقد خرج المسلمون من ديارهم هداة ، ولم يخرجوا جباة . وكان أحب إلى نفوسهم وقلوبهم لو أن عرب الحيرة قد أسلموا ، غير أنهم اختاروا البقاء على دينهم مع أداء الجزية] .

خالد – ويحكم إن الكفر فلاة [مفازة] مُضِلّة ، فأحمق العرب من سلكها ، فلقيه دليلان أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي .

فصالحوه جميعاً على مائة وتسعين ألف [١] درهم وأهدوا له هدايا . وبعث خالد بالفتح وبالهدايا إلى أبي بكر رضي الله عنه مع الهذيل الكاهلي . وقبل أبو بكر الهدايا على أن تحسب من الجزية ، وكتب إلى خالد أن يحسب لهم هديتهم من الجزية إلا أن تكون هي من الجزية فعلاً. وقد كان من عادة العجم جباية « هدايا » مرتين كل [٢] سنة ، في النوروز وهو عيد دخول الصيف ، وفي المهرجان وهو عيد دخول الشتاء . وكان فتح الحيرة في شهر مايو (ايار) موسم النوروز ، وكان عندهم أفضل من المهرجان ، فكان الاحتفال بـه يمتد ستة أيام تبدأ من اليوم الأول لشهر «أفريدون ماه » وهو أول شهور سنتهم. كما أمر أبو بكر خالداً أن يأخذ منهم بقية ما عليهم ليقوّي بها أصحابه .

وكانت الجزية[٣] على القادرين على القتال ، ولا جزية على النساء والصبيان والمسنين ، وعلى حسب أحوالهم فكانت بين ٤٨ درهماً أو ٢٤ درهماً أو ١٢ درهماً في السنة ، وقد روى البلاذري [٤] أن جزية الحيرة فرضت على ستة

---

(١) وفي فتوح البلدان ٦٠٣ انهم صالحوه على مائة الف درهم ، ويقال على ثمانين الف ، وعلى ان يكونوا عيوناً للمسلمين ، وان لا يهدم لهم بيعة ولا قصراً . وفي الطبري ٣/٤ بالاسناد السابق انها كانت تسعين الف درهم .

(٢) الخراج في الدولة الإسلامية ١٨٠ .

(٣) الخراج – ابو يوسف ١٥١ .

(٤) فتوح البلدان ٦٠٥ .

آلاف رجل ، على كل رجل أربعة عشر درهماً وزن خمسة ، فبلغ ذلك أربعاً وثمانين ألفاً وزن خمسة . فإذا أردنا أن نخمن تعداد الحيرة من هذا ، نستطيع القول بأنه كان نحواً من ثلاثين أو أربعين ألف نسمة . ولكن قتلى أمغيشيا – التي كانت مصراً كبيراً كالحيرة – كانوا يزيدون عن مثل هذا الرقم ، وهذا يجعلنا نميل إلى تقدير الحيرة بأكثر مما يسلمنا إليه تقدير تعدادها بحساب الجزية.

صلح الحيرة

وكتب خالد معاهدة الصلح مع أهل الحيرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

١ – هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد
عدياً وعَمْراً ابني عدي
وإياس بن قبيصة
وحيري بن أكال

وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به .

٢ – عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم ، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم [1] في الدنيا [استسلاماً] ، رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد [قوة] حبيساً عن الدنيا تاركاً لها وسائحاً تاركاً للدنيا .

٣ – وعلى المنعة . فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم .

٤ – وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة .

كتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة » .

وأعطاهم خالد الكتاب .

---

(١) في مختار الصحاح – اليد : الذلة والاستسلام ، واليد : القوة .

وبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه انتقض أهل السواد وذلك بعد خروج خالد من العراق إلى الشام ، وعادوا إلى ولائهم لفارس إلا أهل بانقيا [1] . فلما أعاد المثنى افتتاح الحيرة بعد ذلك ، أرادوا الاحتكام إلى هذه المعاهدة ، فطالبهم المثنى بالكتاب فوجدهم استخفوا به وضيعوه ، فلم يجبهم إلى طلبهم وكتب معهم معاهدة أخرى بشروط جديدة ، فلما غُلب المثنى على البلاد ، عادوا إلى كفرهم وأعانوا العجم واستخفوا بكتابه وأضاعوه أيضاً . فلما فتح سعد بن أبي وقاص الحيرة، أراد أهلها الاحتكام إلى ما سبق من معاهدات فطالبهم سعد بأي من الكتابين ، فلم يجيئوا بهما ، فوضع عليهم ما يرى أنهم مطيقون، أربعمائة ألف درهم سوى الخَرْزَة التي كانوا يؤدونها إلى آل كسرى.

رواية من فتح الحيرة [2]

كان عمرو بن عبد المسيح [ابن بقيلة] أرجحهم عقلاً ، وقد اشتهر بينهم بالحكمة ، ولعله كان أكبرهم [3] سناً ، فكانوا يترددون عليه ويقدمونه في حوائجهم حتى صار كمندوب اتصال بين أهل الحيرة وخالد بن الوليد ، قال له خالد :

- كم سنك ؟

أجاب عمرو :

- عظم .

---

(١) الطبري ٤/٢١ س ش س ، عن محمد وطلحة واصحابهما .

(٢) الطبري ٤/١٣ س ش س ، عن الغصن بن القاسم، عن رجل من بني كنانة، ويونس بن ابي اسحق .

٤/٤ ،عن هشام بن الكلبي، عن ابي مخنف، عن حمزة بن علي، عن رجل من بكر بن وائل. فتوح البلدان ٦٠٤ ، عن ابي مخنف ، عن ابي المثنى الوليد بن القطامي وهو الشرقي بن القطامي الكلبي .

(٣) قيل إنه كان يومئذ ابن ثلاثمائة وخمسين سنة [البيان والتبيين ٢/١٤٧].

خالد ـ ابن كم أنت ؟

عمرو ـ ابن رجل واحد .

ـ كم أتى عليك من الدهر ؟

ـ لو أتى عليّ شيء لقتلني .

ـ كم أتت عليك سنة ؟

ـ مئو سنين [أو قال خمسون وثلاثمائة] .

ـ فما أعجب ما رأيت ؟

ـ رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة ، تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفاً . [ومن المعلوم أن بين دمشق والحيرة صحراء السماوة] . فتبسم خالد وقال :

ـ هل لك من شَيَخِكَ إلا عقلة ! خَرِفت والله يا عمرو .

[وظن خالد أن الرجل قد ذهبت السنون بعقله ، بينما كان ابن بقيلة يستعرض نفسه] . والتفت خالد إلى أهل الحيرة وقال :

ـ ألم يبلغني أنكم خَبَثَة خَدَعة مَكَرَة؟ فما لكم تتناولون حوائجكم بِخَرِفٍ لا يدرى من أين جاء ؟

[وتجاهل ابن بقيلة ما في قول خالد من حط لشأنه ، وأراد أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله] فقال :

ـ وحقك أيها الأمير إني لأعرف من أين جئت .

ـ فمن أين جئت ؟

ـ أقرب أم بعد ؟

ـ ما شئت .

ـ من بطن أمي .

ـ فأين تريد ؟

ـ أمامي .

ـ وما هو ؟

ـ الآخرة .

ـ فمن أين أقصى أثرك ؟

ـ من صلب أبي .

ـ ويحك ، على أي شيء أنت ؟

ـ على الأرض .

ـ ففيم أنت ؟

ـ في ثيابي .

ـ فحرب أنت أم سلم ؟

ـ سلم .

ـ فما بال هذه الحصون ؟

ـ بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه .

ـ أتعقل ؟

ـ إي والله وأُقَيِّد .

ـ إنما أسألك .

ـ وأنا أجيبك .

[فلم يكن عمرو على السطحية التي ظهر بها أول الأمر ، ووجده خالد عويصاً حين استكشفه ، وكان أهل قريته أعلم به] قال خالد:

ـ قَتَلَتْ أرضٌ جاهلَها وقتل أرضاً عالمُها والقوم أعلم بما فيهم .

ـ أيها الأمير ، النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة !

[وكان مع ابن بقيلة خادم له يحمل كيساً يعلقه في وسطه . فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في راحته] ثم قال :

ـ ما هذا يا عمرو ؟

ـ هذا وأمانة الله سمّ ساعة .

ـ ولم تحتقب السم ؟

ـ خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت وقد أتيت على أجلي والموت أحب إليّ من مكروه أدْخله على قومي وأهل قريتي .

ـ إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، بسم الله خير الأسماء رب الأرض ورب السماء الذي ليس يضر مع اسمه داءٌ ، الرحمن الرحيم .

[ثم وضعه ـ أي خالد ـ في فمه ، وبادروه ليمنعوه ولكنه سبقهم فابتلعه].

عمرو ـ والله يامعشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن[1].

[وأقبل على أهل الحيرة يقول] :

ـ لم أر كاليوم أمراً أوضح إقبالاً .

وقد رجعنا إلى أهل الاختصاص في الطب والصيدلة نلتمس الرأي والإيضاح لهذا الأمر ، فنفوا نفياً باتاً أن يكون ذلك ممكناً إذا كانت المادة التي يقال أن خالداً قد ابتلعها من السميات التي تقتل عادة . ونحن ننتهي إلى أنه ليس في الإسلام ما يتعارض وسنن الكون التي وضع الله لعباده ولما خلق ، ولا نستبعد مع ما لخالد من شخصية فذة يندر مثلها في التاريخ أن ينسج الرواة حوله من الأساطير مثل هذه القصة .

انتزاع الحيرة من ملك بني ساسان ودخولها في طاعة المسلمين لم يكن حدثاً

---

(١) هكذا في الاصل ، ولم نفهم لها معنى .

صغيراً ، ولم يكن ليمر دون أن تجري به ألسنة الشعراء العرب في حينها ، ولقد كان ابن بقيلة [1] أبرزهم في ذلك فقال :

أبعد المُنْذِرِينَ أرَى سَوَاماً[2] ... تُرَوَّحُ [3] بالخورنق والسَّدِيرِ

وبعد فوارس النعمان أرْعَى ... قَلُوصاً [4] بين مُرَّة والحفير

فصرنا بعد هُلْك أبي قُبَيْسٍ ... كجَرْبِ [5] المَعْز في اليوم المطير

تُقَسِّمُنا القبائل من مَعَدٍّ ... علانية كأيْسَار [6] الجَزُور [7]

وكنا لا يُرام لنا حريم ... فنحن كضَرَّة[8] الضرع الفَخور [9]

نؤدي الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قُرَيْظة والنضير

كذاك الدهر دولته سِجَالٌ ... فيومٌ من مساءَة أو سرورِ

ومع فتح الحيرة وصل جرير بن عبد الله ومعه قيس بن أبي حازم الى خالد، سيرهما اليه أبو بكر— لم يشهدا شيئاً مما كان بالعراق قبل الحيرة إلا ما كان بعدها ، كذلك لم يشهدا شيئاً مما كان فيه خالد من حروب الردة . بلغا الحيرة فوجدا خالداً متوشحاً قد شد ثوبه في عنقه يصلي وحده صلاة الفتح

---

(١) الطبري ٤/١٣ س ش س ، عن محمد ، عن ابي عثمان وطلحة ، عن المغيرة .

(٢) السوام المال: الراعي ، سامت الماشية رعت .

(٣) تروح = تراح ، تستريح (مبنى للمجهول) . في معجم البلدان ، السدير : نهر بالحيرة، وقيل قصر قريب من الخورنق .

(٤) القلوص : النوق الشابة .

(٥) الجرْب : الجمع ، الجماعة .

(٦) أيسار : جمع يسير وهو الهين .

(٧) الجزور من الإبل ، يقع على الذكر والأنثى .

(٨) الضرة : حلمة الضرع .

(٩) الفخور : الممتلىء .

ثماني ركعات لا يسلم فيهن ثم انصرف من الصلاة فقــال : « لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف، ثم صبرت في يدي صفيحة يمانية فما زالت معي ، وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس ، ومـــا لقيت من أهل فارس قوماً كأهل ألـيس » .

روى الطبراني : « قال حزيم سمعت رسول الله ﷺ يقول هذه الحيرة رفعت لي، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة [متعممة بخمار أسود ... [وذكر حديثاً طويلاً] فقلت : يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما هي فهي لي ؟ قال : هي لك . قــال : فشهدت الحيرة مع خالد بن الوليد فكان أول من تلقانا الشيماء، فتعلقت بها فسلمها لي خـــالد ». وأخرج البخاري عن خزيم بن أوس بن حارثة بن لام الطائي قال: « اقتتلنا يوم الحيرة فكان أول من تلقانا الشيماء نفيلة الأزدية فتعلقت بها فقلت : هـذه وهبها لي رسول الله ﷺ فدعاني خالد عليها بالبينة فأتيته بهـا، وهي محمد بن مسلمة[1] ومحمد بن بشير الانصاريان فسلمها لي ». وأخرجه ابن منده أيضاً من نفس الوجه . وقد روى عنه أنه قـــال : « هاجرت الى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك . وكان معه في قدومه هذا أخوه جرير » .

وفي أيام الحيرة قال القعقاع بن عمرو [2] :

سقَى الله قتــلى بالفرات مُقيمـةً
وأخرى بأثْباجِ[3] النـَّجافِ الكوانفِ[4]

---

(١) انظر ترجمة محمد بن مسلمة في آخر الكتاب .

(٢) الطبري ١٥/٤ ، عن عبيد الله ، عن عمه ، عن سيف .
س ش س، عن الغصن بن القاسم الكناني ، عن رجل من بني كنانة ويونس بن ابي اسحق.

(٣) الثبج : الظهر .

(٤) الكوانف ، المحيطة ، المجاورة . الكنف : الجوار .

فنحن وَطِئْنا بالكواظِم هُرْمُزاً
وبالثِّنْيِ [1] قَرْنَيْ قارِنٍ بالجوارِفِ

ويوم أحطنا بالقصور تتابعت
على الحيرة الرَّوْحَاءِ [2] إحدى المصارف

حَطَطْناهُمُ منها وقد كاد عرشُهم
يميلُ به فعلَ الجَبَان المُخَالِفِ

رمينا عليهم بالقَبُول وقد رَأوْا
غَبُوقَ [3] المنايا حول تلك المحارِفِ [4]

صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا
الى الريف من أرض العُرَيْبِ [5] المقانِفِ [6]

---

(١) الثني : النهر ، والمقصود هنا موقعة المذار .
(٢) الروحاء ، اسم يطلق على الحيرة .
(٣) الغبوق : الشرب بالعشي .
(٤) المحارف : الجوانب ، الحرف : الجانب .
(٥) العريب : الفاسد . في المنجد عَرِب فسدت معدته ، وعرب الجرح تورم وتقيح .
(٦) المقانف : المتشققة . في المنجد، قنف المكان: تشقق طينه .

آثار فتح الحيرة

الحيرة ماديا ومعنويا

كان لفتح الحيرة آثار بعيدة . فقد كانت الحيرة أول عاصمـــة من عواصم الأقاليم التي يحكمها بنو ساسان تسقط في أيدي المسلمين ، وحاضرة متقدمة في الطريق الى المدائن. لم يكن عامة سكانها من العجم ولكن هذا لا يقلل من أهميتها وأهمية فتحها، فهي مثلاً كهونولولو إحدى ولايات الولايات المتحدة الامريكية اليوم ، فسقوطها كان له الأثر المعنوي الذي يناسبه في نفوس الفرس والمسلمين على السواء . فضلاً عن ذلك فهي قاعدة تموينية تمد جيش المسلمين بكل ما يلزمه من لحوم وألبان وتمور وحبوب وعلف . هذا بالاضافة الى ما للحيرة من ميزة استراتيجية نظراً لموضعها من العراق . فهي موطيء قدم مناسب لقفزة هجومية أخرى نحو الهدف الأكبر فضلاً عن ميزتها التي يمنحها لها موضعها من تخوم الصحراء ، فهي طريق انسحاب وخط رجعة إذا لزم الأمر .

معاهدات صلح

كان الدهاقين ينتظرون ما يصنع خالد مع أهل الحيرة ، فما أن استقام ما بينه وبينهم وتم صلحهم وعرفت شروطه وبلغت أخبار ذلك الى ما وراء الفرات ، حتى أراد أهل تلك الجهات أن يجنبوا قراهم ويلات الحرب ، فأتى

دهاقين الملطاط وُقس الناطف وما حولها الى خالد ، وقد أقام فسطاطه في عسكره بالحيرة ، يطلبون الصلح ، فجاء صلوبا بن نسطونا بن بَصْبَهْرَى دهقان قس الناطف ، وزاد بن بُهَيْش دهقان فرات سريا — وهؤلاء كانوا من العجم ولم يكونوا من العرب — فصالحوه على ما بين الفلاليج الى هُرْمُزْجِرْد في جنوب كسكر بأطراف العراق على ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم [حوالي ١٧٢,٠٠٠ جنيهاً مصرياً] وقيل على ١,٠٠٠,٠٠٠ ثقيل ، وأن للمسلمين ما كان لآل كسرى من الخرزة . وقد وردت أكثر من رواية عن معاهدة الصلح مع تلك الجهات ولا نرى ما يمنع أن يكون خالد قد كتب معهم أكثر من معاهدة .

الأولى وهي صلح مع أهل ُقس الناطف(١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

١ — هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، ومنزله بشاطىء الفرات .

٢ — إني قد عاهدتكم على الجزية .

٣ — والمنعة على كل ذي يد ، بانقيا وبسما جميعاً [على حوالي ٨٠ — ٩٠ كيلومتراً من الحيرة] .

---

(١) جمعنا بنود هذه المعاهدة من الروايات الآتية :

الطبري ٣/٤ ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن اسحق ، عن صالح بن كيسان .

الطبري ١٧/٤ س ش س ، عن محمد بن عبد الله ، عن أبي عثمان، عن ابن ابي مكنف، وطلحة، عن المغيرة وسفيان ، عن ماهان. وعن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد ، عن ابي عثمان وطلحة ، عن المغيرة .

٤ – على عشرة آلاف دينار سوى الخَرْزة [١] . القوي على قدر قدرته والمقل على قدر إقلاله في كل سنة .

٥ – وأنك قد نَقَبت [٢] على قومك وأن قومك قد رضوا بك . وقد قبلتُ ومن معي من المسلمين ، ورضيتَ ورضي قومُك. فلك الذمة والمنعة. فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم .

٦ – شهد هشام بن الوليد [أخ خالد بن الوليد] والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله الحميري وحنظلة بن الربيع .

كتب سنة اثنتي عشرة في ربيع الأول [٣] » .

والثانية عن بلدان أخرى مما بين دجلة والفرات .

« بسم الله الرحمن الرحيم

١ – هـذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بُهَيْش وصلوبا [٤] بن نسطونا السوادي ومنزله بشاطىء الفرات .

٢ – إنك آمن بأمان الله وإن لكم الذمة .

٣ – إذ حقن دمه بإعطاء الجزية فعليكم الجزية .

---

(١) ما كانوا يؤدونه الى كسرى، وكانت اربعة دراهم على كل رأس –[وفي رواية ابن اسحق أن خالداً صالحهم على ألف درهم] .

(٢) نقبت ، اي انت نقيب على قومك .

(٣) في الاصل شهر صفر. ولكننا نرى استحالة ذلك من حيث كان صلح الحيرة –وهو قبل هذا – في ربيع الاول . فضلاً عن ان فتح أمغيشيا كان وفق تقديرنا في ٢٨ صفر ، مما يتعذر معه ان يتسع شهر صفر لأكثر من ذلك .

(٤) في رواية البلاذري انه بصبهري بن صلوبا– وفي رواية الطبري ٣/٤ انه صلوبا السوادي، عن ابن اسحق .

٤ – وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط ، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان في قريتيك بانقيا وباروسما . [وفي رواية ، وأنتم ضامنون حرب من نقبتم عليه] .

٥ – على ٢،٠٠٠،٠٠٠ ألفَي ألف درهم [١] تقبل في كل سنة . ثم كل ذي يد سوى ما على بانقيا وبَسما .

٦ – وأنكم قد أرضيتموني والمسلمين ، وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط .

٧ – على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم عن المقام في داره فلم يدخل في الصلح .

٨ – شهد هشام بن الوليد والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله الحميري وبشير بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع .

كتب في سنة اثنتي عشرة في ربيع الأول [٢] » .

هؤلاء الشهود رجال ذوي أقدار . فهشام أخو خالد والقعقاع نائب القائد العام في جيشه،وجرير الحميري صحابي من الفرسان الكماة كان على قضاعة في هذا الزحف منذ سار من اليمامة.وبشير كان اسمه زحم ، فوفد على رسول الله

---

(١) في الطبري ٣/٤ ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن اسحق ، عن صالح بن كيسان ان الجزية كانت تسمين الف درهم على الحيرة والقريات التي صالح عليها ابن صلوبا .

(٢) البهقباذ الأسفل خمسة طساسيج (نواحي) ، فرات بادقلي والسيلحين ونستر وروذمستان وهرمزجرد، ويقال إن روذمستان وهرمزجرد ضياع متفرقة من طساسيج عدة [المسالك والممالك – ابن خرداذبة ٨] .

والبهقباذ الاوسط كورة من أربع طساسيج ، الجبة والبداة ، وسورادبربيسما ، وباروسما ، ونهر الملك [ابن خرداذبة ٨ و١١ – وقدامة بن جعفر ٢٣٦] .

ﷺ فأسماه بشيراً ، وكانت امرأته جهدمة فسماها النبي ليلى وقد روت عنه حديثين أو ثلاثة وكذلك روى بشير أحاديث . قال قتادة : « هاجر من بكر بن وائل أربعة رجال : رجلان من بني سدوس ، أسوَد بن عبد الله من أهل اليمامة وبشير بن الخصاصية ، وعمرو بن تغلب من النمر بن قاسط ، وفرات بن حيان من بني عجل » . وسيأتي لبشير ذكر كثير مع الفتوح . وحنظلة بن الربيع من بني تميم، كتب للنبي ﷺ مرة كتاباً فسمى حنظلة الكاتب ، وكانت الكتابة في العرب قليلة ، كان من الفرسان القادة وله رواية عن النبي، وقد أرسله الى الطائف[1] .

وفي أعماله بالحيرة كتب خالد [2] :

« ... إني دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا : لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية .

وإني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميّزتهم [فرزتهم] فوجدت من كانت به زمانة [كبر في السن] ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف، فصالحوني على ستين ألفاً ، وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل ألا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، إن أخذه أشد ما أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وإن خالفوا فلا ذمة لهم ، فإن

---

(١) الاستيعاب ١/٢٧٨ – الإصابة ١٨٥٩ .

(٢) عبقرية خالد ١٥٢ ولم يذكر المصدر ولا مناسبة الخطاب ولا المرسل اليه ، ونعتقد أنه كان موجهاً الى ابي بكر .

فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا .

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام ، فإن خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم .

وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه .

ولهم كل ما لبسوا من الزي إلا زي الحرب من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم . وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك . فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب .

وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت المسلمين ، عمالهم منهم . فإن طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا به ، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين » .

الحماية والجباية

بذلك انفتح للمسلمين ما وراء الحيرة وما وراء الفرات حتى شاطىء دجلة، وبدأ خالد يمارس سلطاته الجديدة الحربية منها والمدنية ، فقد كان من مقتضى تلك المعاهدات القيام بأمرين ، حماية المستفيدين من أهل الصلح ضد سلطان الفرس ، وجباية الجزية منهم . ولذلك بعث خالد بعمال للجباية وبحاميات تحمي أهل الذمة . فكان :

١ – عبد الله بن وثيمة النصري ، فنزل في أعلى العمل [شمَاله]

بالفلاليج[1] على المَنعَة َ [الحماية] وقبض الجزية .

٢ – جرير بن عبد الله البجلي على بانقيا وبسما [2] .

٣ – بشير بن الخصاصية على النهرين ، فنزل الكويفة في بانبودا .

٤ – سويد بن مقرّن المزني على تُستَر[3] [شرقي دجلة] فنزل العَقْر فهي تعرف باسمه وتسمى عَقر سويد الى قرون بعدها .

٥ – أط بن أبي أُط [واسم أبيه سويد] الى روز مستان ، فنزل منزلاً على نهر سمي به ويقال له نهر أط [4] الى قرون بعدها .

هؤلاء الخمسة كانوا عمـــال خالد بن الوليد على خراج ما فتح من أرض العراق . أما أمراء الثغور الذين هم قواد الحاميات فكانوا :

١ – ضرار بن الأزور الأسدي ببانقيا [5] .

---

(١) الفلاليج : جمع فلوجة ، وهي القرية . وفلاليج السواد : قراهـا . والفلوجة الكبرى ، والفلوجة الصغرى: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر [معجم البلدان]، وفي الصحاح الفلوجة الأرض المصلحة للزرع .

(٢) فتوح البلدان ٦٠٧ ، عن أبي مسعود الكوفي ، عن ابن مجالد ، عن ابيه ، عن الشعبي.

(٣) تستر: مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة وأبراج بالأهواز، وكانت أعظم مدينة بخوزستان. ذكر بعض الرواة أن سويد بن مقرن المزني افتتحها عام ١٢ هـ من قِبل خالد بن الوليد ، وحين تحدث عنها ابن بطوطة في رحلته قال : « هي قديمة البناء افتتحهـــا خالد بن الوليد » . ولكننا بالنظر الى موقعها وحصانتها نستبعد أن يكون فتح تستر قد تم ضمن أعمال هذه الحملة ، ونقطع بأنها لم تفتتح إلا ضمن عمليات فتح الأهواز على ما سيأتي مفصلاً في موضعه إن شاء الله .

(٤) في الطبري ٤/١٧ أن أط رجل من بني سعد بن زيد مناة ، فهو على هذا من تميم . وفي الإصابة ٤٧٧ انه رجل من بني سعد بن بكر، فهو على هذا من هوازن من قيس عيلان.

(٥) في فتوح البلدان ٦١٢ ، عن أبي عبيد ، عن ابي مريم ، عن السري بن يحيى ، عن حُميد بن هلال ، قال لما نزل خالد الحيرة ، قال ضرار بن الأزور :

أرقت ببانقيا ومن يلقَ مثل ما ... لقيتُ ببانقيا من الجرح يأرقِ

٢ – ضرار بن الخطاب الفهري .

٣ – المثنى بن حارثة الشيباني تجاه المدائن .

٤ – ضرار بن مقرّن المزني .

٥ – القعقاع بن عمرو التميمي .

٦ – بسر بن أبي رهم الجهني .

٧ – عتيبة بن النهاس العجلي .

كما أرسل عاصم بن عمرو على قوة الى كربلاء .

وذكر ابن حجر العسقلاني أن ربيعة [١] بن عتيك كان من أمراء خالد بن الوليد على الحيرة .

فنزلوا على السّيب في عُرْض سلطانه . وأمرهم خالد أن يغيروا وأن يمعنوا في أرض العراق الى عمق كبير ، فمخروا ما وراء الفرات حتى شاطىء دجلة . ولم يعد للعجم فيما بين الحيرة ودجلة أمر ، وليست لأحد من أهل السواد ذمة إلا الذين كاتبوا خالداً وصالحوه . أما سائر [٢] أهل السواد فهم واحد من ثلاث ، محارب أو متحصن قد حبس نفسه في حصنه لا يخرج منه ، وإما جُلاّء جَلَوْا عن بلادهم فصاروا مهاجرين ولاجئين في أماكن أخرى .

هكذا ، وقد استبقى خالد رؤوس الرساتيق الذين صالحوه وضمنوا له جباية الجزية رهائن في يديه حتى يتم تحصيلها وتوريدها. وقد جبيت في خمسين

---

(١) الإصابة ٢٦١٢ .

(٢) الطبري ٤/١٨، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن نويرة، عن ابي عثمان.
س ش س، عن محمد بن عبد الله ، عن ابي عثمان .
والمهلب بن عقبة وزياد بن سرجس ، عن سياه الاحمري وسفيان الاحمري ، عن ماهان .

ليلة ، وتسلمها خالد فقوّى بهـا المسلمون على أمورهم وصارت لهم « مالية ».
وكتب عمال الخراج براءات « إيصالات » من صورة واحدة لأهل الخراج .

« بسم الله الرحمن الرحيم[1]

براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليهـا الأمير خالد ابن الوليد .

وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالد .

وخالد والمسلمون لكم يد على من بدّل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتم. أمانكم أمان وصلحكم صلح ، نحن لكم على الوفاء .

شهود : هاشم بن الوليد ، والقعقاع بن عمرو ، وجابر بن طارق ، وجرير ابن عبدالله ، وبشير بن عبيدالله بن الخصاصية ، وحنظلة بن الربيع ، وأزداذ والحجاج بن ذي العنق ومالك بن زيد.

كما كتب[2] أهل الحيرة كتاباً — تعزيزاً لذلك « إنـّا قد أدينا الجزية التي عاهَدَنا عليها خالدٌ العبد الصالح، والمسلمون عباد الله الصالحون على أن يمنعونا وأميرُهم البغـْيَ [العدوان] من المسلمين وغيرهم ».

استتبّ الأمر لخالد على ما فتح من ارض السواد عنوة أو صلحاً ، ولكن ما زال الفرس هناك في عاصمتهم المدائن على ضفتي دجلة . ومـات أردشير واختلف آله وساسة الفرس على الملك من بعده ، غير أنهم جميعاً كانوا مجتمعين على حرب المسلمين الغزاة متساندين لذلك، وقد أنزلوا بهمن جاذوية في بهرسير على الضفة الغربية لدجلة جنوبي المدائن. كان بهمن في جيش كأنه مقدمة وكان معه فيه آزاذبة مرزبان الحيرة الهارب وأشباه له من مرازبة السواد الهاربين.

---

(١) و(٢) المصدر السابق .

وأمر خالد [١] صلوبا فأحضر له رجلاً اسمه هزقيل . فأرسله برسالة الى الفرس ، كما أرسل رجلاً آخر من أهل الحيرة اسمه مرة برسالة أخرى. إحدى الرسالتين لملوك الفرس بالمدائن والثانية لمرازبتهم .

كتب في الأولى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد الى ملوك فارس .

أما بعد . فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهَن كيدكم وفرق كلمتكم . ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم .

فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجُوزكم الى غيركم . وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على َغلـَب ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ».

كان ذلك بعد ثورة شهربراز ، وقتل أردشير الثالث ، وهذا واضح من صيغة الرسالة . لم يوجهها الى ملك مسمى باسمه، وهو يذكر فيها حل نظامهم ووهن كيدهم ... [يرجع إلى الباب الرابع] كذلك انتهزها خالد فرصة لتوجيه رسالة مباشرة لمن هم دون الملوك .

وكتب في الثانية :

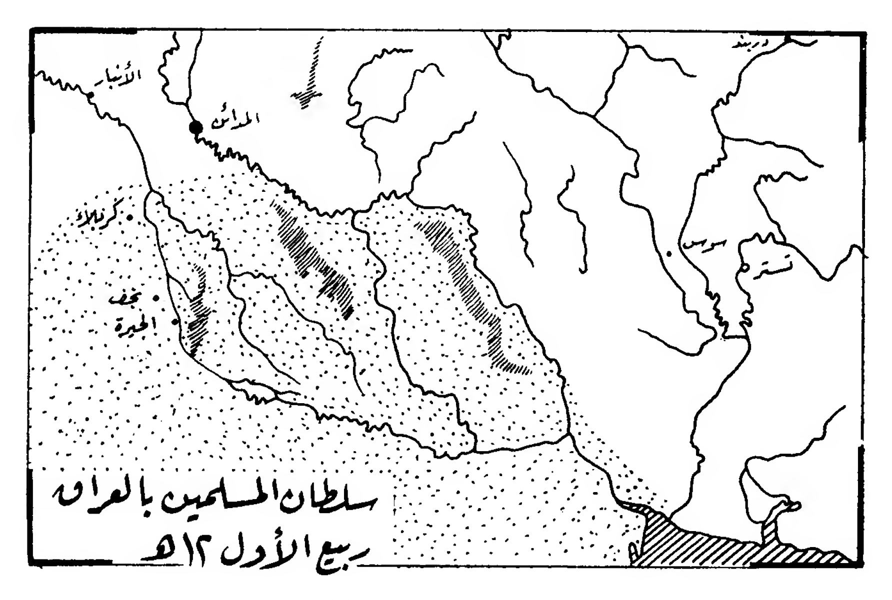
« بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس .

---

(١) الطبري ٤/١٧س ش س، عن محمد بن عبد الله، عن ابي عثمان، عن ابن ابي مكنف. وطلحة عن المغيرة ، وسفيان عن ماهان .
وعن عبيد الله ، عن عمه ، عن سيف ، عن محمد ، عن أبي عثمان وطلحة ، عن المغيرة.

أما بعد . فأسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدّوا الجزيـة ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .



خريطة رقم (١٧) – سلطان المسلمين بالعراق

ووجّه خالد كل رسول وجهته وأمرهما أن يوافياه بالخبر .

وأقام [١] خالد بالحيرة عاماً فجعلها قاعدته ، يصعّد منهـــا ويصوّب . فكان ممن بعث بشير بن سعد الانصاري [والد النعمان بن بشير الأنصاري]

---

(١) الطبري ٤/١٨ ، عن عبيد الله ، عن عمه ، عن سيف ، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن ابي ثابت ، عن ابن الهذيل الكاهلي .
س ش س ، عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن ابي ثابت ، عن ابن الهذيـــل الـكاهلي .

إلى بانقيا، فلقيته خيل الأعاجم عليها َفرُخْبُنْداذ ، فرشقوا المسلمين بالسهام. وحمل عليهم بشير فهزمهم وقـُتل فرخبنداذ . ثم انصرف بشير وبه جراحة مات منها بعد ذلك .

وبلغ خالداً أن جابان في جمع كبير بتـُسْتـَر ، فوجه اليـه المثنى بن حارثة الشيباني وحنظلة بن الربيع بن رياح الأسيدي من بني تميم ، فلما اقتربا منه انسحب إلى داخل البلاد ، فلم يتبعاه .

هذا والفرس مشغولون في المدائن بخلع ملك وتولية آخر ، فقد كان لديهم أزمة ، ذلك أن شيرويه بن كسرى قتل كل من كان يناسبه الى كسرى ابن ُقباذ [كسرى أنوشروان] . ثم ثار الفرس بعده وبعد ابنه أردشير ، فقتلوا كل من كان بين كسرى بن قباذ وبين َبهْرام جور . ثم بقوا بعد ذلك في أزمة ملوك لا يجدون من يملـّكونه عليهم من بيت ساسان. وكانوا حينذاك لا يملكون إلا الدفاع عن بهرسير فحسب حيث كان بها بهمن جاذويه في جيش كبير . ثم ولـّى الفرس فرخزاذ بن بندوان من غير بني ساسان من رجالات فارس إلى أن يجتمع آل كسرى على رجل إن وجدوه .

خالد يقوم بمهمة عياض

سنة نساء[1]

تم كل ذلك لخالد ، في زمن انحصر بين أواخر محرم ١٢هـ الى أوائل ربيع الأول من نفس العام ، يعني في حوالي أربعين يوماً تزيد قليلا أو تنقص قليلا. أنفذ المطلوب منه كأروع ما يكون الأداء ، ولكنه أقـام بعد ذلك بالحيرة ينتظر أن يفرغ عياض بن غنم من أمر دومة الجندل ، وقد كانت أول موقع عليه أن يفرغ منه ثم يدخـل العراق من شماله الى الجنوب مبتدئاً بالمُصَيَّخ حتى يصل الى الحيرة ، فيبقى بها مؤخرة واحتياطياً لخالد وحامـيـاً له حتى يقتحم المدائن . وما أسلم الخطة لولا أن أحد فكي الكماشة توقف ولم يطبق فاختلف التوقيت .

انتهى خالد مما وكل إليه بأسرع ممـا يتوقع إنسان . بينما أبطأ المطلوب من عياض عن كل ما توقع إنسان ، وصمدت له دومة الجندل في أول طريقه الى المصيَّخ فلم يفتحهـا . وأمر الخليفة صريح وواضح . ألا يقتحم المسلمون

---

(١) الطبري ١٩/٤ ، عن عبيد الله، عن عمه ، عن سيف، عن عمرو والمجالد ، عن الشعبي.

ارض العجم وخلفهم للفرس جنود وحصون . ولقد كان ما زال للفرس بعين التمر عسكر وحصون وبالأنبــــار عسكر وحصون وبالفراض عسكر ثالث، تشكل جميعهــا خطراً على ميسرة ومؤخرة أي جيش يتقدم من الحيرة الى داخل العراق .

وسئم المسلمون بالعراق من طول ما انتظروا – ولعل خالداً نفسه كان أكثرهم سأماً ومللا ، فقد قال المسلمين :

« لولا ما عهد إليّ الخليفة لم أستنقذ عياضاً ، ومـا كان دون فتح فارس شيء . إنها لسنة كأنها سنة[1] نساء !!»

إعادة تنظيم

إذ ذاك عزم خالد على أن يقوم بنفسه بعمل عياض . ويستلزم هــذا أن يقوم بعمليات يفض بهــــا حصون الفرس ويصفي قواتهم الواقعة على الفرات شمالي الحيرة . فأدخل خالد على تنظيم قواته وأمرائه على الثغور وعلى الجباية بعض التعديل – وكانت الجباية قد تمت . فقسم ما فتح من ارض العراق الى أحد عشر قسماً، سبعة بالحيرة وأربعة بالأبلة، على كل قسم أمير من المسلمين .

فكان أمراء الحيرة [2] :

---

(١) فرغ خالد من الحيرة وعقد صلحها وسائر الصلح مع الدهاقين في ربيع الاول ، وسنرى فيما بعد أنه بلغ الفراض في رمضان،وكان قبلها قد فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل وحصيد والخنافس والمصيخ والثني والزميل والرضاب . وإذاً فقد تحرك الى هـذه العمليات على الاكثر في رجب . وحينئذ لا يكون قد اقام بالحيرة اكثر من اربعة اشهر وليس سنة . ولذلك نرى أن مقالة خالد هذه إنما كانت بعد ذلك بعد أن قام بعمل عياض ، وكان ضيقه أن لم يزحف الى المدائن ، فاعتبرها، رغم كل ما قام به من عمله هو وعياض، أنها سنة نساء إذ لم يفتح المدائن .

(٢) الطبري ١٩/٤ س ش س ، عن محمد بن عبد الله ، عن أبي عثمان . وطلحة عن المغيرة ، والمهلب عن سياه ، وسفيان عن ماهان .

١ ــ جرير بن عبدالله الحميري .
٢ ــ بشير بن الخصاصية .
٣ ــ خالد بن الواشمة .
٤ ــ الحجاج بن ذي العنق .
٥ ــ أط بن أبي أط .
٦ ــ سويد .
٧ ــ ضرار .

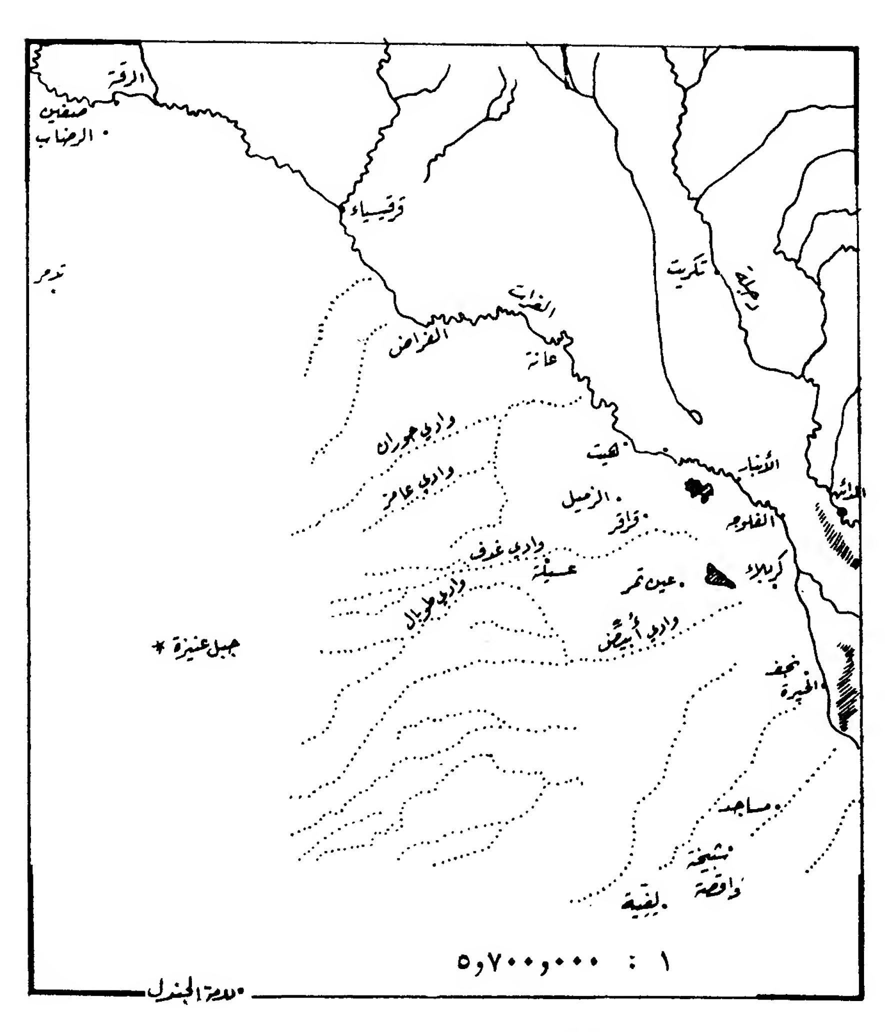
وكان أمراء الأبُلـّة :

١ ــ سويد بن مقرّن المزني .
٢ ــ حسكة الحنظلي [١] .
٣ ــ الحصين بن أبي الحر .
٤ ــ ربيعة بن عِسْل .

وطوال هذه المدة، قبل خروج خالد في عمل عياض ، وبعد خروجه ، لم يكف أمراء الثغور عن مناوشة العجم والإغارة على شتى جهات السواد حتى شواطىء دجلة ، حتى يشغلوهم دائماً ، وحتى يغنموا منهم ما يستنزف مواردهم وما يتعيشون هم به .

---

(١) في الطبري حسكة الحبطي،وفي الإصابة الحنظلي، ونذهب الى انه الصواب حيث اننا لم نقف في قبائل العرب على ما يمكن أن ينسب اليه لفظ الحبطي . وحنظلة كانت بطناً من تميم .



خريطة رقم (١٨)– دومة الجندل

خالد يتحرك

استخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو التميمي – وكان يحتل مكانة الرجل الثاني في جيش خالد ، أو نائب القائد العام – ثم خرج لإغاثة عياض وليقضي ما بينهما . كان عياض في دومة الجندل التي تقع في قلب الصحراء على مسافة تبعد حوالي خمسمائة كيلو متر الى الجنوب الغربي ، ولكننا نجد خالداً يتجه شمالاً في طريق الفلوجة حتى نزل بكربلاء على حوالي مائة كيلومتر شمالي الحيرة ، وكان على حاميتها يومذاك عاصم بن عمرو التميمي . فلو أنّ خالداً اتجـــه نحو دومة الجندل مباشرة لترك ظهره في الحيرة مكشوفاً لأن يضربه العجم والعرب الموالون لهم من مسالحهم التي سبق ذكرها . كان خالد يعلم أن الخط المستقيم ليس دائماً أقصر الخطوط في الحرب . إنـــه تحرك لا يختلف في طبيعته عن تحركه المرغوب نحو المدائن . وهو مـــا يتلافى خالد أن يفعله في حين تكون قاعدته ومؤخرته في الحيرة مهددة غير آمنة . بذلك أمر الخليفـة أبو بكر رضي الله عنه . ولذلك كان لا بد من الفراغ من تلك المواقع الكائنة الى الشمال قبل التحرك في أي اتجاه آخر .

إن الإنسان ليعجب اليوم من تلك النظرات الحربية التي هدي اليها رجل موفق مثل أبي بكر ! لم يكن لديه أركان حرب يشيرون عليـه ولم يدرس الحروب في كلية او أكاديمـة ، ولم يكن بين يديه خرائط للعراق ينظر فيها

ويرسم .. لا شيء من هذا . ولكنه مع ذلك كان يضع لعلم الحرب أصولاً وقواعد وهو جالس على رمال المدينة في مسجد الرسول . ذلك الرجل الفذ، الأبيض الذي تخالطه الصفرة ، الحسن القامة النحيف الأحنى ، الخفيف العارضين الذي لا يستمسك إزاره يسترخي عن حِقْوَيه ، الرقيق ، المعتيق، معروق الوجه ، غائر العينين ناتىء الجبهة ، عاري الأشاجع ، [بارز عروق ظاهر الكف] الأقنى ، حمش الساقين ممحوص الفخذين يخضب شعره بالحناء والكتم [1] .

تقدم [2] خالد شمالاً ، وقد جعل على مقدمته الأقرع بن حابس التميمي. وكان أمير مقدمته قبل ذلك حتى فتح الحيرة المثنى بن حارثة الشيباني . غير أن المثنى الآن على ثغر متقدم من الثغور تجاه المدائن . ومن الآن فصاعداً سيكون الأقرع [3] هو قائد مقدمة خالد بن الوليد المتحركة بدلاً من المثنى الذي تولى قيادة المقدمة المتقدمة جداً للقاعدة الثابتة بالحيرة .

وأقام خالد بكربلاء أياماً ، لعله كان يستطلع أخبار عدوه وما أقبل عليه . وكان الذباب بكربلاء كثيراً جداً ضايق المسلمين، فشكا عبدالله وثيمة النصري ذلك الى خالد ، فقال له خالد :

« اصبر فإني أريد أن استفرغ المسالح التي أُمر بها عياضٌ فنسكنها

---

(١) الطبري ٤٩/٤ ، عن الحارث ، عن ابن سعد ، عن محمد بن عمر ، عن شعيب ، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ابي بكر ، عن ابيه، عن عائشة .

الأقنى : الذي ارتفع وسط قصبتي انفه وضاق منخاراه . حمش الساقين : دقيقها. ممحوص الفخذين : نحيفها . والكتم : نبات يخضب منه الشعر ويصنع منه المداد .

(٢) الطبري ١٩/٤ س ش س ، عن أبي روق ، عمن شهدهم .

(٣) راجع ترجمة الأقرع بن حابس في آخر الكتاب .

العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وتجيؤنا العرب أمِنَةً وغير متعتعة [مترددة] وبذلك أمَرَنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة».

ما أشد تقدير خالد لكفاءة أبي بكر العسكرية . وأيضاً ما أشد تقدير أبي بكر لكفاءة خالد .

وكدأب العرب نجد أخبارهم في أشعارهم، فقد سجل الضيق من إقامة المسلمين وسط ذباب كربلاء رجل من أشجع فقال :

لقد حُبِسَتْ في كربلاءَ مَطِيَّتي وفي العَيْنِ حتى عادَ غثاً سمينُها

إذا رَحَلَتْ من مَبْرَكٍ رجَعَتْ له لَعَمْرُ أبيهـا إنني لأهِينُهـا

ويمنعُها من مـاء كلّ شريعة [1] رفاقٌ من الذبان [2] زُرْقٌ عيونها

---

(١) الشريعة : مورد الماء .

(٢) الذبان : كثير الذباب .

معركة بالأنبار[1]

٤ رجب ١٢ هـ – ١٤ سبتمبر (ايلول) ٦٣٣ م [تاريخ تقديري]

خرج خالد من كربلاء نحو الأنبار على الشاطىء الشرقي للفرات على ١١٠ كيلو مترات شمالاً، وقد قدّم أمامه مقدمته، وأميرها الأقرع بن حابس. فلما اقتربت المقدمة ونزلت المنزل الذي يسلمها الى الانبـــار ولدت[2] لقوم من المسلمين إبلهم ، فلم يستطيعوا الإقامة ولم يجدوا بدأ من الإقدام ومعهم بنات

---

(١) الطبري ٤/٢٠ س ش س ، عن محمد وطلحة وأصحابها .

قال ابن خرداذبه: إن كورة العالي كانت اربعة طساسيج(نواحي) :الأنبار ومسكن وقطربل وبادوريا[المسالك والممالك٧]،وكذلك ذكرهقدامة بن جعفر في الخراجوصنعة الكتابة، ص٢٣٥.

(٢) تلد الإبل في شهر سبتمبر (ايلول) . ومن هنا أقتنا ميقات الأنبار . ويطابق ذلك بلوغ خالد الى الفراض في رمضاننوفمبر(تشرين الثاني)بعد ثمانيةمواقع،ويؤيد ما ذهبنا اليهايضاً،ما جاء في أبيات عاصم بن عمرو ، من أنهم انتظروا حتى رأوا حصـــاد الزرع ، ونعتقد أنه كان يعني حصاد القمح . يقول عاصم :

لزمنا جانب اللطاط حتى رأينا الزرع يقمع بالحصاد

اللطاط : ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة .

مخاض مولودات تتبعهم . فلما نودي بالرحيل صَرُّوا[1] الامهات واحتملوا المولودات لأنها لم تطق السير، فبلغوا الانبار ركباناً وقد تحصن أهلها وخندقوا عليهم وأشرفوا من حصنهم .

كان شيرزاذ حاكم ساباط هـو قائدهم . وكان أعقلهم وأسودهم وأقنعهم، سواء في العجم أو في العرب الموالين لهم . فلما طلعت مقدمة خالد على الحصن تصايح العرب المتحصنون فيه وقالوا :

« صبَّح الأنبار شرٌّ . جمل يحمل جُمَيْلَـةَ وحِمْل ُترِبُّهُ عوذٌ »

وسأل شيرزاذ عن معنى ذلك الصياح فترجم له، قال :

« أما هؤلاء – يعني عرب الحصن – فقد قضوا على أنفسهم، وذلك أن القوم إذا قضوا على أنفسهم قضـاء، كاد يلزمهم . والله لئن لم يكن خالد مجتازاً [يجتازه ويمشي معه] لأصالحنه ».

المعركة

ثم أقبل خالد، فأطاف بالخندق، ثم أسرع فأنشب القتال، وكان دائماً سريعاً إليه قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع بـه . تقدم خالد الى رماته فأوصاهم وقال لهم :

« إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم لا توَخَّوْا غيرها، فارموا رِشْقاً واحداً ثم تابعوا » .

واصطف الرماة صفاً، وقد وضعوا سهامهم في أوتار أقواسهم وشدوها الى صدورهم بأيمانهم في وضع استعداد . ثم صدر الأمر فانطلقت السهام كثيفة

---

(١) صَرّ الناقة: شد عليها الصرار،وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية لئلا يرضعها ولدها.

كسرب من الطير في نزع واحد سريعة الى أهدافهـــا فوق رؤوس جدران الحصن ولها أزيز . ثم تتابع الرمي .

ففقىء ألف عين من أهل الحصن يومئذ ، ولذلك سميت تلك الموقعة **ذات العيون** . وتصايح أهل الحصن وقد شملتهم الفوضى وشغلوا بمن أصيبوقالوا:

« ذهبت عيون أهل الأنبار »

فسأل شيرازاذ عما يقولون فترجموه له فصاح بالفارسية « آباذ آباذ » . ثم راسل خالداً في الصلح على أمر — لم تذكره المصـــادر — ولم يرضه خالد ، فرد الرسل .

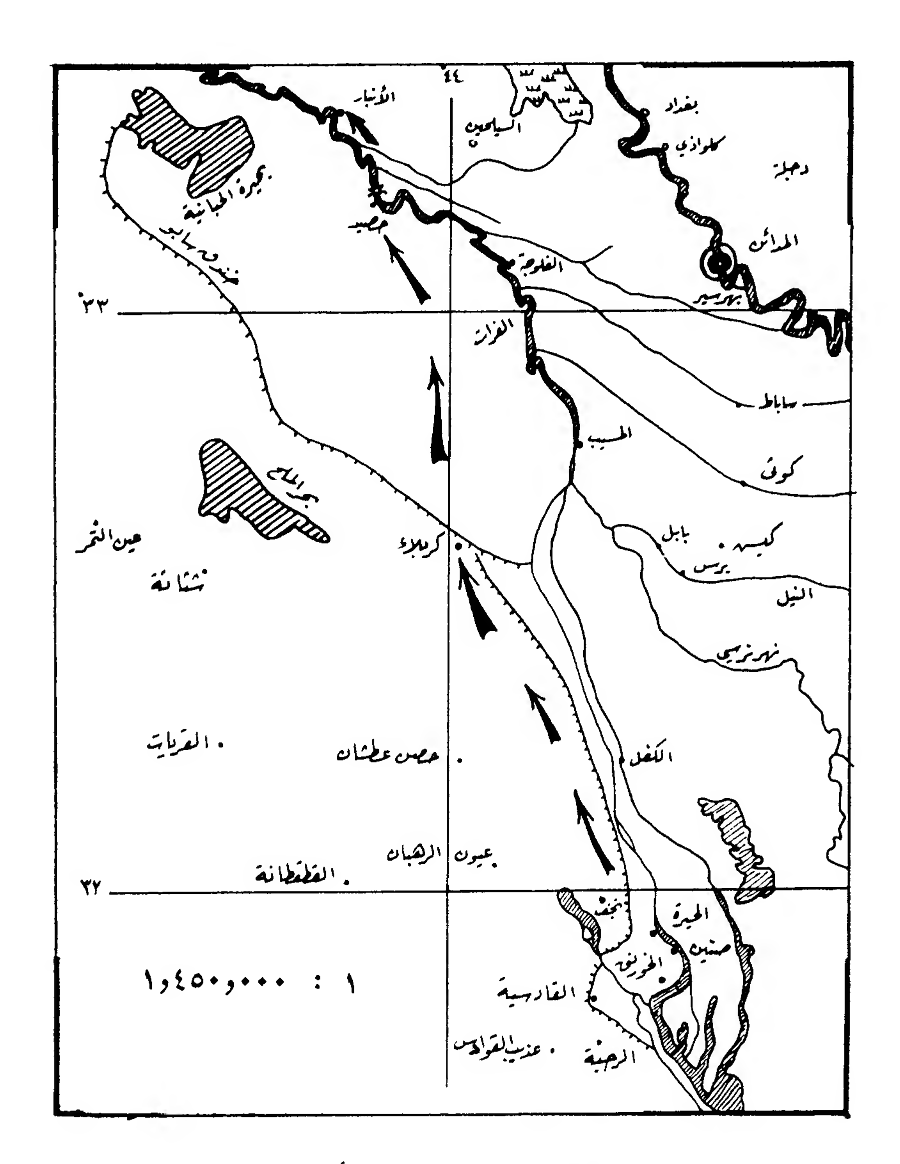
استسلام

وجاء خالد على أضيق مكان بالخندق ، وأتى برزايـــا الجيش من الإبل العجاففنحرها ثم رمى بها فيه،فملأه وصنع منها جسوراً اقتحم عليها الخندق واجتمع المسلمون وأعداءهم في الخندق وانحـــاز القوم الى حصنهم ، فأرسل شيرازاذ الى خالد بقبول شروطه في الصلح على أن يخليه ويبلغه مأمنه في تجريدة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء ، وقبل خالد .

خرج شيرزاذ من الأنبار الى المدائن ، فلما قدم على بهمن جاذويه لامه على استسلامه فشرح له شيرزاذ الأمر ، وقال :

« إني كنت في قوم ليست لهم عقول وأصلهم من العرب — وكان الفرس يحتقرون العرب-فسمعتهم مقدمهم علينا يقضون على أنفسهم ، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم . ثم قاتلهم الجند ففقؤا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين ، فعرفت أن المسالمة أسلم ».

ولما اطمأن خالد والمسلمون ، وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون



خريطة رقم (١٩) – فتح الأنبار

العربية ويتعلمونها . فسألهم خالد عن أنفسهم ، فقالوا إنهم قوم من العرب نزلوا على قوم من العرب سبقوهم الى هناك أيام بختنصر حين أباح العرب ثم بقوا بهـا . قال : « ممن تعلمتم الكتاب ؟ » قالوا : « تعلمنا الخط من إياد . » [قبيلة عربية سكنت الجزيرة بشمال العراق].

وصالح خالد من حول الأنبار وبـدأ بأهل البوازيج . كما بعث اليه أهـل كلواذي[1] على الشاطىء الشرقي لدجلة شمالي المدائن بحوالي ٢٥ كيلومتراً ليعقد لهم ذمة ، فكاتبهم على ذلك وكانوا عيبته من وراء دجلة . هذا وقد نقض أهل الأنبار وما حولها عهدهم بعد ذلـك فيما كان يحدث بـين المسلمين والمجوس من تداول السيطرة مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء على تلك المناطق ، ما عـدا أهل البوازيج فإنهم ثبتوا كما ثبت أهل بانقيا .

(١) انظـر حاشـية (١) صفحـة ٢٨٧

عين التمر

١١ رجب ١٢ هـ – ٢١ سبتمبر (ايلول) ٦٣٣ [تاريخ تقديري]

عجم خبثاء وعرب عملاء

لما فرغ خالد من الأنبار واستتب له الأمر فيها وفيما حولها، استخلف عليها الزِّبْرِقانَ بن بدر التميمي. ثم اتجه نحو عـــين التمر، وهي حصن بالصحراء اجتمع به مِهْرَان بن بهرام جوبين في جمع كبير من العجم ، وعَقَّة بن أبي عَقَّة[٢] – وكان أحمق مغروراً – في جمع كبير من العرب من قبائل النَّمِر[٣] وتغلب وإياد ومن اجتمع اليهم .

---

(١) كلواذي : بالقرب من الأنبار من البوازيج ، وهي قرب بغداد ، وناحية الجانب الشرقي من جانبها ، وناحيـة الجانب الغربي من نهر بوق ، وهي الآن (في عصر ياقوت الحموي – توفي ٦٢٧ هـ) ، خراب أثرها باق بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر – معجم البلدان .

(٢) الطبري ٤/٢١ س ش س ، عن محمد وطلحة والمهلب وزياد .

وعين التمر كانت من كورة بهقباذ الأعلى وهي ستة طساسيج (نواحي) وهي : بابل وخطرنية والفلوجة العليا والفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر .[ابن خرداذبه ٨ وقدامة بن جعفر ٢٣٦]، وكان هناك طريق من عين التمر الى بصرى بالشام [ابن خرداذبه ٩٧]، ولا تزال أطلال حصن عين التمر باقية ، وقد أطلق عليه فيما بعد قصر الاخيضر [الفتح العربي للعراق والجزيرة ١١٣]. وقد اخذنا موقعها على الخريطة من خريطة العراق الاثرية .

(٣) في فتوح البلدان ٦١٩ ، أنه عقة بن القيس بن البشر النمري .

وسمعوا باقتراب خالد . قال عقة لمهران :

« إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً » .

ووافق هذا هوى مهران فانتهزها وقال :

« صدقت ! لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم مثلنا في قتال العجم... دونكموهم [يعني نتركهم لكم] وإن احتجتم الينا أعناكم » .

فلما مضى عقة نحو خالد قال العجم لمهران :

« ما حملك من أن تقول هذا القول لهذا الكلب ؟ »

قال : « دعوني ، فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفَلَّ حدَّكم ، فاتقيته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا ، فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم ضعفاء » .

فوافقوه على ذلك واعترفوا له بفضل الرأي .

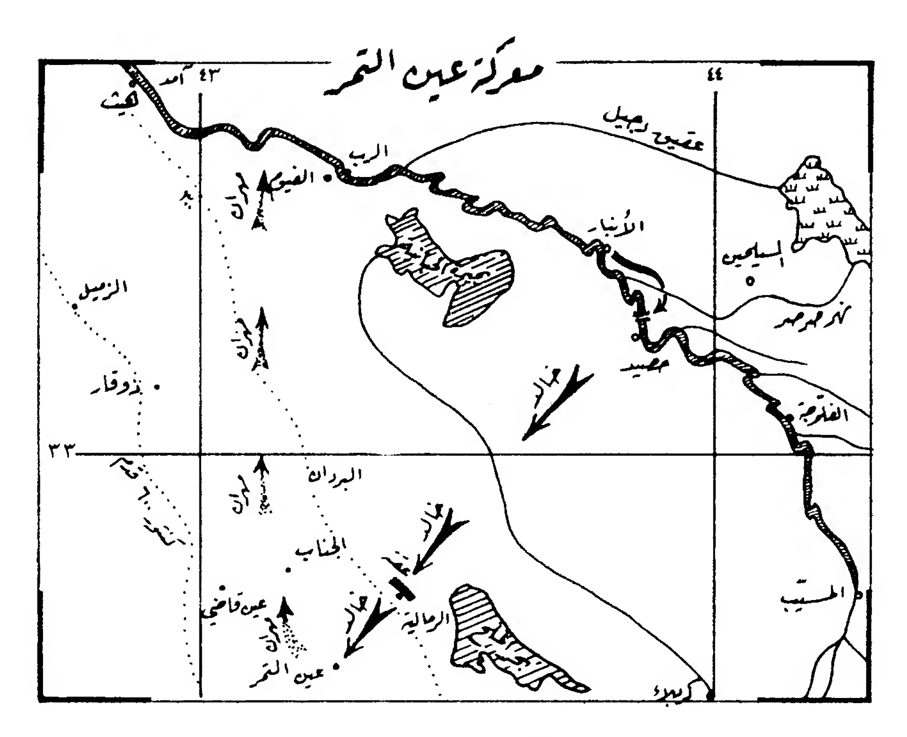
المعركة

بقي مهران مع الأعاجم في الحصن بعين التمر . وتقدم عَقَّة بالعرب فنزل لخالد على طريق الكرخ [كرخ بغداد – وهو الطريق الى بغداد] كالخفير للعجم. وقد جعل على ميمنته بجير بن فلان أحد بني عبيد بن سعد بن زهير ، وعلى ميسرته الهذيل بن عمران . وكان بين عقة وبين مهران روحة أو غدوة [نصف يوم أي حوالي ٢٢ كيلومتراً] وربما كان ذلك بالمكان المعروف بالرمالية أو قريباً منه . وقدم خالد فوجد عقة على تعبئة ، فعبأ جنده وقال لمجنبتيه :

« اكفونا ما عنده فإني حامل عليه » .

ووكل بنفسه حماة يحمون ظهره ثم نظر فوجد عقة يقيم صفوفه . وتقدم

له خالد ثم فاجأه بما لم يكن في حسبانه،لم يبارزه ولم يقاتله، وإنما هجم عليه فاحتضنه ثم حمله وعاد به أسيراً . ولم يفاجأ عقة وحـده بل فوجئت جميع قواته فولت الأدبار منهزمة من غير قتـــال . حينئذ هجم المسلمون عليهم يقبضون عليهم فأكثروا فيهم الأسر .وفر بجير والهذيل قائدا الميمنة والميسرة، واتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون .



خريطة رقم (٢٠) — سقوط عين التمر

وبذلك فشلت خطة مهران. فقد تبدد العرب الموالون له وانتصر المسلمون ولم يفقدوا واحداً من جنودهم . وجاءت هـذه الأخبار الى مهران في حصنه ففتت في عضده وأثّرت في معنويته فآثر الهرب وانسحب في جنده تاركين

حصن عين التمر . وأغلب ظننا أنه انسحب شمالاً حتى عبر الفرات وانضم الى قاعدته . فإنه بطبيعة الحال لم ينسحب الى الطريق الذي جاء منه خالد ، ولم يكن لينسحب في اتجاه كربلاء وفيها عاصم بن عمرو بحامية من المسلمين ، كما أننا لم نجد له ولا لقواته ذكراً في المعارك التالية في المُصَيَّخ والثني والزميل.

وجاءت فلول عقة فدخلت الحصن الخاوي واعتصمت به. وجاء وراءهم خالد والمسلمون، ونزل خارج الحصن وعقة أسير معه ورجل آخر من كبرائهم اسمه عمر بن الصَّعِق . وقد ظن أهل الحصن أن يكون خالد كمن كان قبله ممن يغير من العرب وينصرف ـ فكذلك كانت حروبهم من قبل ـ فلما رأوا أنه يحاولهم ويريدهم سألوه الأمان ، ولكن خالداً كان يريد تطهير المنطقة تماماً ليتجه الى دومة الجندل وكيف يأمَنهم على ظهره إذا آمنهم ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه دون قيد أو شرط . فاستسلموا للأمر الواقع وفتحوا له الحصن فقبض عليهم أجمعين . ثم أمر فضربت عنق عقة وألقاه على الجسر . ورأى الأسرى جثته فيئسوا من الحياة . ثم أمر بعمرو بن الصعق فضربت عنقه أيضاً . ثم تتابع على ذلك فضرب أعناق أهل الحصن أجمعين وسبى كل من حوى الحصن وغنم ما فيه . ووجد في كنيستهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل ، عليهم باب مغلق فكسره عنهم وأجابوه بأنهم رهائن فاعتبرهم خالد من السبي وقسمهم في أهل البلاء [1] .

---

(١) كان منهم ابو زياد مولى ثقيف ، ونصير ابو موسى بن نصير صاحب المغرب ، وسيرين ابو محمد بن سيرين، وعُلاثة ، وقد صار الى المعنى بن حارثة؛ وحريث، وكان لرجل من بني عباد، وحمران بن أبان بن خالد النمري، وحمران مولى عثمان ، وكان للمسيب بن نجبة الفزاري فاشتراه منه فأعتقه ، وأبو عمرة جد عبدالله بن عبد الاعلى الشاعر ، ويسار جد محمد بن اسحق صاحب السيرة وهو مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، ومرّة ابو عبيد ، جد محمد بن زيد بن عبيد بن مرة ، ونفيس بن محمد بن زيد بن عبيد بن مرة صاحب القصر عند الحرّة ، وابو فروة عبد الرحمن بن الاسود ، وقيل ذلك لفروة كانت عليه حين سُبي ، وقيل كان ولاؤه وولاء نصير ابي موسى لبني ضبة [الطبري والبلاذري] .

واستشهد بعين التمر بشير[1] بن سعد الأنصاري ، انتقض جرحه الذي ذكرنا أنه جرحه في بانقيا في التحامه مع فَرُّخْبُنْدَاذ فمات ودفن بعين التمر ودفن الى جانبه عُمَيْر بن رِئاب [بن مُهَشِّم بن سعيد بن سهم بن عمرو] وكان أصابه سهم بعين التمر فاستشهد .

لعلنا نذكر الوليد بن عقبة حين بعثه خالد بأخماس الأبلة الى أبي بكر . حينذاك وجهه أبو بكر الى عياض[2] مدداً له ، فقدم الوليد الى دومة الجندل وعياض محاصرها وأهلها محاصروه وقد أخذوا عليه الطريق فأتعبهم وأتعبوه. قال له الوليد :

« الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف .. ابعث الى خالد فاستعن به » .

وأخذ عياض بمشورة الوليد فأرسل الى خالد . وجاء رسول عياض الى خالد فور فراغه من عين التمر [3] ، فكتب من فوره الى عياض :

« من خالد الى عياض . إياك أريد

لَبِّثْ قليلاً تأتِكَ الجَلائِب [4] يحملن آساداً عليها القاشب [5]

كتائبٌ يتبعها كتائب

---

(١) انظر ترجمة بشير بن سعد الانصاري في آخر الكتاب .

(٢) انظر ترجمة عياض بن غنم في آخر الكتاب .

(٣) الطبري ٤/٢٢ س ش س، عن محمد وطلحة وأبي سفيان طلحة بن عبد الرحمن والمهلب ابن عقبة .

(٤) الجلائب : الخيل . وفي مختار الصحاح جلب على خيله صاح من خلفه واستحثه للسبق . وقرئت ايضاً الحلائب:جمع حلبة،وهي خيل السباق تجمع من كل أوب وناحية لا من اسطبل واحد.

(٥) القاشب : السيف الصقيل المجلو .

فتح دومة الجندل (١)

٢٤ رجب ١٢ هـ – ٤ اكتوبر (تشرين الاول) ٦٣٣ م

السير الى دومة الجندل

فرغ خالد من عين التمر فاستخلف عليها عويم بن الكاهل الأسلمي . وخرج في تعبئته التي كان عليهـا وعلى مقدمته الأقرع بن حابس التميمي . وسبقت الأخبار خالداً فعلم أهل دومة أنه يسير اليهم ، وقد اجتمع بدومة قبائل من كلب وبهراء عليهم وديعة الكلبي ويسانده ابن وبرة بن رومانس ، والضجاعم عليهم ابن الحدرجان ، وطوائف من غسان وتنوخ عليهم ابن الأيهم . وقد أرسلوا الى أحزابهم ليأتوهم بأمداد جديدة . كانت دومة الجندل موقعاً حصيناً بين المدينة ودمشق ، وكان بها من المباني العظيمة حصن مارد الذي كان للسموءل بن عاديا ،وكان مبنياً من حجارة سود نحسبها من البازلت. وكان للسموءل حصن آخر بتيماء هو المعروف بالأبلق الفرد ، وكان من حجارة سود وبيض وفيهما قالت الزَّبَّاء : « تمرد مارد وعز الأبلق » . وكان لدومة الجندل أهمية كبرى تحتم العمل على الاستيلاء عليها ، فقد كانت جزيرة العرب تقع الى جنوبها في حين كان للمسلمين جيوش في العراق وفي الشام ، وكانت

---

(١) الطبري ٤/٢٢ س ش س، عن محمد وطلحة وأبي سفيان طلحة بن عبد الرحمن، والمهلب ابن عقبة . والتاريخ تقديري بين ما كان قبل ذلك من أحداث ، وما كان بعد .

دومة الجندل عند ملتقى الطرق الى الجهات الثلاث ، وكانت على ثلاث عشرة مرحلة من المدينة وعلى عشر مراحل من الكوفة وعلى عشر مراحل من دمشق [1] .

وكان على أهل دومة الجندل رئيسان: أحدهما أكيدر بن عبد الملك، والثاني الجودي بن ربيعة . فلما بلغهم سير خالد اليهم اختلفوا . قال أكيدر :

« أنا أعلم الناس بخالد . لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحَدٌ في حرب . ولا يرى قوم وجه خالد أبداً ، قلّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه . فأطيعوني وصالحوا القوم » .

ولا شك أن هذا الرأي كان عين العقل ولكنهم أبوا. وكان أكيدر مقتنعاً بما يقول واثقاً به ، فقد كان له مع خالد تجربة سابقة حين أرسل الرسول خالداً من تبوك الى دومة الجندل ، فعاد بأكيدر أسيراً بعد أن قتل أخاه حسان بن عبد الملك . أبى أكيدر أن يمالىء قومه على حرب خالد فتركهم وشأنهم وخرج يريد الرجوع الى موطنه . كان موطنه الأصلي دومة العراق بالقرب من عين التمر فكأنه سلك طريقاً قريباً من الطريق الذي يجيء منه خالد . ومن الأمور العجيبة التي تستوقف النظر أن يعلم خالد بذلك وهو بالطريق ، فبعث عاصم بن عمرو ليعترض طريق أكيدر فأسره عاصم . قال له أكيدر : « إنما تلقيت [2] الأمير خالداً » .

فلما أتى به لم يقبل منه خالد وأمر به فضربت عنقه وأخذ ما كان معه . ومضى خالد الى دومة الجندل ، وكان رؤساء أهلها :

١ – الجودي بن ربيعة .

٢ – وديعة الكلبي . } على كلب وبهراء .

٣ – ابن رومانس الكلبي . }

---

(١) المسالك والممالك – ابن خرداذبه ١٢٩ .

(٢) خرجت لاستقباله .

٤ – ابن الأيهم على غسان وتنوخ .

٥ – ابن الحدرجان على الضجاعم .

وكانت الأمداد كثيرة العدد من النصارى فلم يحتملهم الحصن بالإضافة الى أهله فبقوا خارجه محيطين به .

تميمٌ تجير كلبا

ولما اطمأن خالد من رحلته خرج أهل دومة الجندل وحلفاؤهم لقتال المسلمين . وزحف الجودي ووديعة نحو خالد بينما زحف الحدرجان وابن الأيهم الى عياض ، واقتتلوا جميعاً . وانتصر خالد على الجودي وأخذه أخذاً فأسره. كذلك أخذ الأقرع بن حابس وديعة ، ولجأت سائر كلب الى الحصن منهزمة فدخله بعضهم حتى امتلأ بهم، ثم لم يحتمل الباقين فأغلق من في داخل الحصن أبوابه دون من هم بخارجه فبقوا بالعراء ، وأقبلت سيوف المسلمين تحصدهم.وكانت تميم وكلب حلفاء في الجاهلية، فصاح عاصم بن عمرو التميمي: « يا بني تميم .. حلفاؤكم كلب.. آسروهم وأجيروهم فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها » ففعلوا . وكانت وصية عاصم لقومه سبب نجاة بني كلب يومئذ .

كذلك هزم عياض من خرج اليه . وأمعن المسلمون فيهم قتلاً . وشدد خالد هجومه على الذين لجؤوا الى الحصن، فأكثر القتل فيهم حتى سد بهم باب الحصن . وأتى بالجودي فضرب عنقه ثم بباقي الأسرى فضرب أعناقهم إلا أسرى كلب الذين أجارهم عاصم والأقرع وبنو تميم فأطلقهم خالد وهو يقول: « ما لي ولكم ؟ أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ؟ » فأجابه عاصم : « لا تحسدهم العافية ولا يحوّزهم الشيطان » .

سقوط الحصن

وفرغ خالد ممن كان خارج الحصن وواصل هجومه على بابه حتى اقتلعه

واقتحمه على من فيه . فقتلوا المقاتلين وسبوا الشَّرْخَ [1] [الشباب] . ثم أقام مزاداً علنياً لبيعهم لمن يزيد.فاشترى خالد ابنة الجودي وكانت مشهورة بجمالها موصوفة به . ثم رد خالد الأقرع بن حابس الى مقدمته في العراق ، بينما أقام هو في دومة الجندل أياماً قبل أن يرجع الى الحيرة ، وفي عزمه وقد فرغ من عمل عياض كله أن يزحف الى المدائن .

وممن استشهد من المسلمين في فتح دومة الجندل نافع بن غيلان بن سلمة الثقفي الذي أسلم مع أبيه وإخوته يوم فتح الطائف ، فرثاه أبوه بأبيات [2] كثيرة منها :

ما بال عيني لا تغمض ساعة   إلا اعـــترتني عبرة تغشاني
يا نافع من للفوارس أحجمت   عن شدة مذكورة وتعـــاني
لو أستطيـع جعلت مني نافعاً   بين اللهاة وبين عقد لساني

وقد عوتب أبوه على كثرة بكائه عليه فقال:«دعوني أبكي فسينفد دمعي» .

حشود معادية بالعراق

ولاحظ الفرس غياب خالد بجانب من جيشه من العراق وظنوا به الظنون. وكان عرب الجزيرة قـــد كاتبوهم غضباً لما أصاب عقة في عين التمر ، وقد أصبح لهم جميعاً مصلحة مشتركة في النيل من المسلمين . وخرج جيش فارسي من بغداد – وكانت قرية شمالي المدائن – يريد الأنبار . هذا الجيش كان عليه زَرْمِهر ومعه روزبة . فاتجه روزبة الى حُصَيْد واتجه زرمهر الى الخنافس. وكان الزبرقان بن بدر عامل خالد على الأنبار منتبهاً الى ما يحدث فكتب به الى القعقاع ، وهو يومئذ خليفة خالد بالحيرة .

---

(١) الشارخ : الشاب ، والجمـــع شرخ . وفي الحديث « اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم » – مختار الصحاح .

(٢) الاستيعاب ٣/١٨٧ – ٥١١ – الإصابة ٦٩٢٦ – ٨٨٦٥ .

القعقاع يتحرك

كان القعقاع من مدرسة خالد في الحرب ولا بد أن يكون قد تأثر بزاملته في معارك العراق السابقة واصطبغ بصبغة خالد كثيراً. فما أن بلغ القعقاع خبر التحرك الجديد للمجوس حتى بعث أعبد بن َفدَكي [1] السعدي الى الحصيد كما بعث عروة بن الجعد البارقي [2] الى الخنافس، ومنحهما حرية التصرف إن وجدا الى ذلك سبيلاً وكان أمره لهما: « إن رأيتما َمقدَماً فأقدما ». فخرجا من الحيرة سراعاً فحالا بين زرمهر وروزبة وبين مقصديهما وأغلقا عليهما الطريق. ولما رأى الفرس ذلك لم يبادروا الى القتال وإنما انتظروا اجتماع من كاتبهم من عرب ربيعة. وهنا نجد مثالاً حياً لسرعة المسلمين في اتخاذ قراراتهم وفي تحركهم لتنفيذها وتباطؤ الفرس ومن مالأهم من العرب. فمنذ خروج الفرس من بغداد بلغ خبرهم الى الزبرقان بالأنبار ثم الى القعقاع بالحيرة، يعني أن الخبر قطع أكثر من ٢٥٠ كيلومتراً، فأرسل القعقاع أعبد وعروة الى مواقع تبعد أكثر من ١٧٠ كيلومتراً، كل هذا ولما يبلغ الفرس الأنبار التي تبعد عن بغداد أقل من خمسين كيلومتراً.

خالد يعود

ورجع خالد من دومة الجندل الى الحيرة على الظهر [وهو طريق الصحراء الى الكوفة] ومعه عياض بن غنم وجيشه. وقدم له القعقاع تقديراً للموقف. وكره خالد أن يتقدم الى المدائن لما في ذلك من مخالفة لأصول الحرب ومخالفة

---

(١) أعبد بن فدكي بن المنقري، كان ابوه فارس بني سعد.

(٢) عروة بن الجعد، هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة »، وكان محباً للخيل. قال شبيب بن غرقدة: « رأيت في دار عروة بن الجعد ستين [وفي رواية سبعين] فرساً مربوطة ». واستخدمه عمر لقضاء الكوفة... الاستيعاب ٣/١١١ — الإصابة ٥٥٢٠.

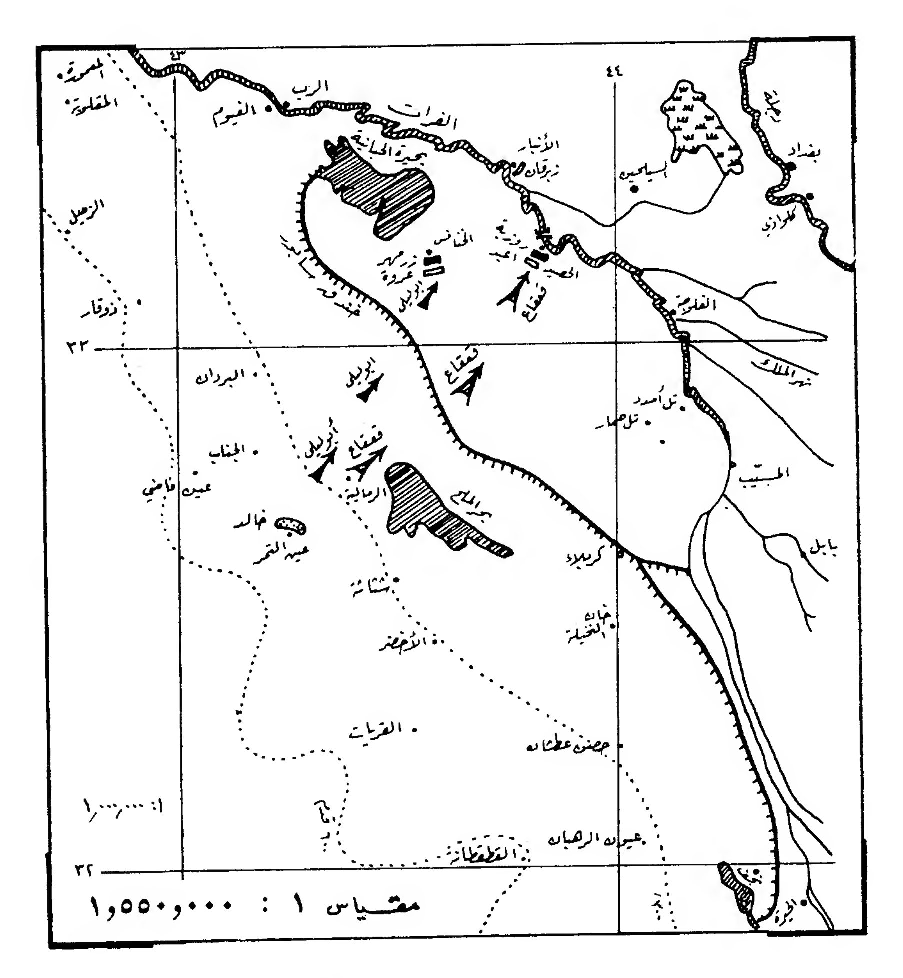
لأوامر أبي بكر . فإن التحرك الجديد للعجم يجعل لهم قوة تهدده إذا تورط بالتقدم نحو المدائن . ولذلك قرر خالد أن يصفي هذا الموقف الجديد أولاً .

بعث خالد القعقاع بن عمرو التميمي وأبا ليلى بن فدكي السعدي الى روزبة والى زرمهر فسبقاه الى عين التمر . وفي نفس الوقت كان نصارى العرب الموالون للفرس قد تجمعوا وتحركوا ، فعسكر الهذيل بن عمران بالمُصَيَّخ ، وعسكر ربيعة بن بجير بالثِّنَيّ وبالبشر يريدان الالتقاء بزرمهر وروزبة . وكتب امرؤ القيس [1] الكلبي بذلك الى خالد .

استخلف خالد على الحيرة عياض بن غنم . وهو اختيار موفق يصادف محله . فإن عياضاً وجيشه وفدوا حديثاً على العراق ، وكان من الطبيعي أن يلزمهم بعض الوقت حتى يعرفوا أرضه وأهله ويدرسوه ، كما كان من الأوفق أن يصادم خالد الفرس بمقاتلين قاتلوهم من قبل وهزموهم مراراً وتكراراً ولهم عليهم جرأة. وخرج خالد وقد جعل على مقدمته الأقرع بن حابس، كما كان ، فسلك نفس طريق القعقاع وأبي ليلى حتى قدم عليهم بعين التمر فجعلها قاعدة له . ثم بعث القعقاع الى الحصيد وفيها روزبة . وجعل القعقاع أميراً على الفرقتين ، كما بعث أبا ليلى بن فدكي الى الخنافس وفيها زرمهر ، وطلب منهما أن يستدرجا الفرس ليجتمعوا جميعاً مع العرب الموالين لهم إذا أمكنهم ذلك وإلا فليقاتلاهم . لقد كان خروج تلك القوات المجوسية من بغداد — كما ذكر الرواة — تحركاً موجهاً ضد الأنبار . ولكننا لا نجد منها هجوماً على الأنبار ، وإنما نجدها تعبر الفرات وترابط على شاطئه الغربي وفي صحراء العراق . وليس لدينا الآن مبرر من الروايات لذلك ، ولا نعتقد أن ذلك كان إلا بغرض من اثنين . الأول: أنه كان بقصد ضرب حصار حول الأنبار والوقوف على طريق أي مدد من جيش خالد حتى تهاجمها قوات أخرى من العجم أو من عرب الجزيرة ، والثاني: أن ذلك التحرك كان بقصد الالتقاء مع

---

(١) لا ندري من هو . وهو من مخابرات المسلمين .



خريطة رقم (٢١) – الحصيد والخنافس

حلفائهم من نصارى العرب الذين كاتبوهم واتفقوا معهم ، ونحن نرجح هذا الفرض الأخير . ولقد بنى خالد خطته على استدراجهم جميعاً الى الاجتماع في معركة واحدة . ولكن كلا من المجوس والعجم والنصارى العرب أبوا إلا المقام كل في مكانه ،ونحسب ذلك لم يكن عن خطة وإنما كان عن خوف وجبن.

حصيد [1]

١٠ شعبان ١٢ هـ – ٩ اكتوبر (تشرين الاول) ٦٣٣ م

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزبة لا يتحركان سار نحو حُصَيْد ، وكان قد قدّم اليها أعبد بن فدكي قبل رجوع خالد من دومة الجندل . ولما رأى روزبة أن القعقاع قاصد اليه استغاث بزرمهر ، فأمده بنفسه واستخلف مهبوذان على عسكره . والتقوا في حصيد فاقتتلوا وانتصر المسلمون وقتلوا من المجوس عدداً كبيراً [لم تحدده المصادر] . وقتل القعقاع زرمهر ، وقتل عصمة بن عبد الله الضبي [أحد بني الحارث بن طريف] روزبة. وكان عصمة من البررة [2]. وغنم المسلمون يوم حصيد غنائم كثيرة . ولجأت فلول حصيد الى الخنافس فاجتمعوا مع من بها . وقال القعقاع [3] :

ألا أبلغا أسماء أن حليلها ... قضى وطراً من روزمهر الأعاجم
غداة صبحنا في حصيد جموعهم ... بهندية تفري فراخ الجماجم

---

(١) الطبري ٤/٢٤ س ش س ، عن محمد وطلحة والمهلب .
والتاريخ اجتهادي تقديري . والحصيد واد بين الكوفة والشام (معجم البلدان) .

(٢) كل فخذ هاجرت بأسرها تدعى : البررة ، وكل قوم هاجروا من بطن يدعون : الخيرة. فكان المسلمون خيرة وبررة .

(٣) شعر الفتوح الإسلامية ١٢٩ ، عن معجم البلدان .

الخنافس [1]

١١ شعبان ١٢ هـ — ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) ٦٣٣ م

كان عروة بن الجعد البارقي قد سيره القعقاع الى الخنافس قبل رجوع خالد الى الحيرة، فلما رجع خالد أرسل اليها أبا ليلى بن فدكي، وسار أبو ليلى بمن معه ومن قدم عليه نحو الخنافس وقد لجأت اليها فلول حصيد . وكان لوصولهم الى الخنافس أثر سيء على نفسيات من بها . فملكهم الرعب حتى أن مهبوذان ومن معه خرجوا فراراً الى المصيخ وبه الهذيل بن عمران . ودخل أبو ليلى الخنافس دون قتال . وبعث المسلمون الى خالد في عين التمر بخبر حصيد وخبر الخنافس . وفي الخنافس [2] قال أبو ليلى بن فدكي السعدي :

وقالوا ما تريد ؟ فقلت أرمي	جموعاً بالخنافس بالخيول
فدونكمو الخيول فألجموها	الى قوم بأسفل ذي أنول
فلما أن أحسوا ما تولوا	ولم يغررهموا ضبح الغيول
وفينا بالخنافس باقيات	لمهبوذان في جنح الأصيل

---

(١) المصدر نفسه . وفي معجم البلدان الخنافس قرب الأنبار من ناحية البردان .

(٢) معجم البلدان ٣/٤٦٨ .

المصيخ [1]

١٩ شعبان ١٢ ﻫ – ٢٩ اكتوبر (تشرين الاول) ٦٣٣ م

ما أن بلغ خالداً خبر ما كان بحصيد والخنافس حتى رسم خطته وكتب بها اليهم . فحدد موعداً لهم جميعاً ، القعقاع بن عمرو وأبي ليلى بن فدكي وأعبد بن فدكي وعروة بن الجعد ، ساعة معينة من ليلة محددة يجتمعون فيها الى المُصَيَّخ ، وهو مكان بين حوران والقَلْت كان لبني البرشاء ، ويعرف بمصيخ بني البرشاء ، وتذكره بعض المصادر باسم المُضَيَّح .

وبالرغم من حدوث بعض العمليات الليلية الناجحة ، فإن معظم مشاهير القادة العظام حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي كانوا ينفرون من القتال الليلي ويذهبون الى عدم جدواه . ويقرر فردريك الأكبر أنه يستبعد دائماً التفكير في القيام بأي عملية ليلية نظراً لما ينشأ عنها من اضطراب والخلال في الضبط بين صفوف الجنود ، نتيجة لتعذر الرؤية بين الضباط ورجالهم بمجرد حلول الظلام ، ويقرر بلوفر أنه يخشى العمليات الليلية أكثر من طلقات العدو [2] . ولعل القتال الليلي لم يأخذ مكانه المرموق في علم

---

(١) الطبري ٤/٢٤ س ش س ، عن محمد وطلحة والمهلب .

(٢) مجلة القوات المسلحة عدد ١٩ – صلاح مشرف .

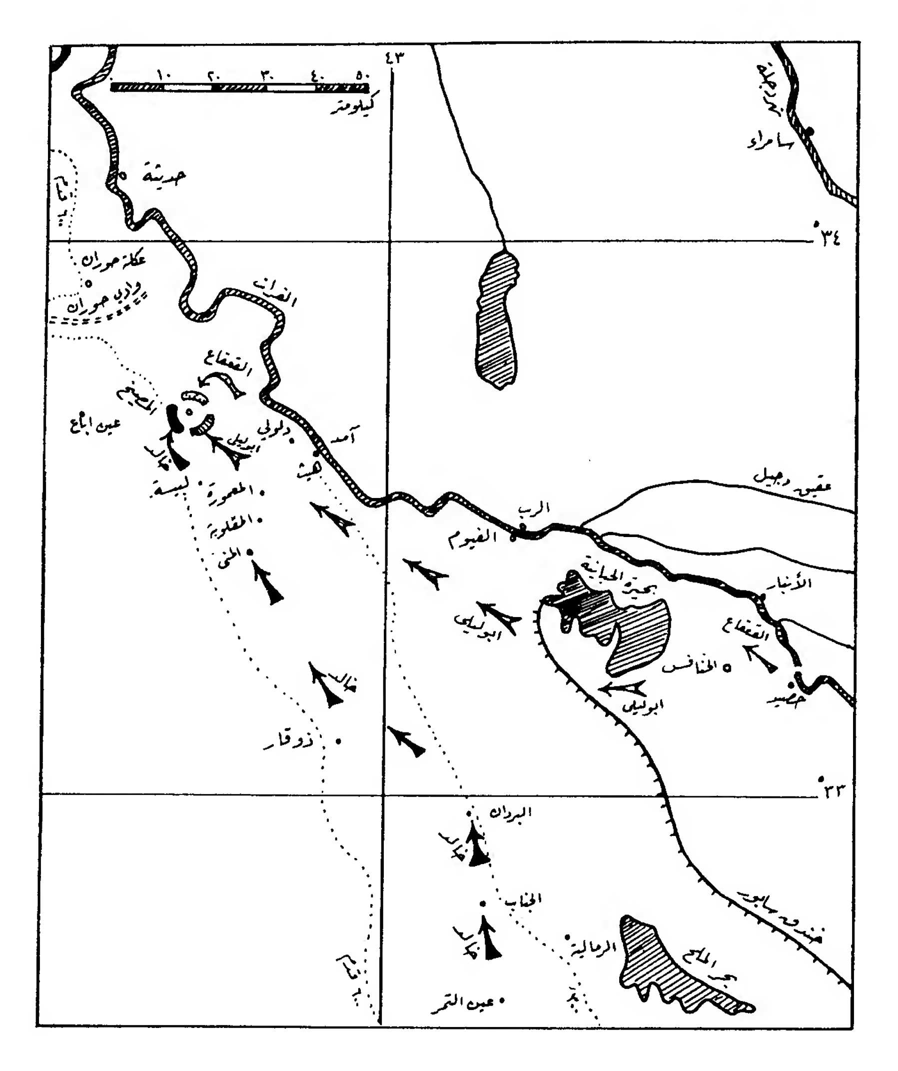
التكتيك إلا بعد استخدام اللاسلكي . ولكن خالداً قرر أن يهجم بليل تحقيقاً للمفاجأة واطمئناناً الى المستوى القتالي لقواته ورجاله وثقة بهم .

خرج خالد من عين التمر قاصداً المصيخ على الإبل ويسحب الخيل ، فقطع المسافة على ثلاثة منازل ثم أغار في الرابع. خرج من عين التمر فنزل الجناب، ثم خرج من الجناب فنزل البردان ، ثم خرج من البردان فنزل الحِنْى . ثم جنَّب الإبل وركب الخيل من الحِنْى .

في هذا التاريخ تغرب الشمس بعد الخامسة بعشر دقائق بتوقيت عصرنا ، ويخيم الظلام بحلول العشاء في السادسة والنصف، بينما لا يشرق القمر إلا قبيل العاشرة مساء ، ويستمر طوال الليل حتى ظهيرة اليوم التالي ، ويكون في حجم لا بأس به . فحالة القمر وموعد شروقه بالنسبة لموعد غروب الشمس مناسبة جداً للعملية ، إذ يتيح للمسلمين أن يتحركوا في الجزء الأول من الليل لاتخاذ مواقفهم في نقاط الانطلاق التي يبدؤون منها هجومهم، فيقتربون الى أكثر المواقع تقدماً من عدوهم في ستر من الظلام ، حتى إذا حان وقت الهجوم استطاعوا ان يستعينوا بضوء القمر على تبين أهدافهم بأكثر وضوح ممكن. وربما كان خالد قد أقت موعد هجومه على هذا الأساس . وكان القوم في المصيخ يتوقعون زحف المسلمين اليهم ، وحذرهم رجل منهم اسمه حرقوص ابن النعمان من بني نمر فلم يستمعوا لنصحه . والعجيب في هؤلاء أن يجتمعوا لحرب ثم لا يهاجمون ، بل يتجمعون ثم ينتظرون أن يُهجم عليهم ، وكأن اجتماعهم كان حصاد ثرثرة عقيمة .

وفي الساعة المحددة من الليلة المقررة اجتمع المسلمون حول المصيخ — ولم يشعر بهم أهلها — واتفقوا جميعاً ثم أغاروا على الهذيل ومن معه وهم نائمون من ثلاثة أوجه فأمعنوا فيهم القتل . وأفلت الهذيل في قلة منهم ، فلجأ الى الزُّمَيْل حيث كان عتَّاب بن فلان بالبشر في عسكر ضخم فانحاز اليه .

وامتلأت أرض المصيخ بجثثهم حتى شبهوا بغنم مُصَرَّعَة. وكان عدي بن



خريطة رقم (٢٢) – معركة المصيخ

حاتم من رواة هذه العملية مما يفيدنا اشتراكه وبني طيء فيها. ومضى فارسنا القعقاع بن عمرو كعادته يدندن بشعره :

سائل بنا يوم المصيخ تغلبا وهل عالم شيئاً وآخرُ جاهلُ
طرقناهم فيها طروقاً فأصبحوا أحاديث أفناءِ تلك القبائلُ

حدث في هذه الغارة

تزوج حرقوص بن النعمان، وكان يعرّس بعروسه أم تغلب من بني هلال، وقد جلس معها وحوله بنوه قد أحاطوا بجفنة خمر وهم عاكفون عليها يشربون وهم يقولون له : « ومن يشرب في هذه الساعة من آخر الليل ؟ » قال : « اشربوا شرب وداع فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها ، هذا خالد بعين التمر وجنوده بحصيد ، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا » ، ولم يكن بعد يشعر بوصولهم . ثم أنشد يقول :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر
بُعَيْدَ انتفاخ القوم بالعَكَرِ[1] الدَّثْرِ
وقبل منايانا المصيبة بالقدر
لحينٍ لَعَمْري لا يزيدُ ولا يَحْرِي[2]
ألا فاسقياني قبل جيش أبي بكر
لعل منايانا قريب ولا ندري
ألا فاسقياني بالزجاج وكررا
علينا كُمَيْتَ اللون صافيةً تجري
أظن خيول المسلمين وخالداً
سَتَطْرُقُكُم عند الصباح على البشر

---

(١) العكر : الإبل الكثيرة ، والدثر : المال الكثير .
(٢) يحري : ينقص .

فهـل لكم بالسير قبـل قتـالهم
وقبـل خروج المعصرات من الخدر

أريـني سلاحي يا أميمـة إنـني
أخاف بيات القوم أو مطلع الفجر

وبينما هو كذلك يشرب ويرفع عقيرته وقد أخذت الخمر برأسه دهمتـه الخيلَ ، فأطاح سيف برأسه فسقط في جفنته ، وقُتلت عروسه وقتل أبناؤه ، وأخذت بناته[1] سبياً . كذلك قُتِل عُبادة بن البشر وامرؤ القيس بن بشر وقيس بن بشر وهم بنو الثورية من بني هلال .

وأصاب جرير بن عبد الله يوم المصيخ من بني النمر ، عبد العزى بن أبي رُهْم بن قِرْواش أخا أوس مناة ، كما أصيب لبيد بن جرير ، وكانا قد أسلما ومعهما من أبي بكر كتاب بإسلامهما . قال عبد العزى – وقد سماه أبو بكر عبد الله – ليلة الغارة :

أقول إذا طَرَق الصباحُ بغارةٍ — سبحانـك اللهم ربَّ محمد
سبحان ربي لا إلهَ غيرُهُ — رب البلاد ورب من يَتَوَرَّدِ

وبلغ أبا بكر قول عبد العزى وعلم بمصابه ومصاب لبيد ، فحزن عليهما ودفع ديتهما وقال : « أما إن ذلك ليس عليّ إذ نازلا أهل الحرب ، كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم » . وأوصى بأولادهما . وقد أخذ عمر هذه على خالد كما أخذ عليه قتل مالك بن نويرة .

---

(١) الطبري ٤/٢٥ س ش س ، عن عطية ، عن عدى بن حاتم .

الثني والزميل (١)

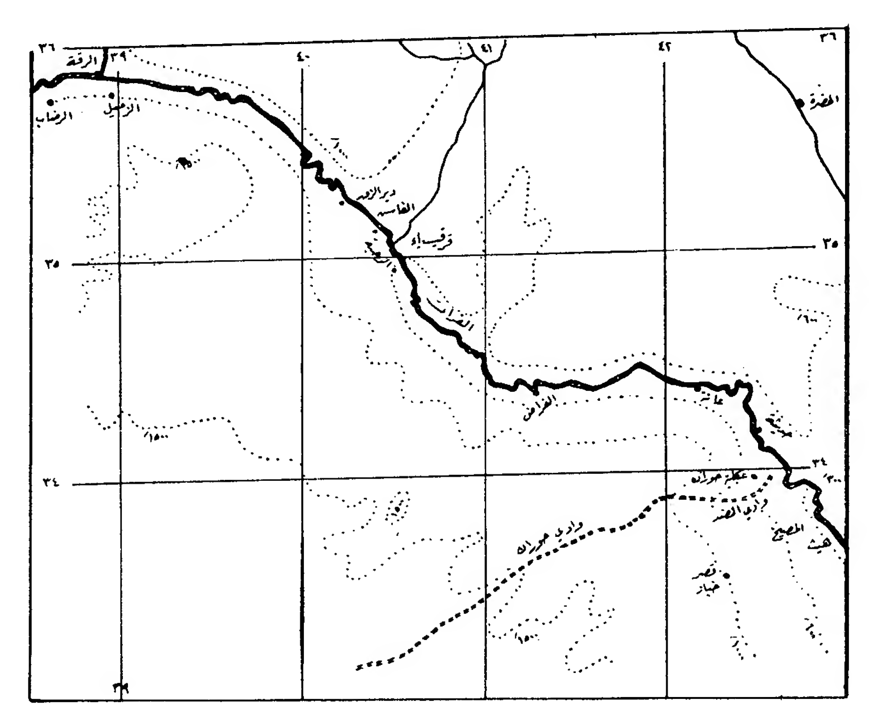
٢٣ شعبان ١٢ هـ — ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٣٣ م

حين نزل الهذيل بالمصيخ ، نزل ربيعة بن بجير التغلبي بالثني وبالبشر [في الزميل] ، وذلك غضباً لمصرع عَقّة في عين التمر وطلباً لثأره . وكان ربيعة والهذيل على اتفاق ومكاتبة مع روزبة وزرمهر . فلما هزم خالد أهل المصيخ قدّم القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فدكي ، فارتحلا أمامه وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة على أهل الثّني من ثلاثة أوجه كما فعل بأهل المصيخ. في هذا التاريخ تغرب الشمس بعد الخامسة بقليل بتوقيت عصرنا،ويخيم الظلام بحلول العشاء في حوالي السادسة والنصف بينما لا يشرق القمر إلا في حوالي

---

(١) الطبري ٤/٢٥ س ش س ، عن عطية ، عن عدي بن حاتم.

خريطة هذه المنطقة(ص٣٠٧)أخذناها عن خريطة العراق الأثرية، مقياس واحد الى مليون التي أصدرتها مديرية الآثار العراقية . وقد وجدنا موقع الزميل بها كما أثبتناه في الخريطة رقم (٢١)، غير أن الطبري يذكر أن الزميل هو البشر والثني معه ، وهما شرقي الرصافة . وفي معجم البلدان أن الرصافة [المقصودة هنا] بناها هشام بن عبد الملك غربي الرّقة . والرضاب : كانت موضع تلك الرصافة . وبناء على ذلك فقد حددنا موقع الرضاب مكان الرصافة ، وموضع الزميل : الى الشرق منها . كما حددنا مكان المصيخ على اربعة مراحل من عين التمر ،هي التي نص عليها الطبري في رواياته وهي مسافة تبلغ نحواً من ١٧٥ كيلومتراً ، فهي اذاً من الصحراء بنواحي هيت .



خريطة رقم (٢٣) – الزميل والرضاب ، مقياس ١/٤ مليون تقريباً

منتصف الليل ، ويستمر طوال الليـل ويكون في حـالة تربيـع . لقد كانت غارة المصيخ تجربة أولى، وهذه هي الثانيـة بنفس التكتيك والخطة ، اعتماداً على المفاجأة بغارة ليلية بالخيل في موعد واحـد متفق عليه من ثلاثة أوجـه تحصر القوم وهم نائمون .

وخرج خالد من المصيخ فقطع المسافة على أربعة منازل ، فنزل حوران . ثم خرج منها فـنزل الرنق . ثم خرج منهـا فنزل الحماة. ثم خرج منها فنزل الزميل [وهو البشر] والثني معه في المنزل .

وبدأ خالد بالثني فاجتمع حولها مع أصحابه ، ثم شنوا الغارة من ثلاث جهات وجردوا السيوف على من وجدوه فلم يفلت منهم أحد . وسبى خالد

الشرخ [الشباب] وبعث بالخمس الى أبي بكر رضي الله عنه بالمدينة مع النعمان بن عوف بن النعمان الشيباني .

وبمجرد أن أباد خالد أهل الثني لم يتوان حتى لا تسبقه الأخبار الى الزميل . وقد ساعده على ذلك أن لم يفلت من الثني أحد ، فقد كان أداؤها وتنفيذها خيرا من أداء موقعة المصيخ . وزحف خالد من الثني الى الزميل ، وكان بها عتاب بن فلان في جمع كبير ، وكان معه الهذيل منذ فر من المصيخ. وكان خالد قد أقسم يميناً من قبل ليبغتن تغلباً في دارها، فوفى يمينه يومذاك. وأعاد نفس التكتيك الناجح والخطة التي نفذها مرتين، في المصيخ وفي الثني، فشن عليهم الغارة في نفس الليلة - التي شن فيها غارته على الثني - من ثلاثة أوجه أيضاً، فقتل منهم كثيراً وأصاب وجيشه منهم ما شاؤوا. ثم بعث بالأخماس الى أبي بكر مع الصباح بن فلان المزني ، وكانت فيها الصهباء بنت ربيعة بن بجير الثعلبية وتكنى أم حبيب فصارت[1] الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وفي رواية أنها كانت من سبي عين التمر وأنها ولدت لعلي عمر الأكبر ورقية .

وعلم خالد أن هلال بن عقة في جمع آخر بالرُّضاب[2] ، غير أنه ما بلغها حتى كانت الأخبار قد سبقته فانفض عن هلال أصحابه ونزح هلال عنها ،

---

(١) الطبري ٣/٦١ ٢ .

(٢) الرضاب : موضع الرصافة التي بناها هشام بن عبد الملك فيما بعد غربي الرّقة، وهي الى الغرب من البشر والثني ، ويتحدد موقع الرضاب تبعاً لذلك بتحديد موقع الرصافة . قال ابن خرداذبه : من الرقة الى الرصافة أربعة وعشرون ميلا (٤٤ كيلومتراً) ، ثم الى الزراعة اربعون ميلا... وذكر بعد الرصافة مائة وثلاثين ميلا (٢٤٠ كيلومتراً) الى حمص [المسالك والممالك ٩٨] كما ذكر الرصافة من كور قنسرين [٧٥] . وقال قدامة بن جعفر : من الرصافة الى الرقة ثمانية فراسخ (٤٤ كيلومتراً) [الخراج وصنعة الكتابة ٢١٧ و ٢١٨] .

فلما وافاها خالد لم يجد بها شيئاً . الى هنا وكان خـالد قد ابتعد عن الحيرة بحوالي ثمانمائة كيلومتر فبدأ يعود ، وفي ذلك قال :

طلبنا بالرضاب بني زهـير ... وبالأكناف أكناف الجبـال

فلم تزل الرضاب لهم مقاماً ... ولم يؤنسهم عند الرمال

فإن تثقف أسنـّتنا زهيراً ... لكف شريدهم أخرى الليالي[1]

---

(١) معجم البلدان .

الفراض [1]

١٥ ذي القعدة ١٢ هـ - ٢١ يناير (كانون الثاني) ٦٣٤ م

والفراض الى الجنوب الشرقي في طريق العودة على تخوم الشام والعراق والجزيرة . والشام والجزيرة كانتا في قبضتي الروم، وقد كان إيغال خالد حتى الرضاب توغلاً في أرض يحكمها الروم . وفي الفراض اجتمع خالد بباقي قواته التي خلّفها في اندفاعته نحو الزميل والرضاب . وأدركه شهر رمضان [2] وهو بالفراض فأفطر والمسلمون . فلما تمت جموع المسلمين بالفراض ونما علمهم الى الفرس والروم وعرب تغلب وإياد والنمر بدأ تجمعهم . والظاهر أن الروم هم الذين تبنوا هذه الموقعة ، فقد اغتاظوا حين نخر خالد تلك التخوم مخترقاً

---

(١) الطبري ٢٥/٤ س ش س ، عن عطية ، عن عدي بن حاتم . ويذكر الطبري : أن الشعراء أكثروا النظم في الفراض وما كان قبلها .

(٢) تنص الروايات على أن شهر رمضان أدرك خالداً والمسلمين بالفراض، ومن هنا أقتنا مواقيت ما كان قبلها بين الأنبار [التي كان في سبتمبر (ايلول) - رجب] الى الفراض، وهي فترة قصيرة كثرت فيها الوقائع المتباعدة المسافات، الأمر الذي ييسر علينا تقدير مواقيت لها قريبة من الدقة. ثم تنص رواية ظفر بن دهي والمهلب بن عقبة ، أن خالداً اقام بالفراض بعد الموقعة عشرة ايام ثم أذن في الرحيل لخمس بقين من ذي القعدة ، فكأنما حددا تاريخ الموقعة بالخامس عشر من ذي القعدة ١٢ هـ .

حدودهم ، واستعانوا بمن يجهتهم من الحاميات الفارسية كما كتبوا الى من والاهم من العرب شرقي الفرات، فقدمت أمدادهم عليهم وتحركوا تجاه خالد حتى إذا كان الفرات بينهم ، هم تجاه الجزيرة وخالد تجاه صحراء السماوة ، قالوا له : « إما أن تعبر الينا أو نعبر اليكم » . قال خالد : « بل اعبروا الينا » . ولا شك أن عبورهم كان أفضل لخالد حيث ينقطع عليهم خط الرجعة . فطلبوا من خالد أن يتنحى حتى يعبروا . قال : « لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا » .

وكان من الروم والعجم من له إدراك وتمييز للأمور. فقال بعضهم لبعض : « احتسبوا ملككم ! هذا رجل يقاتل عن دين وعقل وعلم . والله ليُنْصَرَنّ وَلَنُخْذَلَنّ » .

ومع ذلك فقد عبروا أسفل من خالد بهذه الروح المشبعة بالهزيمة . ثم طلبت الروم أن يتميز كل جند حتى تظهر مواقفهم ، فتميز الروم عن الفرس عن العرب . ثم التحموا واقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً واجه فيه خالد لأول مرة وآخر مرة قوات مشتركة من العجم والروم والعرب ، وبدأت الكفة تميل في غير صالح الحلفاء وبدؤوا يتضعضعون . وأصدر خالد أمره : « ألِحُّوا عليهم ولا تُرَفِّهُوا عنهم » .

فكان فرسان المسلمين يحشرون الزمرة [الجماعة] منهم بالرماح فإذا جمعوهم قتلوهم . فقتل المسلمون يوم الفراض في المعركة وفي المطاردة بعدها مائة ألف [1] في رواية جميع المؤرخين .

---

(١) الطبري ٤/٢٦ س ش س ، عن محمد وطلحة .

وشاركهم[في الرواية]عمرو بن محمد،عن رجل من بني سعد،عن ظفر بن دهي والمهلب بن عقبة. وقد كان ظفر بن دهي دليلاً من أدلاء تلك الصحاري ، ونذهب من روايته لأخبار هذه المعارك انه كان ممن شهدها .

وفي الفراض قال القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع رومٍ   وفُرسٍ غَمَّها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا   وبيَّتْنا بجمع بني رزام
فما فتئت جنود السلم حتى   رأينا القوم كالغنم السوام

ثم أقام خالد بعد المعركة عشرة أيام بدأ بعدها رحلة العودة . بدأها في ٢٥ ذي القعدة ١٢ هـ — ٣١ يناير (كانون الثاني) ٦٣٤ م الى الحيرة . فأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالناس وجعل شجرة بن الأعز على المؤخرة . وأظهر خالد للناس أنه في المؤخرة . ولكنه أضمر أمراً .

الباب الحادي عشر

ختام مرحلة

خالد يحج

(٢٥ ذي القعدة ١٢هـ – ٢٣ ذي الحجة ١٢ هـ)

٣١ يناير (كانون الثاني) ٦٣٤ م – ٢٨ فبراير (شباط) ٦٣٤ م

سار الجيش من الفراض نحو الحيرة وعليه عاصم بن عمرو التميمي ، ومن وراء الجيش سارت مؤخرته وعليها شجرة بن الأعز ، وجميع من بالجيش يعلم أن خالداً يسير مع المؤخرة . ولكن خالداً لم يكن في المؤخرة ولا كان في الجيش كله ، وإنما خرج من العراق سالكاً طريقاً هو أكثر الطرق استقامة من الفراض الى مكة ليدرك الحج !

لقد أسلم خالد في العام الثامن للهجرة ، وفي نفس العام كان فتح مكة ، ولكن رسول الله ﷺ لم يحج من عامه ذاك وإنما عاد الى المدينة ، وحج بالناس عتاب بن أسيد . وفي العام التاسع أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج ولم يحج هو بنفسه ، ولكنه حج في السنة العاشرة حجة الوداع . ولم نقف على ما يدلنا إن كان خالد قد حج إحدى هاتيك الحجج، ولكننا ندرك ونحس أنه حين يحج رسول الله ﷺ ، فإن اكثر صحابته يحجون معه ، وإذا لم يحج كان المتخلفون أكثر . فمن الجائز ألا يكون خالد قد حج في العام

الثامن أو التاسع ، ولكننا نرجح أن يكون قد أدى الحج في العام العاشر . أما العام الحادي عشر فمن المؤكد أنه لم يحج فيه ، إذ كان مشغولاً حينذاك بأمر مسيلمة وردة بني حنيفة . وأيّاً ما كان فالظاهر أن خالداً كان يتجه في عبادته لله نحو الجهاد أكثر مما كان يتجه نحو المناسك والشعائر ، وبالرغم من أن ذلك هو ما كان يتفق مع ميوله واتجاهاته ، يبدو أنه لم يكن راضياً عن ذلك تمام الرضى ، فقد صلى إماماً بالمسلمين في الحيرة ، فقرأ القرآن من سور شتى ثم سلّم، والتفت الى الناس يبرر لهم ذلك ويعتذر[1] عنه، فقال : « شغلني الجهاد عن كثير من قراءة القرآن » . أما في هذا العام الثاني عشر ، فإنه أول موسم حج بعد خروجه الى العراق وبعد ما فتح الله عليه ، أفلا يحمد الله ويشكره ويتقرب اليه بأداء فريضة الحج ؟ كان خروج خالد من الفراض في الخامس والعشرين من ذي القعدة، والوقوف بعرفات بعد أسبوعين لا أكثر ، هما كل فرصته لبلوغ مكة وإدراك الموسم ، وإن مكة لعلى مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلومتراً من الفراض، ولكنه خالد وقد عزم ، فجد السير ، ولا بد أن ذلك كان بالخيل . قال الرواة [2] : « يعتسف [3] البلاد حتى أتى مكة بالسمت [4] ، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا ريبال[5] . فسار طريقاً من طرق أهل الجزيرة ، لم يُرَ طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه ، فقطع طريق الفراض ، ماء العنبري، ثم مِثْقَباً[6] ، ثم انتهى الى ذي

---

(١) عبقرية خالد .

(٢) الطبري ٤/٢٦ نفس السند .

(٣) العسف : الأخذ على غير الطريق — مختار الصحاح .

(٤) السمت : الطريق — مختار الصحاح .

(٥) الريبال: الأسد الشجاع .

(٦) قيل : طريق العراق من الكوفة الى مكة ، يقال لها : مِثقب . وقيل : طريق ما بين اليمامة والكوفة — معجم البلدان .

عِرْقٍ فشرّق منها ، فأسلمه الى عرفات من الفراض ، وسمي ذلـك طريق الصّد » .

ومن حيث أن وادي الصد [وهو وادي حوران] ، يبدأ من شمالي هيت عند خط عرض ٣٤ شمالاً من غرب الفرات، ويوغل في صحراء السماوة جنوباً بغرب نحو الشام ، فإننا نعتقد أن خالداً قد اتجه في رحلته تلك من صحراء العراق إلى صحراء الشام عبر ذلك الوادي، ثم انحدر منها جنوباً الى الحجاز. يؤيد هذا ، أنه في نهاية الرحلة طلع على عرفات من غربها فشرّق إليها ، ولو اتجه من العراق جنوباً الى نجد لكان طلع على عرفات من شرقها ، فكان هذا أول عبور لخالد من العراق إلى تخوم الشام قبل عبوره الشهير بجيشه الذي عبر فيه بادية السماوة في مغامرته المعروفة .

ولم يكن خالد وحده ، وإنما كان في عدد من أصحابه ، وقد تكتموا الخبر عن كل الناس إلا من أخبره خالد بذلك من مؤخرة الجيش . حتى أبو بكر رضي الله عنه لم يعلم به ، ولم يخبره خالد ولم يستأذنه !

وقطع خالد ما بين الفراض إلى عرفات في أسبوعين على أكثر تقدير ، ولا بد أن يكون قد عاد من مكة الى الحيرة في أقل من ذلك ، حيث الحيرة أقرب إلى مكة من الفراض . وبذلك تكون غيبته عن العراق لا تتجاوز الشهر . فما وصل آخر الجند الى الحيرة [حوالي ٥٠٠ كيلومتراً من الفراض] حتى كان خالد قد وافاها ودخلها مع شجرة بن الأعز ، وخالد وصحبه محلقون رؤوسهم .

هل أخطأ خالد ؟

تصرف غريب من خالد . اعتبره بعض الناس غروراً ومغامرة ليس لها ما يبررها . وليس بوسعنا أن نقر خالداً على ما فعل ، ولكن التصرف على كل حال قد دل على ثقة خالد [١] برجاله ، كما دل على ثقته بنفسه، فقد كان

---

(١) عبقرية خالد .

يعلم أن في جيشه رجالاً من أمثال القعقاع والمثنى وجرير والأقرع وعاصم ومذعور وعدي ... فيه رجال صقلتهم التجارب وصهرتهم المعارك وعاشوا على ظهور الخيل وتحت ظلال السيوف والرماح ، فاطمأنت نفسه أن يخرج ليحج ثم يعود . كان هذا – بحق – هو رأي خالد في جنده ، وهو الذي وصفهم للفرس فقال : « جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ، وحين أدرك أن الفرس يدمنون الخمر ويحبونه قال : « جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

هذا من جانب . ومن جانب آخر ، نظن أن قائداً مثل خالد بما قام من أعمال وفتوح ، كانت تحتاج في كثير من مواقفها بل في كل خطوة من خطواتها الى قدر كبير جداً من القدرة على التصرف والمسؤولية ، علمته هذه المواقع أن يتصرف، ثم علمته أن يتصرف ، فنمت فيه حرية التصرف والقدرة عليها وترعرعت، حتى يكون لنا أن لا نفاجأ من مثله أن يمنح نفسه حرية التصرف في مثل هذا الحج مع ما صاحبه من اطمئنان الى رجال كانوا أهلاً لكل ثقة. كان أستاذهم في الميدان وهو أدرى بهم ، وكان وهو بالعراق يعتمد عليهم بعيداً عنهم . وقد تركهم مرة قبل هذه حين خرج إلى دومة الجندل، وغاب عنهم نحواً من شهر أيضاً .

بطبيعة الحال، لقد عرف أبو بكر فيما بعد بما فعل خالد دون أن يستأذنه ودون أن يلقاه في الحج ، وقد كان أبو بكر على الموسم . لكن خالداً اندس وأصحابه بين الناس حتى قضوا مناسكهم ، ثم انفلتوا راجعين . وكلم عمر بن الخطاب أبا بكر ليعزل خالداً . وما كان لأبي بكر أن يعزل خالداً ، وقد حقق الله على يديه من النصر ما قد تحقق . كان أبو بكر رضي الله عنه – وقد جمع الى مواهبه جميعاً مواهب حربية – كان شديد الإعجاب بخالد .

قال : « لا أشيم [1] سيفاً سله الله على الكفار » .

---

(١) شِم سيفك: اغمده. وشِمتُ السيف: سللته، فهو من الأضداد ـ الكامل للمبرد ١/١٤٦.

مفاجأة لخالد

ماذا في الميدان الغربي

لعلنا لم ننس أن أبا بكر حين استعمل خالد بن الوليد قائداً لجيشه الأول من جيوش قمع الردة ، استعمل خالد بن سعيد قائداً للجيش السادس ووجهه إلى الحمقتين من مشارف الشام . ولقد عرضنا فيما سبق لخطوات خالد بن الوليد منذ فرغ من أمر الردة ودخل العراق . وفي نفس الوقت الذي كان خالد بن الوليد يلج أبواب العراق كان خالد بن سعيد يتقدم بجيشه على أرض الشام ، غير أنه تورط فيما يجهل من أرضها فانقض الروم على جيشه على غرة منه وهزموه وارتدت فلوله نحو بلاد العرب . فأرسل أبو بكر بدلاً منه أربعة جيوش أخرى .

كان عمرو بن العاص بقضاعة على طريق الشام فأرسله الى أيلة وهي مكان إيلات اليوم [العقبة] .

وأرسل يزيد بن أبي سفيان الى الشام في الاتجاه الذي كان موكولاً الى خالد بن سعيد .

وأرسل شرحبيل بن حسنة الى الأردن .

وأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح الى حمص وجعله أميراً على الجيوش كلها إذا اجتمعت .

هـذا الترتيب في اتجـاه كل جيش من الجيوش الأربعة هو المعروف اليوم باسم حركة مروحـة [بينما كانت خطـة أبي بكر لغزو العراق على أساس حركة كماشة] . كل جيش من هؤلاء بلغ سبعة آلاف .

وجمع الروم مائتين وأربعين ألفاً لملاقاتهم .

وجهوا تسعين ألفاً منهم بقيادة تيودريك الى عمرو بن العاص .

ووجهوا ستين ألفاً بقيادة فيقار الى أبي عبيدة .

ووجهوا أربعين ألفاً بقيادة دراكس الى شرحبيل .

ووجهوا خمسين ألفاً بقيادة جورج تدرا [تيودور] الى يزيد بن أبي سفيان.

وجعل هرقل مركز قيادته في حمص .

وشق الأمر على المسلمين ، فأشار عمرو بن العاص باجتماعهم — وهو بهـذا الرأي يلغي استراتيجية المروحة — وجاءهم كتاب من أبي بكر بنفس رأي عمرو . وتجمعت قوات المسلمين على الضفة اليسرى لليرموك ، بينما تجمعت قوات الروم قبـالتهم على الشاطىء الأيمن يقودهم تيودريك على حـوالي ستين كيلومتراً من التقاء اليرموك بنهر الأردن . واتخذت قوات الروم مكانهـا في أرض منبسطة تحيط بها الجبال الشاهقة من ثلاث جهـات عند واقوصة . ثم عبر المسلمون الى الضفة اليمنى لليرموك ، فنزلوا أرضـاً منبسطة تقفل الطريق المفتوح لجيش الروم فحصروهم بين الجبال . وأقـام الفريقان على ذلك شهرين كاملين حتى طلب المسلمون المدد من أبي بكر .

وعلى أثر انصراف خـالد من الحج الى الحيرة ، كتب اليـه أبو بكر [١] رسالة جاء فيها :

---

(١) — الطبري ٤/٢ ٤ س ش س ، عن محمد وطلحة والمهلب .
— عرجون ٢٣١ .

« ... أن سر بنصف الناس حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا [تعبوا وأتعبوا] .

وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشْجِ الجموعَ من الناس بعون الله شجيك ، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك .

فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة . فأتم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتخذل وإياك أن تُدِلّ [تغتر] بعمل ، فإن الله له المن وهو ولي الجزاء .

دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه ، ثم امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين .

وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة . واستخلف على العراق المثنى بن حارثة في النصف الباقي . ولا تأخذن نَجْداً إلا خلفت له نجداً . فإذا فتح الله عليكم فارددهم الى العراق وأنت معهم ثم أنت على عملك .

والسلام عليكم ورحمة الله » .

كتبه في صفر ١٣ هـ — ابريل (نيسان) ٦٣٤ م .

احتاج الشام الى خالد

سحب أبو بكر خالداً من العراق إذاً ووجهه الى الشام في الوقت الذي أوشك فيه أن يزحف الى المدائن ، وقد فض جميع حصون الفرس وفرّق جموعهم وبدد جيوشهم في كل مكان غربي دجلة، ولم يبق إلا عبور دجلة. فهل نقل أبو بكر خالداً من العراق عقاباً له على فعلته ليحرمه شرف فتح المدائن؟

هذا ما تقوله بعض الروايات :

« ... وكانت عقوبته إياه أن صرفه الى الشام » .

« ... يقاربه ويباعده ... » .

ولكن هل يضر الخليفة بمصالح المسلمين وقد صار وشيكاً أن تقع المدائن في قبضتهم من أجل عقاب شخص مهما كان وضعه ومهما كانت منزلته؟ بعبارة أكثر صراحة، من أجل عقاب خالد ؟ لا يسعنا أبداً أن نصدق هذا.ولكننا نرى أن الحالة في الميدان الغربي بالشام كانت في حاجة الى خالد بن الوليد . على الأقل كان الشام أحوج اليه من العراق . ففي العراق اتصلت العمليات من نصر الى نصر ... لم يخسر المسلمون معركة واحدة . واستتب لهم ما بين مدينة الرسول الى ما يقرب من مدائن كسرى . أما في الشام فالموقف جد مرتبك وليس لجيوش المسلمين فيه حيلة . وإذاً فإن الشام في حاجة الى مدد جديد والى عقل جديد ...

في حاجة الى ذهن حربي جديد ...
في حاجة الى قائد ذي فكر وعلم بالحرب ...
في حاجة الى من ؟.. الى خالد بن الوليد .

إذ ذاك قال أبو بكر : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وكتب الى أبي عبيدة بن الجراح في الشام :

« سلام الله عليك . أما بعد . فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإني لم أبعثه عليك ألا تكون عندي خيراً منه ، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك خيراً والسلام » .

نستبعد إذاً الرأي الذي ذهب الى أن الأمر كان عقاباً لخالد . ولو كان عقاباً لخالد فهل كان عقاباً أيضاً لنصف جيش المسلمين بالعراق ؟ إنما اكتفى أبو بكر من العقاب بتوجيه اللوم في الرسالة التي ذكرنا . ولو كان الأمر عقاباً لما أمر أبو بكر خالداً أن يرجع الى العراق بعد أن يفرغ من فتح الشام، ولما كتب له تلك الرسالة التي يفيض كل حرف فيها بالتقدير لخالد والاعجاب به.

رحيل ورحلة [1]

صفر ١٣ هـ – ابريل (نيسان) ٦٣٤ م

إعداد للرحيل

بدأ خالد يستعد للرحيل عن العراق ، فبعث بأخماس المعارك الأخيرة الى أبي بكر مع عمير بن سعد الأنصاري [2] ، وأيضاً بأخبار مسيره الى الشام . ودعا خالد أدلـّة الطريق وشرع يقسم الجيش الى شطرين كأمر أبي بكر ، شطر يخرج معه وشطر يبقى مع المثنى . وبدأ بأصحاب رسول الله ﷺ فاستأثر بهم ، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة . ثم نظر فيمن بقي فاستأثر بمن كان قدم على النبي ﷺ وافداً أو غير وافد ، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة . ثم قسم الجند بعد ذلك نصفين .

ونظر المثنى الى قسمة خالد ثم رفضها وقال لخالد :

« والله لا أقيم إلا على إنفـــاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم ، فكيف تعرّيني

---

(١) الطبري ٤٢/٤ س ش س ، عن محمد وطلحة والمهلب .

(٢) راجع ترجمة عمير بن سعد الانصاري في آخر الكتاب .

منهم ؟ » كان خالد يعلم أن هذا أمر أبي بكر ، ولكنه تلكأ عسى أن يتهاون المثنى في ذلك . وما دام قد قبل بعض النصف من الصحابة وقد كان من حقه النصف كاملاً ، فلعله أن يقبل مزيداً من التنازل. غير أن المثنى أصرّ على ذلـــك فترك له خالد نخبة منهم حتى أرضاه . وكان فيمن عوضه فرات [1] بن حيان العجـلي ، وبشير بن الخصاصية والحـارث بن حسان الذهليان ، ومعبد بن أم معبد الأسلمي ، وهو الذي ثبط أبا سفيان يوم أحد أن يعود الى المسلمين ، وعبد الله بن أبي أوفى [2] الأسلمي ،والحارث بن بلال المزني وعاصم بن عمرو التميمي. وكان ممن خرج مع خالد الى الشام : القعقاع بن عمرو التميمي ، وعدي بن حـــاتم الطائي [3] ، وضرار بن الخطاب ، وضرار بن الأزور الأسدي، وعياض بن غنم، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وجرير بن عبد الله الحميري [من قضاعة] ، وجرير بن عبد الله البجـلي ، وحنظلة بن الربيع التميمي الكاتب . كما كان معــه من أبطـال التابعين أمثال مرثد بن نجبة وأخوه المسيب بن نجبة الفزاريان [من ذبيان] ومعـاوية بن قرمل المحاربي [من عبد القيس] ، والربيـع بن مطر بن بلخ التميمي .

وكان في هذا الجيش :

٢٠٠ من بجيلة أكثرهم من أحمس .

١٥٠ من طيء .

٢٠٠ من دينار [من بجيلة] .

٣٠٠ من المهاجرين والأنصار .

---

(١) راجع ترجمة فرات بن حيان العجلي في آخر الكتاب .

(٢) راجع ترجمة عبدالله بن ابي اوفى الاسلمي في آخر الكتاب .

(٣) سير اعـلام النبلاء – الذهبي . قال : قدم الشام من العراق مع خالد بن الوليـد ، ثم وجهه خالد بالاخماس الى ابي بكر . واسد الغابة ٣٦٠٥ .

الخروج

بعد أن تمت هـــذه القسمة خرج خالد مع جيشه فمضى لوجهه . وقد اختلفت الروايات اختلافاً طفيفاً في موعد ذلك ، فمنهـا ما جعله في شهر [١] ربيع الأول ١٣ هـ ، ويطابق ذلك مـــا ذكره الطبري من أن مكث خالد بالعراق كان سنة وشهرين . ولكننا نرجح الرواية الثانيـة التي تذهب الى أن خروجه من العراق كان في صفر سنة ثلاث وعشر للهجرة ، وبتحديـد أدق أنه كان في أوائل صفر ، وقـد أخذنا بذلك لما يؤيده من رواية أخرى [٢] تقول إن خـالداً حين بلغ الشام أتى مرج راهط ، فأغار على غسان في يوم فصحهم،وبالبحث عن ذلك الفصح وجدناه كان يوم الأحد ٢٤ أبريل (نيسان) ٦٣٤ م الموافق ١٩ صفر ١٣ هـ ، وإذا فقد خرج خالد في صفر ١٣ هـ .

لم يستصحبوا معهم نساءهم وذراريهم وإنمـا أعادوهم الى مواطنهم [٣] على غير عادتهم . ولا شك أن العمل العظيم الذي جمع بينهما عاماً وبعض عام قد ألـّف بين قلبيهما وأقام بينهما من الأواصر ما لا بد كان ، فخرج المثنى مـع خالد يشيعه من الحيرة حتى قُرَاقر ، فمن يدري لعله لا يلقاه بعدها أبداً ، وهذا ما حدث بالفعل إذ كان ذلك آخر لقاء بين القائدين العظيمين من صحابة رسول الله ﷺ . سار معه حتى قـــال له خالد : « ارجع رحمك الله الى سلطانك غير مقصر ولا وان » . فتركه وعاد الى الحـيرة ليعيد تنظيم قواته التي صارت نصف ما كانت . ونعتقد أنها كانت نحواً من عشرة آلاف ، فقد كان أصل الجيش ثمانية عشر ألفـــاً انضم اليه جيش عياض بن غنم الذي لا نعرف عدده ، ولكنه على أي افتراض لم يكن ليقـل عن ألفين ، ولم تكن

---

(١) فتوح البلدان ٣٠٦ ، عن ابي مسعود الكوفي ، عن محمد بن مروان .

(٢) الطبري ٣٩/٤ .

(٣) الطبري ٤٤/٤، عن ابن حميد، عن سلمة ، عن محمد بن اسحق، عن صالح بن كيسان.

خسائر المسلمين في المعارك كبيرة ، إذاً فقد صار جيش خالد في العراق نحواً من عشرين ألفاً قسمه نصفين ، نصف سار معه الى الشام ، ونصف بقي مع المثنى بالعراق . ولا بد أن يكون المثنى قد أحس بفراغ كبير كان عليه أن يملأه ومن بقي معه ... ويا لها من مسؤولية .

الطريق

أراد خالد أن يتحرك بسرعة ، وأن يكسب الوقت فعبر مفازة السماوة وهي الصحراء الفاصلة بين العراق والشام، ذلك العبور المشهور الذي اتسم بالجسارة والجرأة . هذا الطريق الذي سلكه خالد بجيش المسلمين كان محل اختلاف الكتاب والباحثين . فبعضهم يرى أن خالداً خرج من الحيرة شمالاً الى عين التمر ثم الى قراقر ، ومنها عبر صحراء السماوة الى سُوَى على طريق الشام فيكون نزلها من شمالها. وبعضهم يقول إنه اتجه الى عين التمر[1] ثم الى دومة الجندل ومنها الى الشام ، فيكون دخلها من جنوبها ، هؤلاء يضعون قراقر على طريق الشام من دومة الجندل ويضعون سُوَى في صحراء الشام.

ونرى أن هذا الطريق الأخير هو الطريق الطبيعي بين جنوب العراق وبين الشام ، ولو اتبعه خالد لما أثار من التعليق ما أثار ، ولما وصف بالجرأة والجسارة . وهو طريق طويل ، وما دفع خالداً الى سلوك طريق خلاف المألوف سوى عجلته ، ومن المؤكد أن خالداً سلك طريقاً غير المألوف وغير الطرق الطبيعية ، فهو إذاً ليس طريق دومة الجندل . ونرى أن القائلين

---

(١) كان هناك طريق من عين التمر بالعراق الى بصرى بالشام ، ذكره ابن خرداذبه فقال : من عين التمر الى الاخدمية الى الخفية الى الخلط الى سوى الى الاجيفر الى الغرّبة الى بصرى [المسالك والممالك ٩٧] . هذا الطريق لم يكن ينطبق على الطريق الذي سلكه خالد بجيشه من العراق الى الشام حيث ان فيه من المواقع ما لم يرد ذكر مرور خالد عليه، كما جاء بالطريق الذي سلكه خالد ما لم يرد له ذكر في هذا الطريق الذي سجله ابن خرداذبه .

بسلوك خالد طريق دومة الجندل قد استندوا الى رواية أوردها الطبري [١] تقول : « ... ودعا خالد الأدلة فارتحل من الحيرة سائراً الى دومة، ثم طعن في البر الى قُراقِر ، ثم قال : كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين ...، ثم ركبوا من قراقر مفوزين الى سُوَى وهي على جانبها الآخر من جهة الشام ... » ساروا أربعة أيام وبعض الخامس، في اليوم مسيرة يومين [٤ × ٢ × ٤٥ = ٣٦٠ كيلومتراً من قراقر الى سُوَى] . هذه الرواية هي المعتمدة التي أدت الى القول بسلوك خالد عن طريق دومة الجندل ، لا نراها حجة في هذا الشأن ، بل نراها على العكس من ذلك – فهي تقول : « ارتحل من الحيرة سائراً الى دومة »، ولم تقل الى دومة الجندل ... والفارق بين دومة الجندل وبين دومة فرق بين مكانين . فدومة الجندل هي القرية ذات الحصون على خط عرض ٣٠ شمالاً ، وحوالي خط طول ٤٠ شرقاً ، التي تشرف على ملتقى طرق الحجاز الى الشام بطرق العراق الى الشام ، وهي التي بعث رسول الله ﷺ خالداً اليها من تبوك ، والتي أعاد خالد فتحها أثناء حروبه في العراق . هي دومة الجندل ذات الشهرة في التاريخ الإسلامي ، وهي التي انصرفت اليها الأذهان خطأً في طريق خالد من العراق الى الشام فحولته من الشمال الى الجنوب . أما دومة فهي مكان آخر بصحراء العراق ، ورد ذكره مرتبطاً بالأكيدر الكندي الذي كان صاحب دومة الجندل. وننقل هنا عبارة « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب صفحة ٢١١ » في وصفه لبقاع بلاد العرب . قال :

« ... ومنها دومة الجندل ، كان رجل اسمه الأكيدر في بلدة قرب عين

---

(١) الطبري ٤/٤٠ س ش س، عن عمرو بن محمد، عن اسحق بن ابراهيم، عن ظفر بن دهي [وكان دليلا] .

ومحمد بن عبد الله ، عن ابي عثمان . وطلحة ، عن المغيرة .

والمهلب بن عقبة ، عن عبد الرحمن بن سياه الاحمري .

التمر في العراق تسمى دومة ، وكان يزور أخوالاً له من بني كلب في أطراف الشام ، فبينما هو يسير في بعض الطريق ، إذ ظهرت له مدينة منهدمة لم يبق منها إلا بعض حيطانها ، وكانت مبنية بأرض تسمى الجندل ، فأعاد الأكيدر بناءها وغرس فيها الشجر ، وسماها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة العراق ، وكان بنو كلب ينزلونها ... وفي دومة الجندل من المباني العظيمة مارد وهو حصن للسموءل كان مبنياً من حجارة سود ... الخ » .

وفي رواية الواقدي[1] قال : « سمعت بعض أهل الحيرة يذكر أن أكيدر واخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم ، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل . فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل » .

وحين فتح خالد دومة الجندل في غضون فتوحه في العراق عام ١٢ ه وقع أكيدر بن عبد الملك في أسره فضرب عنقه . وفي رواية أخرى أن خالداً أرسله الى المدينة فظل بها أسيراً حتى أطلق عمر سراحه في خلافته ، فذهب الى العراق وأقام على مقربة من عين التمر بمكان اسمه دومة[2]. نخلص من هذا الى أنه كان هناك مكان اسمه دومة بنواحي عين التمر خلاف دومة الجندل المشهورة في التاريخ الإسلامي . دومة هذه هي التي عناها الرواة القدماء بلا ريب في سير خالد من العراق الى الشام وليست دومة الجندل . وهناك رواية أخرى أوردها البلاذري [3] عن الواقدي ، قال :

---

(١) فتوح البلدان ١٩٦ .

(٢) الفتح العربي للعراق وفارس ٩٩ .

(٣) فتوح البلدان ١٩٥ .

« لمـــا شخص خالد من العراق يريد الشام مر بدومة الجندل ففتحها وأصاب سبايا .. »

فهو بهذا يجعل فتح دومة الجندل في طريق خالد من العراق الى الشام ، ولم يضعها في موضعهـا من عمليات استنقاذ عياض بن غنم وإنجـاز مهمته ، وهي فيما نذهب اليه رواية مرجوحة منقوضة . ويزيدنا الواقدي إيضاحاً عن وجهة نظره في خط سير خالد فيقول: « إنه خرج من سُوَى الى الكواثِل،ثم قرقيسياء [على الفرات عند التقاء الخابور به] فخرج اليه صاحبها في خلق فتركه وانحاز الى البر ومضى لوجهه ، وأتى أركـة وهي أرك فحاصرها ثم فتحها صلحاً ، ثم أتى دومة الجندل ففتحهـــا ، ثم أتى قُصَم فصالحه بنو مَشْجَعَة من قضاعـة ، ثم أتى الى تدمر فتحصن أهلهـا ثم طلبوا الأمان ، فأمنهم على أن يكونوا ذمة ، ثم أتى القريتين فقاتله أهلهـــا ، فظفر وغنم ، ثم أتى حوّارين من سِنـير فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه، وجاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى وهي مدينـــة حوران فظفر بهم ، ثم أتى مرج راهط فأغار على غسان يوم فصحهم وهم نصارى، فسبى وقتل ووجه بسر بن أرطأة العامري من قريش وحبيب بن مسلمة الفهري الى غوطة دمشق فأغارا على قرى من قراهـــا ، وسار خالد الى الثنيّة التي تعرف بثنية العُقاب بدمشق فوقف عليها ساعة ناشراً رايته ... ثم سار حتى انتهى الى المسلمين وهم بقناة بصرى ، ويقال إنه أتى الجابية وبهـــا أبو عبيدة فالتقيا ومضيا جميعاً الى بصرى [١] » .

خط السير هـــذا نراه غير معقول بالمرة ، وهو أبعد عن العقـل من الخط الذي نفيناه سابقاً . وفي الخريطة رقم(٢٤) أثبتنا الخط الأول الذي لم نأخذ به — وقد أخذ به الدكتور محمد حسـين هيكل ، ثم نقله عنه اللواء الركن

(١) فتوح البلدان ٣١٠ .

محمود شيت خطاب وتناقله المؤلفون – كذلك أثبتنا بهـــا خط السير الذي نراه . ويؤيد وجهة نظرنا :

– أن الرواية التي يعتمد بها بين أيدينا تقول دومة ولم تقل دومة الجندل .

– أن دومة الجندل تقع على الطريق الطبيعي المألوف الى الشام . ومن المقطوع به أن خالداً قد تجنب ذلك الطريق .

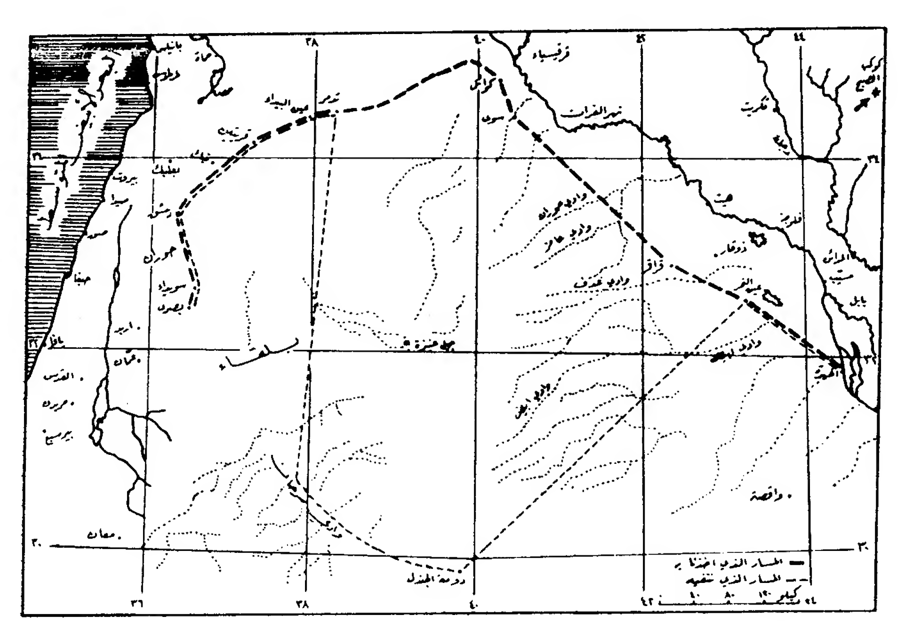
– أن من يريد أن يتخذ طريقه من الحيرة الى دومة الجندل لا يتجه شمالاً الى عين التمر [أنظر الخريطة] ثم الى قراقر وهـو واد بالسماوة من ناحيـة العـراق . قـال السكوني [١] : « قراقر ، وحنو قراقر ، وحنو ذي قار ، وذات العجرم ، والبطحاء كلها حول ذي قار » . ومن المؤكد أن ذي قـار بنواحي العراق وليست بنواحي دومة الجندل. ونقدر الموقع التقريبي لقراقر على خط طول ٤٢ وخط عرض ٣٣ .

– أن خط السير من الحيرة الى عين التمر الى دومـة الجندل الى تدمر ، هـذا الطريق حتى تدمر يزيد عن ألف ومائتي كيلومتراً طولاً ، ولا خلاف في أن خالداً بلغ نواحي تدمر في خمسة أيام ، بمعنى أنه سار في اليوم الواحـد مائتين وأربعين كيلومتراً على هذه الرواية، وهو رقم لا يقبله عقل إذ أن مسيرة الإبل في اليوم أربعاً وأربعين كيلومتراً ، وقد ورد أن خـالداً سار في اليوم قدر يومين يعني حوالي ثمانية وثمانين كيلومتراً ، وهذا أقصى ما يمكن للعقل أن يقبله .

– كان طريق جيوش المسلمين بالشام الى جزيرة العرب والى دومة الجندل طريقـاً مفتوحاً متصلاً ، ولو أخذ به خالد لما قال : « .. كيف لي بطريق أخرج فيـــه من وراء جموع الروم فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث

---

(١) معجم البلدان . وقال قراقر : المستوى من الارض الاملس الذي لا شيء فيه وهو واد لـكلب بالسماوة .



خريطة رقم (٢٤) – عبور السماوة

المسلمين.. » وإنما يدلنا هذا القول على أن خالداً سلك طريق الشمال إذ كانت الجزيرة تابعة للروم وبها حصون لهم وقواعد، ولقد مر بنا سابقاً اشتراكهم في معركة الفراض ، وكان الطريق المألوف من الشمال بين العراق والشام يحاذي نهر الفرات ويصعد معه الى قرقيسياء ثم يتجه منها الى تدمر ، فأراد خالد أن يتلافى أي التحام بهؤلاء قد يخرجه عن هدفه ويعطله عن بلوغ المسلمين بالشام قبل المعركة المرتقبة ، ولذلك قرر الابتعاد عن طريق الفرات واجتياز المفازة .

دليل من السماء

هذا ما ارتأى لنا من أدلة من حيث مطابقة الروايات على المواقع الجغرافية وعلى الأيام والتواريخ . ولقد ترك لنا الرواة من الروايات ما نستطيع به

أيضاً أن نتطلع الى السماء بحثاً عن مزيد من الأدلة التي تدعم وجهة نظرنا . فبين أيدينا روايتان ، إحداهما نقلاً عن الطبري والثانية عن ابن الأثير .

الرواية الأولى تقول إن مُحْرِز بن حريش المحاربي [أحد أدلة خالد] قال له : « اجعل كوكب الصبح على حاجبك الأيمن ثم أُمَّهُ [1] تُفْضِ الى سُوَى » فكان أدلهم [2] . والرواية الثانية تقول إن محرز بن حريش قال لخالد لما أراد أن يسلك المفازة من العراق الى الشام : « اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ثم أُمَّهُ حتى تصبح » . فجرب ذلك فوجده حقاً [3] .

ما كوكب الصبح هذا ؟

وهل نستطيع اليوم أن نعرف أي كوكب كان ؟

وإذا عرفناه فهل نستطيع أن نتعرف على وقت شروقه واتجاهه في سماء العراق بالنسبة لمن يراه من قراقر بنواحي عين التمر في التاريخ الذي انطلق منها خالد بجيشه ؟

إذا عرفنا ذلك فسوف نستطيع الإفادة منه وأن نبني عليه الكثير .

كتبنا بذلك الى دائرة المعارف البريطانية نسألها ، فأجابتنا مشكورة بالآتي :

« إن كوكب الصبح هو كوكب الزهرة . وأنه في عام ٦٣٤ م كان يُرى في اتجاه الشرق في برج الثور لمدة ساعتين قبل شروق الشمس . وأنهم حصلوا على هذه المعلومات من المختصين بمرصد أدلر بشيكاغو بعد أن لم يجدوا شيئاً في مراجعهم عن الموضوع » .

---

(١) اتخذه إماماً لك في سيرك ودليلا .

(٢) الطبري ١/٤ س ش س ، عن عبيد الله بن محفز بن ثعلبة ، عمن حدثه من بكر بن وائل ، أن محرز بن حريش قال ...

(٣) الإصابة ٨٣٦٩ ، قال : ذكر ابو اسماعيل الازدي في فتوح الشام ...

وأردنا المزيد من التفصيل فاتصلنا بالمسؤولين بمرصد حلوان، فتفضل السادة المختصون به [1] بمقابلتنا وشغلنا من وقتهم أكثر من ساعة في تفاهم وتدارس كانت حصيلته أنهم ابتداء يؤيدون ما جاء بخطاب دائرة المعارف البريطانية، ثم أضافوا التفاصيل الآتية :

إذا افترضنا أن خالداً بدأ رحلته من قراقر في الثالث عشر [2] من ابريل (نيسان) ٦٣٤ م الموافق ٨ صفر ١٣ هـ ، فإن كوكب الصبح الذي هو الزهرة يشرق من نقطة تقع شمالي مشرق الشمس بحوالي سبع درجات ، وأن الشمس تشرق في ذلك اليوم في اتجاه يقع شمالي الشرق الجغرافي بحوالي ست درجات [3] . ثم لفت الأساتذة علماء مرصد حلوان نظرنا الى عامل له أثره على تلك الاتجاهات في الزمن الطويل وينبغي أخذه في الاعتبار ، وهو تغير موضع القطب السماوي الأمر الذي تتغير معه زاوية شروق الشمس وكافة الكواكب . ولما قمنا بحساب ذلك [4] وجدنا أنه يضيف الى الزوايا السابقة حوالي ٢٤ درجة في اتجاه شمال الشرق، بمعنى أن يكون شروق كوكب الصبح في ذلك التاريخ على حوالي زاوية ٥٣ في اتجاه الشمال الشرقي [الشمال الشرقي الجغرافي ٤٥°] .

---

(١) الدكتور محمود خيري مدير المرصد ، والدكتور حسن عبد الرحيم ، والدكتور بليغ .

(٢) استناداً الى انه وصل الى ماء غسان بالشام في عيد الفصح ٢٤ ابريل (نيسان) ٦٤٣، وهو بين القريتين ودمشق [انظر الخريطة رقم ٢٤] .

(٣) اذا علمنا ان اتجاه الشمال الجغرافي هو زاوية صفر وتنطبق على ٣٦٠°، وأن اتجاه الشرق هو ٩٠° ، والجنوب ١٨٠° ، والغرب ٢٧٠° ، فان شروق الشمس بناء على ما ذكرنا اعلاه يكون في اتجاه زاوية ٨٤°، وشروق الزهرة يكون في اتجاه زاوية ٧٧° ، وذلك قبل ان نأخذ في اعتبارنا حساب تغير موضع القطب السماوي .

(٤) رجوعاً الى ما جاء عن حركة الارض بمجلة المعرفة – العدد الثامن .

بناء على ذلك ، إذا أخذنا برواية ابن الأثير التي تجعل الزهرة على الجانب الأيمن ، يكون خالد قد سار متجهاً الى غرب الشمال بحوالي سبع وثلاثين درجة ، يعني في الاتجاه الذي تقيسه البوصلة المغناطيسية اليوم برقم ٣٢٣ْ الى الشمال الغربي . وهو اتجاه معقول يطابق المسار الذي حددناه سابقاً ورسمناه على الخريطة . هذا الدليل الفلكي جعلنا نميل الى تحديد موقع قراقر داخلة في الصحراء شرقي خط طول ٤٢ بجهة ذي قار [كما ذكر السكوني] ، ويؤيدنا في هذا قول الرواة [١] : « ... ثم طعن في البر الى قراقر »، وهو تعبير فيه معنى الإيغال داخل الصحراء من عين التمر الى قراقر . ويتفق هذا مع بعض أجزاء رواية الواقدي التي ذكرناها سابقاً، إذ يقرر أن خالداً خرج من سُوَى الى الكواثل ، ثم أتى قرقيسياء ، فخرج اليه صاحبها في خلق فتركه وانحاز الى البر ، ومضى لوجهه وأتى أرك... الخ، فإن الاستدلال السابق بكوكب الصبح يقودنا بالفعل الى ناحية قرقيسياء .

أما اذا أخذنا برواية الطبري التي تجعل كوكب الصبح على الحاجب الأيمن، فإن هذا يقودنا الى أن يكون خالد قد سار متجهاً الى شرقي الشمال بزاوية قدرها ٤٠ْ ، وهذا يقوده الى داخل العراق ، وليس الى الشام . ولذلك نرى لزاماً أن نستبعد هذه الرواية ، وأن نعتبر رواية « الجانب الأيمن » هي الصحيحة ، وأن رواية « الحاجب الأيمن » تصحيف لها أخرجها عن صوابها.

وهناك شاهد آخر قد لا يرقى الى درجة الدليل،ولكنه قرينة لها دلالتها في هذه الرواية ، وهي أن محرز بن حريش يقال له المحاربي ، فهو ينسب الى بني محارب ، وهم من بني ربيعة ، وقد كانت منازل بني ربيعة بشرقي شبه

---

(١) الطبري ٤/٠٤س ش س، عن عمرو بن محمد، عن اسحق بن ابراهيم، عن ظفر بن دهي، ومحمد بن عبد الله بن ابي عثمان ، وطلحة عن المغيرة والمهلب بن عقبة عن عبد الرحمن بن سياه الاحمري .

الجزيرة من سواحل الخليج جنوباً الى نحو هيت بشاطىء الفرات شمالاً ، فإذا وجدنا الدليل محرز بن حريش من أهـل تلك المنطقة ، فهو أمر طبيعي ومنطقي ويساير ما ذهبنا اليه . ولكنه من غير الطبيعي ولا المنطقي أن يستخدم خالد دليلاً من ربيعة في رحلة تمر بدومة الجندل التي تبعد كثيراً عن ديارهم .

الى هنا ، ونترك خالداً في طريقه نحو ميدانه الجديد بالشام ، ونتناول نحن بشيء من النقد والتحليل هذه الحملة الموفقة التي قادها خالد لفتح العراق.

هذه الحملة

تحليل ونقد

مفاجأة استراتيجية

كانت الحروب التي اتصلت بين الفرس والروم تتخذ مساراتها بين الدولتين من خلال شمالي العراق ، وقد وقعت به بعض معاركها . ومن قبل عهد بني ساسان بقرون ، كانت جميع الحملات عـــبر المنطقة تتخذ نفس المسار الاستراتيجي ، فهو الذي عبره قمبيز من فارس الى الشام ، ثم الى مصر بعد ذلك في القرن السادس قبل الميلاد ٥٢٥ ق م ، وهو الذي سلكه الإسكندر الأكبر في طريقه من مصر الى الشام، الى شمالي العراق، الى فارس، نحو الهند في القرن الرابع قبل الميلاد ٣٣٤ — ٣٢٧ ق م [١] . وفي الحقيقة أنه لم يكن لهم سبيل سواه . وإذاً ، فقد سجلت حملة خالد بن الوليد أنها أول حملة في التاريخ لغزو العراق من جنوبه .

ويرجع ذلك الى الطبيعة الجغرافية للمنطقة ، فلا يقع جنوبي العراق إلا

---

(١) Oxford University - The Middle East .

شبه جزيرة العرب والخليج الفارسي . أمـا بلاد العرب فلم تكن في يوم من الأيام قبل الإسلام دولة حتى يكون لها تهديد لجيرانها ، وأقصى ما كان يطمع فيه بعض أهلها أن ينزل أرض العراق تابعاً للحكم القائم فيه ، وما وقع بـين العرب والفرس قبل الإسلام في ذي قار لم يكن غزواً وإنما كانت معركة من أجل الدفاع عن العصبية والشرف، فقد انتصر العرب بالفعل دون أن يكون لذلك أي أثر استراتيجي في المنطقة ، إذ اكتفوا باعتبار أنهم غسلوا العـار عن شرفهم وانتصروا لعصبيتهم ، ثم عادوا بعدها الى منازلهم . وأما الخليج فكانت سواحله فارسية أو عربيـــة خاضعة للفرس ، فهو خليج مؤَمَّن ، السلطان فيه لفارس وحدها دون منازع .

لذلك نعتقد أن حملة خالد بن الوليد كانت مفاجأة استراتيجية كبرى، إذ تركزت كل القلاع والحصون القويـة الى الشمال والشمال الغربي من العراق في حين لم يكن في الجنوب من الدفاعات الثابتة إلا ما قد أنشىء لصد غارات العرب الرحل مثـــل حصن المرأة وحصن الرجل وخندق سابور وحصون الحيرة ، وهو نقص كبير بالنظر الى أساليب الدفاع التي سادت في القرون الوسطى والقديمـــة والتي كانت تعتمد اساساً على الأسوار والقلاع والحصون القوية المستعدة لحصار طويل تفقد فيه القوات المهاجمة حماسها واندفاعهـــا وتستنزف مواردها المادية والمعنوية . هذا النقص إنما أدى اليه اعتبار الجنوب منطقة أمان لعدم قيـــام دولة به ، ولعدم حدوث أي تهديد سابق من هذه التخوم .

مفاجآت تكتيكية

كذلك أمسك خالد بزمام المفاجأة التكتيكية . والمفاجأة في تعريفهـا الحربي هي فعل ما لا يتوقعه العدو بما يوقع الارتباك في صفوفه ودفاعاته وفي تفكيره، فيشل ذلك التفكير أو يدفع صاحبه الى أن يقدم على تصرفات غير

مدروسة، مثال ذلك أن يستخدم تكتيكاً غير متوقع ، أو بتطوير أسلوب القتال ، أو استخدام سلاح جديد ، أو تطوير استخدامه . وقد تتحقق المفاجأة بالزمان أو المكان ، أو العدد ، أو كشف أسرار العدو ، أو بالخداع أو بالمبادرة ، أو بالسرعة والمرونة ، أو باختيار الهدف . والمفاجأة تكون استراتيجية أو تكتيكية. ولقد كانت حملة خالد في حد ذاتها مفاجأة للفرس، فبالرغم من أن المثنى قد بدأ مناوشتهم والاشتباك معهم قبلها ، ولكن يبدو أن حشد خالد لقواته قد تم دون انتباه الفرس ، إذ أنه حين زحف نحو الأبلة وبعث إلى هرمز بخطابه، خرج هذا الأخير للقائه على عجل في «سرعان خيله » بشكل يوحي بأثر المفاجأة عليه ، ولعله من أثر ذلك لم تتح له فرصة استكمال قواته . ثم نجد مفاجآت تكتيكية من خالد لعدوه في كمين الولجة ، وفي اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإبل العجاف ، وفي مفاجأته عقّة في عين التمر باحتضانه وحمله الى صفوف المسلمين أسيراً ، فهذا أسلوب في القتال لم يكن مألوفاً ، وفي الهجوم الليلي على عدوه وكبسه في المصيخ ، وفي الثني ، وفي الزميل في سرعة وخفة حركة لم تدع لهم فرصة أو مجالاً للتصرف أو القتال .

هذا ومن أعنف المفاجآت أن ترتد المفاجأة التي أعدها العدو بنفسه إلى نحره.ولقد استطاع خالد أن يفعل ذلك في كاظمة، حين طلب هرمز مبارزته مبيتاً الغدر، فأحبط خالد تدبيره بتدريبه العالي ولياقته البدنية التي لم يحسب هرمز حسابها . وكذلك في المقر ، حين فاجأ المجوس المسلمين بحجز الماء عن الفرات حتى جنحت سفنهم ، فتحرك خالد من فوره وفاجأ القوة التي كانت تحرس حجز الماء ، وأعاد جريانه ثم واصل سيره ، فكان من أثر ظهوره المفاجيء على أبواب الحيرة أن انسحب آزاذبه دون قتال نحو المدائن .

يقول العقاد : « لم يخف على خالد قط مقتل العدو من قوته الأدبية حينما عمل إلى هذا المقتل في منازلاته للمستبدين والطغاة . فإنهم في جيوش الأمم

التي طال عهدها بالظلم يرتفعون الى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم إلى مقام القطيع السائم . فإذا أصيب القائد في الجولة الأولى ، فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها ، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات [١] » .

تأمين الحملة

إن استيفاء أسباب الأمن عنصر هـام من أهم مبادىء الحرب التي يؤدي إهمالها الى كوارث محققة للجيوش . فمن واجب القائد ألا يترك ثغرة تتيح لعدوه أن يناله منها . ومن الأخذ بعنصر الأمن تعمية عيون الأعداء وحرمان عملائهم من أن ينبثّوا بين صفوفه أو يعرفوا شيئاً من أخبـاره أو أن يتبينوا أهدافه ، وأن يتحرى أخبار عدوه بكل وسيلة. وإن تدمير الطيران الياباني للاسطول الأمريكي في بيرل هاربر في الحرب العالمية الثانية مثال واضح لغفلة الأمريكيين التي أفقدتهم عنصر الأمن في تلك المعركة .

هذا وقد يكون لاختيار الهدف أثره على عنصر الأمن أو نتيجـة للأخذ به، وعلى سبيل المثال يرى بعض المحللين الحربيين أن هتلر تجنب الأخذ بعنصر الأمن بمهاجمته روسيا في الحرب العالمية الثانية ، وأنه لو كان اختار الشرق الأوسط وركز عليه جهوده لكان حقق لجيوشه الأمن ولكسب الحرب في رأي الكثيرين . وقد يكون اختيار الهدف للهدف ذاته ، وقد يكون لما بعده، كتحقيق الأمن للقوات أو للوصول الى أهداف أخرى تاليـــة كما حدد أبو بكر هدفه الأول بالحيرة كخطوة نحو هدفه الأكبر وهو المدائن .

ولقد كان واجب الحملة أن تغزو العراق ابتداء من الأبُلـَّة الى الحيرة في حين يغزوه عياض من المصيخ الى الحيرة ، وحينئــذ يتم تطهير غرب الفرات

---

(١) عبقرية خالد ١٨٣ .

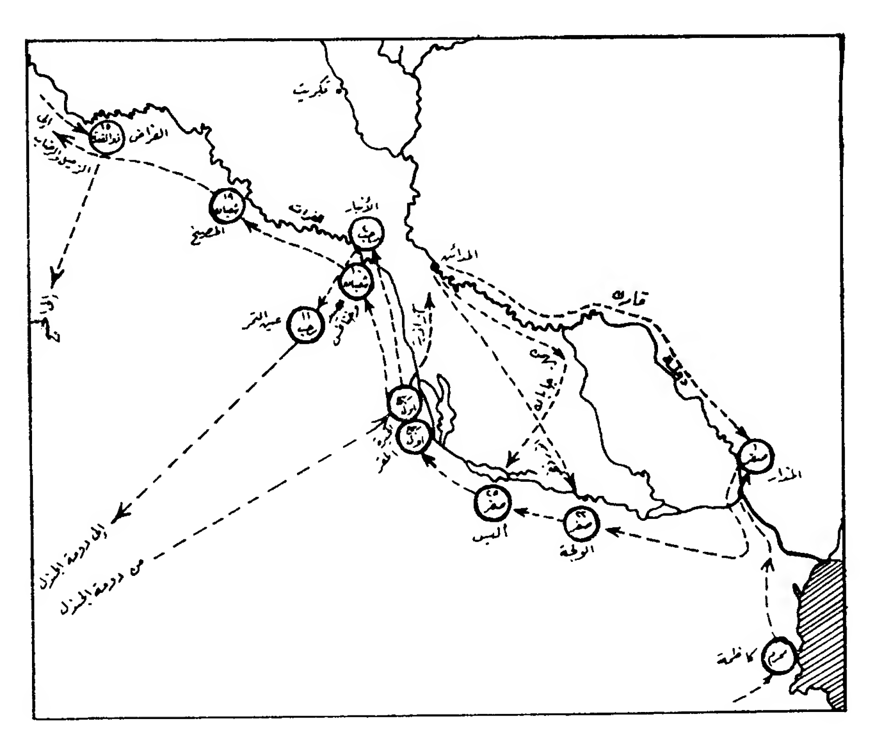
من كل قوات فارسية أو موالية للفرس ، وتكون جيوش المسلمين قد وقفت على حدود لا تبعد عن المدائن سوى خمسين كيلومتراً ، فيقوم أحدهما بعبور شبكة الأنهار الى المدائن على أن يكون الجيش الثاني عوناً له وحامياً لظهره. وتحرك خالد من النباج في العروض نحو الأبلة ، فكانت أولى معاركه في الكواظم. ومع ذلك فقد كانت طبيعة أرض العراق المليئة بالأنهار والمستنقعات والبطائح دفاعات طبيعية قوية كموانع مائية لم يألف المسلمون من قبل العمل خلالها، وإن كبرى الجيوش حتى الحديثة منها بما جهزت به من معدات خاصة وسلاح المهندسين لتهاب التورط في معارك العوائق المائية . وقد كان من الممكن للفرس أن يستفيدوا منها لو أن قادتهم قد فطنوا لذلك ، ولكنهم لم يفطنوا ، فاستطاع خالد في كل معاركه أن يستدرجهم الى القتال خارج هذه الموانع ، ودارت كل معاركه — فيما عدا المذار — على أرض الصحراء أو على حافتها .

وإذ شرع خالد في الزحف نحو الحيرة ، كان عليه وهو يشن هجومه أن يؤمن جيشه من أن يؤتى من أي اتجاه ، سواء من أمامه أو من خلفه أو عن يمينه أو عن شماله . ذلك ما يعبر عنه خبراء الحروب بعنصر الأمن . استطاع خالد أن يتحكم فيه فأمّن قواته في كافة عملياته، في حين عجز قواد الفرس عن تحقيقه ، فأتاحوا له أن يتمكن منهم المرة تلو المرة .

فمن حيث ما هو أمامه، كان دائماً يقدم مقدمة سريعة وقوية من الفرسان تسبقه في المسير كرأس حربة، هذه المقدمة كانت من بني شيبان عليها المثنى بن حارثة وذلك حتى الحيرة ، ثم كانت من بني تميم عليهم الأقرع بن حابس بعد الحيرة . وفي نفس الوقت حمى ظهره باستخلاف سويد بن قطبة الذهلي وقطبة ابن قتادة وشريح بن عامر وسويد بن مقرن على أسفل دجلة وشط العرب ، وليكون يقظاً لما قد يحدث في تلك الجهات إن حدث شيء .

ولقد بعث خالد بالمثنى بعد الكواظم لا لمطاردة الفلول فقط، بل ولتطهير

الجناح الأيمن للتقدم ، وما كان لقائد أن يواصل السير من جنوب العراق الى وسطه وشماله وجناحه الأيمن مكشوف ، فكانت موقعة المذار . كانت المذار شرقي دجلة ، وصل اليها المسلمون بعبور دجلة من موضع فوق شط العرب ،



خريطة رقم (٢٥) – عمليات خالد بالعراق ، مقياس ١/٦,٩٠٠,٠٠٠ تقريباً

فهي لم تكن على محور الأبلة – الحيرة المرسوم للتقدم ، غير أنها لم تكن خروجاً على استراتيجية الفتح التي وضعها أبو بكر والتزمها خالد، وإنما كانت من صميمها حيث كان عليه أن يوفر عنصر الأمن لجيشه المتقدم من أن يُضرب من جانبه الأيمن ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فلما أتم عمله بالمذار

شعر بخطر استمرار وجوده بها وجيوش الفرس تحاول أن تحصره وتأخذ عليه السبل، حيث لا مخرج، وتطبق عليه بفكي كماشة قوية من أمامـه ومن خلفه، وهو محصور عن يمينه بالمستنقعات الناتجة عن مياه دجلة وبعض أنهار الأهواز، وعن شماله بأنهار العراق وبطائحه . كان أمامه جيش بهمن جاذويه في حين كان أندرزغر يدور بجيشه خارجاً من السواد ، فلو اختار خالد الالتحـام ببهمن، أو لو بقي في المذار على سبيل الغفلة عما يجري أو التردد عما يتخذ حياله لكانت كارثـة . إن خطأ واحداً في وضع حساس أو موقف حاسم يتوقف عليه مصير جيوش ومصائر أمم ، ولذلك تعنى الدول أكثر ما تعني باختيار قادتها الذين تضع بين أيديهم أمانة الحفاظ على جيوشها وزهرة رجالها وصنع تاريخها . وكان خالد يدركها بسليقته الحربية، فبادر بالخروج من ذلك الموضع قبل أن يتحول إلى ورطة . وهذا ما لم يدركه خالد بن سعيد وهو يتقدم بالمسلمين في الشام فتبدد جيشه . فإذا تساءلنـــا عن السبب في أن الفرس لم يستطيعوا أن ينالوا من جيش خالد كما كان ينال منهم ، وجدنا الجواب في أن خالداً كان يؤمّن قواته في كل خطوة حتى يحول دون وقوع ما لا يريد هو ، في حين فات ذلك قادة المجوس .

مخابرات يقظة

إن الحصول على المعلومات يحقق هدفين ، هدفاً مباشراً وهو وضع خطة ضد العدو، وهدفاً غير مباشر هو توفير الأمن لجيوشنا ضد تحركاته وخططه، وبالتالي تجنب الوقوع في المفاجآت ، فالمعلومات ركن هام من أركان الأمن .

وقد كان خالد يتحرك ويضع خططه دائمـاً على أساس معلومات مسبقة تدل على نشاط مخابراته واستكشافاته في الميدان . والذي يظهر لنا في أكثر من موضع ، أن هذه المخابرات قد قام بتنظيمها القائد الفذ المثنى بن حارثة ، ولعله كان أقدر قادة الفتح على ذلك ، ليس فقط لألمعيته وقدرته الفائقة على

التنظيم ، وإنمـــا أيضاً لانتمائه الى بني شيبان من بكر بن وائل الذين كانت منازلهم بتخوم العراق وحوض الفرات وتمتد شمالاً إلى هيت ، فكانوا بحكم مساكنهم واتصالاتهم مادة صالحة لأن يكونوا عيوناً . فما وجدنا تحركاً لجيش من جيوش الفرس إلا وكان علمه عند المثنى في الوقت المناسب ، بل ومن بدء خروجه من المدائن ، وما من شاردة ولا واردة في بلاط فارس إلا وكان يعلمها في وقتها .

كذلك كان خالد يعتمد على استخباراتــه في الميدان . وكمثال لذلك حين اقترب من حصن الأنبار فقال : « إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها .. » من أين لخالد أن القوم لا علم لهم بالحرب وهم ما زالوا في حصنهم لم يلقهم ؟ لم يذكر الرواة لنا شيئاً عن ذلك ، والذي نحسبه أنهم وقفوا فوق أسوارهم معرضين أنفسهم لأن تنالهم سهـام المسلمين بدلاً من أن يستتروا خلف المزاغل . ولا يكاد النظر يسعفنا باستنتاج بديل . هذه الظاهرة لفتت نظر خالد فاستنتج منها معرفة وبنى عليهـا خطة ، ثم أمر جنده « .. فارموا رشقاً واحداً ثم تابعوا .. » رشقاً واحداً حتى ينالهم بأكثر إصابات قبل أن يتداركوا أمرهم . ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يفقأ لأهل الأنبار ألف عين .

مبادرة ومبادأة

وكان خالد يحرص حين يجد الفرس يقذفونه بالجمع تلو الجمع ، أن يبادر بالالتحام مع كل جمع على انفراد قبـــل أن يتم لقاؤهم ، ومن هنا كانت كثرة المعارك ، فكانت كاظمة ، ثم المذار ، ثم الولجة ، ثم أُلـَّيس ، ثم المقر ، ثم الحيرة . وكانت الأنبار ، ثم عين التمر . وكانت حصيد ، ثم الخنافس ، ثم المصيخ ، ثم الثني، ثم الزميل ، ثم الفراض. ومع كثرة المعارك ، ومع الكثرة العددية الساحقة للفرس وعملائهم من العرب الذين التحم بهم خالد ، لم يفلحوا

قط أن يحصروه أو أن يوقعوه في مأزق، ولم يمكنهم هو أبداً من ذلك بفضل مبادرته ومبادأتـــه والتزامه الهجوم دائماً . كان أسداً إذا احتاج الأمر إلى تأسّد ، ثعلباً إذا احتاج إلى ثعلبة . وهكذا الحرب مكر وقوة ، خطـــة وتنفيذ . وإلى هذا يلفت رسول الله ﷺ نظر المسلمين إذ يقول : « الحرب خُدعة » .

فالعمل الهجومي الناجح يؤدي إلى الحصول على المبادأة وحرية العمـــل وفرض الإرادة على العدو . والهجوم في حد ذاته ، يساعـد على رفع الروح المعنوية للمهاجم . قال نابليون : « لا تتخير الدفاع إلا في حالة عدم توفر ميزة المبادأة لديك ، وإذا أجبرت على الدفاع فيجب أن يكون دفاعـــك لكسب الوقت أو تركيز احتياطيك وإخراج العدو من قاعدة عملياته، على أن يكون هدفك دائماً هو الهجوم » . وكذلك كان خالد . كان أسلوبه أن يمسك بالفعل ، وأن يترك لعدوه رد الفعل . ووفقاً لرأي أكثر رجال الحرب أن الضربة الأولى تحقق ٥٠٪ من النصر ، فإذا تمكن بهـــا من شل قوى العدو ومنعه من الضربة الثانية ، فقد اقترب من ١٠٠ ٪ .

توفير الحشد والمرونة والسرعة

ولقد أظهرت هـذه الحملة المقدرة الفائقـة لخالد على الحشد ، والحشد هو إعداد كل الوسائل المعنوية والمادية من رجال وعتاد، في الزمان والمكان المناسبين لتوجيهها الى المعركة . لقـد كان خالد في ألفين حين نزل النباج ، وكان مع المثنى وأمراء الجند الذين انضموا اليه ثمانية آلاف ، فصاروا عشرة آلاف ، واستطاع خالد أن يحشد ثمانية آلاف أخر من ربيعة ومضر قبل أن يسير إلى كاظمة . هذه المقدرة على الحشد من أهم عوامل النجاح في الحروب ، ويظهر ذلك من المقابلة بين ما فعل خالد وما كان من أمر عياض بن غنم ، فإن عياضاً لم ينجح في أن يزيد قواته ، فاستعصت عليه حصون دومة الجندل حوالي سبعة أشهر حتى استعان عليها بخالد .

ولم يكن الأمر قاصراً على الرجال ، وإنما شمل وسائل الحملة أيضاً . وقد اتبع خالد الاستخدام التبادلي للخيل والإبل [يرجع إلى فصل الخيل من الجزء الأول] ، وقد ساعده على ذلك خفة المؤونة الإدارية [يرجع إلى بحث المطعم والمسكن من الجزء الأول] . وقد منحه هذا ميزة كبيرة على عدوه في خفة الحركة وسرعة تحريك القوات . وهذا العنصر – خفة الحركة – يكمل في الحرب الخاطفة عنصر المفاجأة ، فإن تأثير المفاجأة يكون وقتياً ، أما لكي يتم ويستمر فلا بد من تحريك قوات أكثر فاعلية الى الميدان الجديد للالتحام التالي قبل أن يفيق العدو من المفاجأة ويتخذ الموقف المناسب. وتتوقف خفة الحركة على سرعة القوات وحسن قيادتها وإدارتها وقدرتهـــا على المناورة . ويؤثر على هذا نوع الوسائل ومناسبتها للسير في كل أنواع الأراضي .

ولولا مرونة خالد لما تحقق له كثير ممـا نجح في تحقيقه من حشد . ومن المرونة سرعة اتخاذ القرار المناسب وفقاً لتطور الموقف ، وهنا نجـد أنه لا يكون ثمة فائدة من سرعة حركة الجيش إذا لم تقترن بمرونة القائد . ولولا سرعة حركة جيشه لما استطاع خالد أن يحشد أقصى ما لديـه من قوى في الزمان والمكان المطلوبين . وأخيراً لولا ذلك كله مجتمعاً لما أمكنه أن يمسك بزمام المفاجأة.ولهذا نرى بحق أن خالداً هو أول من ابتكر عمليات الصاعقة وأول من نظم واستخدم جيش الصاعقة ، وربمـا كان أيضاً أول من حقق الحرب الخاطفة بفضل ما اجتمع له من مرونة قيادته وخفـــة حركة جيشه، بالإضافة الى مبادرته المستمرة ، وهذا كله أتاح له أن يحشد أقصى ما لديـه من قوى ضد أهدافه .

اختيار التكتيك

يعد اختيار الهدف والمحافظة على الغرض من أهم مبادىء الحرب . ويتعلق باختيار الهدف تحديد الزمان والمكان والتكتيك المتبع للوصول اليه .

وقد نجح خالد نجاحاً باهراً في استخدام تكتيك التطويق في كمين الولجة ، وفي عين التمر ، وفي فتح دومـة الجندل ، وفي المصيخ ، وفي الثني ، وفي الزميل ، بحيث يحول بين عدوه وبين الانسحاب من الميدان حين يكون ذلك الانسحاب في صالحه .

هل كان كمين الولجة وحي الخاطر وتفكيراً مفاجئاً هبط على ذهن خـالد دون مقدمات تؤدي إليه ؟ هذا جائز ولا سيما من قائد مثل خالد ذي ذهن خصب لا تنفد له أساليب وحيل . ولكن ما دام أن العجم كانوا يعدون له كميناً ليطوقوه فيه ، وقد بادر بالخروج منه ، فالذي يغلب على ظننا ويهدينا إليه الفكر والتخمين ، أن فكرة التطويق بكمين في ذلك الحين بالذات إنمـا استوحاها من تدبير أعدائه ، التقط الفكرة منهم بليل فصبحهم بها وهم أبعد ما يكونون ظناً أن يفعلها بهم وهم يريدون أن يفعلوها به . يدعم ذلك أن خالداً لم يستخدم تكتيك الكمائن قبل الولجة قط .

لقد كان خالد يعرف دائماً ما هو أنسب تكتيك لمـــا هو بسبيله في كل معركة خاضها . فحين تقدم نحو الأبلة لا شك أنه كان يدرك أن دوران المعركة على أسوارها وفي طرقاتها ليس في صالحه لأنه يتيح لعدوه أن يقاتـل من وراء جدر ، فكانت رسالته إلى هرمز مخرجة له من مدينته ، وما كان لهرمز أن تصله رسالة كتلـك ، ثم ينتظر الغزو داخل مدينته . ولم تكن عنجهيته الفارسية لتسمح له بذلك ، فكان من شأن تلك الرسالة من خالـد إليه أن جعلته يسعى الى حتفه بظلفــه في عجلة من أمره ... جعلت هرمز يفعل ما هو صالح لخالد . هذا الذي يقال له : فرض أرض المعركة .

استغلال النجاح

يقرر العسكريون المطاردة كأصل من أصول الحرب ، ويفسرونها بأنهـا متابعة استغلال النجاح . ذلـك أن النصر في معركة يضع العدو في مركز

أضعف مما كان عليه قبلها مادياً ومعنوياً، مما يتيح فرصاً أكبر لتوجيه مزيد من الضربات الفعالة . ولما كان الغرض من المعركة غالباً هو سحق قوات العدو، فإن أول واجب للقوات المنتصرة بعد انكسار العدو هو القيام بعملية تشطيب (تمشيط) finishing لقواته المنهزمة والإيغال في أرضه وتخريب منشآته أو الاستيلاء عليها ما أمكن، وذلك قبل أن يتمكن من إعادة تنظيم قواته وتعويض خسائرها والتقاط أنفاسه ، فإن النجاح يمهد للنجاح كما وأن الفشل يفتح باب الفشل .

وفي هذه الحملة نجد قائدها يأخذ بهذا الأصل من أصول الحرب في ذات السلاسل وفي أُلَّيس وتخريب أمغيشيا ، وفيما بعد فتح الحيرة وفي حصيد وفي الثني من بعد المصيخ . وبالجملة فهذا واضح من السرعة التي كان خالد يكتسح بها أرض العراق ، فقد قطع ما بين كاظمة والحيرة في أربعين يوماً ، وكانت جميع عملياته في العراق في نطاق أربعة عشر شهراً ليس إلا، متضمنة فترة انتظار عياض وفتح دومة الجندل والخروج إلى عرفات لأداء فريضة الحج .

القيادة والادارة

كان خالد محباً لجنوده مقدراً لصفاتهم وميزاتهم عارفاً لها ، مقراً لهم بأفضالهم منصفاً لهم ، وفي هذا ما فيه من رفع معنوياتهم والاستحواذ على محبتهم وإحقاق العدالة فيما بينهم . وما أشد اعتزاز هذا القائد العظيم بجنده العظام إذ يصفهم لهرمز بقوله : « .. فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ، وقد أعادها في رسالة إلى ملوك الفرس ، كما وصفهم في رسالة ثالثة إلى مرازبتهم بأنهم : « .. يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » . ويظهر هذا الاعتزاز أيضاً حين بلغ كاظمة ، فقال لهم والماء في أيدي المجوس . « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » . مثل هذا الكلم الطيب من قائد عن جنده في الميدان

لا بد وأن يكون له أثر السحر . ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . نقول الحق ، لقد كان خالد عميقاً في علم النفس العسكري قبـل أن يخط أي أستاذ متخصص حرفاً في هذا العلم بقرون .

وليس هذا فحسب . لقد كان أيضاً آخذاً بعلم الادارة بمفهومه الحديث . ما هو علم الإدارة ؟ هو علم استخدام الموارد والوسائل المتاحة بأعلى كفاءة للحصول على أكبر نتيجة . ولقد رأينا كيف استخدم خالد كل ما استطاعت يداه أن تصل إليه ، تارة بالإبل وتارة بالخيل وتارة بالسفن ، وتارة بالنبال وتارة بالحرب النفسية وأخرى بالمخابرات ، والأهم من ذلك بمعاونيـــه . كل وسيلة فيما تصلح له وحين يحتاجها الموقف . رأينا من ذلك ما يغنينا عن إعادة ذكره . الإدارة هي فن تشغيل الغير لا مقدار ما يقوم به المسؤول بنفسه . فالمسؤول الفاشل هو الذي يحاول أن يقوم بعمل كل شيء بنفسه ، أو أن يتصور أنه يستطيع ذلك . ولا يتحقق الرقي في الإدارة إلا بمنح السلطة للمرؤوسين، وهو ما يسميه علم الإدارة الحديث « التفويض » وذلك بعد أن يتأكد من أن معاونيه يسيرون في الطريق السليم ، وبذلك يتاح له الوقت الكافي للتفكير والتدبير والتوجيـــه والإشراف والمراجعة . ومن الصفات الهامة الواجب توافرها في شخص المسؤول – قائداً كان أو مديراً أو وزيراً أو سوى ذلك – أن يكون قادراً على تفويض السلطة دون أن يفقد السيطرة. ولا يكفي في هذا مجرد الاقتناع به بل يلزم المقدرة على القيام به وقليل من يستطيعه .

ومن أسباب الفشل في ذلك :

١ – عدم ثقة المسؤول في مرؤوسيه .

٢ – عدم استعداد المسؤول تحمل المخاطر .

٣ – الخوف من أن يظهر المعاونون كفاءة تفوق كفاءة القائد .

ولم يكن خالد واحداً من هؤلاء .فحيث لا يوجد رجل ثان لا يوجد رجل أول ، والعمل الناجح هو الذي لا يشعر بغياب مديره وقائده . هذا ما يقرره علم الإدارة في أحدث ما وصل إليه ، وهذا ما فعله خالد بن الوليد .

كان خالد مدرسة في فن الحرب ، حرص على أن ينقل فنه وعلمه وتجربته إلى تلاميذه ، وكان يسره أن يراهم يتخرجون من كليته الحربية ، فنجد في معارك العراق كثيراً من الأسماء التي أبرزها خالد وأضفى عليها نوراً تضيء به . لقد لقنهم دروسه فوجد منهم من استوعبها وهضمها ، فرشحهم لقيادات ومنحهم من ثقته وأتاح لهم الفرصة ليثبتوا حسن رأيه فيهم ، بل لقد ترك لهم الميدان كاملاً شهراً في خروجه إلى دومة الجندل، وشهراً آخر في خروجه إلى مكة لأداء فريضة الحج . دعنا من القيادات التي ظهرت وبرزت مستقلة عن تكوينه وتربيته ، مثل المثنى والقعقاع وعاصم بن عمرو ، ولا بد أن يكونوا أيضاً قد تأثروا به ، فعملهم معه جزء هام من تجربتهم ، ولكننا نعني أمثال أبي ليلى وأعبد ابني فدكي السعديين والأقرع بن حابس وبسر بن أبي رهم الجهني وسعيد بن مرة العجلي وضرار بن الأزور الأسدي وضرار بن الخطاب الفهري وعدي بن حاتم الطائي وعروة بن الجعد البارقي وعصمة بن عبدالله الضبي . لقد كان بعض هؤلاء بارزين مشهورين كزعماء في أقوامهم ولكنهم لم يشتهروا كقادة حرب حتى أبرزهم خالد ، فساهم مساهمة فعالة مجدية في تخريج فوج من القادة العظام يعتمد عليه أعظم اعتماد في استطراد الفتوح . يضع المؤرخون الحربيون في صفات القائد الناجح شرطاً، أن يكون ذا ماض ناصع مشرف ، وقد جعل خالد لهؤلاء من أعمالهم معه هذه السوابق التي يعتد بها وأعطاهم شهادات التخرج كقادة عظام .

خالد والقسوة في الحرب

وبعد فيطيب للبعض أن يعيب على خالد شدته وقسوته و « إيغاله في سفك الدماء » ويسوقون الشواهد من أليس وعين التمر ودومة الجندل .

وينسى هؤلاء أنها الحرب ، وللحرب في بعض الأحيان ضروراتها . لقد كانت أعداد كبيرة من الأسرى التي لم يكن خالد مستعداً بجيشه قليـــل العدد والموارد لإيوائهم إذا ما اختار الإبقاء عليهم والاحتفاظ بهم كأسرى ، ثم لم يكن ليطلق سراحهم ليعودوا إلى قتاله وهم أعداء وخصوم ، والحرب بينه وبينهم ما زالت قائمة . لقد كان في عجلة من أمره ، والزمن عنصر له خطره في الحروب ،فكان حريصاً على أن ينتقل من معركة إلى أخرى على وجه السرعة ، ولم يكن من الحكمة أن يوقف زحفه أو يعطله من أجل الحفاظ على أرواح أعداء ، من مبدئهم ألا يبقوا على أحد من المسلمين ظفروا به . فليس عيباً أن كان خالد حازماً ، ولم نسمع على مدى التاريخ عن قائد آثر أرواح أعدائه في الميدان على أرواح قومه. ولقد رأينا معاملته لأهل الحيرة وكل من صالحه ، لم يمسس منهم شعرة لأنهم سالموه ، فلم يكن خالد يقتل في الحرب إلا وفقاً لضرورات الحرب .

وأين ما فعله خالد من قنبلة القرن العشرين الذرية التي ألقتها الولايات المتحدة الأمريكية على هيروشيما وناجازاكي في السادس والتاسع من أغسطس (آب) ١٩٤٥ دون مبرر جدي ، حيث كانت اليابان مستعدة فعلاً للاستسلام وتعرضه ، هذا الحدث الهمجي في تاريخ البشرية يستحق أن ينصب له مأتم إلى أبد الدهر ، والعجيب أن يسبغ على ذلك ثوب البطولة والفضيلة . أدى قس الفرقة الجوية ٥٠٩ للطيارين الأمريكيين ، هذه الصلاة قبل أن تقلع بهم الطائرة الحاملة لأول وحش ذري محا هيروشيما ومن عليها من الوجود :

« أيها الأب القوي يا أب الرحمة ، فلترع هؤلاء الرجال » .

سيطيرون الليلة ، احمهم واحفظهم وجنبهم لعنات السماء واشملهم بعنايتك ، ولتحفظ أجسادهم وأرواحهم ، وردهم إلينا سالمين ، هبنا الشجاعة والقوة في هذه الساعات التي نحن فيها ، وكافئهم على جهودهم .

أيها الأب ، هب عالمك السلام ، ودعنا نسلك طريقاً في ثقتك وهديك .

« إنك موجود الآن وإلى أبد الآبدين . آمين [١] »

إن تعذيب الأسرى للحصول على معلومات أو للانتقام والتشفي تقليد مؤسف معمول به من فجر التاريخ وحتى يومنا هـذا ، وذلك بالرغم من اتفاقية جنيف الدولية التي تقضي بتحريمه . وفي آثار مصر القديمة نقوش لتحتمس الثالث يقبض بيسراه على أسراه ويضربهم بيمينه ، ولغير تحتمس من فراعين مصر الأقدمين ، والملوك في كافة بقاع الأرض في كل العصور . ومع ذلك فإن هذا التقليد الهمجي لم يعرفه تاريخ الفتح الإسلامي ولم يمارسه قط القادة المسلمون المنتصرون ، ولم يفعله خالد بن الوليد أو غيره منهم لا في مجال الحرب والمخابرات ، ولا في مجال نشر الدعوة الإسلامية . وقـد حرم الإسلام ذلك كما حرم التمثيل بالقتلى . فإذا سايرنا بؤس الإنسانية عـبر التاريخ حتى قرننا العشرين وجدنا التعذيب قد صار علماً وفناً !! وجدنا السفاح بافلوف قد ابتدع ما عرف بغسيل المخ ، فوضع لتعذيب البشر بدنياً ونفسياً قواعد وإرشادات يشيب لها الوليد ، وذلك بعد تجارب أجريت على الحيوانات ثم على الناس . غسيل المخ هذا ، تمارسه الآن دول تغطي رقعتها أكثر من نصف السطح المعمور من الأرض . والحقيقة التي لا ينكرها إلا مكابر ، أن التاريخ لم يعرف غزاة أرحم من الفاتحين المسلمين الأوائل .

رأي لمؤلف

ذكر إدوارد[٢] عطية رأيه في أسباب نجاح حملات الفتح الإسلامي فقال: « كان لدى العرب ثلاثة أصول رئيسية :

١ — المعنوية العالية لأمة جديدة بعثتها عقيدة جديدة ، ولا سيما بعـد

---

(١) جريدة الأهرام ٦/٨/ ١٩٧٠ .

(٢) Eduard Atiyah - The Arabs . p. 34

انتصاراتها الأولى،فقد عرفت في نفسها داود يواجه جالوت القابل للانكسار.

٢ — عبقرية أهم قائـدين ـ خالد وعمرو ـ اللذين كانت حملاتها المذهلة في سوريا والعراق ومصر ، جديرة بالوقوف إلى جوار أعظم الإنجازات الحربية لنابليون والاسكندر .

٣ — استخدامهم لتكتيكات واستراتيجية جديدة مناسبة بصورة مثيرة للإعجاب للوسط الذي تحركوا خلاله للانقضاض على أعدائهم ـ ونعني بهـا الصحراوات غير المطروقة . وقد اشتملت تكتيكاتهم على استخدام فعال للفرسان التي لم يعرفها قط الرومان والبيزنطيون،بينما لعب الجمل فياستراتيجيتهم دوراً في منتهى الأهمية في حمل الوحدات عبر مسافات طويلة في زمن قصير نسبياً، حتى كانوا يتمكنون من الظهور في نقاط حاسمة، على غير توقع، ظهوراً يغير الموقف تماماً ـ كما حدث حين استجاب خالد لطلب العرب الذين كانوا يهاجمون دمشق ، فعبر إليها من العراق ووصلها في أيام قليـلة بالتعزيزات المطلوبة . ويضاهي الأستاذ برنارد لويس استخدام العرب للصحراء باستخدام البريطانيين للبحر . فالصحراء كانت هي الوسط الطبيعي للعرب وكانوا يعرفون طريقهم فيها حيث كان عدوهم يجهل ذلك . كانوا قادرين على أن يبزغوا فجأة من خلال قفارها للقيام بهجمة ، وأن يتلاشوا خلالها كما ظهروا للإفلات من التعقب . وكانت الوحدات التي أنشؤوا منها قوتهم في المناطق التي غزوها بمثابة تجهيزات استراتيجية على أهداب الصحراء معادِلة لمواقع جبل طارق ومالطة وسنغافورة في التاريخ البريطاني » . أ هـ .

الاستراتيجية والتكتيك الفارسي

عجز المخابرات

إذا ألقينا النظر على الجانب الفارسي ، فأول ما يلفت النظر هو عجز المخابرات الفارسية عن إمداد حكومتها بما يلزمها . فبالإضافة إلى سلطان الفرس على الحيرة كان لهم نوع من النفوذ في البحرين وفي اليمامة ، وكان لهم في كل منهما « مندوب سام » ولقد بعث خالد برسالته إلى هرمز مع أحدهما الذي وصف بأنه « أبو الزبابذبة الذين باليمامة » . ولكن من المؤكد أن القضاء على الردة في البحرين وفي اليمامة ودخولهما في سلطان المسلمين قد قضى على النفوذ الفارسي فيهما، وبالتالي لم تعودا من مراكز الاستطلاع وجمع المعلومات، ولم يبق للفرس من هذه المراكز سوى الحيرة، يمكنهم أن يجدوا من أهلها العرب عيوناً لهم، وهؤلاء كان شأنهم شأن الفرس أنفسهم إذ فوجئوا جميعاً بالاندفاع السريع والاكتساح الخاطف Blitz Kreig الذي وصل به خالد بن الوليد إلى الحيرة ثم تجاوزها . وفي الواقع أنه يمكن التماس العذر لهذا العجز ، فلم يكن لأي مراقب أن يتوقع ما حدث ! كيف وقد كانت جزيرة العرب إلى أيام قليلة قد لا تتجاوز عدد أيام الشهر تشتعل ناراً بحرب أهلية داخلية كانت أخبارها تصل إلى الفرس بلا ريب ، ثم تتحول هذه النار من حرب أهلية إلى غزو خارجي لعملاقين من أكبر جيران شبه الجزيرة .. إنه عمل مبهر، يعجز الفرس عن فهمه ، وهم ليسوا مسلمين ، لم يكونوا فهموا ما

الإسلام ولا عرفوا المسلمين ولا واجهوا خالداً ولا فهموا أبا بكر .

ولقد وصلت رسالة خالد إلى هرمز قبل أيام قليلة من وصول خالد نفسه، فكانت مفاجأة تامة ، يقول الرواة: إن هرمزاً بعث بالخبر إلى المدائن وخرج في « سرعان خيله » لملاقاة خالد وكأنما لم يستكمل حشد قواته . فإذا كان للفرس عيون بعد ذلك فلقد كان خالد يسبقها دائماً ، كان جباراً في سرعة حركته حتى « يسبق الأخبار » فيكون هو نفسه الخبر قبل أن يصل الخبر ، فأي أثر نفسي يحدثه ظهور الغزاة فجأة قبل أن يصل خبر عنهم ! ولقد كان خالد حريصاً على ذلك ، فنجده يشترط على من يدخل في ذمة المسلمين « أن لا يدلوا العجم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ...وإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ...» هذا ومن الجائز أن عيون الفرس في ذلك الوقت كانت أكثر نشاطاً في مجال السياسة الداخلية حيث المؤامرات تحاك والدسائس تدار والانقلابات تدبر في تنازع على السلطة ، فمن وصل إليها انشغل بمراقبة معارضيه وزجهم في السجون وصب العذاب عليهم .

المواجهة المباشرة

اللفتة الثانية أنه من الواضح أن خالداً أفقد الفرس عنصر المبادأة فلم تعد لهم استراتيجية معينة يواجهون بها الفتح ، وصار قصارى مـا يمكنهم صنعه أن يوجهوا قواتهم إلى حيث يتجه خالد في مواجهة مباشرة ، والمواجهة المباشرة هي أكثر أساليب الحروب خسائر وأبهظها تكلفة وضحايا . لقد كان تقدم خالد يتخذ محور الأبلة الحيرة ، وكان التصدي له في مواجهته هو أكثر الخطط إغراقاً في العجز ، وكان من الأوفق ولا شك أن يحاول الفرس ضرب ذلك التقدم من مؤخرته أو من أجنابه بتسيير جيوشهم نحو الأبلة، ولو حدث هذا قبل سقوط الحيرة لاضطر خالد إلى التراجع . غـير أن الفرس لم يفعلوا ذلك إلا بالنسبة لجيش قارن الذي اشتبك به خالد في المذار ، وحتى هـذه كانت لقاء بالمواجهة ، إذ كان خالد حينذاك في كاظمة . ولا ريب أن خالداً

هو الذي شل تفكير الفرس بتقدمه السريع ، ومن المؤكد أنه كان يفطن إلى هذا الاحتمال ، يدلنا على ذلك تركه حاميات بأسفل دجلة أثناء تقدمه . إلا أن الذي يهمنا إثباته هنا من زاوية الاستراتيجية الفارسية أنها حينذاك كانت استراتيجية مُسيَّرة موجهة لا خيار لها .

من هنا يظهر الترابط الوثيق عند خالد في الأخذ بمبادىء الحرب ، فإمساكه بالمبادرة كان يتيح له اختيار أهدافه من نقاطها الضعيفة .. من الخلف أو من الأجناب . وضياع المبادرة من الفرس كان يفوّت عليهم فرصة اختيار أهدافهم من نقاطها الضعيفة واضطرارهم تبعاً لذلك إلى المواجهة من الأمام ... من أقوى النقاط عند عدوهم .

سوء التوقيت

وتوقيت الهجوم على هدف يتفرع من مبدأ اختيار هذا الهدف . فإذا كان الهدف هارباً كان التكتيك مطاردة ، وإذا كان الهدف سائراً فكمن له ، كان التكتيك كميناً ، وإذا أحيط بالهدف من جوانبه كان التكتيك تطويقاً ، وإذا فرضت على الهدف أرض معينة كان التكتيك استدراجاً ، وإذا كان ضرب الهدف من جوانبه أو من خلفه كان التكتيك مواجهة غير مباشرة ، وهكذا تتعدد الأساليب والتكتيكات طبقاً لاختيار القائد وكل هذا تأسيساً على اختيار الهدف . وفي كل هذا لا بد من أخذ التوقيت في الاعتبار . وقد يكون التوقيت سليماً في الخطة ، ولكن يكون الجيش غير مؤهل بوسائله لتنفيذ هذا التوقيت، إما لسوء تدريبه وكفايته وإما لضعف وسائله وإما لغير ذلك .

وإذا نظرنا إلى التكتيك باعتباره فن تحريك القوات في المكان والزمان المناسبين ، نجد أن سوء التوقيت كان من السمات الواضحة للتكتيك الفارسي، فقد عنصر إحكام الزمان كما فقد حسن اختيار المكان . فلقد كانت خطة بهمن جاذويه لتطويق جيش خالد فكرة جيدة لا بأس بها ، وقد أعد لها

فكي كماشة، إلا أنه لم يؤقت لكل فرع من هذين الفرعين الوقت الذي يتواجد فيه في مكان مختار محـــدد ومدروس يأخذ في اعتباره تحرك خالد وسرعته المحتملة ، وقد أتاح هذا النقص لخالد أن يخرج إلى المكان المناسب له وأن ينفرد بكل فك من فكي الكماشة فيكسره على حـــدة . ولقد كان إلتحام أندرزغر بخالد في الولجـة جموداً وإصراراً على خطة بدأ فشلها قبل المعركة بتغير الأوضاع التي وضعت على أساسها. وكان على أندرزغر حينذاك أن يغيّر من خطته ، ولو أنه اعتصم بشبكة المسالك والمسطحات المائية بوسط السواد لكان خيراً له بدلاً من الاستمرار في إلتحام تكتيكي ليس له استراتيجية معينة. كذلك رأينا الفرس «ينتهزون» فرصة خروج خالد إلى دومة الجندل ليشنوا هجوماً مضاداً على المسلمين بالعراق، فماذا فعلوا في هذا الانتهاز ؟ تباطؤوا في اتخـاذ القرار وتلكؤوا في السير ولم يعنوا بتاتاً بوضع توقيت لخططهم تكفل لهم الفراغ منها قبل رجوع خالد . تلكؤوا حتى تم لخالد فتح دومة الجندل والرجوع إليهم فقضى على القوات التي حشدوها واحتشدت لهم لهـذا الغرض في أربعة مواقع كل على حدة .

معنوية منهارة

ورابـع مـا يلفت النظر، أن الروح المعنوية في المعسكر المجوسي كانت في الحضيض، ولو كان تحت الحضيض درك لكان لها، الجند والقادة في ذلك سواء. ولقد رأينا كيف انسحب آزاذبه من الحيرة فسقطت في يد خالد دون معركة، لأن المرزبان لم يكن يتوقع معاونة عاجلة من المدائن ، في حين كان يمكنه الاعتماد على نفسه وعلى موارده وإمكانياته المحلية ، أو على الأقل يحاول ذلك، غير أنـــه لم يحاول . كما رأينا صلح شيرزاذ لخالد على أن يترك له الأنبار وينسحب في خيله إلى المدائن ، ومهما كانت مبررات ذلـك الانسحاب من وجهة نظر صاحبه فإنـــه لم يعن كثيراً أو قليلاً بأمن ووضع القوات الفارسية المرابطة في حصن عين التمر والتي كان سقوط الأنبار يؤثر عليها تأثيراً خطيراً

يعزلها عن قاعدتها . كذلك وجدنا مهران ينسحب بالحامية الفارسية من عين التمر دون قتال لمجرد انهزام العرب الموالين له وكأنما صار شعار كل منهم أن ينجو بنفسه . يقول المعلق الحربي الشهير ليدل هارت :

« إن التحرك في الاتجاه المتوقع يحفظ للعدو توازنه فيزداد قدرة على المقاومة والدفاع . وفي الحرب كما في المصارعة ، حتى إذا تسنى لك إلحاق الهزيمة بعدوك دون زحزحة أقدامه والإخلال بتوازنه ، فإنما يكون ذلك باستهلاك قواك أنت استهلاكاً لا يتناسب مع الضغط الواقع عليه . وحينئذ لا يتأتى النصر إلا إذا كانت قوتك تفوق قوة عدوك تفوقاً كبيراً بوجه من الوجوه ، وقد تكون النتيجة مع ذلك ضعيفة . أما التاريخ العسكري في كافة عصوره فيقول عكس هذا . يقول إنه في جميع المعارك الحاسمة تقريباً يكون الإخلال بالتوازن النفسي والمادي للعدو هو المقدمة الحتمية للإجهاز عليه » .

ولا شك أن التوازن النفسي كان مختلاً لدى العجم ومن حالفهم من العرب .

فقدان التجانس

أما خامس اللفتات فهي أن الجيوش الفارسية كانت تتكون من عناصر ضعيفة من حيث معدنها . فكما رأينا نماذج من ضعف الفكر الحربي عند القيادات، كذلك لمسنا ضعف القائد في قيادته وقدرته على إنفاذ ما يرى في جنده . ولقد كان جابان في أُلّيْس مثالاً لذلك . كما ظهر في جنود الفرس ضعف التدريب وفقدان الروح المعنوية وتنوع الفئات والمواطن . فكان منهم أهل الأهواز [شرقي أسفل دجلة وشط العرب] وأهل فارس [مما وراء الأهواز من بلاد إيران] وأهل الجبل [شرقي دجلة من أوسطه إلى أعلاه] وأهل جيلان [ما جاور بحر قزوين من جهة دجلة] وأهل السواد [ما بين دجلة والفرات] وأهل الحيرة وأهل الجزيرة من نصارى العرب . ولم يكن بين هؤلاء جميعاً روابط وألفة ، بل لقد كانت لغاتهم تتباين وتختلف ، ولسنا

نقصد بذلك اختلاف الفارسية عن العربية ، بل إن لكل فئة ممن ذكرنا من العجم لغته . وكان الفرس يحتقرون حلفاءهم من العرب ، فكان جيشاً تنقصه وحدة العقيدة أو حتى الوحدة القومية أو أي وحدة أخرى من أي صنف .
هذا في حين كان جيش المسلمين الذي يواجههم ، لا نجد في وصفه خيراً من قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً[1] ». كان المسلمون جد فرحين بوحدتهم التي بها صاروا يقاتلون عدواً مشتركاً بعد أن كانوا يضرب بعضهم وجوه بعض .

خلاصة القول أنه كان هناك امتيازات في صالح الفرس . كانوا الأكثر عدداً الأفضل عدة، كان بيدهم سلاح تكتيكي لم يكن لدى المسلمين مثله ونعني به الأفيال .. كانوا يحاربون على أرضهم ، وهي أرض ذات ميزات دفاعية ممتازة . ولكنهم مع هذا كانوا جنوداً جبناء ضعفاء غير مدربين .. وكانت قياداتهم قيادات هزيلة لا فكر لها ولا عقيدة ولا شجاعة ، وكانوا يجهلون المزايا الدفاعية لأرضهم الشديدة التعقيد بشبكات المسالك والمسطحات المائية .. ثم كانوا يواجهون عدواً قليلاً عدده غير أنه كان شديداً صعب المراس .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .

خالد بعد العراق

اليرموك

اجتمع للروم باليرموك مائتان وأربعون ألفاً ، وكان المسلمون أربعين ألفاً في جيوشهم جميعاً . كان لكل من هذه الجيوش استقلاله وانفصاله عن سواه حتى كان لكل جيش أذانه وصلاته ، فكان أول أعمال خالد أن اعترض على ذلك في اجتماع لأمرائها واتفقوا على توحيدها . ثم أجرى عملية تنظيم سريع لجيشه ، فقسمه إلى ثمانية وثلاثين كردوساً ، جعل ثمانية عشر منها في القلب يقودها أبو عبيدة بن الجراح ، وعشرة في الميمنة يقودها عمرو بن العاص ، وعشرة في الميسرة يقودها يزيد بن أبي سفيان ، كما جعل للجيش مقدمة عليها قباث بن أشيم .

وأمر باهان قائد الروم جيشه بإنشاب القتال فهجموا هجوماً عنيفاً على المسلمين حتى أزاحوهم عن مواقفهم وبلغوا فسطاط خالد بفرسانهم، بينما كانت مشاتهم ما زالت في الخلف تحاول أن تلحق بالفرسان المتقدمة . ووجد خالد فرصته لتحويل نصر الروم إلى هزيمة ، فأدخل قواته بين فرسان الروم ومشاتهم ، وأفسح لتلك الفرسان طريقاً خلال صفوف المسلمين ، فأخرجهم من خلفهم بينما شد على المشاة الروم الذين صاروا بدون فرسان فردهم، واستمر يزيحهم حتى ألقى بهم من شاهق في خور اليرموك العميق . وفر باهان، وقتل

من الروم مائة ألف على الأقل ، واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف . وانتهت أخبار الهزيمة إلى هرقل وهو في حمص ، فخرج منها وهو يقول :

« سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده » .

في أثناء ذلك توفي أبو بكر وولي الخلافة عمر ، وجاء البريد إلى جيش المسلمين بذلك وبعزل خالد وتوليـة أبي عبيدة . وفي أقرب الروايات إلى التصديق ، أن رسالة عمر بذلك جاءت إلى أبي عبيدة والمعركة دائرة ، فأخفاها ولم يعلنها حتى تم النصر للمسلمين. وفي يوم اليرموك فقد خالد قلنسوته ، فقال أطلبوها فلم يجدوها فلم يزل حتى وجدوها فإذا هي خَلِقَة [بالية] ، فسئل عن ذلك [1] فقال : « اعتمر النبي ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا تبين لي النصر ، وما وجهت في وجه إلا فتح لي » .

عزل خالد لأسباب إدارية

اختلفت آراء الكتّاب والمؤرخين حول السبب في عزل خالد . ولن نعرض هنا لهذه الآراء اكتفاء برأينا الذي نذهب إليه .

ذكرنا في موضعه قتل خالد لأناس من بني جذيمة بعد فتح مكة ، وهو الذي برىء منه رسول الله ﷺ . وحدث في حروب الردة أن قتل خالد مالك ابن نويرة من بني تميم بعد أن دخل فيما دخل فيه الناس من إسلام ، ثم حدث أن تزوج خالد امرأة مالك ، مما أثار ثائرة عمر ، فطلب من أبي بكر أن يعزله ، غير أن أبا بكر أبى ذلك بعد أن استجوب خالداً ، فأمره أن يطلقها ولم يعزله وقال : « هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد » . ومرة أخرى حين أغار خالد على المصيخ حدث أن قتل رجلان من المسلمين هما :

---

(١) الإصابة ٢٢٠١ .

عبد العزى بن أبي رهم ولبيد بن جرير ، وكان معهما كتاب من أبي بكر بإسلامهما، وقد حزن أبو بكر لمقتلهما، وعاد عمر يطلب من أبي‌بكر أن يعزل خالداً ، ولكن أبا بكر التمس العذر لخالد إذ أن القتيلين قد ساكنا أهل الشرك ونزلا معهم في دار الحرب. ثم حدث بعد موقعة الفراض بشمال العراق أن انفلت خالد سراً دون إذن من الخليفة إلى مكة حيث أدى فريضة الحج ، ثم عاد سراً كما جاء ، ولما بلغت هذه الأخبار المدينة عاد عمر يطلب من أبي بكر أن يعزل خالداً ، فقال أبو بكر : « ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين » . من هذه الحوادث ، كان عمر يرى أن خالداً لم يكن لديه الاحتراز الكافي والواجب في الدماء ، وأنه تورط في دماء لم تكن لتحل ، وفي ذلك قال لأبي بكر :

« إن في سيف خالد رهقاً وحق عليه أن يقيده . »

كان هذا هو رأي عمر في خالد ، فما أن ولي الخلافة حتى عزله عن قيادة جيش الشام .

سبب آخر . ذلك أن خالداً كقائد في الميدان كان يحب أن تكون له أوسع الزوايا في حرية التصرف ، ولقد رأيناه في خلافة أبي بكر يسير على هذا النهج فيمنح نفسه أوسع السلطات ، فيخرج من العراق إلى دومة الجندل لنجدة عياض ، ثم يخرج من العراق إلى الحج دون إذن من الخليفة ، ونجده في اليرموك يوحد الجيوش التي أرسلها الخليفة مستقلة عن بعضها . ولقد أعرب خالد عن منهجه ذاك في العمل في صراحة ، حين فرغ من ردة بني أسد واتجه إلى بني تميم إذ قال : « ... ولو أنه لم يأتني له ـ من الخليفة ـ كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها ... » لم يكن هذا نهج عمر في السياسة والحرب والحكم والإدارة . إنما كان يحب أن يرجع إليه في كل تصرف ، وسنرى من ذلك الشيء الكثير حين بعث سعد

ابن أبي وقاص لفتح العراق ، وفي سيرتـــه مع أبي عبيدة في فتوح الشام بعد ذلك .

وإذاً فقد كانت طبيعة عمر وطبيعة خالد طبيعتين لا تتفقان . وكثيراً ما نلحظ في مجال الأعمال ، أن شخصاً على أعلى مستويات الكفاية ، وأن شخصاً آخر مثله في ذلك ، ولكنهما لا يصلحان معاً في عمل مشترك أبداً . مثل ذلك كان بين عمر وخالد ، ولم يكن بين أبي بكر وخالد . كان خالد يوزع مكافآت سخية على أبطال المعارك ، فقال عمر لأبي بكر : « اكتب إلى خالد لا يعطي شيئاً إلا بأمرك » . فكتب إليه أبو بكر بذلك، فظهرت طبيعة خالد في إجابته :

« إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك » .

فأشار عمر على أبي بكر بعزل خالد ، فقال أبو بكر : « فمن يجزي عني جزاء خالد ؟ » قال : « أنا » قال أبو بكر : « فأنت » . وتجهّز عمر للخروج حتى مشى الصحابة إلى أبي بكر وقالوا له:«ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ، وما لك عزلت خالداً وقد كفاك ؟» قال :«فما أصنع»؟ قالوا: «تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله» . ففعل .

هذان العاملان نراهما سبب ما كان بين عمر وخالد . ما كان من أمر الدماء ، وعدم اتفاق طبيعتي الرجلين .

وفي المدينة يبدو أن عزل خالد لم يحدث أثراً يذكر ، ولكن حين زار عمر جيش الشام بالجابية خطب يعتذر عن عزل خالد [1] فقال :

« إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد . إني أمرته أن يحبس هذا المال على المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فنزعته وأثبت أبا عبيدة بن الجراح » .

---

(١) أسد الغابة ٢ ٤ .

فقام أبو عمرو أحمد بن حفص بن المغيرة فقال :

« والله ما عدلت يا عمر ، لقد عزلت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ ، وغمدت سيفاً سلّه رسول الله ﷺ ، ووضعت لواء نصبه رسول الله ﷺ ، ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم » .

فقال عمر : « انك قريب القرابة حديث السن مغضبٌ لابن عمك » .

والظاهر أن عزل خالد لم يثر من الاحتجاج إلا الشيء اليسير مثل هذه الواقعة ، وذلك لعلم رجال الصحابة أن عمر وخالداً لن يتفقا ، وأن هذا هو الاتجاه القديم لعمر .

أما في الميدان فقد خاطب خالد جند المسلمين فقال :

« بعث عليكم أمين هذه الأمة ، سمعت رسول الله ﷺ يقوله » .

فقال أبو عبيدة :

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة».

بعد اليرموك

تجمع فرار اليرموك في فحل. وقاد أبو عبيدة المسلمين وخالداً معهم، فخرج يريد هذه الجموع، فبلغه أن هرقل أمدّ دمشق بقوات من حمص فأرسل إلى عمر يستشيره في أمره . . أيتقدم إلى دمشق أو إلى فحل ؟ هذا التصرف من أبي عبيدة يتفق وما يرضى عنه عمر ومع منهجه في سياسة عماله، ولو كان خالد مكانه لكان من المؤكد أن نظر هو في الأمر وأعمل فكره واختار وتحرك، ثم كتب بما كان إلى أمير المؤمنين. وجاء جواب عمر «ابدؤوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم . واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودعْ شرحبيل وعمرا بالأردن وفلسطين » .

وبعث أبو عبيدة قوة تجاه فحل ، فأطلق الروم مياه بحيرة طبرية ونهر الأردن ، فأوحلت الأرض من حولهم وحالت بين الفريقين ، فظل المسلمون يحاصرونهم دون أن يقتحموا عليهم حتى يفرغ أبو عبيدة من دمشق . وتحرك أبو عبيدة والمسلمون وخالد معهم إلى دمشق ، وكانت مدينة حصينة تحيط بها أسوار يزيد سمكها عن ثلاثة أمتار وترتفع إلى ستة أمتار بها مزاغل تحتمي وراءها الرماة، وأُحيط السور بخندق يزيد عرضه عن ثلاثه أمتار اتصل بنهر بردى[1] فامتلأ بالماء . ولم يكن مناص من حصار المدينة المتحصنة ، ولم يفت المسلين أن يبعثوا بقوة شمالاً لتقف على طريق حمص للحيلولة دون قدوم أي قوة رومية من حمص حيث مقر هرقل . كما أرسلوا بقوة أخرى جنوباً على طريق فلسطين لمنع أي جيش رومي أن يأتي من تجاهها . ووجد أبو عبيدة للمدينة خمسة أبواب، فوكل بكل باب قوة من جيشه ، وكان الباب الشرقي من نصيب خالد. واستمر الحصار زمناً اختلف الرواة فيه بين سبعين يوماً وأربعة أشهر وستة أشهر .

وفي ذات ليلة نمى إلى علم خالد أن بطْريق دمشق أوْلَمَ لحاميتها وليمة ضخمة بمناسبة مولود ولد له ، وأن الجند مشغولون بالأكل والشراب . وكان خالد قد أعد سلالم من الحبال في آخرها أوهاق [الوهق حبل يجعل في طرفه أُنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ونواتيء الجدران] فعبر الخندق ومعه زميله بطل حروب الردة والعراق القعقاع بن عمرو التميمي ، وفي رواية أنه كان معه أيضاً مذعور بن عدي العجلي، بخلاف رواية أخرى أن مذعورا بقي مع المثنى بالعراق . وقذفوا بأوهاق الحبال فأثبتوها بأعلا الأسوار ثم تسلقوها حتى ارتقوا جدران الحصن وسحبوا وراءهم الحبال فثبتوها من الداخل، وجند الروم مشغولون بوليمتهم منصرفون إليها . وأقام خالد رجالاً بأعلا السور ثم

---

(١) سيف الله خالد ١٥٩ .

تدلى ومن معه إلى الداخل وأسرعوا إلى الباب ففاجؤوا حرّاسه من الداخل وقتلوهم وفتحوا الباب وكبّر الرجال من فوق الحصن، وكان ذلك إشارة متفقاً عليها فعبر المسلمون الخندق ودخلوا دمشق، بعضهم من الباب وبعضهم متسلقاً الأسوار، وأعملوا السيوف فيمن وجدوا، واستسلمت دمشق فأوقف القتال.

فِحل

وترك أبو عبيدة في دمشق حامية بقيادة يزيد بن أبي سفيان وسار إلى فِحْل، وحينئذ انفصل عن جيش الشام جيش خالد الذي جاء معه من العراق، عاد إليه بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وبه جنود خالد ولكن بدون خالد. فقد بقي مع أبي عبيدة ... أية محنة عاطفية لقائد في الميدان. وفي فحل دخل جيش المسلمين منطقة قيادة شرحبيل، فأرسل قوة لحصار طبرية وجعل خالداً على مقدمة جيشه وأبا عبيدة على الميمنة وعمرو بن العاص على الميسرة وضرار بن الأزور على الفرسان. وكان شرحبيل على حذر من بيات الروم، فبات ليلة على تعبئة. وظن الروم أنهم يفاجئون المسلمين فهجموا ليلاً، واقتتلوا قتالاً مريراً. ثم ارتدت قواتهم في الظلام والمسلمون يتبعونهم حتى حصروهم في الطين وقتلوا منهم ثمانين ألفاً.

وعاد أبو عبيدة وخالد إلى دمشق فجاءهم أمر عمر بفتح حمص.

سقوط حمص

وفي الطريق إلى حمص التقى أبو عبيدة بقوتين للروم: إحداهما يقودها تيودور والثانية يقودها شنس. فاتجه أبو عبيدة إلى شنس بينما اتجه خالد إلى تيودور وباتت الجيوش في انتظار الصباح، فلما انبلج لم يجد خالد الجيش الذي أمامه، فأدرك أنه اتجه إلى دمشق لاستردادها في فرصة ابتعاد جيوش المسلمين، فأسرع من فوره إلى دمشق. وعلم يزيد بن أبي سفيان وهو في دمشق بقدوم الروم فأغلق أبواب المدينة وتحصن بأسوارها. وجاء خالد فحصر الروم بينه

وبين أسوار دمشق، وكبّر فسمع المسلمون بدمشق التكبير وأخذوا الروم من الجهتين . وفرغ خالد من هذه الموقعة وعاد إلى أبي عبيدة في مرج الروم فوجده شتت فرسان شنس وانطلق خلفهم في مطاردة إلى حمص ، ولحق بهم خالد فكان على المقدمة . وطال حصار حمص حتى وقع بها زلزال أفزع أهلها، فطلبوا الصلح .

اللاذقية ثم قنسرين

وبعد حمص سار أبو عبيدة وخالد معه إلى حماه فصالحه أهلها ، ثم إلى اللاذقية فتحصنت خلف أسوارها ، وكانت ثغراً على البحر الأبيض يأتيها منه المدد ، ووجد أبو عبيدة أن الحصار لا يفيد ، فأمر جنده فحفروا حفراً تستر الفارس على جواده ، ثم انصرف عنها أمام أعين حاميتها ، غير أنه استتر بالظلام وعاد ليلا فخبأ جيشه في تلك الحفر . وطلعت شمس الصباح ، وقد اطمأن أهل اللاذقية ففتحوا أبوابها ، فخرج عليهم المسلمون في هجوم خاطف فاقتحموها فطلبت الصلح . وبعد اللاذقية فتحت المعرة ، ومنها وجه أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين في أقصى شمال الشام ففتحها بعد حصار قال فيه للروم :

« لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » .

عجباً لهذه الروح الفتية .. إنه رغم عزله كان كيوم قال فيه للفرس :

« لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وطلبت قنسرين الأمان، فأبى خالد إلا أن يخرب المدينة عقاباً لها على مقاومتها .

يموت على فراشه

تم فتح الشام ، فأقام خالد في مدينة حمص مع أهله وأولاده، ولكن

الموت لاحقهم الواحد تلو الآخر ، حتى لقد روي أنه مات منهم أربعون في عام الطاعون . والعجب أن تختلف الروايات حول تاريخ وفاة خالد، ولكن أكثرها على أنه توفي في العام الحادي والعشرين للهجرة ، ولم يجاوز الخامسة والخمسين من عمره . فلما توفي ذلك القائد العظيم الذي نشأ في سعة من العيش، وقاد الجيوش ، وفتح البلاد وهز التيجان والعروش وأدال الدول ، لم يترك من الدنيا إلا فرساً وغلاماً وسلاحه الذي شهد به المشاهد . وعلم عمر بذلك فقال [1] :

« رحم الله أبا سليمان. كان على غير ما ظننا به..كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة » .

وحزن عليه حزناً شديداً . وبكته بنات عمه ، فقيل لعمر أن ينههن ، فقال : « دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة ..على مثل أبي سليمان تبكي البواكي » .

كان خالد مزواجاً [2] . وكان طويلاً ضخماً بعيد مـــا بين المنكبين ، واســع الهيكل عريض اللحية في وجهه أثر جدري . وكان أشبه الناس خَلْقاً بعمر .

مات خالد على فراشه، وحين حضرته الوفاة وأدرك ذلك، بكى وقال : « ما من عمل أرجى عندي بعد لا إله إلا الله ، من ليلة شديدة الجليد ، في سرية المهاجرين، بتّها وأنا متترس والسماء تنهل عليّ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار ، فعليكم بالجهاد . لقد شهدت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ،

---

(١) سيف الله خالد ١٨٥ .

(٢) قادة الفتح العربي للعراق ٤٠١، عن فتوح الشام ١/١٥ وعن الأغاني والطبري وابن الأثـــير .

وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء . لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي» .

وأوصى خالد أن يقوم عمر على وصيته ، ولعله أراد بذلك أن يتأكد عمر أنه مات نظيفاً لم يترك وراءه من الدنيا تركة تذكر .

يروى أن لبابة أم خالد خرجت في جنازته تقول :

أنت خير من ألف ألف من القو م إذا ما كنت في وجوه الرجال

فقال عمر : «صدقت والله إن كان لكذلك» . فاستمرت تقول :

أشجاع ؟ فأنت أشجع من ليث ضمر [1] بن جهم أبي أشبال
أجواد ؟ فأنت أجود من سيل أتى بتسفل من الجبال

فقال عمر : « من هذه ؟ » فقيل : أمه .

قال : « أمه والإله ، أمه والإله ، أمه والإله ، وهل قامت النساء عن مثل خالد ؟ » هذه الواقعة مما يؤيد به القائلون بأن خالداً مات بالمدينة وجهة نظرهم . ولكنه على الأرجح مات بحمص ، وقد تكون هذه الواقعة وقعت بالمدينة في غير جنازته .

قال لها عمر : « يا أم خالد ، أخالد وأجره ترزئين ؟ عزمت عليك ألا تبيتي حتى تسودي يديك من الخضاب » .

صفاء مع عمر

بالرغم من أن عمر لم يستعمل خالداً بعد أن عزله ، إلا أنه من الواضح أن نفس كل منهما قد صفت تجاه الآخر . وكما رأينا شعور عمر نحو خالد كذلك كان شعور خالد نحو عمر. عاد أبو الدرداء خالداً في مرضه الذي توفي

---

(١) الضمر: الضامر، كناية عن خفة حركته ونشاطه . جهم: عبوس[المنجد] كناية عن شدته في الحرب .

فيه ، فقال له خالد : « يا أبا الدرداء لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها » .

فقال أبو الدرداء : « وأنا والله أرى ذلك » .

قال خالد : « كنت قد وجدت عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا وحضرني من الله حاضر ، عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل . كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث إليّ من يقاسمني مالي حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، . فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ومن شهد بدراً . وكان يغلظ عليّ ، وكانت غلظته على غيري نحواً من غلظته عليّ . وكنت أدلّ عليه بقرابة ، فرأيته لا يبالي قريباً ولا لوم لائم في غير الله ، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه . وكان يُكْثَر عليّ عنده وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت في حرب ومكابدة وكنت شاهداً وكان غائباً ، فكنت أعطي على ذلك ، فخالفه ذلك من أمري » .

ولما بلغ عمر موت خالد قال [1] :

« قد ثلم في الإسلام ثلمة لا ترتق . كان والله سداداً لنحور العدوميمون النقيبة » .

وسمع عمر راجزاً يذكر خالداً فقال : « رحم الله خالداً » . فقال له طلحة بن عبيدالله معاتباً :

لا أعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

قال عمر : « إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في في المال » .

رحم الله خالداً ورحم الله عمراً . وصدق رسول ﷺ : « أصحابي كالنجوم » .

ولقد تزوج عمر بن الخطاب [2] فاطمة أخت خالد بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها الحارث بن هشام بن المغيرة .

---

(١) قادة الفتح العربي للعراق ١٤٦ عن ابن عساكر ٧١٤ .

(٢) أسد الغابة ٩٧٩ في ترجمة الحارث بن هشام .

الجزء الثالث

الباب الثالث عشر

حملة أبي عبيد

عود إلي العراق

بعد وداعه لخالد عاد المثنى إلى الحيرة يعيد تنظيم قواده وقواته ويملأ الأماكن التي شغرت من قادة رحلوا .

رحل خالد فكان المثنى مكانه .

وخلا مكان المثنى في الحامية التي كانت بالسيب فوضع مكانه أخاه المعنى بن حارثة .

وخلا مكان ضرار بن الخطاب فوضع مكانه عتيبة بن النهاس العجلي .

وخلا مكان ضرار بن الأزور فوضع مكانه أخاه الثاني مسعود بن حارثة .

وفي رواية أنه وضع مذعور بن عدي العجلي في بعض تلك الأماكن .

وهكذا سدّ أماكن كل من خرج من الأمراء برجال أمثالهم ممن يغني عنهم ممن بقي معه .

وبعد خروج خالد بقليل ـ على رأس سنة [1] من دخوله الحيرة ـ آل ملك فارس إلى شهربراز [2] بن أردشير بن شهريار الذي كان يتصل نسبه إلى كسرى ثم إلى سابور . واستتب له الملك فوجه إلى المثنى جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة هرمز جاذويه ، ومعهم فيل من أفيال القتال . فكتبت مسالح المسلمين بذلك إلى المثنى .

---

(١) كان دخوله الحيرة ربيع الأول ١٢ هـ ، وكان خروجه إلى الشام في صفر ١٣هـ ـ ابريل (نيسان) ٦٣٤ .

(٢) شهربراز بالفارسية، معناها خنزير الدولة .

معركة بابل[1]

أواخر ربيع الأول ١٣ هـ - أواخر مايو (أيار) ٦٣٤ م .

خرج المثنى من الحيرة للقاء هذا الجيش ، واختار ميدان المعركة في سواد ما وراء الفرات ، ولعله أراد بذلك الدفاع عن باروسما وبانقيا والفلاليج التي صالحت المسلمين على الجزية والمنعة ، فأصبح الدفاع عنها مما يلزم المسلمين. لقد مضى حول من يوم قبض خالد الجزية منهم . ولم نجد ما يفيدنا إن كان المسلمون قد قبضوا جزية العام التالي . وحشد المثنى قواته فضم إليه مسالحه ، وعبأ جيشه ، فجعل على ميمنته أخاه المعنى ، وعلى ميسرته أخاه مسعوداً. وفي هذا دلالتـــه على أن النسبة العددية لقوم المثنى من بني شيبان ومن بكر بن وائل قد غلبت من سواهم على تعداد جيش المثنى بالعراق . وتقدم المثنى فأقام بجيشه في بابل . وزحف هرمز جاذويه تحفزه روح التحدي والغرور ، وقد جعل على ميمنته كوكبذ ، وعلى ميسرته خوكبذ . وبعث الى المثنى برسالة جاء فيها :

« من شهربراز الى المثنى . إني قد بعثت إليك جنداً من وَخش[2] أهل فارس ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم » ! .

---

(١) الطبري ٤٢/٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب .

(٢) وخش الناس : أسقاطهم ورذائلهم - المنجد .

فأجابه المثنى :

« من المثنى الى شهربراز . إنما أنت أحد رجلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوك . وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليـــه . فالحمد لله الذي رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير » .

وكما رأينا من قبل ، وسنرى من بعد أن الفرس كانوا أهل تفاؤل وتشاؤم وتنجيم ، فلما رأوا جواب المثنى جزعوا منه وتشاءموا ، وقالو : « إنما أُتيَ شهربراز من شؤم مولده ولؤم منشئه [وكان يسكن ميسان ـ منطقة العمارة] وبعض البلاد شين على من يسكنه ، وقالوا له : جرأت علينا عدونا بالذي كتبت به إليهم ، فإذا كاتبت أحداً فاستشر » .

والتقى الجيشان ببابل فاقتتلوا بالجانب الأدنى من نهر الصراط قتالاً شديداً. وكان مع الأعاجم فيل من أفيال القتال ، جال يفرق بين صفوف المسلمين ، فتداوله المثنى وناس من أبطال المسلمين حتى أصابوا منه مقتلاً . وبمقتله انهزم المجوس وشرعوا في الفرار ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى جازوا بهم مسالحهم فأقاموا فيها ، وأوغلوا في مطاردتهم حتى انتهوا الى المدائن [1] . وفي هذه

---

(١) كان الشاعر المجيد المخضرم عبدة بن الطبيب السعدي التميمي ممن شهد هذه الموقعة . ذكره ابن حجر العسقلاني باسم عبدة بن الطيب ، واسم الطيب يزيد بن عمرو بن علي بن انس بن عبد الله بن عبد تيم بن جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم . خرج في هذه الحملة لمهاجرة حليلة له الى جهة بابل فلما آيسته رجع الى البادية وقال :

هل حبلُ خولة بعد البين موصول ... أم انت عنهـــا بعيد الدار مشغولُ
وللأحبـــة ايام تذكرهـــا ... وللنوى قبـــل يوم البين تأويـــل
حلت خويلة في حي عهـــدتهم ... دون المدائن فيها الديك والفيـــل
يقـارعون رؤوس العجم ضاحيـــةً ... منهم فوارس لا عزل ولا ميـــل

وفيها :

والمرء ساعٍ لشيء ليس يدركـــه ... والعيش شـــح وإشفاق وتأميـــل

المعركة قال الفرزدق :

فمنهن بيت الحوفزان الذي به تفلل به بكر حد نبل المناضل
وبيت المثنى عاقر الفيل عنوة ببابل إذ في فارس ملك بابل

=ويبدو من هذا ومن رسالة شهربراز ان المنطقة كانت كثيرة الدجاج والدواجن والخنازير .. الخ .

ولقد كان عمر يعجب من شعر عبدة . وهو الذي رثى قيس بن عاصم التميمي بأرثى بيت قالته العرب :

وما كان قيس ُهلكه هلك واحد ولكنــه بنيان قوم تهدما

ولما كبر عبدة واسن جمع بنيه وانشأ قصيدته التي يوصيهم فيها ويقول :

ولقد علمت بأن قصري حفرة غبراء يحملني إليهــا شرجع
فبكت بناتي شجوهن وزوجتي والأقربون إليّ ثم تصدعــوا
وتركت في غبراء يكره ورِدُها تسفي عليّ الريح حين أُدّوع

[الشرجع: هو سرير الميت] . قيل لخالد بن صفوان: إن عبدة لا يحسن أن يهجو فقال : « لا بل كان يترفع عن الهجاء » . وقد عاد عبدة إلى حرب العراق مرة اخرى ، يقول الجاحظ:«إنه كان في جيش النعمان بن مقرن الذي حارب الفرس بالمدائن» [البيان والتبيين] ١/١٢٢

فتنة في البلاط الفارسي

ومع انهزام هرمز جاذويه مات شهربراز، قتله الحرس بعد أن ظل ملكاً أربعين[1] يوماً . وعاد الفرس إلى اختلافهم في أزمة الملوك . وبقي ما دون دجلة وبُرْس من السواد في أيدي المثنى والمسلمين . ثم ملكت دُخْت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر، فخلعت . وملك سابور بن شهربراز بن أردشير بن شهربراز . وقام بأمره فَرُّخْزاذ بن بِنْدَوان فسأل سابور أن يزوجه آزر[2] ميدخت بنت كسرى فقبل . ولكن آزر ميدخت غضبت، وقالت: « يا ابن عمّ أتزوجني عبدي !؟ » .

وقال : « استحي من هذا الكلام ولا تعيديه عليّ فإنه زوجك » .

ولم تكن آزر ميدخت تقبل ذلك الزواج ، فبعثت إلى واحد من فتّاك العجم يدعى سياوخش الرازي ، وشكت إليه الذي تخاف . فقال لها : «إن كنت كارهة لهذا فلا تعاوديه فيه، وأرسلي إليه وقولي له فليقل له فليأتك ، فأنا اكفيكه . ففعلت وفعل ، واستعد سياوخش .

فلما كان ليلة العرس أقبل فرخزاذ حتى دخل فطلع عليه سياوخش وقتله ومن كان معه ، ثم خرج بها إلى سابور فحصروه ، ثم دخلوا عليه فقتلوه . وملكت آزر ميدخت بنت كسرى ، وتشاغل الفرس بذلك عن المسلمين .

---

(١) إيران في عهد الساسانيين .

(٢) آزر ميدخت ، معناها الفتاة الطاهرة – إيران في عهد الساسانيين ٣١٢ .

أبو بكر يحتضر[1]

مشروع جديد للمثنى

لم يكن المثنى جاهلاً بأحوال الفرس وما يجري في بلادهم وبلاطهم ، وكان يعلم أن الهدنة التي أتاحها له القدر لن تدوم، وكان يدرك أيضاً أنه لا يستطيع أن يحتفظ بما فُتح له من أرض، فضلاً عن أن يفتح غيرها بتسعة آلاف فقط. لذلك استخلف المثنى على المسلمين بالعراق بشير بن الخصاصية ، ووضع مكانه في المسالح سعيد بن مرة العجلي . وخرج المثنى على أكثر تقدير في ١١ جمادي الآخرة ١٣هـ ١٢ أغسطس(آب) ٦٣٤م في أشد قيظ الصيف نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين والفرس ويشرح له حقيقة الوضع وتفاصيله ، وليقدم له مشروعاً جديداً للتعبئة العامة ، يستأذنه بمقتضاه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة ، وقد كانوا حتى ذلك الوقت ممنوعين من المشاركة في هذه الفتوح ، وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط منهم إلى قتال فارس وحربها ومعونة المجاهدين . رحم الله المثنى ، فكما كان يزن عدوه ويحسب قواته، كذلك كان يدرك إمكانيات المسلمين ويقدرها. ولم يكتف بمجرد تقديم الطلب وإنما قدم أيضاً مصادر تنفيذه .

وبلغ المثنى المدينة وأبو بكر مريض مرض الموت – خمسة عشر يوماً –

---

(١) الطبري ٤ / ٣ ٤ عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب .

وصادف قدوم المثنى صحوته وكان أبو بكر قد استخلف عمر بن الخطاب. وجلس المثنى إلى أبي بكر رضي الله عنه وأفضى إليه بما جاء من أجله. قال أبو بكر لمن حوله: « عليّ بعمر ».

وفاة أبي بكر

وجاء عمر فخاطبه أبو بكر رضي الله عنه، قال:

« اسمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به. إني لأرجو أن أموت من يومي هذا – وكان ذلك يوم الاثنين ٢١ جمادي الآخرة ١٣هـ ٢٢ أغسطس (آب) ٦٣٤ م – فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى. وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم. وقد رأيتني مُتَوَفىً رسول الله ﷺ وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله. وبالله لو أنيّ أني عن أمر الله وأمر رسوله لخَذَلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً. وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحدّه، وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم ».

قال عمر: « كان أبو بكر قد علم أنه يسوؤني أن أؤمر خالداً على حرب العراق حين أمرني بصرف أصحابه وتركه ».

لقد كان في نية أبي بكر حين وجه خالداً إلى الشام أن يعيده إلى العراق، ولكن ما دامت الخلافة ستؤول إلى عمر، ولعمر مآخذ على خالد فمن الحكمة إذاً أن لا يحرج أبو بكر عمر في أمر لا يرضاه، ومن حسن السياسة أن يكون أعوان الخليفة وقادة جيوشه ممن يرضى عنهم تجنباً لما عسى أن ينشأ نتيجة عدم الانسجام بين الرجلين خاصة في ظروف الحرب.

وقد كان توفي ذلك الرجل العظيم أبو بكر رحمه الله مع الليل بين المغرب والعشاء وكان يوماً من أيام الصيف، فدفنه عمر ليلاً إلى جوار رسول الله ﷺ، وذلك بعد أن صلى عليه في المسجد، وسوّى على الصديق القبر.

أبو عبيد في العراق

دعوة إلى الجهاد

ما أن فرغ عمر رضي الله عنه من دفن أبي بكر حتى دعا الناس إلى التطوع لحرب الفرس مع المثنى بن حارثة ، وكان ذلك في آخر الليـل ، الذي توفي فيه أبو بكر . نادى عمر : « الصلاة جامعة » ، فاجتمع النـاس ، فدعاهم إلى التطوع ، ولكنهم تفرقوا على غير إجابة . ثم صلى عمر والمسلمون الفجر ، وبايـع الناس على الخلافة ، وعاد يطلب تطوعهم لحرب العراق . واستمر على ذلك ثلاثة أيام ، ولا يتطوع أحد ، فقد كان قتال الفرس من أكره الوجوه الى العرب وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم[1].

فلما كان اليوم الرابـع ، بدأت عملية دعاية للتطوع ، فقام المثنى في مسجد رسول الله ﷺ وقال :

« أيها الناس . لا يعظمن عليكم هذا الوجه .. فإنـّا قـد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شِقـّي السواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » .

ثم قام عمر في الناس فقال :

---

(١) الطبري ٦١/٤ س ش س ، عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد .

« إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجْعَة [١] ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطُّرَّاء [٢] المهاجرون عن موعود الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه ومعز ناصره ، ومولي أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ؟! » .

استجابة

وأحدثت هذه الصيحة المؤمنة أثرها ، فصاح رجل : « أنا لها » والتفت الناس ، فوجدوا أن أول من تطوع ، كان أبو عبيد بن مسعود [٣] الثقفي . ثم قام سعد بن عبيد الأنصاري ، حليف بني فزارة فقال : « أنا لهـــا » ، وذلك لفعلة فعلها ، أراد أن يتقرب إلى الله ويكفر عنها . ثم كان ثالث من تطوع سليط بن قيس . ثم تتابع الناس على ذلك ، حتى اجتمع ألف رجـل من المدينة وما حولها [٤] . أكثرهم من ثقيف قوم أبي عبيد ، ومن الأنصار أوسيّهم وخزرجهم .

كيف تقاعد المسلمون عن التطوع ولم يبادروا إليه ، إلا بعد أن خطب المثنى ، وأغلظ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما في حثهم،وحتى لجأ عمر إلى التلويح لهم بالدنيا ، حين أشـــار إلى أن الحجاز لن تكون إلا دار من يقنع بالكلأ ، وحتى أشار المثنى الى ريف فارس ، وخير أرض سوادهم ! لمـــاذا تثاقلوا ، وليس هذا عهد التاريخ بهم ؟ .

---

(١) النجعة : طلب الكلأ ـ مختار الصحاح .

(٢) اطرأه : بالغ في مدحه ـ المنجد .

(٣) هو أبو عبيد بن عمرو بن عُمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف [فتوح البلدان] . قال ابن عبد البر: « كان من جلة الصحابة» [الاستيعاب ١٢٤ كنى] ولكن يبدو أنه كان من الصحابة بمعناها الواسع ، وهو كل من لقي الرسول مؤمناً به ولو مرة . ولا يعلم له شيء من رواية الحديث .

(٤) الطبري ٤/٦١ بنفس السند .

نظن والله أعلم ، أن خير المسلمين كانوا قد سبقوا في الخروج الى جيش العراق الأول الذي قاده خالد بن الوليد ، والى جيوش الشام التي تتأهب للمعركة الفاصلة في اليرموك . وهي جيوش تبلغ في جملتها نحواً من خمسين ألفاً من خيار المسلمين ، وأبطالهم الذين ثبتوا على إسلامهم حين ارتد الناس . بل إن جيش فتح العراق كما رأينا ، كان بعض جيوش قمع الردة ، استطرد في عملياته بعد أن فرغ من مهامه في شبه الجزيرة .

كذلك ربما كان لوفاة أبي بكر ، أثرها المحزن في نفسيات أهل المدينة ، الأمر الذي لا يساعد أحدهم أن يتخذ قراراً سريعاً في أمر خطير كهذا ، لا سيما وأن الخليفة من بعده عمر ، وقد كان معروفاً عنه الشدة . دخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر قبل وفاته فقال : « استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف اذا خلا بهم ، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك؟» ، وكان أبو بكر مضطجعاً فقال: «أجسلوني» فأجلسوه ، فقال لطلحة : « أبالله تخوفني ؟ إذا لقيت الله ربي ، فساءلني ، قلت استخلفت [1] على أهلك خير أهلك » .

وجاء علي بن أبي طالب على عجل بعد وفاة أبي بكر ، فوقف ببابه وهو يبكي ويقول : « رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غِنىً وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خُلقاً وفضلاً وهَدْياً وسَمْتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ، وعن المسلمين خيراً . صدّقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله في كتابه صدّيقاً فقال : « والذي جاء بالصدق وصدق به [2] » يريد محمداً ويريدك . كنت والله للإسلام حصناً ، وللكافرين

(١) الطبري ٥٤/٤ عن اسماء بنت عميس .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٣ .

ناكباً . لم تضْلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض ، كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوي ، والقوي عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوي وتأخذه للضعيف . فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك » .

وقال عمر : « يا خليفة رسول الله، لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك » .

وبكت النساء ، وعلا نواحهن فقال عمر : «قال رسول الله ﷺ : « إن الميت يعذب ببكاء الحي » . ونهاهن عن النوح فأبين . فقال عمر لهشام بن الوليد أخي خالد بن الوليد : « قم فأخرج النساء » . فقالت عائشة : «أخرج عليك ؟!» فقال عمر : « ادخل فقد أذنت لك » . فقالت عائشة :«أمخرجي أنت يا بني ؟ » ، قال : « أمّا لك قد أذنت » فجعل هشام يخرجهن امرأة امرأة ، حتى خرجت أم فروة بنت أبي قحافة [1] .

كان المسلمون في مصيبة عامة شاملة ، لا بد أن يكون لها أثرها النفسي والعاطفي عليهم .

هفوة عظيم

اجتمع لعمر ألف من المتطوعين ، وبقي أن يختار القائد . ونعجب هنا من عدم توليته المثنى ، وقد استعمله أبو بكر على من خلف خالد بالعراق ، وقد كانت وصيته قبل وفاته الى عمر أن يندب الناس مع المثنى . قيل لعمر : « أمّر عليهم رجلاً له صحبة من السابقين ، من المهاجرين والأنصار » . ولكن عمر كان شديد التأثر من امتناعهم أول الأمر عن التطوع . قال :« لا

---

(١) الإصابة ٨٩٧٦ في ترجمة هشام بن الوليد .

والله لا أفعل... يا أصحاب النبي لا أندبكم فتنكلون، وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم .. إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العـــدو . فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء. فإذا فعل فعلهم قوم واثاقلوا، كان الذين ينفرون خفافاً وثقالاً أولى بها منهم. والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً .

ثم دعا أبا عبيد وسليطاً وسعداً [1] . فقال لسليط وسعد :

« أما أنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها ما لكما من القدمة » .

فأمّر أبا عبيد على الجيش وقال له :

« اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهـد مسرعاً حتى تتبين . إنه لم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب،وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان .. والله لولا سرعته لأمّرته،ولكنها الحرب

---

(١) سعد بن عبيد الأنصاري حليف بني فزارة ، شهد بدراً مع النبي صلى الله عليه وسلم. قيل هو أبو زيد الذي جمع القرآن على عهد رسول الله ، وقيل أبو زيد غيره . ولكنه كان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد النبي ، وكان يسمى سعد القارىء ، ولم يكن احـــد يسمي القارىء غيره . وكان يؤم المسلمين في الصلاة بمسجد قباء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ،زمن ابي بكر وعمر .

[الاستيعاب ٢/٣٨ - الإصابة ٣١٧٦] .

أما سليط بن قيس من بني عدي بن النجار من الخزرج ، فقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما كتب رسول الله إلى ملوك الآفاق ، وكتب الى كسرى والنجاشي والمقوقس ، كتب أيضاً إلى هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة ، وإلى أهل اليمامة يدعوهم الى الإسلام ، وأنفذ كتابه ذلك مع سليط بن قيس . وربما كان لذلك بعثه ابو بكر ردءاً [مؤخرة] لخالد بن الوليد في حرب مسيلمه باليمامة ١١ هـ حتى لا يؤتى من خلفه . وقد تطوع لحرب العراق وتطوع معه اخوه المنذر وكان ممن شهد أحداً والمشاهد مع رسول الله .

[الاستيعاب ٢/١١٧ – الاصابة ٣٤٢٥ و ٧٢٢٨] .

والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف [1] » .

ما من عظيم إلا وله خطأ وأخطاء.وحسب المرء فخراً أن تحصى أخطاؤه وأن تعد معايبه . ولقد قالها عمر نفسه رضي الله عنه في إحدى القضايا : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . وليس لمثلنا جرأة الحكم على مثل عمر ، ولكنه كان حكم الأحداث والتاريخ الذي قال كلمته . قال : إن عمر أخطأ الاختيار . إن كان أراد الصحابة ، فكان لديه الصحابة .. وإن كان أراد السبق ، فقد كان المثنى أسبق .. وإن كان أراد الأعلم بالحرب ، فلم يكن أبو عبيد هو الأعلم بها . إن اختيار قواد الجيوش مسؤولية جسيمة وخطيرة ، كيف لا ؟ وهم يوضع بين أيديهم تاريخ الأمة ومكانتها وسمعتها ومستقبلها ومصائر خير بنيها، يتصرفون فيهم بما يرون ويكونون طوع بنانهم ورهن إشارتهم . فإذا كان ذلك الاختيار سيئاً بيّن السوء ، فلا شك أن مسؤولية ما يحدث من أخطاء ذلك القائد ، إنما تقع على عاتق الحكومة أو السلطة التي اختارته وهي التي تُسأل على أي أساس اختارته . قال أبو بكر حين حضرته الوفاة في حديث طويل :

« ... ووددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ، كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يديّ كلتيهما في سبيل الله [2] » . بهذا يلفت أبو بكر النظر إلى ضخامة هذه المسؤولية وجسامتها ، حين يتمنى وهو يحتضر لو أنه كان استعمل على جيش المسلمين بالعراق الرجل الذي استخلفه على أمة الإسلام . وقال عمر بن الخطاب في بعض المناسبات : « رحم الله أبا بكر ، كان أعرف بالرجال مني » .

---

(١) الطبري ٤/٦١ عن السري بن يحيى عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد . فتوح البلدان ٦٢٤ .

(٢) الطبري ٤/٥٣ عن يونس بن عبد الاعلى عن يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد ، عن علوان عن صالح بن كيسان عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه .

وصية عمر

وأرسل عمر المثنى حتى لا يغيب عن جيشه . وقال له :

« النجاء حتى يقدم عليك أصحابك » .

وانطلق المثنى مسرعاً ، يطوي الطريق من المدينة إلى الحيرة ، بسرعة تجاوز المائة كيلومتر في اليوم على ظهر فرسه،حتى بلغها في عشرة أيام،فبلغها في حوالى الخامس من رجب ١٣ هـ الموافق ٤ سبتمبر (أيلول) ٦٣٤ م . ثم راح عمر يستكمل الحشد ، فندب أهل الردة، وكأنما كانوا على أحر من الجمر، وفي ضيق ليس كمثله ضيق من حرمانهم من الفتوح ، فأقبلوا سراعاً من كل أوب ، فرمى بهم عمر إلى الشام ، وإلى العراق . وأوصى عمر أبا عبيد فقال :

« إنك تقدم على أرض المكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ،[الجبروت]. تقدم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون . وأخزن لسانك ، ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيعه كان بمضيعة [1] » .

وكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح قائد جيوش الشام :

« إنك على الناس ، فإن أظفرك الله فاصرف أهل العراق إلى العراق ، ومن أحب من أمدادكم إذا هم قدموا عليكم » .

في بلاط فارس [2]

وفي هذه الأثناء كانت الفتنة مشتعلة في بلاط فارس . وكانت بوران بنت كسرى برويز ، من أكثر أهل فارس عقلاً وغيرة على صالح دولتها . كما كان

---

(١) الطبري ٦٦/٤ س ش س عن محمد وطلحة ومجالد وزياد والنضر بإسنادهم .
(٢) « ٦٢/٤ « « « « « بإسنادهم ، وعن عمرو عن الشعبي وأبي روق .

لها من مواقفها وشخصيتها ما جعل ساسة فارس يلجؤون إليها ويأتمرون بأمرها ، حتى يصطلحوا وتهدأ الفتنة. فلما قتل فرخزاذ بن بندوان في المدائن وهو يطمع في الملك بزواج آزرميدخت، كما قتل سابور بن شهربراز، كان رستم بن فرخزاذ حاكم خراسان . فثار رستم لمقتل أبيه ، وأرسلت بوران إليه واستحثته بالسير ، فزحف من خراسان إلى المدائن، لا يلقى جيشا لآزرميدخت إلا هزمه ، ثم حاصر المدائن ودخلها، وقتل آزرميدخت بعد أن فقأ عينيها، وقتل سياوخش ، وعادت بوران عَـدْلاً بين الناس ، حتى نصّبوا يزدجرد الثالث. وشكت بوران إلى رستم تضعضع فارس وإدبار أمرها، ودعته إلى القيام بالأمر في البلاد على أن تُمَلِّكَه وتطلق يده في السلطة عشر سنوات يكون الملك بعدها في آل كسرى ، إن وجدوا من رجالهم أحداً ، وإلا ففي نسائهم .

قال رستم : « أما أنا فسامع مطيع غير طالب عوضاً ولا ثواباً . وإن شرفتموني وصنعتم إليّ شيئاً ، فأنتم أولياء ما صنعتم . إنما أنا سهمكم وطوع أيديكم » . قالت بوران : « أغد عليّ غداً » .

وفي اليوم التالي غدا عليها ، وكانت قد عقدت اجتماعاً لمرازبة فارس ، فكتبت له : « إنك على حرب فارس ، ليس عليك إلا الله عن رضى منا وتسليم لحكمك . وحكمك جائز فيهم، ما كان حكمك في منع أرضهم وجمعهم عن فرقتهم » . وتوّجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا . فدانت له فارس بعد قدوم أبي عبيد إلى الحيرة . وقد بلغها بعد المثنى بشهر [حوالي ٣ شعبان ١٣ هـ - ٢ اكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤ م] .

وكان رستم منجماً عالماً بالنجوم ، فقال له قائل : « ما دعاك إلى هذا الأمر وأنت ترى ما ترى ؟ » قال : « الطمع وحب الشرف [١] » .

---

(١) الطبري ٤/٦٤ س ش س، عن الصلت بن بهرام عن أبي عمران الجعفي .

تقدير الموقف

١ — ثار رستم بخراسان لمقتل أبيه ، وزحف نحو المدائن ، فأسقط آزرميدخت، ثم ولـتّه بوران شؤون الحرب ، ومنحته أوسع السلطات .

٢ — توفي الخليفة أبو بكر بالمدينة ، وولي الخلافة عمر ، فحشد حشداً جديداً لإمداد جيش العراق . وولي القيادة أبا عبيد بن مسعود الثقفي .

٣ — عاد المثنى من المدينة الى الحيرة ،ولحق به أبو عبيد في الجموع الجديدة.

٤ — جمهور جند المسلمين بالحيرة . وجانب من سواد العراق تحت سلطانهم ومسالحهم بالسيب ، وغاراتهم متصلة تنتهي الى شطآن دجلة . ودجلة حاجز بينهم وبين الفرس . جيش المسلمين بالعراق حوالي ٩٠٠٠ قبل المدد الذي بلغ حوالي ١٠٠٠ أكثرهم من الأنصار [الأوس والخزرج] ومن ثقيف قبيلة أبي عبيد ، فكان جيش المسلمين بالعراق نحواً من عشرة آلاف .

إنتهاء الهدنة

استقرت الأحوال داخل فارس واستكمل المسلمون استعدادهم فلم يعد للهدوء مجال . وما أن مضى على عودة المثنى من المدينة خمس عشرة ليلة حتى بـدأ رستم يتحرك ،فكتب الى دهاقين السواد يحرضهم ويأمرهم أن يثوروا بالمسلمين. ودس في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله . فبعث جابان الى البهقباذ الأسفل ، وبَعث نَرْسي — وكان ابن خالة كسرى — الى كسكر ، وكانت كسكر إقطاعية له يزرع فيها نباتاً اسمه النرسيان [لم ندر ما هو] فكان حكراً عليهم لا يغرسه ولا يطعمه بشر غيره سوى ملك فارس أو من أكرموه بشيء منه ، فكان ذلك الثمر من حماهم . فقال رستم وبوران لنرسي: « اذهب الى قطيعتك فاحمها من عدوك وعدونا وكن رجلاً !! » وحدد رستم لرجاله ساعة يبدؤون بعدها ، وأراد أن يشجعهم فعهد إليهم أن الأمير عليهم أول من يثور . كما بعث جيشاً لمصادمة المثنى في الحيرة .

معركة النمارق [1]

٨ شعبان ١٣ هـ – ٧ اكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤ م

انسحاب

خلق الإنسان من طينة هذه الأرض ، فهو دائماً يحنّ إليها ، وتنشأ بينه وبين ما ينزل منها من العواطف والمحبة والتعلق ما لا يقل عن تعاطف الناس مع من يحبون . وفي الحروب كثيراً ما يورد هـذا أصحابه موارد التهلكة حين يتشبثون بأرض الدفاع عنها عسير غير مجد ، ومن شاء فليسأل التاريخ عن نابليون وعـن هتلر . أما المثنى فكان من أهل البادية ، عاش حياته في بيوت الشعر يتنقل بهـا عمره كله من مكان إلى آخر ، فساعده ذلك على التخلص من هذا النوع من حب الأرض ، وكان رجل حرب يعرف الصواب فيها من الخطأ ، كما كان يدرك أنه لا يحارب من أجل أرض،وأن الأرض حتماً لمن غلب .

كان المثنى يلحظ كل ما يحدث لدى الفرس ، فبادر إلى سحب مسالحه من جميع أرض العراق وضم إليه جنده . وتعجل جابان فكان أول من ثار بفرات بادقلي ، ونزل في جنده موقعاً متقدماً في النمارق [2] بـين الحيرة

---

(١) الطبري ٦٣/٤ – ٦٤ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد باسنادهم . وعـن الصلت بن بهرام عن أبي عمران الجعفي .

(٢) نعتذر عن عدم تحديد موقع النمارق على خرائطنا إذ لم نجد في هذا المجال سوى أنها بين الحيرة والقادسية ، وهي مسافة تبلغ حوالي ٣٠ كيلو متراً .

والقادسية ، وقد اجتمع إليه جمع كبير . ثم ثار نرسي ، ونزل زَندَوَرْد .
وثارت جميع الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله . وانسحب المثنى دون
اشتباك فنزل بالمسلمين في خَفّان حتى لا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه ، حتى
قدم إليه أبو عبيد بمن معه في حوالي ٣ شعبان ، فأقام أياما بخفان ليستجم
أصحابه من وعثاء الطريق — وخفان موضع بتخوم الصحراء أسفل من
القادسية — وأراد جابان ونرسي مزيداً من الاطمئنان ، فطلبا من المدائن
تعزيزات لقواتها .

المعركة

وخرج أبو عبيد وعبأ قواته ، فجعل المثنى على المجردة ، وجعل على
ميمنته والق بن جيدارة ، وعلى ميسرته عمرو بن الهيثم بن الصلت بن حبيب
السلمي . وعبأ جابان قواته ، فجعل على ميمنته جشنس ماه في مقابلة عمرو
ابن الهيثم ، وعلى ميسرته مَرْدَانشاه في مقابلة والق بن جيدارة . وزحف
المسلمون من خفان نحو النمارق ونزلوا على جابان ، فاقتتلوا قتالا شديداً .
ودارت الدائرة على الفرس لصالح المسلمين . وبصر مطر بن فضة وأبيّ برجل
عليه حليّ فشدا عليه فأخذاه أسيراً ، فوجداه شيخاً كبيراً . فزهد فيه
أبيّ ورغب مطر في فدائه فاصطلحا على أن سلبه لأبيّ ، وأن فداء إساره
لمطر . وأخذ أبيّ ما عليه . فلما خلص به مطر قال له الرجل : « إنكم
معاشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمنني وأعطيك غلامين أمردين
خفيفين في عملك وأعطيك كذا وكذا؟ » قال : «نعم» قال : « فأدخلني على
ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه » . فأدخله على أبي عبيد فأجاز أبو عبيد
ذلك، وتم للرجل ما أراد وهم لا يعرفونه. ثم عرفه قوم من ربيعة فقالوا: «هذا
الملك جابان، وهو الذي لقينا بهذا الجمع ». وأشاروا بقتله . وقام أبيّ فقال:
« أسرته أنا وهو على غير أمان » ، ولكن أبا عبيد وفّى لجابان بعهده ،
وقال : « ما تروني فاعلا معاشر ربيعة ! أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا ؟ معاذ

الله من ذلك . إني أخاف أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم . المسلمون في التواد والتناصر كالجسد مالزم بعضهم فقـد لزمهم كلهم ! » قالوا : « إنه الملك » قال : « وإن كان . لا أغدر » . فأطلقه أبو عبيد .

وأسر أكتل بن شماخ العُكْلي مردانشاه فضرب عنقه . وقسّم أبو عبيد الغنائم وكان فيها عطر كثير ، يـــدل على حرص الفرس على ترفهم حتى في معاركهم . وبعث بالأخماس مع القاسم [1] . وقال المثنى [2] :

غلبنـــا على خفان بيضا مشيحة ... إلى النخلات السمر فوق النمارق

وإنا لنرجو أن تجول خيولنا ... بشاطىء الفرات بالسيوف البوارق

(١) لم يذكر رواة الطبري اسمه كاملا - وربما كان القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي ، فقد كان بنو ثقيف مع أبي عبيد كثير وكان يعتمد عليهم . ولم نجد في الإصابة من بني ثقيف قاسماً غيره . [الاصابة ٢ ٧٠٥٢] .

(٢) المثنى بن حارثة ٩٩ .

معركة السقاطية (١)

١٢ شعبان ١٣ هـ – ١١ اكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤ م

مطاردة

اتجهت الفلول الهاربة على غير انتظام من النمارق نحو كسكر لتلجأ الى نَرْسي وجيشه الذي كان بزندورد . فأرسل أبو عبيد مجردته [فرسانه] من بني شيبان وبني تميم يقودها المثنى لمطاردتهم فيما بين النمارق الى بارق والى دُرْتا وقال لهم :

« اتبعوهم حتى تدخلوهم عسكر نرسي أو تبيدوهم » .

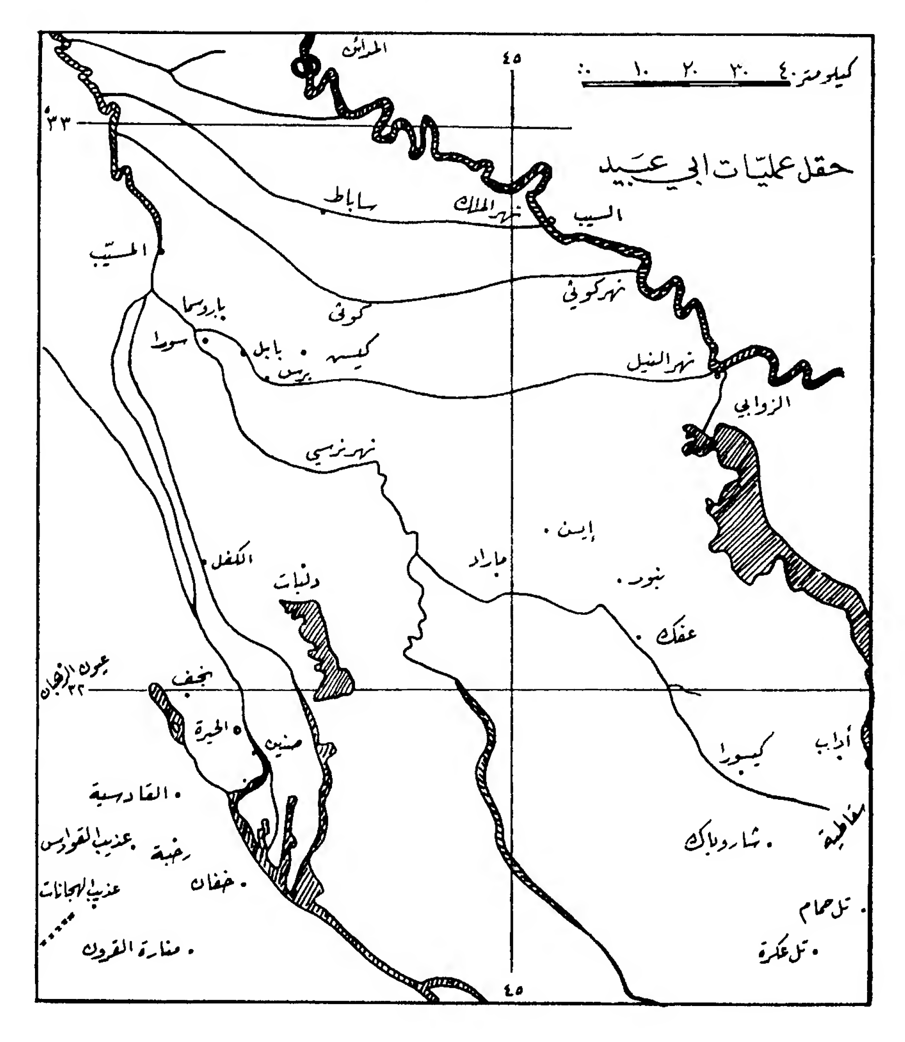
انطلقت الفرسان ونادى أبو عبيد في سائر الجيش بالرحيل في أثرها نحو كسكر . وفي هذه المطاردة ، قال عاصم بن عمرو فارس بني تميم :

لَعَمْري وما عمري عليَّ بهيِّنٍ   لقد صُبِّحَت بالخزي أهل النمارقِ
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم   يجوسونهم ما بين دُرْتا وبارقِ
قتلناهمُ ما بين مرجٍ مُسْلحٍ   وبين الهَوافي من طريق البذَارقِ

وكان نرسي مرابطا جنوب كسكر والمسلمون بنفس تعبئتهم التي قاتلوا بها جابان . المثنى على المجردة ، والق على الميمنة ، عمرو على الميسرة . وقد

(١) الطبري ٤/٦٤ – ٦٦ عن السري بن يحيى عن شعيب بن ابراهيم عن سيف بن عمر عن محمد وطلحة وزياد . وقال أبو عبيد .

عبأ نرسي قواته ،فجعل على أجنابه ابنيّ خاله وهما ابنا خال كسرى ، فكان بِنْدَوَيْه بن بسطام على ميمنته في مقابلة عمرو ،وكان أخوه تيرَوَيْه بن بسطام على ميسرته في مقابلة والق . وضم نرسي الى جيشه حشوداً من أهل باروسما ونهر جوْبر والزوابي [أو الزاب بأسفل اقليم بابل] .



خريطة رقم (٢٦) — السقاطية ، باروسما

ووصلت أخبار هزيمة جابان الى بوران والى رستم بالمدائن،فكلفا جالينوس أن يخرج على جيش آخر ليدرك المعركة ، وأرسلا بذلك الى نرسي فتمنى لو يلحق به قبل المعركة ، غير أن أبا عبيد لم يمهله إذ زحف إليه وكان اسرع من عدوه،فالتقوا بالسقاطية جنوب كسكر قريباً من مدينة واسط [١] ، فاقتتلوا في صحارى مُلسٍ قتالا شديداً انتصر فيه المسلمون على الفرس، وهرب نرسي وغلبه ابو عبيد على عسكره وارضه فأخرب ما كان حول معسكرهم من ارض كسكر . وجمع الغنائم فرأى من الأطعمة شيئاً عظيماً.فبعث فيمن قرب منه من المسلمين فحملوا منه ما شاؤوا ، وأخذ المسلمون خزائن نرسي فلم يكونوا أفرح بشيء مما خزن منهم بالنرسيان بسبب انــه كان يحتكره ويمنعه الناس ويمالئه ملوك الفرس على ذلك . اخذوه فاقتسموه وصاروا يطعمونه الفلاحين الذين طالما حرموه . وبعثوا بخمسه الى عمر وكتب أبو عبيد اليه :

« إن الله اطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونهـا واحببنا أن تروها ، ولتذكروا انعام الله وافضاله » .

وقال عاصم بن عمرو [٢] :

ضربنا حماة النرسيان بكسكر	غــداة لقيناهم ببيض بواتر
وفزنا على الأيام والحرب لاقح	بجرد حسان أو بــبرد غوابر
وظلت بــلاد النرسيان وتمره	مباحا لمن بــين الديار الأضافر
أبحنا حمى قــوم وكان حماهم	حراما على من رامه بالعساكر

(١) الفتح العربي للعراق وفارس ١٢٨ ـ وفي معجم البلدان ، السقاطية أسفل من كسكر في صحاري ملس .

(٢) شعراء الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام ١٣٠ عن معجم البلدان .

مطاردة

أقام ابو عبيد بكسكر بعد المعركة وبعث قوات المطاردة. فسرّح المثنى الى باروسما . وبعث والق وكذلك عروة بن زيد [1] الخيـــل الطائي الى الزوابي . [قال كريستنسن [2] لم تكن الزوابي إلا ولاية استان من السواد الذي يحوي اثنى عشر ولاية ، وهي ناحية من إقليم بابـل الأسفل ، تخترقها القنوات المسماة بالزاب] . وبعث عاصماً الى نهر جوبر [3] . فوجدوا فلولا تتجمع فهزموها وأخربوا ما وجدوا وسَبَوْا . وقد كانت هذه المناطق ممـــا صالح أهلها خالد بن الوليد، ثم نقضوا عهدهم وثاروا ضد المسلمين حين دعاهم رستم الى الثورة ، فكانت هذه الاغارات من قبيـل الاجراءات التأديبية . وكان مما أحزب المثنى وسبى اهل زندورد وبسريسي ، وكان ممن أسر عاصم اهل بيتيق من نهر جوبر ، وممن اسر والق ابو الصلت .

وخرج اثنان من الدهاقين الى المثنى يطلبان اداء الجزية والدخول في ذمة المسلمين دفعا عن أرضهم . احدهما فرُّوخ عن باروسما والثاني َفرْوَنْداذ عن نهر جوبر ، فأرسلها المثنى الى ابي عبيد فصالحاه عن كل رأس اربعة دراهم ـ

---

(١) في فتوح البلدان ٦٢٤ ان أبا عبيد ارسل عروة ، وفي الطبري انـــه ارسل والقا الى الزوابي . ولقد كان عروة محارباً قديماً شهد بعض الحروب مع أبيه في الجاهلية وهو غلام ، قال عروة :

جلبنا الخيل من أجا وسلمى ... تخب نزائعاً خبب الذئاب
جلبنا كل طرف أعوجي ... وسلهبة كخافيـة العقاب .

(٢) ايران تحت حكم الساسانيين ٢٦١ و ٥٠٠ .

(٣) قال ياقوت الحموي عن نهر جوبر: «هو نهر من سواد العراق بالبصرة دخل في نهر الأجانة» [معجم البلدان] بينما عده ابن خرداذبه من سقي الفرات غربي دجلة، قال كورة أردشير بابكان خمسه طساسيج (نواحي) ، طسوج بهرسير ، والرومقان ، وكوثى ، ونهر درقيط ، ونهر جوبر [المسالك والممالك ٧] وطابقه على ذلك قدامة بن جعفر [الخراج وصنعة الكتابة ٢٣٦] وهذا هو المعقول لموافقته لمسرح العمليات .

كما تم مثل هذا الصلح مع اهل الزوابي وكسكر ، وضمنا لهم رجالهم وصاروا صلحاً وذمة .

هدايا من الاطعمة

وجاء فرُّوخ وفروندناذ الى أبي عبيد بآنية فيها انواع من الأطعمة الفارسية من الألوان والأخبصة وغيرها، فقدماها إليه وقالوا : «هذه كرامة أكرمناك بها وقِرىً [1] لك » . قال : « أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ » قالوا : « لم يتيسر ونحن فاعلون » . وإنما كانوا يتقربون من ابي عبيد ويخشون قدوم جالنوس وما يصنع بهم . فرفض ابو عبيد الطعام وقال :« فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند » ، ورده ورفض ان يؤثر نفسه بشيء على سائر المسلمين .

كما جاءه [2] اندرزغر بن خوكبذ بمثل ما جاء به فروخ وفروندناذ فقال لهم : « أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم؟ » قالوا : « لا » . فرده وهو يقول: « لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء ابو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم اهراقوا دماءهم دونه ، او لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه . لا والله لا يأكل مما افاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم » .

---

(١) القرى:ما يقدم الى الضيف .

(٢) الطبري ٦٦/٤ س ش س ، عن النضر بن السري الضبي .

معركة باقسياثا [1]

١٧ شعبان ١٣ هـ — ١٦ أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤ م

خرج أبو عبيد من السقاطية نحو باروسما ، فبلغه مسير جالنوس ، وقد اجتمعت إليه فلول جابان . لقد كان مكلفاً أن يدرك نرسي قبل المعركة ، غير أنها كانت أسرع منه فلم يدركها ، ولم يدع له أبو عبيد فرصة الوصول إلى كسكر إذ زاحفه . فنزل جالنوس في باقسياثا من أرض باروسما والتقوا ، أبو عبيد في جيش المسلمين المنتصر في النمارق والسقاطية ، وجالنوس ، في جيش ضم أعداداً كبيرة من الفلول المنهزمة من المعركتين ، وقلما يفلح مهزوم فقد معنويته . حالة كهذه كانت تستلزم من المجوس استبعاد العناصر التي منيت بالهزيمة من قبل مرات ومرات . ودارت المعركة ، فانتصر المسلمون ، وعمد جالنوس إلى الفرار ، وأقام أبو عبيد في قرية من قرى باروسما ، وقد غلب على تلك البلاد .

وعاد الدهاقين يداهنون المسلمين ، ويصنعون لهم الطعام . فلما قدّموا الطعام إلى أبي عبيد قال : « ألم أعلمكم أني لست آكلاً إلا ما يسع من معي ممن أُصِبْتُم بهم ؟ ما أنا بالذي آكل هذا دون المسلمين » . [2] فقالوا له :

---

(١) الطبري ٤/٦٦ س‌ش‌س، عن النضر بن السري والمجالد. وعن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

(٢) « ٤/٦٥ « « « « « « ومجالد بإسنادهم . وعن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

« كلْ فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤتى في منزله بشبعه بمثل هذا وأفضل » . فأكل ، فلما رجعوا إليه سألهم عن طعامهم فأخبروه بما جاءهم. وأخبره الدهاقين أنهم إنما كانوا قصروا من قبل تربصاً ومخافة عقاب الفرس لهم .

وجلس أبو عبيد ليطعم ، وقد أرسل يدعو أناساً من المسلمين كانوا يأكلون معه أضيافاً عليه ليشاركوه. وكانوا قد أصابوا شيئاً من نزل فارس [أطعمتهم وتموينهم] ، فظنوا أنه يدعوهم إلى مثل ما كان يدعوهم إليه من غليظ العيش، وكرهوا ترك ما أُتـُوا به من ذلك ، فقالوا للرسول الذي جاء يدعوهم: « قل للأمير أنـّا لا نشتهي شيئاً مع شيء أتتنا به الدهاقين ». فأرسل إليهم الرجل الكريم أبو عبيد وقد كره أن يطعم وحـده: « إنه طعام كثير من أطعمة الأعاجم لتنظروا أين هو ممـا أتيتم به ، إنه قَرْو ونجم وجوزل وشواء وخردل ..» وعدد لهم أسماء الأطعمة. وفي ذلك قال عاصم بن عمرو وأضيافه عنده في سمر واحتفال بالنصر :

إن تكُ ذا قَرْوٍ ونـَجْمٍ وجَوْزَلٍ   فعندَ ابنِ فَرُّوخٍ شواءٌ وخَرْدَلُ
وقروٌ رقاقٌ كالصّحائِفِ طُوِّيَتْ   على مُزْعٍ فيها بُقـُولٌ وجَوْزَلُ

كما قال :

صَبَحْنا[1] بالبَقـَايِسِ رهط كسرى   صَبُوحاً ليس من خَمْرِ السَّوادِ
صَبَحْنَاهُمْ بكل فتىً كـَمِيٍّ   وأجْرَدَ سابِحٍ من خيلِ عادِ

بعد ذلك نجد أبا عبيد يرتحل راجعاً إلى الحيرة ، وقـد جعل المثنى بن حارثة على مقدمته وسار على تعبئته . لا ندري هنا لماذا رجع أبو عبيد إلى الحيرة . من المحتمل أن يكون قد بلغته أنباء الاستعداد العظيم الذي يعـده

---

(١) الصبوح : شرب الخمر صباحاً، والغبوق: شربها عشياً . والمقصود في البيتين أننا سقيناهم صباحاً لا كما كانوا يشربون من خمرهم، ولكن سقيناهم الموت من أيدي الكماة الأبطال على الجياد الأصيلة.

الفرس ، فآثر الركون إلى مكان أكثر أمناً حتى ينظر مسارهم . وتقديرنا أنه وصل الحيرة في ١٩ شعبان ١٣ هـ.

النمارق والسقاطية وباقسياثا ، هذه المعارك الثلاث لم يكن للفرس فيها من تخطيط إلا الاعتماد على الكثرة العددية ، والإلقاء إلى الميدان بجند كبير بعد جند كبير ، وجمع كثيف بعد جمع كثيف . وهو أسلوب في الحرب ساذج ينقصه الفكر والتخطيط ، كأن لم يدرك الفرس بعد أن الحرب علم وفهم وفطنة . لقد كان المسلمون يدركون ذلك ، ولقد قرأنا في كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بالشام يعلمه بتأمير خالد بن الوليد على جيوش الشام ، يقول فيه : « .. ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك !» وقد قابل المسلمون استراتيجية الفرس بكثرة تحريك قواتهم القليلة ، ودوام نشاطها لملاقاة هذه الجيوش الجرارة والمبادرة بالالتحام بكل جمع قبل أن يلتقي بالجموع الأخرى. فإذا كانت الكثرة العددية هي ميزة الفرس التي امتازوا بها في معاركهم ، فقد كانت المهارة هي ميزة المسلمين التي قابلوا بها كثرة الفرس ، والقلة الماهرة المدربة تغلب الكثرة الساذجة الجاهلة . وقد كان من الأفضل لهم أن تتحول هذه التحركات العشوائية البلهاء إلى خطة تطويق لجيش المسلمين ، جيش جابان من جهة وجيش نرسي من جانب آخر ، وجيش جالنوس من جانب ثالث ، غير أن جابان تعجل الالتحام ، ونرسي عمد إلى المرابطة في جنوب كسكر إلى جانب أراضيه وزروعه وممتلكاته ، وبذلك كلفه رستم وبوران . وجالنوس أبطأ عن إدراك المعركتين . كان بوسعهم جميعاً أن ينتظروا مقدم أبي عبيد ليحيطوا به من ثلاث جهات ، ولكنهم لم يفعلوا ، واستمروا على استراتيجية المواجهة التي فشلت أمام حملة خالد بن الوليد . من المؤكد أنه لم يكن بالمدائن من ينظر ويفكر ويتدبر ويتعلم ثم يصدر عن فكر وخطة . ولكن كان بالمدينة أبو بكر وعمر .

معركة الجسر (١)

وتعرف أيضاً بالمروحة ، والقرقس ، والقسّ ، وقُسّ الناطف
٢٣ شعبان ١٣ هـ – ٢٢ أكتوبر (تشرين اول) ٦٣٤م (٢)

تجهيز كبير

في الواقع أن اسم « المروحة » هو اكثر الأسماء مناسبة لشكل هـــذه المعركة وطبوغرافيتها ، ولكن اشتهارها باسم الجسر أكثر، وهي من أشهر معارك فتح العراق . عــاد جالنوس ومن أفلت معه من باقسياثا إلى المدائن ، فوقف موقف المساءلة . وليس أشق على نفس قائد منهزم من أن يقف موقف

(١) الطبري ٤/٦٧ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .
وعن المجالد وسعيد بن المرزبان وعطية والنضر .
وعن النضر بن السري عن الأغر العجلي .
وعن رجل عن أبي عثمان النهدي .
وعن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن عبد الرحمن بن الحصين.

(٢) توفي أبو بكر رضي الله عنـــه في ٢١ جمادى الآخرة ١٣ هـ = ٢٢ / ٨ / ٦٣٤ م . وبعد وفاته كانت اليرموك على روايتين ذكرهما الطبري . فمن محمد وطلحة وعمر والمهلب [الطبري ٤/٣٢] أنها كانت بعد وفاة أبي بكر بعشر ليال . وعن محمد وطلحة وزياد باسنادهم [الطبري ٤/٦٣] أنها كانت بعد وفاته بعشرين ليلة . في حين كانت معركة الجسر – فـــبما يروي محمد وطلحة وزياد بإسنادهم – بعد اليرموك بأربعين ليلة ، ولا نعلم أحداً خالفهم في ذلك . وإذن فمعركة الجسر كانت بعد وفاة أبي بكر بخمسين ليلة أو بستين ليلة . =

الحساب أمام رؤسائه . وقد غضب منه رستم غضباً شديداً وحمّله مسؤولية الهزيمة . ثم سأل رستم : « أي العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » قالوا : « ذو الحاجب بهمن جاذويه » . وقد سمي ذا الحاجب لأنه كان يعضب[1] حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً . فأمّره رستم على قتال المسلمين ومنحه في هذه الحملة من الإمكانيات ما لم يجهز به جيش سبق لقتال المسلمين . فقد أراد

= فإذا أخذنا بأن وفاة أبي بكر سبقت اليرموك بعشر ليال، تقع معركة الجسر في ١٣ شعبان ١٣ هـ . أما إذا أخذنا بأنها سبقتها بعشرين ليلة فإن الجسر تقع في ٢٣ شعبان ١٣ هـ .

ومن حيث ان المثنى برح المدينة في اليوم الرابع او الخامس لوفاة ابي بكر أي في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣ هـ . بمجرد ان بدأ التطوع ، وأنه بلغ الحيرة في عشرة ايام أي في ٦ رجب ١٣ هـ . وان ابا عبيدة لحقه بعد شهر اي في ٥ او ٦ او حتى ٣ شعبان ، ثم اقام اياماً يستجم في خفان ، من هنا نرى ان الفترة بين بلوغ ابي عبيدة إلى الحيرة وبين ١٣ شعبان احد التاريخين المحتملين لمعركة الجسر تقصر ان تتسع لأربعة معارك كبرى هي النمارق والسقاطية وباقسياثا والجسر ، وتفصل بينها مسافات انتقال تجاوز ٥٠٠ كيلو متر .

ولذلك اتجهنا إلى الأخذ بالرواية الثانية القائلة بأن اليرموك كانت بعد وفاة ابي بكر بعشرين ليلة ، وان الجسر بعد اليرموك بأربعين ، فيكون يوم الجسر هو ٢٣ شعبان ١٣ هـ . وفيما بين تقديرنا لوصول ابي عبيد إلى خفان في ٣ شعبان وبين تقديرنا ليوم الجسر في ٢٣ منه قدرنا المواقع التي توسطت ذلك على أساس تقريبي بأن النمارق في الثامن والسقاطية في الثاني عشر وباقسياثا في السابع عشر ، إذا أخطأنا فيها أو في احداها ، فلن يكون الخطأ كبيراً . وقد جاء في فتوح البلدان ٦٢٦ ان موقعة الجسر كانت يوم السبت في آخر شهر رمضان ١٣ هـ ، وبه اخذ صاحب الاستيعاب في اسماء الأصحاب ولعله نقله عنه قال : « وذلك في آخر شهر رمضان او اول شوال من سنة ثلاث عشرة » ، وهذا يتعارض مع ما ذهبنا إليه بالحساب ويتعارض مع وقوع الموقعة التالية في البويب في رمضان كما ذكر رواة الطبري ، وهي رواية يؤيدها امر المثنى للمسلمين ان يفطروا من الصيام يوم البويب . ولذلك نرجح ما ذهبنا إليه على رواية البلاذري في هذا الشأن . وأياً ما كان فالفرق بينهما سبعة وثلاثون يوماً . وقد ذهب ابن الأثير [اسد الغابة ٤٧] إلى ان اليرموك كانت في الخامس من رجب ١٥ هـ ، وهو تقدير بعيد جداً عما نحن بسبيله .

(١) فتوح البلدان ٦٢٥ – يعضب : يعني يشق أو يفرق . وفرق الحواجب لا يرفعها عن العينين ، وربما كان الأصل يعصب يعني يربطها بعصابة. ولا بد أن حاجبيه كانا كثين إلى الدرجة التي تسمح بذلك .

رستم أن يكسب من المسلمين معركة تعيد إلى دولته موازنة في الموقف وتعيد إلىحكومته هيبتها وتعيد لجيوشها روحها المعنوية وثقتها فينفسها وفي قيادتها. فمنذ بـدأت عمليات المسلمين الحربية في العراق وهم يفوزون في كل موقعة ولم ينتصر الفرس قط . ولذلك فحاجتهم ماسة أن يكسبوا من المسلمين معركة .. أي معركة .

بعث رستم بهمن جاذويه لقتال أبي عبيد ، ورد معه جالنوس وجعله على المقدمة . وقال رستم لبهمن : « فإن عاد لمثلها فاضرب عنقه » . وأخرج معه راية فارس الشهيرة درَفشْ كابيان ، وكانوا لا يخرجونها إلا مع ملوكهم وفي معاركهم الحاسمة ، وأمده بأفيال القتال المدربة فيها الفيل الأبيض وهو أكبرها ، وتقلده سائر الأفيال عليه سعف النخل ، وأفيال سود . وكان في العجم المجوس يومئذ أربعة آلاف دارع يقودهم مردانشاه بن بهمن [1] .

وتقدم بهمن من المدائن نحو الحيرة ، وعلم أبو عبيد بذلك فخرج من الحيرة في ٢٢ شعبان [وكنا قـدرنا رجوعه إليها من باقسياثا في ١٩ منه] وتقدم حتى انتهى إلىبابل، ثم انحاز وعدل عنذلك فجعل الفرات بينه وبين المجوس. وإذ ذاك وقف بهمن بقواتـه على شاطىء الفرات بقس الناطف وعسكر بالمروحة [موضع برج بابل والعاقول] [2] .

أبو عبيد يخالف مستشاريه

وأرسل بهمن جاذويه أحـد رجاله مردانشاه الخصي رسولاً إلى أبي عبيد فقال له : « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر

---

(١) الاستيعاب ٤ ١٢٤ كثنى .

(٢) ذكر ابن خرداذبه دير العاقول في الطريق من المدائن الى البصرة ، قـال من المدائن الى دير العاقول ، ثم إلى جرجرايا ، ثم إلى جبل ، ثم الى فم الصلح، ثم إلى واسط ... الخ [المسالك والممالك ٥٩] .

إليكم » . فقال المسلمون : « لا تعبر يا أبا عبيد » ، « ننهاك عن العبور » ، « قـل لهم فليعبروا » . وكان من أشد الناس عليه في ذلك سليط بن قيس . ولكن أبا عبيد ترك الرأي وأصر على العبور ولجّ في ذلك وقال: «لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، بـل نعبر إليهم » ! فناشده سليط ووجوه المسلمين ، وقالوا : « إن العرب لم تلق مثل جنود فارس اليوم مذ كانوا . وإنهم قد [1] حفلوا لنا [اجتمعوا واحتشدوا] واستقبلونا من الزُّهَاء [2] والعدة بما لم يلقنا به أحد منهم ، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومرجعٌ من فَرّةٍ إلى كَرّة » . قـال أبو عبيد : « لا أفعل ! جَبُنْتَ والله يا سليط » قال سليط : « أنا والله أجرأ منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالرأي فستعلم » .

ونسي أبو عبيد وصية عمر إذ بعثه . نسي تحـذيره له من أرض المكر والخديعة ، ونسي قوله « وأخزن لسانك ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإن ضيعه كان بمضيعة ». نسي ذلك كله ، فدارت هـذه المناقشات حول العبور وعدمه أمام الخصي الفارسي مردانشاه رسول بهمن جاذويه ، فأدرك أهمية الموقع وخصائصه ، وكان مكيراً،فأراد أن يستدرج أبا عبيد فقال : « إن أهل فارس قد عيروكم بالجبن » ! وأنـّى له علم ذلك وهو لم يبرح مكانه؟ فازداد أبو عبيد مَحَكاً [3] ورد على أصحابه رأيهم فـلم يقبله ، وحلف ليقطعن الفرات إليهم وليمحصن ما صنع .

تروي الروايات أن دومة ، امرأة أبي عبيد، رأت رؤيا أنها بالمروحة وأن رجـلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب من الجنة ، فشرب منه أبو عبيد ، ثم

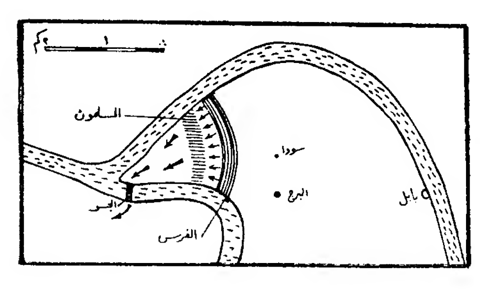
---

(١) الاستيعاب ١٢٤ كنى .

(٢) المنظر الحسن — مختار الصحاح .

(٣) محك الرجل : ثار ونازع في الكلام وتمادى في اللجاجة عند المساومة ـ المنجد .

شرب منه ابنه جبر وسبعة من أهله ، كلهم من ثقيف فأخبرت بها أبا عبيد . فقال : « هذه الشهادة » . ويبدو أن أبا عبيد كان يطمئن إلى صلاح زوجته وصدق رؤياها إذ أوصى إن هو أصيب ، فالأمير فلان فإن أصيب ففلان ، وعدد الأسماء التي رأتها دومة في رؤياها حتى قال : « فإن قتل أبو القاسم فعليكم المثنى » .



خريطة رقم (٢٧) — ملحمة الجسر

وجاء ابن صلوبا دهقان قس الناطف ، فعقد جسراً عائماً بين الفريقين . ويقال إن ذلك الجسر كان قديماً يعبر عليه أهل الحيرة إلى ضياعهم وكان معتلاً مقطوعاً فأصلحوه [١] ، ثم عبر عليه أبو عبيد والمسلمون ، وقد ترك لهم بهمن جاذويه منزلاً ضيق المذهب والمخرج يفقدون فيه ميزة المناورة وحرية الحركة، وليس لهم فيه مجال للكر والفر فعبروا إلى أرض ضاقت بهم.

المعركة

والتحم الفريقان ، وقد جاءت أفيال الفرس عليها النخل تجوس المسلمين ، وأقبلت خيلهم عليها التجافيف [الدروع] والفرسان عليهم شعارات الحرب ، فلما نظرت خيول المسلمين إلى ذلك رأت شيئاً لم تكن ترى مثله واستنكرته، فأجفلت منه وانزعجت وهربت مسرعة، فكان المسلمون إذا حملوا على الفرس لم تقدم خيلهم ، وإذا حمل الفرس على المسلمين بالفيلة، وقد علقوا بها أجراس وجلاجل ذات رنين وجلبة ، فرّت خيول المسلمين وفرقت بين وحداتهم .

---

(١) فتوح البلدان ٦٢٥ .

وإذ كان المسلمون في مكان ضيق فقد وجه اليهم الفرس وابلا من سهامهم. يصف الأغر العجلي ذلك المشهد فيقول :

« وخزقهم الفرس بالنشاب وعضّ المسلمين الألم » .

في حين لم يكن المسلمون يصلون الى الفرس. اذ ذاك فقدت فرسان المسلمين فاعليتها في المعركة . فقرر ابو عبيد التخلي عن الخيل ونزل عن جواده وترجل جميع المسلمين ثم مشوا الى الفرس في شجاعة نادرة ومع الفرس افيالهم وفرسانهم ومشاتهم فصافحوهم بالسيوف .

معركة غير متكافئة... كانت الفيلة لا تحمل على جماعة الا دفعتهم وألقت بهم . ولم يفقد ابو عبيد والمسلمون شجاعتهم وبسالتهم ورباطة جأشهم . كانوا جيشاً من الفدائيين مليئاً بصحابة رسول الله ﷺ . فنادى ابو عبيد « احتوشوا الفيلة [أحيطوا بها] وقطّعوا بُطنَها [احزمتها التي تحت بطونها] واقلبوا عنها أهلها». ثم كان أولهم في ذلك، فواثب الفيل الأبيض وهو اضخمها فتعلق بحزامه وقطعه وسقط الهودج الذي فوقه ووقع الذين كانوا عليه . وكان ابو محجن بن حبيب [١] الثقفي مع ابي عبيد في ذلك وضرب الفيل على عرقوبه . وفعل المسلمون مثل ذلك بالأفيال الأخرى فما تركوا فيلا الا حطوا رحله وقتلوا اصحابه . ولكن ذلك لم يغير من سوء موقف المسلمين وتفوق الفرس . وأراد ابو عبيد ان يقتل الفيل ورأى اصحابه اجتراءه دون احتراز فقالوا له : « إنا نخاف عليك » فقال : « ان ربي ينصرني ، ولكن أخبروني هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » فأجابوه : « اذا قطع خرطومه فهو يموت » فقال : « يا معشر الناس اني حامل على هذا المخلوق ، فانظروا ان قتلته وهزمت من حوله فأنا اميركم . وان قُتلت فأخي الحكم اميركم ، فإن قتل فولدي وهب ، فإن قتل فولدي مالك ، فإن قتل فولدي جبر ، فإن

---

(١) فتوح البلدان ٦٢٥ .

قتل فأبو القاسم ، فإن قتـــل ابو القاسم فعليكم [1] المثنى » . وفي بعض الروايات ان أبا محجن كان ممن استخلف،ولكن الثابت انه لم يستخلف احداً قبل قتل الذين سماهم قبـله وان آخرهم كان المثنى ، والمثنى لم يقتل ولا ابو محجن . وكان الفرس يرون سوء موقف المسلمين – كما كانت افيالهم على درجة جيده من التدريب والكفاية . ولما أراد ابو عبيد ان يقطع خرطوم الفيل الأبيض شن هجومه عليه وهو يقول :

يا لك من ذي اربـع ما اكبرك　　يا لك في يوم الوغى ما انكرك
إني لعـــالٍ بالحسام مِشفرَك　　وهالـك وفي الهلاك لي دَرَك

وأهوى الفيل بخرطومه لأبي عبيد فنفحه [2] بالسيف، ولكن الفيل اتقاه بيده وابو عبيد يحاول ان يضربه، فأصابه الفيـل بيده ، فأوقعه على الأرض وخبطه بخرطومه ثم قام عليه وداسه بأقدامه،« ... فكان قتالهم من الظهيرة الى [3] حوالي الساعة الرابعة بتوقيت زماننا » .

---

(١) الفتح العربي للعراق وفارس ١٣٣ .

(٢) النفح: هو الضرب من اليسار الى خارج اليمين .

(٣) عبارة الطبري « ... فاقتتلوا يوماً وابو عبيد فيما بين الستة والعشرة ، حتى اذا كان من آخر النهار واستبطأ رجل من ثقيف الفتح ... الخ »[٤/٦٧] . وقد دعت هذه العبارة المبهمة كافة المؤلفين الى اغفالها إلا ما كان من اللـــواء الركن محمود شيت خطاب حيث فهمها على ان أبا عبيد قتل وحده من الفرس بين الستة والعشرة [قادة فتح العراق والجزيرة ٢١٨] ، ولم نفهم العبارة على ذلك وانما فهمناها على انها توقيت، فقد كان معروفاً تقسيم النهار الى اثنتي عشرة ساعة بطريقة ملائمة من بزوغ الشمس الى غروبها،[الكون ص ٢٥ – صادر عن مكتبة لايف العلمية، الترجمة العربيـة طبع مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة] . وكان غروب الشمس الساعة الثانية عشر والظهر الساعة السادسة . وقـــد قاتل ابو عبيد اربع ساعات من السادسة من النهار الى العاشرة منه بتوقيت زمانهم . وفي ذلك التـاريخ يكون شروق الشمس الساعة ٦،٠١ وغروبها الساعة ٥،١٨ بتوقيت عصرنا،وعلى هذا قدرنا المواقيت التي ذكرنا . ونعتقد ان هذا يتمشى تماماً مع باقي احداث الرواية .

استشهاد أبي عبيد

ورأى الناس أبا عبيد قتيلاً تحت اقدام الفيل في مشهد بشع فهبطت أنفس بعضهم . وبدأ لواء المسلمين ينتقل من يد الى يد من الذين أمَّرهم ابو عبيد من بعده . فأخذه أخوه الحكم بن مسعود فقاتل الفيل حتى أزاحه عن أبي عبيد، فاجتر أشلاءه الى المسلمين جثة ممزقة فأحرزوه ولم يتركوه للفرس . ثم عاد يحاول ان يسقط الفيل ولكن الفيل اتقاه بيده ، تماماً كا فعل مع ابي عبيد ثم خبطه فأوقعه على الأرض ثم وطئه بأقدامه وقام عليه. وحمل اللواء وهب بن أبي عبيد ، تقدم [1] وهو ينشد :

لا خير في هلا ولا في ليتُ   من طلب الموت فهذا الموت
ليس لأمر الله فيـك فوت   قد سطع النقع ومات الصوت

ثم مالك بن ابي عبيد ، ثم جبر بن ابي عبيد ، تقدم وهو يقول :

قد علمت واضحة الترائب   مبأسة بالثغر والحواجب
أني غداة الروع والتشاغب   أشجع من ذي لبدة مواثب
قتال أقران مخوف الجانب

وتتابع السبعة من ثقيف كلهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يُقتل ، ومضى على هذا النهار حتى آخره . يقول البلاذري : « إنه لما قتل ابو عبيد أخذ اللواء أخوه فقتل ، فأخذه ابنه جبر [2] فقتل » .

المثنى يقود المعركة

وانتهى اللواء الى البطل المغوار الصنديد المثنى بن حارثة وقد بدأ المسلمون يفرون عبر الجسر المعقود وراء ظهورهم . ورأى ذلـك أحمق من بني ثقيف

---

(١) المثنى بن حارثة ١١٣ .
(٢) فتوح البلدان ٦٢٥ ـ الاصابة ٧٣٨ كنى عن ابي بكر بن ابي شيبة في مصنفه .

يدعى عبدالله بن مرثد الثقفي فبادر الى الجسر فقطعه، ووقف يمنع الناس من العبور ويقول : « مرتوا على ما مات عليـه أمراؤكم أو تظفروا » . وضغط المجوس المسلمين نحو الجسر،وهبطت معنويات الناس فتواثبوا في النهر، وغرق من لم يصبر بينما أسرع القتل فيمن صبر .

وتلمع بطولات .. فقد بدأت المعركة على خطأ ، والآن في وقت متأخر شرع المثنى حين آلت إلية قيادتها يتجه بها نحو الصواب،فجمع بعض أبطاله ووقف معهم يقوم بأصعب دور وأشقه في معركة كهذه ، وهو حماية المؤخرة لإتاحة الفرصة لأكبر عدد للعبور وقد انقطع الجسر من خلفه. إنها معركة من صنفها معركة دنكرك . وأمسك المسلمون بعبد الله بن مرثد وهو قائم عند الجسر يمنعهم من محاولة العبور فأتوا به المثنى ، والمثنى في شدة الغضب ممـا فعل فضربه ، وقال له : « ما حملك على الذي صنعت ؟» . قال:«ليقاتلوا». فدعا المثنى عروة بن مسعود أخا أبي عبيد ، وقال له : « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بين العجم [1] وبينه »،ووقف من كل جماعة أشدهم وأصبرهم واشجعهم يدافعون الفرس في قتـال مرير واستماتة صلبة . وقف فارس بني تميم عاصم بن عمرو ، وفارس بني عجل مذعور بن عدي ، وفارس بني ضبة الكلج الضبي ، وفارس بني طيء ، عروة بن زيد الخيل الذي قاتـل قتالاً عدل بقتال جماعة ، وسليط بن قيس الأنصاري وغـيرهم من فرسان المسلمين وأنصار رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج . ووقف مع كل هؤلاء يقودهم وينظمهم ويقـاتل معهم المثنى بن حارثة الشيباني فكانوا حماة الانسحاب . ونادى المثنى من كان عـبر من المسلمين الى الشاطىء الآخر فجاؤوا بأناس من العجم فضموا الى السفينة التي قطعت أحبالها وأعادوا ربطها ووصل الجسر ، وحماة الانسحاب يقاتلون الفرس أشد قتال في ثبات وبسالة تفوق حد الخيال ويذودون عن المسلمين تدفق الفرس وضراوتهم .

---

(١) الفتح العربي للعراق وفارس ١٣٥ .

وكست الدماء الأرض وكل شيء . وتزاحم المسلمون على الجسر بعد أن أعيد وصله وارتفعت قامة المثنى في الناس وهو في درعه يصيح في المسلمين بصوت ثابت هادىء جهوري لا ينعكس عليه جزع الموقف في كثير أو قليل:

« أيها الناس أنا دونكم فاعبروا على هينتكم [مهلكم] ولا تدهشوا [تتحيروا] فإنا لن نزايل [نتحرك من مكاننا]حتى نراكم من ذلك الجانب، ولا تغرقوا أنفسكم » .

وكان سليط بن قيس آخر من استشهد من المسلمين عند الجسر وانسحب المثنى بعده وقد سبقه كافة الناس . انسحب بظهره الى الجسر وهو يقاتل ووجهه الى الفرس.وأرادهم ذو الحاجب بهمن جاذويه فلم يقدر عليهم،وأفلتوا منه وقرص الشمس يميل للمغيب . في هذه الملحمة جرح المثنى وغرس حلق من درعه في جسده هتكهن رمح من رماح الفرس ، كما جرح الكلج الضبي ، وعاصم بن عمرو .

قتل يومئذ من الفرس ستة آلاف في المراحل الأولى من المعركة، وقتل من المسلمين أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق منهم ثلاثمائة من ثقيف وحدها كان منهم ثمانون رجلاً مسنون قد خضبوا الشيب [1] . فلما عبر المثنى بمن بقي من المعركة انفض عنه اهل المدينة حتى لحقوا بها ، وتركها بعضهم خجلاً وحياء فنزل البوادي ، وبقي المثنى في أربعة آلاف انسحب بهم تجاه أُلَّيْس. وكان ممن قتل يومئذ أبو زيد الأنصاري[3]،أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ . وقال أبو محجن [4] بن حبيب الثقفي ، يرثي الشهداء ، وأبا عبيد :

---

(١) الإصابة ٢٨٧ كنى،عن المدائني في ترجمة أبي الحكم بن حبيب .

(٢) تقول الروايات : ان أربعة آلاف قتلوا وغرقوا ، وهرب ألفان وبقي اربعة آلاف وفي قول آخر ثلاثة آلاف مع المثنى .

(٣) فتوح البلدان ٦٢٥ عن ابي مخنف .

(٤) فتوح البلدان ٦٢٦ . وشعر الفتوح الاسلامية ١٣٠ عن الأغاني .

أنّى تسرّت نحـــونا أم يوسف | ومن دون مسراها فياف مجاهلُ [١]
الى فتية بالطّف نيـــلَ سَراتهم | وغودر أفراسٌ لهم ورواحـل [٢]
وأضحى أبو جبرٍ خليّاً بيوتُــه | وقد كان يغشاها الضعـاف الأراملُ
وأضحت بنو عمرو ولدى الجسر منهم | الى جانب الأبيـات جود ونائل [٣]
وما لمت نفسي فيهم غـــير أنهـا | لهـــا أجل لم يأتها وهو عاجل
وما رمت حتى مزقوا برماحهـم | إهـابي وجادت بالدماء الأباجل [٤]
وحتى رأيت مهـــرتي مزؤورة | لدى الفيل يدمي نحرها والشواكل [٥]
مررْت على الأنصار وسط رحالهم | فقلتُ لهم هـــل منكم اليوم قافل [٦]
ألا لعــن الله الذين يسرهم | رداي وما يدرون ما الله فاعـــل

الخبر في المدينة

وبعث المثنى الى المدينة عبدالله بن زيد بن الحصين الخطمي الأنصاري [٧]

---

(١) انّى : كيف ـ تسرت : سارت ليلاً .
(٢) الطف : اسم المكان ـ نيل : نال منهم عدوهم ، سراتهم : عظماؤهم ووجوههم ، فغادروا افراسهم ورواحلهم .
(٣) جود : يجودون بأنفسهم ـ والنائل : العطاء [مختار الصحاح].
(٤) الأباجل : العظماء المبجلون ، التبجيل : التعظيم [مختار الصحاح] .
(٥) الشكال : العقال ولا يكون إلا في الرجل ، فكأنما اراد بالشوا كل القوائم .
(٦) قافل : راجع .
(٧) كان في الصحابة اكثر من واحد باسم عبدالله بن زيـد . واشهرهم ابن نسيبة بنت كعب التي شهدت احداً وقاتلت فيها وجرحت اثنى عشر جرحاً ، وليس هو ذاك ، وما هو عبد الله بن زيد الذي أريَ الأذان في العام الثـاني من الهجرة . ولكن عبد الله صاحب خبر الجسر هو ابن يزيد بن زيد بن حصن بن عمرو بن الحارث بن خطمة بن جشم بن مالــك بن الأوس . شهد الحديبية وهو ابن سبع عشرة سنة ، ومعنى هذا انه يوم الجسر قارب الرابعة والعشرين من عمره . له ولأبيه صحبة وله احاديث يرويها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من اكثر الناس صلاة وكان لا يصوم في غير رمضان الا يوم عاشوراء . شهـد مع علي بن ابي طالب مشاهده في صفين والجمل والنهروان وكان اميراً على الكوفة ، ثم ولي امرة مكة يسيرا لعبد الله بن الزبير ، واستمر مقيما بها ومات في زمن ابن الزبير . [الاستيعاب ٣٨٣/٢ ـ الاصابة ٥٠٣٤] .

بالخبر ، فكان أول من بلغها من العراق بعد الموقعة . دخل المدينة وعمر على المنبر يخطب ، ورآه عمر يدخل المسجد ، فنادى عليه : « الخبر يا عبد الله بن زيد .. ما عندك يا عبدالله بن زيد ؟» وعبد الله يمر أمام باب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وهي في حجرتها تسمع. ولم يشأ عبد الله أن يتحدث في الناس فأجابه : « أتاك الخبر اليقين » . ثم صعد إليه المنبر فأسرّ في أذنه بالخبر . قالت عائشة : « فما سمعت برجل حضر امرأ ، فحدّث عنه ، كان أثبت خبراً منه » . ثم بدأت فلول المروحة من المهاجرين والأنصار تفـد الى المدينة ، ورأى عمر جزعهم .

ونظراً الى أن كثيراً ممن خرج مع أبي عبيد كان من أهل المدينة ومن حولها، فقد استشهد في المروحة كثير من الصحابة ، منهم جمع غفير من الأنصار، من الأوس [1] والخزرج الذين آووا رســـول الله ﷺ وآزروه ونصروه ، ممن شهد معه المشاهد من بدر وأحد والخندق والحديبية وفتح مكة وغيرها .

---

(١) قدمت الأوس من أبنائها شهداء ، منهم :

اسعد بن سلامة الأشهلي	الإصابة ٢٩١ ـ أسد الغابة ٩٩
أنس بن اوس	
أنيس بن عتيك بن عامر الأشهلي	
ثابت بن النعمان ، شهد أحداً والمشاهد بعدها	الاستيعاب ١/٢٠١ ـ الإصابة ٩١٠
الحارث بن مسعود	« ١/٢٩٥ - « ١٤٨١
خالد بن سنان ، شهد أحداً	الإصابة ٢١٦٩
سلمة بن أسلم ، شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبي وهو الذي أرسله النبي مع عمرو بن أمية بعد وقعة بني النضير ليقاتل أبا سفيان .	الاستيعاب ٢/٨٣ ـ الإصابة ٣٣٦٠
مسلمة بن اسلم ، أخو سلمة	« ٣/٤٤٥ - « ٧٩٨٨
عباد بن قيظي .	« ٢/٤٥٠ - « ٤٤٧٧
عبدالله بن قيظي ، أخو عباد ، شهد احداً .	« ٢/٣٦٦ - « ٤٩٠٩
عقبة بن قيظي ، أخو عباد وعبدالله ، شهد أحداً ، ـ أسد الغابة ٣٧١٢ - «	٢/١٠٦ - « ٥٦١٠
عبد الرحمن بن عدي ، شهد أحداً	« ٥١٦٤
عبد الرحمن بن مربع ، شهد احدا والمشاهد بعدها . ـ اسد الغابة ٣٣٨٣ ـ «	٢/٤٠٠ - « ٥٢٠٠ =

=عبد الله بن مربع، أخو عبد الرحمن. شهد احداً والمشاهد مع رسول الله ٢/٣٢٠ الاستيعاب - الإصابة ٤٩٤٤
عمرو بن اوس . شهد احداً والخندق وما بعدهما مع النبي الاستيعاب ٢/٤٩٦ - الإصابة ٥٧٧٣
نسير بن عنبس الشهير بفارس الجواء [اسم فرس له] شهد احداً والخندق ومشاهد كثيرة مع النبي.
واستشهد حفيده عبد الله بن سهل بن نسير بالقادسية . الاستيعاب ١٠/١٥٦
- الإصابة ٧٠١ - ٨٧٠٠ - ٨٧٠١

وقدمت الخزرج من أبنائها شهداء ، منهم :

أسعد بن حارثة اسد الغابة ٩٦
ثابت بن عتيك الإصابة ٨٩٩
الحارث بن عتيك ، اخو ثابت . شهد مع اخيه سهل احداً والمشاهد مع النبي
الاستيعاب ١/٣٠٤ - الإصابة ١٤٤٦
الحارث بن الحباب . شهد احداً وهو ابو معاذ القارى، شهد معه المروحة. الإصابة ١٣٩٢
ثعلبة بن عمرو. شهد بدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها مع النبي - أسد الغابة ٦٠٧ - ٦٠٩
الحارث بن عدي . شهد احداً . الاستيعاب ١/٣٠٤ - الإصابة ١٤٤٨
غزيه بن اوس . شهد بدراً . » ١/٤١٨ - ٤٢٩ - » ٢٢٥٠
زيد بن سراقة . » ١/٥٣٢ » ٢٩٠٣
زيد بن ملحان ، شهد أحداً . » ٢٩٣٩
عباد بن ملحان . اخو زيد . شهد احداً . » ٢/٤٥٠ - » ٤٨٨٠
ضمرة بن غزية بن عمرو . شهد احداً مع ابيه . » ٢/٢٠٤ - » ٤١٩٢
عبد الله بن صعصعة . شهد احداً وما بعدها . - » ٤٧٥٩
عمير بن كعب - » ٦٠٦٢
قيس بن السكن [وهو ابو زيد الأنصاري] احد من جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله .
شهد بدراً ، وكان مع جيش خالد بن الوليد ، واستخلفه على صندوداء بعد خروجه
من الحيرة . الاستيعاب ٣/٢١٥ - الإصابة ٦٩٣ - ٤٦٠ - ٧١٨٣
سليط بن قيس - سبق ذكره . » ٢/١١٧ - » ٣٤٢٥
المنذر بن قيس اخو سليط . شهد احداً والمشاهد مع النبي » ٧٢٢٨
كما استشهد من الأنصار ايضاً: عائذ بن معاذ بن أنس الذى شهد احداً مع ابنه عبد الرحمن ،
وقد استشهد عبد الرحمن بالقادسية بعد ذلك . الإصابة ٤٤٥٢ - ٥١٤٨

واستشهد من بني ثقيف قبيلة ابي عبيد ، عدد كبير بلغ الثلاثمائة ، منهم اخوه الحكم بن مسعود الذي حمل اللواء بعده (الاصابة ١٧٩٠) ، وابناؤه وهب ومالك وجبر ، واخوه عبد الله بن مسعود (الاصابة ٤٩٥٦) . وحبيب بن وبيعة بن عمرو ، (الاصابة ١٥٨١) وغيرهم .

واستشهد الحتات بشر بن رديح الثعلبي الشاعر ، وكان ابوه حياً ، وهو شيخ كبير قال في فراقه لما خرج للجهاد ، ابياتاً بلغت الحتات ، فأجاب عليها بقوله : =

وقال حسان بن ثابت [1] :

لقد عظمت فينا الرزيئة إننــا ... جِلادٌ على ريب الحوادث والدهر
على الجسر قتلى لهف نفسي عليهم ... فياحسرتي ماذا لقينــا من الجسر

وتأثر عمر تأثراً بالغاً فقال : « عباد الله لا تجزعوا . اللهم إن كل مسلم في حل مني . أنا فئة كل مسلم ، من لقي العدو فقطع بشيء من أمره ، فأنا له فئة . يرحم الله أبا عبيد ، لو كان عبر فاعتصم بالخيف ، أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة » . وكان معاذ القارىء بن الحارث الخزرجي ممن شهد معركة الجسر وفر منها، فكان إذا قرأ : «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير» بكى ، فيقول له عمر : « لا تبك يا معاذ ، أنا فئتك وإنما انحزت إليّ » . وكان عمر يقيمه ليصلي التراويح في شهر رمضان فكان يقنت فيها .

وكان ممن فر في يوم الجسر ، سعد بن عبيد الأنصاري ثاني من تطوع لجهاد الفرس بعد أبي عبيد ، وممن شهد بدراً ، وكان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، فكانت تعرض عليه الوجوه ، بعــد ذلك فيأبى إلا العراق ويقول : « إن الله عز وجل اعتد عليّ فيها بفـَرّة فلعله أن يرد عليّ فيها كرّة » ، فكان ممن شهد القادسية بعــد ذلك مع سعد بن أبي

= ألا من مبلغ عني رديحـاً ... فإن الله بعدك قــد دعاني
فإن تسأل فإني مستقيد ... وإن الخيل قد عرفت مكاني

فلما قتل الحتات قال ابوه يرثيه :

ابغي الحتات في الجياد ولا ارى ... له شبهاً ما دام لله ساجدُ
وكان الحتات كالشهاب حياته ... وكل شهاب لا محالة خامد

(الإصابة ٧٧٠ - ١٩٥٢ - ٢٤٩٦)

(١) شعر الفتوح الاسلامية ١٣٠ عن معجم البلدان .

وقاص ، واستشهد بها فاغتمّ عمر لذلك ، وقال : « لقد كاد قتله ينغص عليّ هذا الفتح ! » .

وفي رثاء شهداء الجسر قال عمر :

نَعَيْتُ إلى أهلِ المدينة فتيةً على مثلهم تبكي النساء الكواعبُ
نعيت إلى الأنصار فتيانها التي بها كانت الأحياء طُرّاً تحاربُ

بهذا الإيجاز الحزين نعى عمر شهداء الأنصار ووصفهم . وفي عام ١٧ هـ تزوج عبدالله بن عمر صفية بنت أبي عبيد ، وقد أصدقها عمر عن ابنه أربعمائة درهم ، وزادها عبدالله سراً من أبيه مائة أخرى إكراما لها ، وعاشت معه بالمدينة، ولها أحاديث نبوية روتها عن عمر وعن أمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة .

هذا في المدينة . أما في المدائن، فمع هذا النصر ثار الناس برستم، ونقضوا الذي بينهم وبينه ، وانقسموا فريقين ، فريقاً معه وفريقاً مع فيرزان، وأتى خبر ذلك إلى ذي الحاجب ، وهو بالمروحة ، فرجع بجنده الى المدائن .

هذه المعركة

١ – فتنة المدائن ودورها

لم يتعرض كاتب لهذه المعركة دون أن يذكر فتنة المدائن باعتبارها المنقذ للمثنى ومن بقي معه بعد المعركة من أن يقوم بهمن جاذويه بمطاردتهم واستئصالهم والإجهاز عليهم . وهذا قول ينقصه الاندماج مع هذه المعارك والعيش فيها من داخلها ، وإننا نختلف تماماً مع وجهة النظر هذه ، ذلك أن استراتيجية المسلمين قبل هذه الموقعة وبعدها جرت على اعتبار الصحراء موئلاً لهم إذا ساءت الأمور وجرت في غير صالحهم على غير ما يشتهون ، وحينئذٍ يعجز الفرس عن تعقبهم داخلها . لقد انتهت معركة الجسر مع غروب الشمس وانقطع الجسر وراء المسلمين ، فلم يكن في إمكان بهمن أن يعبر وراءهم من يومه ذاك، وإذاً فقد كان مع المسلمين فرصة الليل لينسحبوا فيه إلى صحرائهم التي كانت منهم غير بعيد، وهو ما فعله المثنى بالفعل . بمعنى أنه لم تطلع شمس اليوم التالي إلا وقد بلغوا مأمنهم .

٢ – قيمة القيادة

إن موقعة الجسر كانت عملية باسلة ، وإن كانت صدمت الجندي المسلم والمسلمين كافة في حينها إلا أنها أثبتت أن قيادة الميدان كانت فوق مستوى القيادات – تلك القيادة التي تمثلت في المثنى وأركان قيادته الذين معه مما

انعكس أثره ثقة ظاهرة على قبائل شبه الجزيرة فاستمر تدفق متطوعيهم ، فلم ينكلوا كما حدث بعد رحيل خالد بن الوليد عن العراق ، مع أن الموقف بعد معركة الجسر كان من الناحية الحربية أسوأ بكثير . ولو كان هذا السوء قاصراً على اعتبار أنها أول معركة يفقدها المسلمون أمام الفرس لكفى . لقد كانت معركة الجسر تجربة حية في حروب المسلمين لإثبات قيمة كفاءة القيادة، فرأوا قيادة تعوزها الكفاية، خسرت المعركة ومزقت الجيش وحطمت الروح المعنوية لأعلى الناس وقمتهم في المعنوية واستشهدت هي وقتل عـــدد كبير .. حدث هذا بالرغم من توافر الإيمـان والشجاعة ... حتى آل الأمر إلى قيادة المثنى وهي قيادة على أعلى درجات الكفاية ، فأنقذت أكثر ممـــا كان يمكن إنقـــاذه . انقذت ستة آلاف . وعندما تنزل المحن بالجيوش تظهر الميزات الحقيقية والفوارق بـين القادة الذين يستطيعون أن يخرجوا بجيوشهم من تلك المحن أو الذين يسيرون بها إلى مصير مظلم محتوم .

٣ - الحماس المجرد

إن الحماس المجرد لا مكان له في المعركة إذا لم تسانده أسس صحيحة ونظر في الحرب . ولقد أفلت من يد أبي عبيد عنصر الأمن بانحصاره في مكان ضيق المخرج وكأنه وضع جيشه في مصيدة دون عذر مقبول. وأفلت من يده عنصر التعاون بين الأسلحة المختلفة بخروج سلاح الفرسان من المعركة، فصارت قواته مشاة دون فرسان وكان عليهم أن يواجهوا مشاة الفرس وفرسانهم وأفيالهم ، وفقد عـدد كبير من جنوده روحه المعنوية ، وفقدت المعركة كفاءة القيادة حتى تولاها المثنى أخيراً بعـــد سبعة سبقوه . وكما فقد ذلك فقد أيضاً عنصر الحشد بسبب ضيق المكان إذ لا فائدة من أعـــداد الجند إذا لم تسعفها طوبوغرافية الأرض . كما أنـه فقد حسن اختيار الهدف وما يتفرع عنه من اختيار الأرض واختيار طريق الوصول إليه وطريقة ضربه وما إلى ذلك ، فوّته على نفسه ، بل أتاح لعدوه أن يفرضه عليه .

٤ – معنويات مدهشة

وحين نتناول المعنوية وما أصيبت به فإنما نعني بعض المعنوية لا كلها . فمما يثير الدهشة والعجب أنه بالرغم من كل ما حدث لم يتمكن الفرس من الحصول على أسير واحد من المسلمين ، ولم يستأسر منهم أحد قط إبقاء على حياته ، رغم أن طبيعة المعركة بجريانها في مكان محصور يجعل انتهاءها على أية صورة كانت هذه النهاية دون أسرى ، أمراً معجزاً بالغ الغرابة إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الجندي المسلم كان مقاتلاً فريداً في نوعه وأنه احتفظ بميزاته المعروفة عنه حتى في أشد المواقف شدة وبأساً ، وأنه إنما ظل يقاتل حتى آخر رمق ، وأن ذلك كان دأبهم جميعاً لا يستثنى منهم أحد . ولا يسع المتأمل هنا إلا الإعجاب بهذه البطولة من جميع أفراد هذا الجيش وفي مقدمتهم أبو عبيد نفسه وآله الذين استشهدوا معه .

٥ – البطولة لا الفتنة

بطولة المسلمين هذه – فيما نعتقد – كانت هي العامل الفعّال الذي حدا بالفرس أن يعودوا أدراجهم . فلئن عزي رجوع بهمن جاذويه إلى المدائن إلى ما وقع فيها من فتنة ، باعتباره كان من رجال السياسة كما كان من رجال الحرب ، فلقد كان يستطيع أن يعود بشخصه ويبعث أحد مرؤوسيه على رأس جانب من قواته – وكثيراً ما كانت – للمطاردة ، ولكن الذي نحسبه أنه عاد وهو يحمد الله ألف حمد على هذه النتيجة مكتفياً تماماً بما أحرز ، ويخشى مغبة أن يعيد التجربة . عاد وكأنه يحسب انتصاره هذا كان نشازاً ، ولم يكن في حدسه ذاك واهماً ، فسنرى المثنى في اليوم التالي للمعركة يخرج للاشتباك ببعض بقايا معركة الجسر من الفرس فيأسرهم .

اما بعد

٦ – مما لا شك فيه أنه كان من الممكن أن تدور هذه المعركة بطريقة

أمثل لو كان أبو عبيد قد استجاب لنصائح مستشاريه كما أمره بذلك أمير المؤمنين عمر، أو لو كان أكثر فطانة فلم يستجب لاستدراج الخصي مردانشاه.

٧ – إن استمرار الفتح صار مستحيلاً بعد ذلك دون دخول إمدادات جديدة إلى المعركة . فإن الآلاف الأربعة التي بقيت بعد معركة الجسر كانت أصغر جيش للمسلمين تواجد على أرض العراق منذ بدأ الفتح ، فضلاً عن إثخانه بالجراح .

٨ – أضاعت هذه المعركة – إلى حين – مكاسب المعارك السابقة ، وجعلت الحرب سجالاً بعد إن كانت سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات المتعاقبة .

الباب الرابع عشر

قيادة المثنى

أليس الصغرى

٢٤ شعبان ١٣ هـ - ٢٣ أكتوبر (تشرين الاول) ٦٣٤ م

خرج جابان ومعه مردانشاه الخصي في بعض خيلهم، وظنهم بالمسلمين أنهم منفضون وأن شوكتهم قد انكسرت . ويبدو أنهم كانوا في نزهة أو نحوها ، فلم يعلموا بالرجوع المفاجيء لبهمن جاذويه. وأتت عيون المثنى تخبره بذلك ، فاستخلف على المسلمين عاصم بن عمرو وخرج في تجريدة خيل — وبه من جراح المروحة ما به — وانطلق يطوي المسافة تجاه البقعة التي أخبر عنها من أليس. ورأى مردانشاه وجابان خيل المثنى وهي مسرعة ، فظناهم هاربين من فلول المروحة ، واعترضا طريق المثنى وهو يريدهم فأخذهما أسيرين وأخذ من معهما أسرى . وقال لهما المثنى : « أنتما غررتما أميرنا وكذبتماه واستفززتماه » وضرب عنقيهما . وكان أهل أليس قد تواطؤوا مع المثنى عليهم وعقد لهم بها ذمة . ثم أخذ الأسرى فضرب أعناقهم ورجع إلى عسكره . وكان أبو محجن الثقفي من الفرسان الذين خرجوا مع المثنى ولكنه انصرف من أليس ولم يرجع معه .

بجيلة وحشود اخرى

كانت [1] بجيلة من قبائل العرب الكبيرة، غـــير أنها تشتتت أوزاعاً في العرب نتيجة اشتباكها في بعض المعارك في الجاهلية. وكان جرير بن عبدالله [2] من سادة بجيلة وأشرافها. وقد كلـّم رسول الله ﷺ في شأن بجيلة ليجمعها فوعده بذلك. ولحق النبي بربه ولما يتم في الأمر شيء. ثم خرج جرير مع من خرج إلى الشام مع خالد بن سعيد بن العاص، وإذ شعر جرير بحاجة الجيوش إلى امداد، استأذن خالداً ليقدم على أبي بكر ليكلمه في قومه ليجمعهم له، فأذن له. وخرج جرير حتى أتى المدينة فقدم على أبي بكر وذكر له وعـد النبي ﷺ وأتاه على ذلك بشهود وسأله إنجاز ذلك. غـير أن أبا بكر كان مشغولاً بالفتوح، واعتبر الوقت غير مناسب لذلك، فغضب وقال لجرير: « ترى شغلنا ومـا نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو أرضى لله ورسوله !؟ دعني وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين ».

---

(١) الطبري ٤ / ١٥ — ١٦ عن عبيد الله عن عمه عن سيف.

س ش س، عن الغصن بن القاسم الكناني عن رجل من بني كنانة.

تفرعت بجيلة إلى عدة بطون، منها قسر وهو مالك بن عبقر بن أنمار وأحمس بن الغوث بن أنمار وعرينة. وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في جبال السروات من اليمن والحجاز إلى تبالة. وكانت دارهم جامعة وأيديهم واحدة حتى وقعت حرب بين احمس بن الغوث وزيد بن الغوث بن انمار، فكادت زيد ان تفني احمس. وعلى اثر ذلك افترقت بطون بجيلة وتقطعوا في قبائل العرب يجاورونهم في بلادهم، وما زالوا متفرقين حتى أذن عمر بن الخطاب لجرير بن عبد الله ان يجمعهم ليوجههم لحرب الفرس، وكان اكثر بجيلة بالعراق ولم يكن منهم بالشام إلا عدد قليل.

(٢) انظر ترجمة جرير بن عبد الله البجلي في آخر الكتاب.

عمر يجمع بجيلة

ونفذ جرير ما أمره بـه أبو بكر ، فسار نحو العراق لينضم إلى خالد بن الوليد وبقي مع خالد حتى خرج معه من العراق نحو الشام. فلما عبروا المفازة وكانوا بسوى استأذنه جرير وحنظلة بن الربيع ونفر في الرجوع ، فأذن لهم فقدموا على أبي بكر بالمدينة . فلما ولي عمر ذكر له جرير مسألة جمع بجيلة فطالبه عمر بالبينة فأقامها . فكتب عمر إلى عماله على القبائل [1] : « من كان فيه أحـد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية وثبت عليه في الإسلام يُعرَف ذلك فأخرجوه إلى جرير » . وواعدهم مكاناً بـين العراق والمدينة . فكان ممن أخرج لهم قيس كُبَّة وعُرَيْنَة وسُحْمَة [2] ، وكانوا في قبائل بني عـامر ابن صعصعة . فلما أعطيَ جرير حاجته من ذلـك وتم له جمع بجيلة ، قال له عمر : « اتخذونا طريقاً » فخرج وجهاء بجيلة في وفـد منهم نحوه وخلّفوا الجمهور . واجتمع بهم عمر فقال لهم : « أي الوجوه أحب إليكم ؟ »

قالوا : « الشام أسلافنا بها » .

قال : « بل العراق ، فإن أهل الشام قد قووا على عدوهم وإن الشام في كفاية » .

فلم يزل بهم ويأبون عليه حتى أكرههم على ما أراد، وعوضهم عن إكراههم واستصلاحاً لهم ، فجعل [3] لهم ربع خمس ما أفاء الله عليهم في غزاتهم هذه بالإضافة إلى نصيبهم من الفيء ، لجرير ومن اجتمع إليـه ممن أخرج إليه من القبائل .

---

(١) الطبري ٤/٧٠ س ش س، عن محمد بن نويرة وطلحة وزياد وعطية .

(٢) بطون من بجيلة — اسد الغابة ٧٣٠ .

(٣) نفس المصدر + فتوح البلدان ٦٢٨ عن ابي مخنف وغيره . وقال الشعبي:« الثلث بعد الخمس ٦٢٩ » .

جرير أمير بجيلة

وجعل عمر عرفجة بن [1] هرثمة على من كان مقيماً من جديلة من بجيلة ، وجعل جريراً على من كان من بني عامر وغيرهم . فكانت إمارة عرفجة على أكثر بجيلة وقال لهم أن يسمعوا له وأمر الآخرين أن يسمعوا لجرير . فسأل جرير بجيلة : « هل تقررن بهذا وقد أدخل علينا ما أدخل ؟ » وكانت بجيلة قد غضبت من قبل على عرفجة في امرأة منهم . فاجتمعت بجيلة ثم أتوا عمر فقالوا : « أعفنا من عرفجة » .

قال: « لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلاماً ، وأعظمكم بلاء وإحساناً ».

قالوا : « استعمل علينا رجلاً منا ولا تستعمل علينا نزيعاً فينا » .

فظن عمر أنهم ينفونه من نسبه فقال : « انظروا ما تقولون » .

قالوا : « نقول ما تسمع » .

فأرسل عمر إلى عرفجة وقال له : « إن هؤلاء استعفوني منك وزعموا أنك لست منهم ، فما عندك ؟ »

---

(١) كان ابو بكر قد بعث حذيفة بن محصن الغلفاني من حِميرَ وعرفجة بن هرثمة البارقي من الأزد لقتال اهل الردة ، حذيفة إلى عمان وعرفجة إلى مهرة . وأمرهما إذا اتفقا ان يجتمعا على من بعثا إليه وأن يبدءا بعمان وحذيفة امـير في وجهه على عرفجة ، وعرفجة امير في وجهه على حذيفة. فخرجا متساندين . وكانت عمان بعيدة جداً عن المدينة، فأمرهما ابو بكر ان يجدا السير إذ كان المسلمون بها في بلاء من المرتدين قد هربوا منهم الى الجبال والبحر ، عليهم جيفر وعباد فيمن ثبت على إسلامه يستغيثون ابا بكر. ثم أمر ابو بكر عكرمة بن ابي جهل ان يلحق بهما مدداً لهما حين انهزم امـام مسيلمة . والتقت الجيوش الثلاثة مع مسلمي عمان ، ثم التحموا مع المرتدين في معركة عنيفة قتل فيها عشرة آلاف من المرتدين وسبيت الذراري ، وعاد عرفجة الى ابي بكر بالخمس، فكان ثمانمائة رأس غنم والسبي ، وغنم المسلمون السوق بما حوت . ولعرفجة بعد ذلك ذكر كثير وبطولات فذة في فتوح العراق .

قال : « صدقوا ، وما يسرني أني منهم ، أنا امرؤ من الأزد ثم من بارق في كهف لا يحصى عدده وحسب غير مؤتشب » .

فقال عمر : « نعم الحي الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر » .

قال عرفجة : « إنه كان من شأني أن الشر تفاقم فينا ودارنا واحدة ، فأصبنا الدماء ووتر بعضنا بعضاً ، فاعتزلتهم لما خفتهم ، فكنت في هؤلاء – يعني بجيلة – أسُوُدُهم وأقودهم ، فحفظوا عليّ لأمر دار بيني وبين دهاقينهم فحسدوني و كفروني » .

قال عمر : « لا يضرك ، فاعتزلهم إذ كرهوك » .

واستعمل جريراً مكانه ، وأظهر لجرير وبجيلة أنه يبعث عرفجة إلى الشام فحبب ذلك العراق إلى جرير . وخرجوا نحو العراق حتى نزلوا ذاقار ، ثم ارتحلوا حتى نزلوا بالجُل والمثنى بمرج السباخ .

حشود أخرى

وقدم عصمة بن عبد الله الضبي من بني حارث فيمن تبعه من بني ضبة فبعثهم عمر إلى المثنى بالعراق .

وقدم [1] سبعمائة من بني كنانة والأزد فقال لهم عمر : « أي الوجوه أحب إليكم ؟ » قالوا : « الشام ، أسلافنا أسلافنا » فقال : « ذلك قد كفيتموه، العراق العراق.. ذروا بلدة قد قلل الله شوكتها وعددها واستقبلوا جهاد قوم قد حَوَوْا فنون العيش، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس » .

فقام غالب بن فلان الليثي وعرفجة بن هرثمة البارقي كل في قومه فقال :

---

(١) الطبري ٤/٧٢ – ٧٣ س ش س، عن عطية والمجالد بإسنادهما.

« يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين إلى مـــا يرى وأمضوا له ما يسكنكم » . قالوا : « إنا قد أطعنا وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد » .

فدعا لهم عمر بخـــير وقال لهم خيراً وأمَّر غالب بن عبدالله [1] على بني كنانة وبعثه إلى المثنى بالعراق . وأمّر عرفجة بن هرثمـة البارقي على الأزد ، وكان أكثرهم من بارق ففرحوا برجوعه إليهم ، وبعثهم إلى العراق . فخرجوا غالب على كنانة وعرفجة على الأزد كل في قومه حتى قدموا على المثنى .

وخرج هلال بن عُلـَّفَة التيمي فيمن اجتمع إليـــه من الرباب حتى أتى المدينة فأمّره عمر عليهم وبعث بهم إلى المثنى .

وخرج ابن المثنى الجُـشَمي ، جشم سعد بن بكر بن هوازن ، حتى قدم المدينة ، فأمره عليهم ووجهه إلى المثنى .

وجاء عبدالله بن ذي السهمين [2] الخثعمي في أناس من خثعم فأمّره عليهم ووجهه إلى المثنى بالعراق .

جاء [3] ربعي فيأناس من بني حنظلة فأمّره عمر عليهم وبعثهم، فخرجوا حتى قدم بهم على المثنى . وقد رأسهم بعده ابنه شبث بن ربعي .

وقدم أناس من بني عمرو فأمّر عمر عليهم ربعي بن عامر بن خالد العنود من أشراف العرب وألحقه بالمثنى .

وقدم قوم من بني ضبة فجعلهم فرقتين: ابن الهوبر على فرقة ، والمنذر بن حسان على الثانية ، ووجهم إلى المثنى .

وقدم قُرْط بن جَمَّاح في عبد القيس فوجهه عمر إلى المثنى .

---

(١) انظر ترجمة غالب بن عبدالله في آخر الكتاب .

(٢) الطبري ٤/٧٣ س ش س ، عن المجالد عن الشعبي وعطية بإسنادهما .

(٣) » » » » عن محمد وعمر بإسنادهما .

فلم يواف أحد عمر في شعبان من هذا العام إلا أمد به المثنى ، فضمهم إلى الآلاف الأربعة الذين ثبتوا معه بعد معركة الجسر

نلاحظ أن معركة المروحة كانت في ٢٣ شعبان وأن هذه التعزيزات كلها قد بلغت المثنى قبل المعركة التالية في البويب، وهي التي كانت في رمضان ، ولم تحدد المصادر أي أيام رمضان ولم نستطع الاهتداء إلى ذلك . غير أن الروايات تذكر عن هذه الإمدادات أنها وفدت إلى عمر بالمدينة في شعبان . فإذا كانت المسافة بين الحيرة والمدينة يقطعها فارس مشهود له مثل المثنى على عجل – كما رأينا – في عشرة أيام ، فلنا أن نفترض أن خبر الجسر لم يبلغ عمر قبل رمضان ، وإنما بلغه في الأسبوع الأول من رمضان . ولذلك نتجه إلى أن وفود المتطوعين ظلت تفد تباعاً منذ تطوع أبو عبيد في اليوم الرابع لوفاة أبي بكر في أواخر جمادي الآخرة ، وأنه حين اجتمع بالمدينة ألف ، أخرجهم عمر مع أبي عبيد حتى بلغ العراق في نحو الثالث من رجب ، وأن القبائل ظلت تفد تباعاً إلى المدينة بعد ذلك، ومنذ ذلك الحين، فيبعث عمر بهم إلى العراق . وقد كان هَمُّ عمر الأول أن يحشد المسلمين من كافة بقاع شبه الجزيرة ليلقي بهم في نحور الفرس .

معركة البويب (١)

رمضان ١٣ هـ - نوفمبر (تشرين ثاني) ٦٣٤ م .

وتسمى أيضاً معركة النخيلة . سارت كل قبيلة من التعزيزات التي ألقى بها عمر الى المثنى نحو العراق . وكان المثنى على علم تام بتفاصيل ذلك ، فكتب إليهم وهم على الطريق يعلمهم بمكانه ،فتوافوا إليه في جمع عظيم .

جيش الفرس من الفرسان

كذلك كانت عيون الفرس تنقل إليهم أخبار الحشد الجديد ،وأدرك رستم وفيرزان ان نصرهم بالمروحة يوم الجسر لم يكن بالنصر الساحق الحاسم الذي يوقف غزو المسلمين لمملكة فارس . وقد رأيا ان فرسانهم كانت من عوامل انتصارهم يوم الجسر ، لا سيما بعد خروج فرسان المسلمين منها ، أدركا اهميتها واتفقا على ان يخرجا جيشاً من الفرسان يقوده مهران بن باذان الهمذاني وذلك

---

(١) الطبري ٤/٧١ س‌ش‌س ، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .
وعن عبيد الله بن محفز عن أبيه .
وعن أبي اسحق الشيباني .
وعن عطية عن بن سفيان الأحمري عن المجالد عن الشعبي .
وعن عمر بإسناده .
فتوح البلدان ٦٣٠ .
والنخيلة موضع قرب الكوفة على طريق الشام — معجم البلدان .

بصفة عاجلة . وقد نشأ مهران مع أبيه باليمن ، إذ كان عاملاً لكسرى هناك فنشأ يعرف اللغة العربية ويجيدها .

واستأذن رستم وفيرزان على بوران وكانا إذا أرادا شيئاً دنوا من حجابها حتى يكلماها به، فحدثاها بالذي رأيا واخبراها بعدد الجيش وكان الفرس لا يكثرون البعوث حتى كان من أمر المسلمين ما كان . فلما أخبراها بكثرة عدد الجيش قالت : « ما بال اهــل فارس لا يخرجون الى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم ؟ وما لكما لا تبعثان كما كانت الملوك تبعث قبل اليوم ؟» قالا : « إن الهيبة كانت مع عدونا يومئذ وإنها فينا اليـوم » . فوافقتهما على ذلك . هذا ما ذكرته المصادر عن هذه المقابلة والذي نذهب إليه انها إنما كانت لأسباب مالية لتمويل ذلك الجيش الكبير من الفرسان في المعركة .

تحرك سريع للمثنى

خرج مهران في الخيول من المدائن متجهاً الى الحيرة . ووصل خبر هـذا الخروج الى المثنى وهو بمرج السباخ بين القادسية وخفان ، أتت عيونه بالخبر الى بشير بن الخصاصية وكان يومئذ بالحيرة، وجاءه أيضاً عن طريق كنانة [1] وما دام تحرك الفرس الجديد من الفرسان، فقد قدر المثنى ان زحفهم سيكون سريعاً فقرر ان يتحرك على الفـور . وخرج على عجل فيمن معه من مرج السباخ ودخل فرات بادَقَلي . وأرسل الى جرير :

« إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا ، فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب » .

وكان البويب مغيضا للفرات [قناة تصريف] يخرج منـه قبيل موضع

---

(١) لا ندري من هو .

الكوفة ،فيصب ايام الفيضان في الجوف[1]ـ ونحسبه كان لحماية أراضي الملطاط التي كانت من املاك كسرى من الفيضان ـ وكتب الى عصمة ومن معه من بني ضبة والى كل قائد على جمع بمثل ذلك ، وحدد لهم محور التقدم فقال لهم : « خذوا على الجوف » . فسلكوا القادسية والجوف . وسلك المثنى وسط السواد فطلع على النهرين [2] ، ثم على الخورنق . وطلع عصمة ومن سلك معه طريقه على النجف . وطلع جرير ومن سلك معه طريقه على الجوف . وقد خلفوا عيالات من قدم من المدينة بالقادسية ، وكان عيالات اهل الأيام قبلهم مقيمين بالحيرة . وانتهت جميع القوات الى المثنى وهو على البويب . وصدق حدس المثنى .. إذ ذاك كان مهران قد بلغ بجذائهم من وراء الفرات . ومن حيث كانت معركة البويب في نوفمبر(تشرين أول) فهو زمن تحاريق، نعتقد ان البويب كان جافاً ، او على الأقل كان غير ممتلىء ، فهو بذلك كان مانعاً ولكنه غير تام .

جيش المثنى

إذا نظرنا الى جيش المثنى الذي تجمع في البويب في موضع يعرف بدير هند نجده كالآتي :

٤٠٠٠ ممن بقي من يوم الجسر . أكثرهم من بني شيبان وبني عجل وبني تميم .

حنظلة – عليهم شبث بن ربعي } من تميم
عمرو – عليهم ربعي بن عامر } من تميم
الرباب – عليهم هلال بن عُلـَّفة التيمي
ضبة من الرباب – عليهم عصمة بن عبدالله ، وابن الهوبر ، والمنذر بن

---

(١) معجم البلدان ٢/٣١٠ – والطبري .
فتوح البلدان ٣٠ ٦ .
(٢) فيما نظن أنها العتيق والحضوض .

حسان – ثلاث فرق .

سعد من بكر بن هوازن – عليهم ابن المثنى الجشمي .

عبد القيس – من بكر بن وائل – عليهم قُرْط بن جماح .

٧٠٠ { كنانة – عليهم غالب بن عبدالله الليثي
الأزد – أكثرهم من بارق – عليهم عرفجة بن هرثمة .

خريطة رقم (٢٨) البويب – ١

٢٠٠٠ بجيلة — عليهم جرير بن عبدالله البجلي .
طيء — عليهم عدي بن حاتم الطائي .
خثعم — عليهم عبدالله بن ذي السهمين .

وجميعهم ثمانية آلاف . كلهم فيما خلا أصحاب الجسر لم يقاتلوا الفرس من قبل غير أن فيهم من سبقت له ردة ندم عليها وتاب الى الله وحسن إسلامه، فجاء تدفعه الرغبة في التقرب الى الله والتكفير عن ردته . وما أشد أثر المعاصي إذا انقلبت الى توبة ، ثم كانوا محاربين ، فلئن قاتلوا دين الله منذ عامين فلا أقل من ان ينصروه اليوم وان يشهدوا الله على ذلك .

درس من الجسر

ونظر المثنى الى الضفة الأخرى من الفرات حيث مهران وعسكره ، ثم سأل رجلاً من أهل السواد « ما يقال للرقعة التي فيها مهران وعسكره ؟ » قال : « بسوسيا » ، فقال المثنى : « أكدى مهران وهلك . نزل منزلا هو البسوس [1] » [الشؤم] . وأقام المثنى بمكانه حتى كاتبه مهران « إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم » . وكانت أوامر عمر ألا يعبر المسلمون بحراً ولا جسراً إلا بعد ظفر ، وما كان للمثنى أن يعيد خطأ أبي عبيد . فقال لهم : « اعبروا » .

وعبأ المثنى جيشه بالنخيلة [2]،فجعل على ميمنته بشير بن الخصاصية وعلى ميسرته بُسر بن أبي رُهم الجهني ، وعلى المجردة [الخيل] أخاه المعنى بن حارثة الشيباني ، وعلى المشاة أخاه مسعود ، وعلى الطلائع من قبل ذلك اليوم

---

(١) البسوس امرأة من العرب هاجت بسببها الحرب أربعين سنة بين العرب في الجاهلية ، فضرب بها المثل في الشؤم فقالوا أشأم من البسوس . وبها سميت حرب البسوس ـ مختار الصحاح .
(٢) فتوح البلدان ٦٣٠ .

النُسَير [١] بن ديسم بن ثور العجلي وكان من اشراف بني عجل ، وعلى الردء [الاحتياط] مذعور بن عدي [٢] . كما عبأ مهران جيشه فجعل على ميمنته ابن آزاذبه مرزبان الحيرة ، وعلى ميسرته مردانشاه .

وعبر مهران من بسوسيا فنزل بحذائها على شاطىء الفرات مع المسلمين في الملطاط مما يلي دير الأعور [٣] في رقعة تسمى شوميا [٤] ومعه ثلاثة أفيال . واصطف الفريقان على شاطىء البويب الشرقي ، المسلمون بموضع السكون والفرس في شوميا موضع دار الرزق .

وكانت البويب في رمضان ، فقام المثنى في جيشه وقال :

« إنكم صُوّام ، والصوم مُرِقّة ومضعفة ، وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تَقوَوْا بالطعام على قتال عدوكم » .

فأفطروا وكان يمر بصفوفهم وقد اصطفت كصفوف الصلاة،فأبصر برجل يستوفز ويستنتل [٥] من الصف، فقال : « ما بال هذا ؟ » قالوا : « هو ممن فر من الزحف يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل » . فقرعه المثنى بالرمح وقال : « لا أبالك . إلزم موقفك ، فإذا أتاك قِرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل » . قال : « إني بذلك لجدير » . ثم استقر ولزم الصف .

مسلمون فقط

وتذكر رواية أنه قدم على المثنى أنس بن هلال النميري في نصارى من

---

(١) ذكره ابن حجر في الاصابة باسم النسير بن ديسم بن ثور العجلي برقم ٨٦٦٠، وذكره مرة أخرى باسم بشير بن ثور العجلي برقم ٧٧٧ ونراهما شخصاً واحداً .

(٢) في رواية محمد وطلحة وزياد بالطبري أن مذعوراً كان على الميمنة والنسير على الميسرة وعاصم على المجردة وعصمة على الطلائع .

(٣) فتوح البلدان ٦٣٠ ، والملطاط على شاطيء الفرات وكان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه الملطاط [معجم البلدان] .

(٤) شوميا : هي دار الرزق ، وهي موضع في بقعة الكوفة [معجم البلدان] .

(٥) استنتل من بين أصحابه: تقدمهم ، استنتل للأمر استعد له- المنجد. واستوفز استعد.

النمر مدداً للمثنى ، وجلاب جلبوا خيلا ، كما قدم ابن مِردَى الفِهر التغلبي في نصارى من بني تغلب وجلاب جلبوا خيلاً ، وهو عبدالله بن كليب بن خالد . وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم نقاتل مع قومنا . هذه الرواية هي الوحيدة التي تذكر قتال عرب العراق النصارى الى جوار عرب شبه الجزيرة المسلمين، لا قبلها ولا بعدها في حملات خالد وأبي عبيد والمثنى وسعد بن أبي وقاص، وهي لا تذكر أعدادهم حتى نقيّم وزنهم في المعركة ونعلم إن كانوا قوات حقيقية أو قوات رمزية .

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أنس بن هلال النميري وقال : « كان مما أمد به عمر بن الخطاب المثنى بن حارثة في فتوح العراق واستشهد مع أخيه مسعود [1] بن حارثة. فهو بهذا ينفي عن أنس النصرانية ويثبت له الإسلام ثم نسبة الى نمير وليس الى نمر،فإن كانت نمر من تغلب وكانوا من نصارى العرب؛ فلقد كانت نمير من عامر بن صعصعة من هوازن وكانوا مسلمين ، ومساكنهم شرقي مكة والمدينة، وقد أسلمت كافة شبه الجزيرة قبل الفتوح . وهناك نمير أخرى نذهب الى انها هي التي ينتسب اليها أنس بن هلال إذ انها من بجيلة ، ولقد أكدت الرواية التي ذكرت أنس بن هلال أنه كان تحت قيادة جرير بن عبدالله أمير بجيلة. وهذا يلقي شبهة ثقيلة على رواية اشتراك النصارى في هذه المعركة بل تنفيها . ولنا عود لمناقشة هذا الموضوع حين نعرض لفصل «العصبية »من باب عوامل نجاح الفتح الإسلامي من الجزء الخامس إن شاء الله.

المثنى في جنده

وامتطى المثنى فرسه الشموس [2]،وهو فرس مشهور، سمي بذلك من لين عريكته وطهارته . فكان إذا ركبه قاتل، وكان لا يركبه إلا لقتال ويودّعه ما لم يكن قتال. وطاف المثنى في صفوفه وهو في درعه على فرسه تلك يعهد

(٢) في مختار الصحاح ـ شمس الفرس منع ظهره فهو فرس شموس، ورجل شموس أي صعب الخلق . ونعتقد أنه كان يرفض غير المثنى أن يستوي على ظهره وبذلك استحق الاسم .

(١) الإصابة ٤٩١ .

الى المسلمين عهده . ووقف على الرايات راية راية، يحضضهم ويحرضهم ويأمرهم بأمره ويهز مشاعرهم بأحسن ما فيهم حثاً لهم . ولكل منهم يقول : « إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قِبَلِكم . والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم » . فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم في القول والفعل وخلط الناس في المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد أن يعيّب له قولاً ولا عملاً ، رضي الله عنه وأرضاه .

ثم قال لهم : « إني مكبر ثلاثاً فتهيؤوا ثم احملوا مع الرابعة. وكبر المثنى أول تكبيرة فبدأ الفرس زحفهم وعاجلوا المسلمين وأقبلوا نحوهم في صفوف ثلاثة مع كل صف فيل ومشاتهم أمام فيلهم . ولم يكن الصف المذكور صفاً فردياً وإنما كان صفاً كثيفاً متعدد الأفراد . وجاؤوا ولهم هدير عال ، وهو أسلوب متبع في قتال الالتحام بالسلاح الأبيض« كالسونكي» الى يومنا هذا ، والمقصود به إلقاء الرهبة في قلب الخصم . وأراد المثنى الرائع ان يبطل مفعول ذلك فقال للمسلمين :

« إن الذي تسمعون فشل، فالزموا الصمت وائتمروا همساً » .

واقترب الفرس من المسلمين من جهة نهر بني سليم [١] ، وصفّ المسلمين فيما بين نهر بني سليم وما وراءها .

المعركة

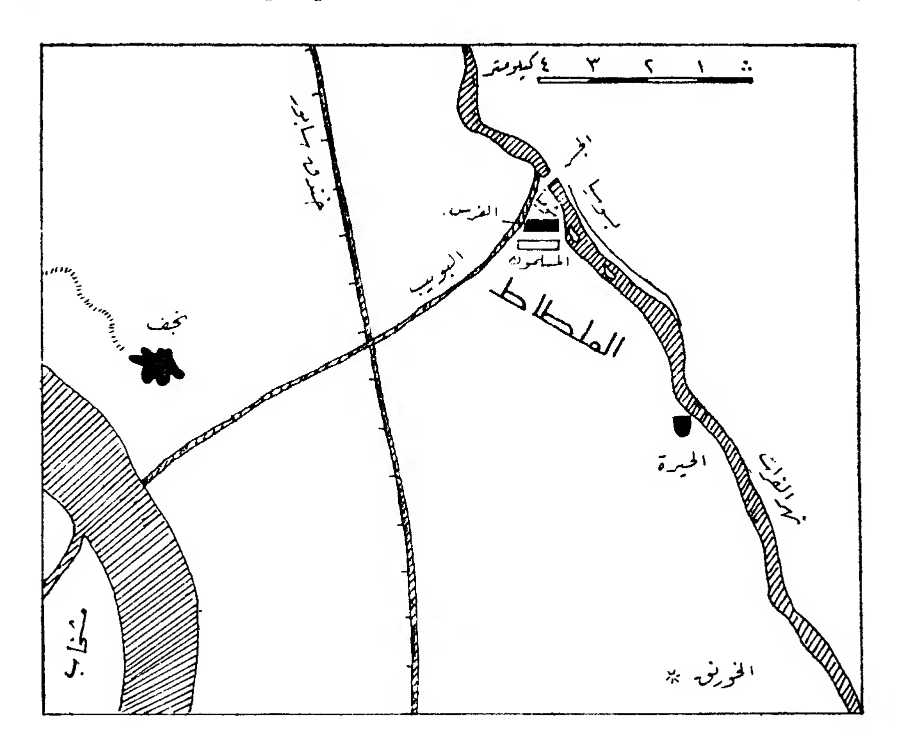
والتقى الصفان بعد أول تكبيرة للمثنى وتجمد الموقف طويلاً وهم ملتحمون. ورأى المثنى خللاً في بعض صفوف بني عجل وكانوا يرونه عد لحيته لما يرى منهم ، فأرسل إليهم رجلاً ، فقال لهم : « ان الأمير يقرأ عليكم السلام

---

(١) لم نهتد الى مكان نهر بني سليم على الخريطة ولعله كان موجوداً في عصر الطبري ولم يكن موجوداً في زمن المعركة .

ويقول :«لا تفضحوا المسلمين اليوم ». فقالوا « نعم » واعتدلوا واعتنوا بأمر لم يعن به أحد من المسلمين يومئذ وهو مراقبة المثنى، فرمقوه فرأوه يضحك فرحاً بعد ان استقام صفهم .

فلما طال القتال واشتد قال لأنس بن هلال : « يا أنس إذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي » ، وقال لأبن مردي الفهر مثل ذلك فأجابه. ثم حمـــل المثنى على مهران فأزاله حتى أدخله في ميمنته واستمر المثنى

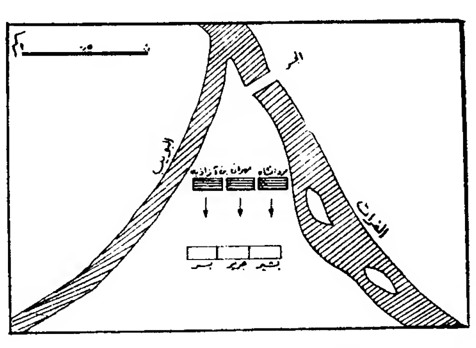


خريطة رقم (٢٩) البويب — ٢

يضغط على عـــدوه ، فخالطوهم ، واجتمع القلبان وارتفع الغبار ، وكانت الأجناب أيضاً تقتتل بشدة ، لا يستطيع المسلمون منهم ، ولا المجوس أن يفرغوا لنصر أميرهم ، والمثنى مـا زال يضغط على مهران . وقال مسعود بن

حارثة قائد مشاة المسلمين لجنده :

«إن رأيتمونا أُصِبْنا فلا تدعوا ما أنتم فيه فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف . إلزموا مصافكم وأغنوا غنـــاء من يليكم » . وأصيب مسعود وقـــواد من المسلمين. ورأى مسعود تضعضع من معه لإصابته وهو ضعيف قد ثقل من الجراح . فقال: «يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله ، لا يهولنكم مصرعي » . ويدرك المثنى كل شيء فيخاطب الناس بقوله: « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخي فإن مصارع خياركم هكذا [1] » .



خريطة رقم (٣٠) - البويب ٣

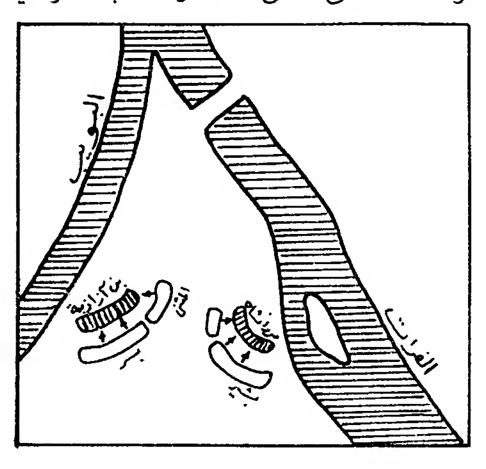
وقاتل أنس بن هلال النميري حتى أصيب فحمله المثنى وحمل أخاه مسعوداً وضمها إليـــه ، والقتال محتدم على طول الجبهة ، ولكن القلب بدأ ينبعج في غير صالح الفرس ، وأوجع قلب المسلمين في قلب المجوس وقـــد دق فيه المثنى إسفينه . وكان فيمن تقدم في القلب جرير بن عبدالله ومعه بجير وابن الهوبر والمنذر بن حسان فيمن معهما من ضبة . وقتل جرير بن عبدالله والمنذر بن

خريطة رقم (٣١) - البويب ٤

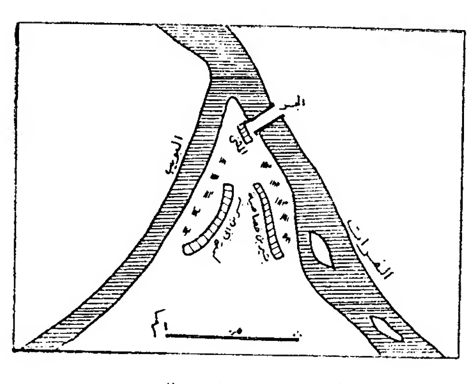
---

(١) الطبري ٤/٧٥ س ش س، عن محمد وطلحة . فتوح البلدان ٦٣٠ عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن داود بن ابي هند عن الشعبي .

حسان مهران وكان على فرس ورد [أحمر] مجفف [مدرع] بتجفاف أصفر، بين عينيه هلال وعلى ذنبه أهلة من نحاس. وقاتل قُرْط بن جماح العبدي حتى تكسرت في يده رماح وتكسرت أسياف وقتل شهربراز من دهاقين الفرس وقائد فرسانهم في المعركة . واستمر القتال حتى أفنى المسلمون قلب المشركين وأوغلوا فيه . وبذلك انقسم جيش الفرس الى قسمين وانفصلت ميمنته عن ميسرته وبدأت كلتاهما تهتز، وضغط قلب المسلمين على الأجناب الداخلية لمجنبات الفرس . وكان الغبار قد ثار حتى حجب الرؤية، فوقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر وانقشع وانكشفت الرؤية ورأت المجنبات ما صنع القلب، فقويت مجنبات المسلمين على مجنبات العجم وجعلوا يردونهم على أدبارهم . ووقف المثنى ومن معه في القلب يبتهلون الى الله وكان يرسل إليهم من يذمرهم [يحرضهم] ويقول لهم : « إن المثنى يقول لكم هكذا عاداتكم في أمثالها . انصروا الله ينصركم » . حتى هزموا وشرعوا نحو الفرار .



خريطة رقم (٣٢) - البويب ٥



خريطة رقم (٣٣) - البويب ٦

حينئذ سابقهم المثنى فيمن معه الى الجسر حتى يمنع عبورهم ويقطع

رجعتهم فسبقهم إليه. فافترقوا بشاطىء الفرات يمنة ويسرة مصعدين ومصوبين يلتمسون مهرباً للنجاة ، وتداولتهم خيول المسلمين وتبعتهم الى الليل ومن الغد الى الليل حتى أبادوهم ثم جعلوهم جُثاً [1] . فما كانت بين العرب والعجم موقعة كانت أبقى رمة منها . يروي [2] سيف عن أبي رَوْق قال : « والله إن كنا لنأتي البويب فنرى موضع السكون وبنى سليم عظاماً بيضاً تلولاً تلوح من هامهم وأوصالهم يعتبر بها ، وحدثني بعض من شهدها أنهم كانوا يحزرونها [يقدرونها] مائة [3] ألف، وما عُفيَ عليها حتى دفنها أدفان البيوت [4] ».

وقال عطية بن الحارث [5] : « وأفعموا [ملؤوا] جنبتي البويب عظاماً حتى استوى ، وما عفّى عليها إلا التراب أزمان الفتنة ، وما يثار هنالك شيء إلا وقعوا منها على شيء » .

مؤتمر بعد المعركة

سكن القتال ونظر المثنى والمسلمون الى عشرات الألوف من الجثث وقد غطت الأرض دماؤها وأشلاؤها . ثم جلس مع جيشه يحدثهم ويحدثونه ويسألهم عما فعلوا ، وكلما جاء رجل قال له المثنى : أخبرني عنك فيروون له أحاديث تصور لقطات من المعركة .

قال قرط بن جماح : « قتلت رجلاً فوجدت منه رائحة المسك ، فقلت: إنه مهران ، ورجوت أن يكون إياه ، فإذا هو صاحب الخيل [قائدها]

---

(١) الجث : ميت الجراد والنمل ـ المنجد .

(٢) الطبري ٧٤/٤ س ش س ، عن أبي روق .

(٣) نرى في هذا الرقم مبالغة .

(٤) ربما كان المعنى أنها دفنت تحت ما أقيم من بيوت .

(٥) الطبري ٧٧/٤ س س ش ، عن عطية بن الحارث .
فتوح البلدان ٦٣٠ عن سيف .

شهربراز فوالله ما رأيته شيئاً إد لم يكن مهران » [1] .

وقال المثنى : « قــد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام ، والله لمائــة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليّ من ألف من العرب ، ولمائة اليوم من العرب أشد عــليّ من ألف من العجم ، إن الله أذهب مصدوقتهم ووهّن كيدهم، فلا يروعنكم زُهاءٌ [منظر] ترونه ولا سواد [كثرة] ولا قِسِيٌّ [2] فُجٌ ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أيــنما وجهتموها اتجهت » .

وقال ربعي وهو يحدث المثنى : « لمـــا رأيت ركود الحرب واحتدامها قلت: تترسوا بالِجانّ فإنهم شادّون عليكم، فاصبروا لشدتين وأنا زعيم لكم بالظفر في الثالثة فأجابوني والله ، فوفى الله كفالتي » .

وقال عبد الله بن ذي السهمين محدثاً : « قلت لأصحابي إني سمعت الأمير يقرأ ويذكر في قراءته الرعب ، فما ذكره إلا لفضل عنده ، اقتدوا برايتكم وليحم راجلكم خيلـُكم ثم احملوا ، فمـا لقول الله من خُلـْف ، فأنجز الله وعده وكان كما رجوت » .

وقال عرفجة بن هرثمة محدثاً: « حُزْنا كتيبة منهم الى الفرات، ورجوت أن يكون الله تعالى قــد أذن في غرقهم وسلـّى عنا بها مصيبة الجسر ، فلما دخلوا في حــد الإحراج كروا علينا ، فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى قال بعض قومي لو أخرت رايتك ، فقلت عليّ إقدامها وحملت بها على حاميتهم فقتلته فولّوا نحو الفرات فما بلغه أحد فيه الروح » .

وقال ربعي بن عامر بن خالد فــيما بعد : « كنت مع أبي يوم البويب ، وسمي البويب يوم الأعشار، أحصى مائة رجل، قتل كل منهم عشرة في المعركة

---

(١) كانت العرب تألف الطيب وتترك ذلك في الحروب والصيد – الكامل ١/٢٦٥ .

(٢) القوس الفجاء التي بعد وترها عن كبدها – انظر الفصل الخاص بالقسي بالجزء الأول .

يومئذ [١] . وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة ، وغالب في بني كنانـــة من أصحاب التسعة ، وعرفجة في الأزد من أصحاب التسعة . وقُتل المشركون فيما بين السَّكُون اليوم إلى شاطىء الفرات ضفة البويب الشرقية». وأبلى شرحبيل بن السمط الكندي بلاء حسناً [٢] .

وندم المثنى على قطعه خط الرجعة على الفرس ، وأخذه بالجسر من خلفهم فقال : « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر ، وقطعه حتى أحرجتهم فإني غير عائد ، فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس ، فإنها كانت مني زلة . لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع » . ورأى المثنى له وجاهته ، فإذا حُصِر عدو به رمق في مأزق كهذا فليس أمامه إلا الاستماتة في القتال ، وهذا معناه ضحايا اكثر من المهاجمين ، في حين أنــه لو خلّى لهم سبيل الفرار والتفرق ، فـإن عمليات المطاردة كفيلة بحصدهم في ظروف أفضل . أمـا إذا كان العدو في حال لا يسمح له بالمقاومة والاستماتة فلا بأس من حصره وسحقه وإبادته .

وتنازع جرير بن عبد الله البجلي والمنذر بن حسان الضبي نزاعاً شديداً حول قتل مهران. وفي رواية للطبري، أن غلاماً تغلبيا هو الذي قتله ثم استوى على فرس مهران وصاح: «أنا الغلام التغلبي أنا قتلت المرزبان»، فأتاه جرير وابن الهوبر فأخذا برجله فأنزلاه . وليس لهـــذا أي ذكر في فتوح البلدان الذي

---

(١) في هذا ما يؤيد بالدليل الحسابي أن تقدير قتلى العجم بمائة ألف مبالغ فيه كثيراً ، فـإذا كانوا قد أحصوا مائة ، قتل كل منهم عشرة ، فمعنى هـــذا أن سوامم (٧٩٠٠) لم يبلغ من قتله الواحد منهم عشرة ، ولو بلغوا ذلك جميعاً لمـا تجاوز القتلى ٨٠٠٠٠ وهو بعيد عن الحدوث ، فقد كان المسلمون ٨٠٠٠ .

(٢) فتوح البلدان ٦٣٠ .

أخذنا بروايته في هـذا الموضع [1] . وفي ذلك التنازع قال المنذر بن حسان الضبي يصف قتل مهران ويعتب على جرير :

ألم ترني خالست مهران نفسه	بأسمر فيه كالخلال طرير [2]
فخر صريعاً والتقاني برجله	وبادر في رأس الهمام جرير
فقال قتيلي والحوادث جمـة	وكاد جرير للسرور يطـير
وقال ابو عمرو قتيلي قتلته	ومثلي قليل والرجال كثير
فأرسل يمينك أن رمحك ناله	وأكرم أن تحلّف وأنت أمير

ومات اناس من الجرحى من اعلام المسلمين منهم : خالد بن هلال ومسعود ابن حارثة اخو المثنى . فصلى عليهم المثنى وقدمهم على الأسنان [3] والقران وقال : « والله انه ليهون عليّ وجْدي ان شهدوا البويب . اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وان كان في الشهادة كفارة لتجوُّز الذنوب » .

نوع من النساء

وكان المثنى [4] وعصمة وجرير قـد اصابوا في ايام البويب على الظهر [صحراء الكوفة] تموين مهران غنماً ودقيقاً وبقراً ، فبعثوا بها الى عيالات من قدم من المدينة بالقادسية والى عيالات اهل الأيام قبلهم بالحيرة . واستخدم المسلمون عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة دليـلاً للذين ذهبوا بنصيب العيالات

---

(١) فتوح البلدان ٦٣٠ . وقال : ويقال إن الحصن بن معبد بن زرارة بن عُدَس التميمي كان ممن قتله . وأورد الطبري أيضاً رواية ٤/٧٤ س ش س ، عن سعيد بن المرزبان أن جريراً والمنذر اشتركا في قتل مهران، فتقاضيا إلى المثنى فجعل سلاحه بينهما ومنطقته وسواريه بينهما. وفي جمهرة أنساب العرب لابن حزم ان المثنى هو الذي قتل مهران .

(٢) الأسمر : الرمح – طرير : طويل .

(٣) أمثالهم وأقرانهم .

(٤) الطبري ٤/٧٦ س ش س ، عن محمد وطلحة وزياد .

بالقوادس ، وكان النسير قائــد الطلائع على هذه الخيل . فلما اقتربوا ورأى النسوة الخيل مقبلة حسبنها غـــارة ، فتصايحن وقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمُد . فقال عمرو : « هكذا ينبغي لنساء هـــذا الجيش » . وبشروهن بالفتح. ثم اقام النسير فيخيله حامية لهم ورجع ابن عبد المسيح فبات بالحيرة.

مطاردة

وقال المثنى يومئذ : « من يتبع الناس حتى ينتهي الى السيب؟ » والسيب على دجــلة . فقام جرير بن عبد الله في قومه فقال : « يا معشر بجيلة انكم وجميع من شهد هــذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء . وليس لأحد منهم في هذا الخمس غداً من النفل مثل الذي لكم منه، ولكم ربع خمسه نفلاً من امير المؤمنين ، فلا يكونن احد اسرع الى هذا العدو ولا أشد عليه منكم للذي لكم منه، ونية الى ما ترجون، فإنما تنتظرون احدى الحسنيين: الشهادة والجنة او الغنيمة والجنة » .

ومال المثنى على الذين ارادوا ان يستقتلوا من منهزمي يوم الجسر وقال : « اين المستبسل بالأمس واصحابــه ؟ انتدبوا في آثار هؤلاء القوم الى السيب وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به ، فهو خير لكم واعظم اجراً واستغفروا الله ، ان الله غفور رحيم » . فكان ذلك المستبسل واصحابه اول من تطوع للمطاردة .

وأمر [١] المثنى بالجسر الذي قطعه في المعركة فعُقد لهم ثم أخرجهم في آثار القوم ، واتبعتهم بجيلة وخيول المسلمين ُتغِذ من كل فارس، فانطلقوا في طلبهم حــتى بلغوا السيب . ولم يبق في العسكر جسري إلا خرج في الخيل، ومعنى هذا أن قوات المطاردة بلغت الستة آلاف على الأقل [٤٠٠٠ أهـل

(١) الطبري ٤/٧٦ عن السري عن شعيب عن سيف عن حمزة بن علي بن محفّز عن رجل من بكر بن وائل .

الجسر و٢٠٠٠ بجيلة] فأصابوا من البقر والسبي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً . فقسمه المثنى عليهم وفضّل أهل البلاء من جميع القبائل . ونفـّل بجيلة يومئذ ربع الخمس بينهم بالسوية وبعث بثلاثة أرباعه الى عمر مع عكرمة [١] .

وعلى قدر الهزيمة التي حاقت بالفرس أصاب الرعب قلوبهم. وكتب القواد الذين قادوا الناس في الطلب الى المثنى، كتب عاصم وعصمة وجرير: « إن الله عز وجل قد سلـّم وكفى ووجه لنا ما رأيت ، وليس دون القوم شيء ، أفتأذن لنا في الإقدام ؟ » فأذن لهم ، فأغاروا حتى بلغوا ساباط ، وتحصن أهلها منهم في حصنهم فاستباحوا القرى من حولها ، ثم اتجهوا الى الحصن فرماهم أهل الحصن عن حصنهم ، ثم كان أول من دخله ثلاثة قواد ، عصمة وعاصم وجرير وتبعهم أوزاع الناس كلهم . واستمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة ، فمخروها ما شاؤوا لا يخافون شيئاً ولا يلقون مانعاً وعادت الى أيديهم مسالح العجم .

وقد أنشد الأعور العبدي الشَّنِّي يقول :

هاجت لأعورَ دارُ الحي أحزَانا ... واستبدلت بعد عبد القيس خَفـَّانَا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانَا
أزمان سار المثنى بالخيول لهم ... فقتـَّل الزحف من فُرْسٍ وجيلانَا[٢]
سما لمهران والجيش الذي معه ... حتى أبادهمُ مَثْنَى ووحدانا
ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى ... مثل المثنى الذي من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب ... في الحرب أشجع من ليث بخَفـَّانَا

(١) لا ندري من عكرمة .

(٢) جيلان اسم لبلاد كثيرة وراء طبرستان [فهرس فتوح البلدان] جنوبي بحر قزوين [صبح الأعشى ٥/٢ ٢٤] إلى الغرب من طهران تجاه دجلة .

عادت قوات المطاردة الى الحيرة فنظّم المثنى حامياته في أرض السواد . فاستخلف بشير بن الخصاصية على الحيرة .

وأرسل جرير بن عبد الله الى ميسان [منطقة العمارة] .

وأرسل هلال بن عُلّفة التيمي الى دَسْت ميسان [منطقة الأبلة والبصرة].

وأرسل مسالح الى جهات أخرى عليها قادة من مثل عصمة بن فلان الضبي والكلج الضبي وعرفجة بن هرثمة البارقي وأمثالهم .

هذه المعركة

رد اعتبار

أول ملامح البويب أنها كانت رد اعتبار ممتاز للمسلمين بعد ما أصابهم يوم الجسر بالمروحة . ولا بد أن يكون الفرس قد أصيبوا بدوار شديد بعد أن ظنوا ان في إمكانهم ان يكسبوا من المسلمين معارك ، فـــإذا المعركة التالية مباشرة بعد حوالي شهر من يوم الجسر ، معركة مفجعة يفقدون فيها عشرات الألوف من فرسانهم . لقـــد استطاع المثنى يوم البويب ان يمنع يوم الجسر من ان يكون نقطة تحول في خط سير النصر . بـــل جعلها على جسامتها حادثاً عرضياً مرّ وانتهى ، وبانتهائه زال أثره . جعلها معركة ذهبت ولن تتكرر ، وعاد المسلمون رغم قلة عددهم يمسكون بزمام الهجوم والمبادأة .

ثلاث أدوات للنصر

نستطيع ان نتبين ثلاث أدوات حقق بها المثنى نصر البويب :

١ – **اختيار الأرض** التي جرت عليها المعركة . فقد اختار المثنى أرضاً مناسبة لأن تصلح كميناً لجيش كبير ، وهو اختيار يدل على ما لهذا القائد العظيم من النظر الطبوغرافي السديد . فكما كان يجيد حروب الصحراء والأرض المفتوحة التي لا تحصرها عوائق او ظواهر طبيعية ويعرف خواصها وما يصلح لهـــا ، كذلك كان يدرك خواص الأرض المحصورة والفوارق بين كل نوع من

أنواع الأرض وأثر هـذه الفوارق على المعارك . ولقد كانت أرض المعركة محصورة بـين الفرات وبين البويب ، ومن حيث كان البويب قناة تصريف لفيضان الفرات يلقي بالمياه الزائدة في الجوف ، ومن حيث دارت المعركة في شهر نوفمبر (تشرين ثاني) حيث الفرات في حالة تحاريق ، فلم يكن حينئذٍ فيضان ، نعتقد أن البويب كان جافاً او شبه جاف او على الأقل ضحلاً قليل المياه ، وهو بهـذه الصفة يكون حاجزاً ، ولكنه ليس حاجزاً تاماً . أمـا الفرات فقد كان مانعاً طبيعياً لا سيما بعد أن قطع المثنى الجسر المقام عليه .

٢ ــ والثانية وضع **الخطة المناسبة** لهـذه الأرض ، فحيث تكون الأرض محصورة يكون لعنق الزجاجة كل الأهمية ، ويتسنى للقوات القليلة نسبياً أن تكون ذات غناء وفاعلية ، وتفقد الكثرة العددية فاعليتها لا سيما إذا كان المخرج من هذه الأرض ليس في يدها ، إذ يصير المعول في العدد على مقدار ما يتسع له خط المواجهة المحدود . وبطبيعة الحال فـإن هذا الخط سوف يسمح بأعداد متكافئة من الطرفين بينما تظل الكثرة العددية خلف هذا الخط عاطلة او شبه عاطلة ، بل إنها في هـذه الحالة تصبح عبئاً وتشكل ثقلاً على جيشها ويعتبر وجودها خرقاً لمبدأ الأقتصاد في القوى، ويعتبر تعريضها للخطر خرقاً لمبدأ الأمن . في هـذه الحالة ينحاز النصر الى جانب التدريب الأعلى والمهارة في الميدان ، وقد كان ذلك للمسلمين على الفرس. يضاف الى ذلك غفلة الفرس عن حمـاية مؤخرتهم وحراسة الجسر الذي كان يمثل خط الرجعة الوحيد من ذلك المأزق. لقد استطاع المثنى يوم المروحة أن يحمي خط رجعته حتى يعيد وصل الجسر ويعبر جيشه ، ولكن الفرس في البويب لم يستطيعوا ذلـك لأن الجسر وإن كانت المعركة قـد بدأت وهو في أيديهم ووراء ظهورهم إلا أنهم فقدوه بعد ذلـك باختراق المثنى لقلب جيشهم واستيلائه عليه فحرمهم من فرصة انسحاب منظم .

٣ ــ أما الأداة الثالثة فكانت **المعنوية** التي لا تعرف الكلل التي ظهرت في

قبائل المسلمين يوم البويب ، حتى لقد ظهر لكل قبيلة موقفها الذي تتحدث بـه بعد المعركة وتفاخر بـه . في هذه الموقعة حرص أربعة آلاف ممن شهد المروحة أن يغسلوا هزيمة يومها ويثأروا لها ، وحكاية المستبسل ومن معه مثال لذلك ، وهم الذين لم يعرفوا الهزيمة قبل معركة المروحة قط . ولئن كان هذا المعنى ماثلاً في كل نفس من نفوس المسلمين ، فـإن من اللفتات التي تستحق التأمل أننا لا نجد فيما تكلم بـه المثنى في البويب قبل المعركة أي ذكر ليوم الجسر بالمروحة او تذكير به . لقـد كان المثنى يجيد اختيار الموضوع ويجيد توجيه كلماته حتى لكأنها منتقاة . ويبدو انــه كان حريصاً وهو على ابواب معركة كبرى ان لا يذكر لهم الهزيمة ، بل إنه بعد ان حقق الله على يديـه نصر البويب ، لم يكن يذكر يوم المروحة إلا تلميحاً مثل قوله لأصحابها حين أرسلهم للمطاردة « .. وابلغوا من عدوكم مـــا تغيظونهم به فهو خير لكم وأعظم أجراً ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »، يشير بالاستغفار إشارة أرق من الحرير الى فرارهم يومها . وكان يستطيع ان يفخر صادقاً بثباته يوم فروا ولكن إنكاره لذاته ومحبته لإخوانه كان فوق ذلك . وحرص ألفان من بجيلة ان يثبتوا وجودها كوحدة حربية، فهذه أولى معاركها ، وهذه فرصتها الأولى لإثبات ذلك ، وليعلم امير المؤمنين عمر ان مساعي جرير لجمع بجيلة من أفناء العرب ، لم تكن عبثاً وإنما لتساهم في هذه الفتوح ، وها هي ذي تفعل وقد بدأت في البويب . كما كان الآخرون أشد حرصاً من هؤلاء وهؤلاء ، إذ سبق ان ارتدوا فأرادوا ان يغسلوا عارها توبـة الى الله وإبراء لذمتهم والله لا يغلق أبواب السماء في وجه تائب وهم الذين يقرؤون في كتاب الله[1]: « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمـــة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

فكان لكل منهم ، الى جوار الحافز العام لإعلاء كلمة الله والحرص على الشهادة ، حافزه الخاص الذي يساهم في تكوين معنويته وبنائها .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

درس من الخطأ

كانت البويب استفادة من أخطاء معركة الجسر،فيلس الخطأ ولا خسران معركة في الحرب عيباً ، والحرب سجال ودول ، ولكن العيب أن يضيع الدرس والعبرة فلا يستفاد منه . وقد أثبتت تجربة البويب حين عادت المعركة في ظروف مشابهة،أن المسلمين استفادوا من الدرس بكفاءة عالية حتى ان المثنى استطاع أن يعيد معركة الجسر بالمروحة بجذافيرها مع تبادل الغالب والمغلوب أوضاعها، فضلاً عن أنه في المروحة استطاع أن ينسحب بمن صاروا بعد ذلك نواة جيشه بل نصفه في البويب ، في حين لم ينجح الفرس في سحب شيء من قوتهم في البويب ، بل تبددت وأبيدت على ضخامة حجمها ، ومع فارق آخر، أن الكثرة العددية الساحقة كانت مع الفرس حال انتصارهم وحال هزيمتهم .

المعركة مدرسة

لقد ظهر المثنى في البويب، الى جوار كفاءته كقائد في الميدان ، أستاذاً معلماً يجلس بين قواته بعد الموقعة لدراستها ونقدها فيسمع منهم ويجيب حتى يستفيدوا دروساً ومعرفة وكأنه يعطيهم «فرقة » (اصطلاح مصري بمعنى دورة تدريبية)حتى لا يكون المقاتل الذي معه مجرد آلة وإنما يتكون له فكره الحربي ولم يكن يضيره وهو في أوج مجده الحربي وقمة انتصاراته الرائعة أن يكاشفهم بأنه أخطأ في قطع الجسر ولكن الله وقى شر ذلك، وأن ينقد نفسه دون أن ينقده أحد ، ويطلب منهم ألا يقتدوا به فيها . والمثنى بذلك يقدم مثـلاً أخلاقياً من أخلاق الفرسان المسلمين النبلاء الى جوار مـا يقدم من أمثلة في مجالات الكفاية الحربية . هذا في الوقت الذي كان الحزن يعصر قلبه لفقـد بطل من أحب الناس الى قلبه وأقربهم منه دماً ، كان شريكه في مواقعه كلها ولعلهما لم يفترقا يوماً ، أخيه البطل مسعود بن حارثـة . لم ينسه هذا المصاب واجبه كاملاً في كسب المعركة ، ثم في المطاردة بعدها وليس هـذا فحسب بل ومناقشتها وتحليلها ونقدها .

علم النفس العسكري في الموقعة

إن لصفات القائد أهمية كبرى في نجاح المعركة ، إذ مهما توفرت شروط النصر من تدريب وتسليح وتنظيم لجيش من الجيوش ، فقد يضيع ذلك كله هباء منثوراً إذا لم يوضع بين يدي قائد صالح ، حتى إنـه ليقال إن جيشاً ضعيفاً عليه قائد قوي خير من جيش قوي يقوده قائد ضعيف .

والى جوار ما تبدى لنا من عبقريات المثنى فقد شملت عبقريته عمقاً آخر في فرع ثالث مما يتصل بالحرب وهو علم النفس العسكري والتعامل مع إخوان الجهاد وزملاء السلاح . إنا لنجد روحاً من المحبة فياضة تربط المثنى بمن معه تشير الى جانب عاطفي نحوهم ، ويبرز هذا في أحاديثه لهم وفي كلامهم عنه. نرى هذا في طوافـه بفرسه الشموس على راياتهم راية راية ، يحمسهم ويعطيهم توجيهاته ويحرك مشاعرهم بأحسن ما فيهم ويقول لهم : « والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم » فيجيبونه بمثل ذلك . يقول الرواة : «فلم يستطع أحد أن يعيّب له قولاً ولا عملاً ». ولنتأمل هذا الأمر الذي أصدره الى إحدى وحداته من بني عجل لما اعوجّ صفهم ، لنتأمـله في صيغته وفي مدلوله : « إن الأمـــير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم » . وهو إذ يرى صفوف العجم تهجم وقـد علت صيحاتهم ، يدرك ما لهذا من أثر في قتال الإلتحام، لا سيما وذكر معركة الجسر بالمروحة غير بعيد ، فتكون كلمة هادئة بسيطة رسول الثبات الى نفوسهم لتبطل أثر تلك الهيعات فيقول في هدوء يدعوا الى الإعجاب : « إن الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت وائتمروا همساً » .

ولقد كان المثنى وهو في المعمعة لا يغفل عن ملاحظة أي اعتبـار حتى معنويات جيشه ، ولقد رأينا ما فعل حين أُصيب اخوه مسعود إصابة قاتلة لما رأى اثر ذلك على المسلمين ، وإن مقالته لتستحق ان تكتب بحروف من نور : « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع اخي ، فإن مصارع خياركم هكذا »

ولا يقل عن هذا قول مسعود نفسه وهو يجود بالنفس مستبشراً بالشهادة « ... ارفعوا راياتكم رفعكم الله ، لا يهولنكم مصرعي » .

وكما كان المثنى محباً لجنده عطوفاً عليهم متفقداً لكافة أحوالهم، فقدكان في نفس الوقت حازماً حاسماً آخذا بما يطلق عليه العسكريون المحدثون « الضبط والربط » ، رأى ذلك المستبسل وما يفعل فزجره وقرعه بالرمح وألزمه الصف ، ومن قبل ذلك وجدناه في المروحة يضرب عبد الله بن مرثد والمعركة تدور رحاها على المسلمين بسبب ما فعل .

وما أن تم نصر البويب حتى أراد ان يشفي صدور أهل المروحة بصفة خاصة وان يرد إليهم اعتبارهم، فبعثهم في مطاردة فلول المجوس، فكان هذا الاختيار أيضاً وضعاً للشيء في مكانه ولمسة نفسية من لمسات المثنى .

وكما كان المثنى متعاطفاً مع جيشه فلقد كان الشعور متبادلاً تماماً . ونرى ذلك جلياً في شعر المعركة الذي جرى على ألسنة جنودها . فهذا الأعور الشني يقول في قلب أبياته التي ذكرناها:

ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثنى الذي من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب في الحرب أشجع من ليث بخفانا

فصاحب هذه الأبيات يفضل المثنى صراحة على خالد بن الوليد وعلى أبي عبيد الثقفي ، ولقد كان الأعور من عبد القيس ، فهو لم يكن من بني شيبان ولا من بكر بن وائل حتى يقال إنه متعصب لقومه . بل لقد وجدنا بعد المعركة الفاصلة بالقادسية عام ١٥ هـ من يفضل المثنى على سعد وكان المثنى قد أفضى الى ربه ، فيقول لسعد بن أبي وقاص :

وعند أمير المؤمنين نوافلٌ وعند المثنى فضة وحرير

ومن العجيب أننا لم نعثر في شعر المعارك والفتوح فيما رجعنا إليه من مراجع على ما يشيد بخالد بن الوليد كما وجدنا الإشادة بالمثنى وامتداحه في

أكثر من موضع . ونعيد هنا ما ذكرنا عن خالد بجذافير د فما اشد التشابه . . نقول الحق : لقد كان المثنى قائداً عميقاً في علم النفس العسكري قبل أن يخط أي استاذ متخصص حرفاً في هذا العلم بقرون .

معنوية القاعدة

وإذا كانت معنوية المسلمين في الميدان كما رأينا فلقد رأينا أيضاً أن معنويات نسائهم لم تكن بأقل من معنويات رجالهم ، حتى أن خيل المسلمين التي اتجهت اليهم بالقادسية تحمل من الغنائم غنماً ودقيقاً وبقراً وحسبنها من خيل الأعاجم مقبلة في غارة ، قمن بالحجارة والعمد يدفعن عن انفسهن وعن الصبيان.

آثار البويب

ادّت هزيمة البويب الى انفتاح أبواب العراق من جنوبه الى شماله أمام قوات المسلمين تجوبه كيف شاءت ، وهذا موضوع الباب التالي .

الباب الخامس عشر

عمليات الأسواق

أسواق العراق

وصف السائح الصيني هيون تسيانج الحياة في البلاد الغريبة التي زارها في أوائل القرن السابع الميلادي ، فقال عن منتجات الصناعة في إيران: « تنتج البلاد الذهب والفضة والنحاس والبلور الصخري والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة . وصنّاع إيران يجيدون نسج السندس الحريري والأقمشة الصوفية والسجاد وغيرها »[1] .

وكتب آمين مارسلن الضابط الروماني الذي اتصل بالفرس في حروب الروم مع سابور الثاني ٣٦٣ م، فقال: «إنه كان يقام في أول شهر سبتمبر (أيلول) من كل عام في مدينة باتنة التي تقع غير بعيد من الشاطىء الشرقي لنهر الفرات سوق كبيرة ترد إليها البضائع من الهند والصين » .

وفي ٤١٠ م، كانت المدن المفتوحة للمعاملات التجارية بين الروم والإيرانيين هي: نصيبين على شاطىء دجلة وكالينيك على شاطىء الفرات وارتكزانا في أرمينيا . وفي القرن السادس الميلادي، كان الحرير أهم أصناف تجارة الترانزيت عند الفرس . وكان يحجز بإيران مقدار كبير جداً من الحرير الخام المستورد من الصين لينسج بها ، فنشأت بها صناعة الحرير . ولكن منذ القرن السادس

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ١١٦ - ١١٧ .

نجح البيزنطيون في زراعة أشجار التوت وتصنيع الحرير في بلادهم، واستغنوا الى حد ما عن استيراده من الخارج . وكان من البضائع الفارسية المطلوبة : الكحل الإيراني المشهور والسجاجيد البابلية، كذلك كانوا يتاجرون في الأحجار الثمينة السورية، طبيعية وصناعية ، واللؤلؤ والمرجان ، وأقمشة مصر والشام والمواد المخدرة الواردة من آسيا الوسطى .

وكان المثنى يعرف عن أسواق تقام في شمالي العراق، ونستبعد ألا يكون له تفكير سابق بشأنها ، فهو في حاجة الى ما فيه غناء للمسلمين يتقوون به على عدوهم. غير أن موسم الأسواق المذكورة قد سبق في أول سبتمبر (أيلول) الذي وافق في عام ٦٣٤ م الثاني من رجب ١٣ هـ . أين كان المثنى في هذا اليوم ؟ كان في طريقه من المدينة الى الحيرة ، وكان عليه أن ينتظر أبا عبيد قبل أن يتحرك، ولم يكن حجم قواته حينذاك بالذي يسمح له بذلك، وقد وصله أبو عبيد بعد شهر ، وإذاً فقد فاتته الأسواق المذكورة . ولكنه كان يعرف أن هذه الأسواق الكبرى يتلوها أسواق في مدن أخرى من نفس المنطقة، مرة في كل عام . وسأل عنها المثنى فأخبره رجل من أهل الحيرة أن سوق الخنافس وسوق بغداد تنعقدان في تلك الأيام . وبغداد قرية على الشاطىء الشرقي لدجلة شمالي المدائن بحوالي أربعين [1] كيلومتراً ، وتبعد عن الحيرة بأكثر من ٢٥٠ كيلومتراً . وعلم أن الأموال تجتمع في هذه الأسواق كبيت المال. فسأل: « كم بين مدائن كسرى وبينها ؟ » قيل : « بعض يوم أو عامة يوم » . وعاد يسأل عن السبل إليها فأخبروه ، فسأل عن السوقين : «أيتهما قبل صاحبتها» فقالوا : « بينهما أيام » ، ولم يقنع بهذا الجواب المبهم، فعاد يسأل : « أيهما أعجل ؟ » قالوا : « سوق الخنافس ، يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يخفرونهم » .

وبات المثنى يفكر في الأمر ويدبر ويستعد له .

---

(١) في الموضع الذي أقام العباسيون فيه عاصمتهم « بغداد » فيما بعد .

غارة على سوق الخنافس [1]

شوال ١٣ هـ ـ ديسمبر (كانون أول) ٦٣٤ م

رسم المثنى خطته على أن يسلك طريق الصحراء حتى ينتهي الى الخنافس، وذلك حتى لا تسبقه الأخبار الى أي جهات أخرى ، حيث أنه طريق بعيد عن الأنظار، فهو ليس كأي طريق يسلك وسط السواد . فإذا بلغ الخنافس وفرغ من أمرها نزل على أهل الأنبار ، فيأخذ الدهاقين بالأدلاء ويسير سواد ليلته من الأنبار حتى يغير على بغداد صبحاً .

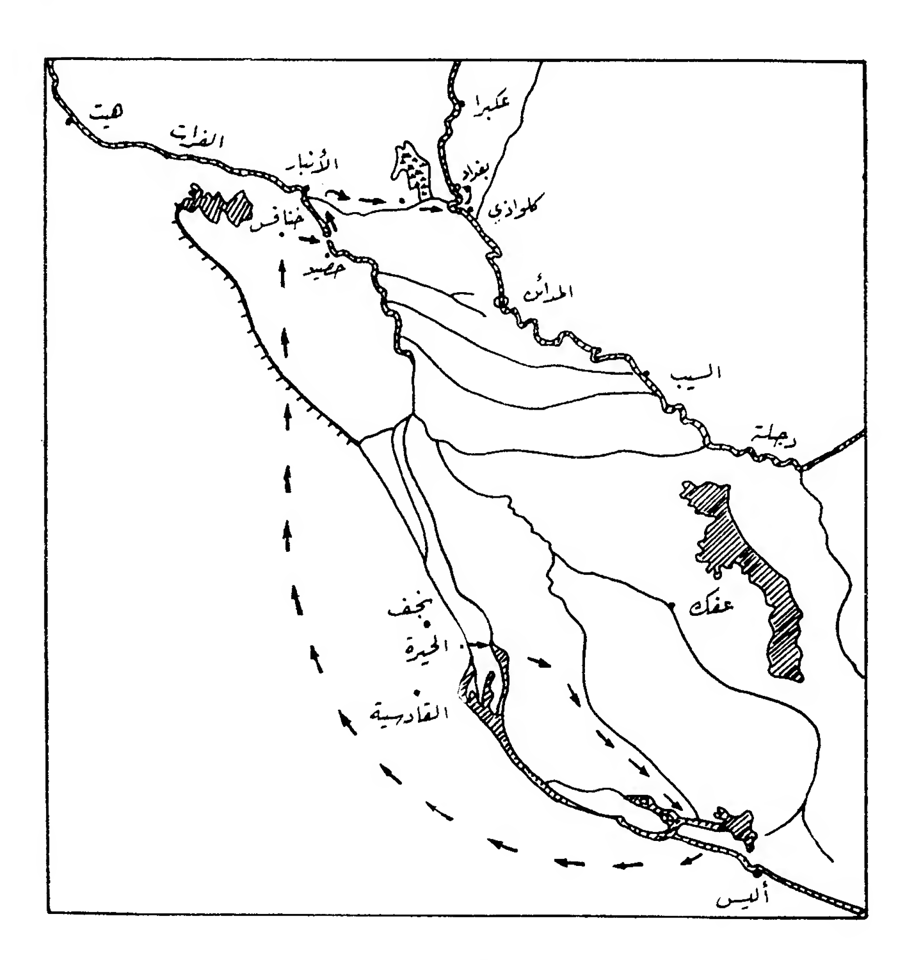
خرج المثنى في بني شيبان وبني عجل وكأنه بعض قوات المطاردة في أنحاء سواد العراق . وإمعاناً في التمويه مخر السواد من الحيرة متجهاً الى أليس [2] جنوباً بشرق ، ثم استدار منها غرباً الى طريق الصحراء حيث اختفى في جوفها عن الأعين وأسرع شمالاً نحو الخنافس . وفي نفس الحين كان المسلمون يمخرون السواد ويشنون الغارات فيما بين أسفل كسكر وأسفل الفرات وجسور مثقب الى عين التمر وما والاها من أرض الفلاليج والعال . هذا

---

(١) الطبري ٤/٧٨ ، عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد .

(٢) تقول الرواية : «إنه بدأ فنزل أليس من قرى الأنبار» . نقول : «لم تكن أليس من قرى الأنبار ولكنها على صلب الفرات الى الجنوب الشرقي من منطقة الحيرة، وهي التي هزم خالد فيها جابان في طريقه الى الحيرة» .

والمثنى يجد السير في الصحراء ومعه دليلان: أحدهما من الأنبار ليدله على الخنافس، والثاني من الحيرة ليدله على بغداد . وقد جعل على مقدمته حذيفة بن محصن الغلفاني وعلى ميمنته النعمان بن عوف بن النعمان الشيباني وعلى ميسرته مطر الشيباني ، وذلك حتى عاد من رحلته تلك . حذيفة بن محصن هذا هو الذي



خريطة رقم (٣٤) - مقياس : ١ : ٢،٦٠٠،٠٠٠

الإغارة على سوق الخنافس وعلى سوق بغداد .

كان قائد الجيش الثامن لقمع ردة الأزد [1] بعمان .

وبلغ المثنى الخنافس وقد أقمّت بلوغها أول ضوء النهار يوم سوقها. وكان يخفرها خيل من ربيعة عليهم السليل بن قيس ، وخيل من قضاعة عليهم رُومانِس بن وَبَرَة، فأغار عليهم وانتسف السوق وما فيها، ثم سار مسرعاً حتى طرق دهاقين الأنبار في أول النهار من نفس اليوم وهو يقول .

صبحنا بالخنافس جمع بكرٍ وحياً من قضاعة غير مِيلِ
بفتيان الوغى من كل حيٍّ تباري في الحوادث كل جيلِ
أبحنا دارهم والخيلُ تُرْدَى بكل سَمَيْدَعٍ سامي التَّليلِ [2]
نسفنا سوقهم والخيل رودٌ من التطواف والشر البخيل [3]

وغارة على سوق بغداد

ولما أحس دهاقين الأنبار بالخيل تقترب وهم لا يدرون خيل من ، دخلوا حصونهم وأغلقوها عليهم . فلما عرف دهقان الأنبار المثنى نزل إليه ، فأطمعه المثنى وخوّفه واستكتمه . وقال له : « إني أريد أن أغير فابعث معي الأدلاء الى بغداد حتى أغير منها الى المدائن » . ولم يطلع الدهقان على حقيقة مقصده . قال الدهقان : « أنا أجيء معك » ، قال : « لا أريد أن تجيء معي، ولكن أبعث معي من هو أدلُّ منك »، لقد كان مع المثنى دليل الى بغداد منذ خرج من الحيرة وهو هنا في الأنبار يطلب أدلاء أخر ، ربما

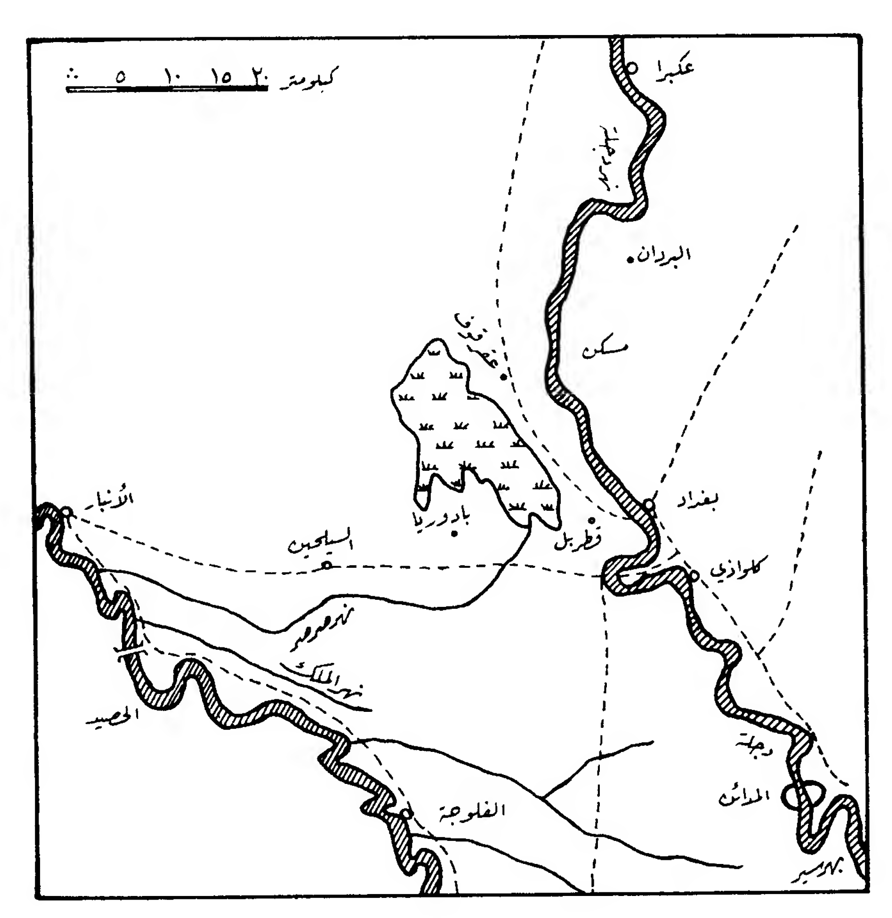
(١) دعا مرتدي عمان الى الإسلام، فأسلموا جميعاً إلا أهل دبا . وقد ولاه أبو بكر عليهم ، فتوفي أبو بكر وحذيفة عامله على عمان . – الإصابة ١٦٤٦ وقد ذكره ابن حجر باسم حذيفة بن محصن القلعاني .

(٢) فتوح البلدان ٦٢١ – والسميدع : السيد الموطأ الأكناف ، والتليل : العنق [مختار الصحاح] .

(٣) رود : تمشي على مهل ـ في مختار الصحاح ، فلان يمشي على رود: على مهل، وتصغيره رويد. يقال أرْوَدَ في السير أي رفق . والمقصود في البيت كناية عن التمكن والأطمئنان حتى أنهم شنوا الغارة على مهل .

هدف الى أن يكون معه أكثر من دليل حتى لا يبقى تحت رحمة دليل واحد إذا عنّ له أن يضلله أو يخدعه ، أو ربما كان الدليل الأول خبيراً بطريق الحيرة ـ بغداد ولم يكن خبيراً بطريق الأنبار ـ بغداد . زود الدهقان المسلمين بالأعلاف والأطعمة وبعث معهم الأدلة .

وساروا حتى إذا كانوا بمنتصف الطريق سألهم المثنى : « كم بيني وبين هذه القرية ؟ » ، قالوا : « أربعة أو خمسة فراسخ » [حوالي ٢٠ كيلومتراً]



خريطة رقم (٣٥) ـ سوق بغداد

قال لأصحابه : « من ينتدب للحرس ؟ » فانتدب له قوم . فقال لهم : « أذكوا حرسكم » فأخذوا مواقع الحراسة . ونزل المثنى من على فرسه وقال : « أيها الناس أقيموا وأطعموا وتوضؤوا وتهيؤوا » ، وبعث الطلائع فأقاموا على الطرق يمنعون الناس ويحبسونهم حتى لا تسبقه الأخبار . فلمّا تم له ذلك وأخذوا قسطهم من الراحة وحل الموعد الذي يجب أن يرحل فيه قام في أصحابه آخر الليل ، فعبروا دجلة وطلع على بغداد وسوقها مع أول ضوء النهار ، فوضع فيهم السيف، فقتل منهم وأخذ وأصحابه ما شاؤوا. وكان أمر المثنى لهم : « لا تأخذوا إلا الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته » .

وهرب أهل الأسواق، وملأ المسلمون أيديهم من الذهب والفضة والحُر من كل شيء . ثم كروا راجعين حتى إذا كانوا بنهر السيلحين على حوالي خمسة وثلاثين كيلومتراً من بغداد [ونعتقد أنه نهر صرصر] نزل وقال :

« أيها الناس انزلوا وقضّوا أوطاركم وتأهبوا للسير واحمدوا الله وسلوه العافية ثم انكشفوا قبيضاً [1] » .

ففعلوا. لقد قطعوا نحواً من ستين كيلومتراً على ظهور الخيل تخللتها غارة، كل ذلك في مرحلة واحدة منذ قاموا في آخر الليل الى بغداد حتى عادوا ، ورأى المثنى أنهم في حاجة الى استراحة وكذلك خيلهم .

وكان المسلمون يدركون عمق ما أوغلوا . وفيما المثنى يمر بينهم إذ سمع همساً . قال قائل منهم : « ما أسرع القوم في طلبنا! » فقال المثنى :«تناجوا بالبر والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان .. انظروا في الأمور وقدروها [احسبوها] ثم تكلموا .. إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال

---

(١) القبيض : الاسراع ـ مختار الصحاح .

الرعب بينهم وبين طلبكم . إن للغارات روعات تنتشر عليها يوماً الى الليل ، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب [الخيل الأصيلة] وهم على المقاريف (١) البطاء حتى تنتهوا الى عسكركم وجماعتكم ! ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين ، التماس الأجر ورجاء النصر ، فثقوا بالله وأحسنوا به الظن ، فقد نصركم الله في مواطن كثيرة وهم أعدُّ منكم [أكثر عدداً] ، وسأخبركم عني وعن انكماشي (٢) والذي أريد بذلك . إن خليفة رسول ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلل العرْجَة [الإقامة] ونسرع الكرة في الغارات ، ونسرع في غير ذلك الأوبة [الإياب] » . هذا نموذج من مثنى المسلمين أستاذ الحروب ، ذلك الرجل القمة ، نشكر الرواة الذين حفظوا لنا هذه المقالة حتى تعلم الأجيال ،أنه إنما كان يتحرك عن حساب محسوب وتخطيط مرسوم وإيمان عميق ، ولم تكن تحركاته عن ارتجال أو مجرد شجاعة وقوة عضل . إن كل معركة سبقت كانت تضيف إلى ما يختزن في أعماقه دراية وتجربة وعلماً ومعرفة . وهي تكشف لنا أيضاً عن العبقرية الحربية النادرة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه التي استطاع المثنى أن يتتلمذ عليها ويفيد منها رغم أنه لم يلقه إلا أقل من القليل ، وعلى وجه التحديد مرتين ، يوم استأذنه في غزو العراق ويوم أدركه وهو يحتضر .

نهض المثنى وأمرهم بالركوب ، وأقبل بهم ومعهم أدلاؤهم يقطعون بهم الصحاري والأنهار حتى انتهى بهم الى الأنبار ، فاستقبلهم الدهاقين بالإكرام واستبشروا بسلامته ، وكان قد وعدهم الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبون .

---

(١) المقرف : الذي دخل في الفساد والعيث ، وهو في الأصل الهجنة ، يقال : فارس مُقرفٌ إذا كان هجيناً . [الكامل للمبرد ١/٨٤] .

(٢) الانكماش : الجد في الأمر والسرعة في طلبه .

قال أحدهم [1] :

والمثنى بالعـال معركة ... شاهدها من قبيلة بَشَرُ
كتيبة أفزعت بوقعتها ... كسرى وكاد الإيوان ينفطرُ
وشُجّع المسلمون إذ حذروا ... وفي صروف التجارب العِبَرُ
سهَّل نهج السبيل فاقتفروا ... آثاره والأمور تقتفرُ

وغارة على الكباث [2]

بعد أن رجع المثنى الى الأنبار لم يشأ أن يرجع الى الحيرة قبل ان يوسع نطاق غاراته على شمال العراق حتى يشمله من أقصى شماله الى أقصى جنوبه . فسرّح المضارب العجلي وزيداً الى الكباث، وكان على الكباث فارس العناب التغلبي . ثم استخلف في الأنبار فرات بن حيان العجلي وخرج في آثارهم . وبلغ المضارب وزيد الكباث وقد انفض أهلها وأخلوها – وكانوا جميعاً من بني تغلب–فركبوا يقتصون آثارهم حتى أدركوا أخرياتهم وفارس العناب يحمي ظهرهم وظل يحميهم ساعة ، ثم هرب فانكشفت أخرياتهم فأكثر المسلمون القتل فيهم .

وغارة على صفين [3]

وعاد المثنى الى الأنبار فبعث فرات بن حيان وعتيبة بن النهاس الى صفين وأمرهما بالغارة على أحياء العرب من تغلب والنمر . ثم استخلف على الأنبار – التي اتخذها قاعدة متقدمة – عمرو بن أبي سلمى الهجيمي واتبعهما . فلما اقتربوا من صفين افترق المثنى عن فرات وعتيبة ، وفر أهل صفين فعبروا

---

(١) فتوح البلدان ٢٦١ .
والعال هي الأنبار وقطربل ومسكن وبادوريا ، فأراد غارة سوق بغداد. [ابن خرداذبه ٧ – وقدامة ٢٣٥] تقتفر : تُقْتَفَى .
(٢) قال ياقوت:«الكباث بالجزيرة لبني تغلب كانت تقام بهسوق في الجاهلية»[معجم البلدان].
(٣) صفين على الجانب الغربي للفرات بين الرقة وبالس [الاصطخري ٥٤] .

الفرات الى الجزيرة وتحصنوا بها،وكانوا من قبائل النمر وتغلب متساندين فاتبعهم فرات وعتيبة حتى رموا بطائفة منهم في الماء فكانوا ينادونهم « الغرق الغرق »، وكان عتيبة وفرات يحضان الناس ويحرضانهم ويقولان :« تغريق بتحريق »، يذكرانهم يوماً من أيام الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض . ثم رجعوا الى المثنى وقد أغرقوهم في الفرات . وبلغ خبر ذلك الى عمر، فقد كانت له عيون في كل جيش تكتب له ، فطلب فرات بن حيان وعتيبة الى المدينة وأجرى معهما تحقيقاً في هذا ، فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه أنه مَثَلٌ ولم يفعلاه على وجه طلب ثأر الجاهلية . فاستحلفهما فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام، فصدقهما عمر وردهما إلى العراق فرجعا إليه مع حملة سعد بن أبي وقاص.[انظر موضع صفين في الخريطة ١٨].

ان مراعاة الاعتبارات الانسانية في القتال مبدأ لم يعرف قبل الاسلام ، وحتى بعد أن عرفه الغرب مؤخراً،فقد فشل فشلاً ذريعاً في تطبيقه،وشواهد الحربين العالميتين والحروب الصغيرة التي تلتهما وخاصة في فلسطين والجزائر وفيتنام مما يؤكد هذا ، فقد كانت مجرد معرفة نظرية تمثلت في مثل اتفاقية جنيف ، وذلك بسبب فقدان الروح الانسانية والقيم الروحية عند الغرب .

وغارات أخرى للمثنى

ونفد [١] زاد المثنى وأصحابه بعد ان افترقوا عن فرات وعتيبة حتى أقبلوا على رواحلهم،إلا ما لا بد منه،يأكلونها حتى أخفافها وعظامها وجلودها. وفي ظهيرة يوم أدركوا عيراً من أهل دبا وحوران فقتلوا العجم الذين معها وأسروا ثلاثة من بني تغلب كانوا خفراء لها وأخذوا العير،وكانت ظهراً فاضلاً من أفضل المطايا .

وطلب منهم المثنى أن يدلوه فقال أحدهم:« آمنوني على أهلي ومالي وأدلكم

---

(١) في الأصل أرمل المثنى وأصحابه . وفي بلوغ الأرب ٢ ٣٧١، يقال أرمل الرجل اذا نفد زاده ، وأرملت المرأة فهي أرملة للتي لا زوج لها لافتقارها الى من ينفق عليها .

على حي من تغلب غدوت من عندهم اليوم ». فآمنه المثنى وسار معه يومه حتى إذا كان العشي هجم على القوم فإذا أنعامهم عائدة من الماء بعد أن شربت وروت ، وإذا الناس جلوس بأفنية البيوت فأغار عليهم. فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال ونظروا فيهم فاذا هم [1] بنو ذي الرُّوَيحلة . فاشترى من كان بين المسلمين من ربيعة السبايا بنصيبه من الفيء واعتقوا سبيهم إذ كانت ربيعة لا تسبي حين كان العرب يتسابون في الجاهلية .

وأتى النسير بن ديسم العجلي عُكبُرا فأمّن أهلها ، وأخرجوا لمن معه طعاماً وعلفا [انظر خريطة ٣٥] ثم مرّ بالبردان فأقبل أهلها يعدون من بين أيدي المسلمين فقال لهم : « لا بأس » فكان ذلك أمانا . ثم أتى المُخَرَّم [ولم يكن ذلك اسمها يومها] ، فعبر المسلمون جسراً كان معقوداً عند قصر سابور الذي عرف فيما بعد بقصر عيسى بن علي، فخرج إليه خُرْزاد بن ماهُبنداذ وكان موكلاً به فقاتلوه وهزموه، ثم لجّوا حتى أتوا عين التمر . وفي ذلك قال أحدهم :

وآل منا الفارسيُّ الحَذَرَة	حين لقيناه دُوَيْن المَنْظرة
بكل قَبّاء لحوقٍ مُضمَرة	بمثلها يُهزم جمع الكفَرة [2]

وأغار النسير في هذه الغارة على قرى مَسْكَن وقطرُّبل، فغنم منها غنيمة حسنة .

---

(١) ينسب البلاذري هذه الواقعة بدون تفاصيلها الى النسير بن ديسم، وأن خالد بن الوليد هو الذي أرسله اليها . ولكننا نميل الى الأخذ برواية الطبري فهي اكثر دقة وتفصيلا . ونرجح ان النسير كان مع المثنى، فهو عجلي من بكر بن وائل التي قامت بهذه الغارات. فتوح البلدان ٦٢٠ عن الحسين بن الأسود عن يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح عن أشعث عن الشعبي .

(٢) فتوح البلدان ٦٢١ عن أبي مسعود الكوفي عن محمد بن مروان .
وعن عتاب بن ابراهيم عن أبي مسعود .
وفتوح البلدان ٦٢٢ . ويعني بالمنظرة تل عقرقوف .
القباء الضامرة البطن ـ مضمرة ضامرة خفيفة اللحم ، مختار الصحاح .
والمواقع كلها موضحة بالخريطة ـ من بغداد الى البردان أربعة فراسخ ثم الى عكبرا خمسة =

وأحدثت هذه الغارات الكثيرة السريعة الخاطفة الى هذه الأعماق أثرها في أهل تلك البقاع ، فبدأت حركة هجرة ولجوء الى شرق دجلة . واتجهت قوافل اللاجئين شمالاً التماساً للنجاة بالبعد عن دائرة الغارات حتى يعبروا دجلة عند تكريت [انظر مكانها خريطة ٣٥] على حوالي مائة وخمسين كيلو متراً شمالي الأنبار . وجاءت أخبارهم الى المثنى ، وعلم ان جمهور من سلك البلاد نزلوا بشاطيء دجلة ، فخرج في آثارهم.ولم لا ؟ ألم يقتل من العجم ما قدروه بمائة ألف في البويب منذ أيام ؟ فأين هم الى أن يفيقوا من هذه المذبحة !!

خرج وقد سرّح امامه مقدمته عليها حذيفة بن محصن وهو في تعبئته التي كان عليها بعد البويب ، ثم اتبعه فأدركوهم قبيل تكريت يعبرون دجلة ، يخوضون الماء [1] ، فأصابوا ما شاؤوا من النعم حتى أصاب الرجل خمساً من الأنعام وخمساً من السبي .

وقسم المثنى الغنيمة وخمّس المال وجاء به حتى ينزل على المسلمين بالأنبار.

=فراسخ [ابن خرداذبه ٩٣ وقدامة ٢١٤] ومن بغداد الى البردان سكتان، ثم الى عكبرا اربع سكك ، ثم الى سر من رأى سبع سكك [قدامة ٢٢٧] وطابقه ابن خرداذبه إلا فيما بين سر من رأى وعكبرا ، فقد قال تسع سكك [ص ٥٩] والسكة هي المحطة (أو المنزل) .

(١) هذا يناسب التوقيت الذي ذهبنا إليه لهذه الغارات من انها كانت في ديسمبر (كانون أول) وهو وقت تحاريق لدجلة يمكن أن يخوضوه فيه .

وقال الاصطخري:«من بغداد الى سامرا ٣ مراحل ومن سامرا الى تكريت مرحلتان»[ص٥٦]
وقال ابن بطوطة : « ان تكريت على مرحلة من سر من رأى » [ص ١٧٩] .

هذه الغارات

إستغلال نجاح [المطاردة]

١ – لا شك أن الغارات على أسواق شمالي العراق كانت استغلالاً رائعاً للظفر الذي أحرزه المسلمون يوم البويب . لم يكن المثنى قد قرأ عن أصول الحرب ولا عن مبدأ المطاردة ، ولكنه وضع هذا المبدأ لنفسه كقائد،وبذلك يعتبر المثنى من واضعي هذا المبدأ في علم الحرب . وقد استطاع بكافاءته أن ينفذه في قوة وعمق بلغ حوالي أربعمائة كيلومتراً أو يزيد شمالاً ، خلاف ما تبحبحوا به شرقاً وجنوباً وغرباً على امتداد ذلك الخط . لقد فتح المثنى على العجم أبعاداً ثلاثة للحرب القائمة بينهما .

البعد الأول هو خط المواجهة .

والبعد الثاني هو ما امتد إليه هذا الخط فجعله يتسع ويستطيل حتى بلغ ميسان ودست ميسان ، وذلك ليحقق الأهداف الثلاثة :

أ – الحصول على الأقوات [التموين] للقوات .
ب – تشتيت العدو وإرباكه .
حـ – الأثر النفسي على قياداته وشعبه .

ثم كان البعد الثالث وهو النفاذ العميق جداً وراء خط الجبهة والى مـــا

أبعد من البعد الثاني بهذه الغارات السريعة الخاطفة المدروسة المحسوبة، وذلك بالاستخدام المزدوج الإبل والخيل .

المفاجأة

٢ ــ أحسن المثنى إعداد الخطة مع توفير عنصر المفاجأة كاملاً، فوجه ضربة عنيفة وراء ضربة حيث لم يكن يتوقع عدوه أن يأتيه الضرب، لا سيما وقد كان اختيار الأهداف في أماكن بعضها قريب من المدائن وبعضها تجاوز موضعها بكثير. هذه المفاجأة شلت الفرس عن أن يعملوا شيئاً على الإطلاق . ولقد كان إذكاء الحراس على طريق التقدم نحو سوق بغداد لستر أخبار التقدم عن المدائن تصرفاً يطابق الى أبعد الحدود عمليات التشويش على الرادار في تكتيكات الحرب في العصر الحديث، كلاهما يهدف الى تعمية العدو وصم أذنيه عن حقيقة ما يحدث حتى تتم العملية وتعود القوات المغيرة منها .

حساب وتوقيت

٣ ــ كانت عمليات الغارات ولا سيما غارة سوق بغداد على أعلى درجات التخطيط وحساب التوقيت . وقد أوضحت بما لا يدع مجالاً لشك، أن المسلمين قد توافرت لهم في الميدان القيادة الممتازة والجندية الممتازة . وقد أوضحت لنا غارة بغداد ــ كما وضح ذلك من قبل في موقعة البويب ــ أن المثنى كان يتحين الفرص لمجالسة جنوده ومناقشة المعركة وأن يشرح لهم تخطيطها وحساباتها وأسرارها وخباياها كأستاذ ومحاضر ممتاز . وفي هذا قال شاعرهم :

سَهَّل نَهْجَ السبيل فاقتفروا آثاره والأمور تُقْتَفَرُ

كذلك اشتملت على أعلى درجات الجرأة المثالية في غير مغامرة خاسرة . قال نابليون : « لو اشتمل فن الحرب على مجرد تجنب المخاطر لدان المجد لذوي المواهب المتوسطة جداً » .

أهداف مختارة

٤ – عني المثنى أن يحس المسلمون مادياً بفوائد ملموسة لهذا الظفر، فاختار أهدافاً تعود عليهم بمغانم مجزية وبدون ضحايا رفعاً لمعنوياتهم ومكافأة لهم. وهو في نفس الوقت يستنزف من خصمه هذه الموارد ليستحوذ عليها هو. إن حرب الاستنزاف هي إحدى صور الاستراتيجية غير المباشرة Indirect Strategy، كما وأنها تدخل في دائرة الحرب الساخنة التقليدية المحددة بميادين قتال، فهي تستخدم القوة المسلحة جنباً إلى جنب مع وسائل الحرب النفسية أو القوة المسلحة في خدمة الحرب النفسية لتضع العدو تحت ضغط ظروف غير مناسبة ومستمرة من الضغط المادي والعصبي، مع استغلال جميع وسائل المناورة والضغط سواء المادية أو المعنوية. ويكون هدف حرب الاستنزاف هو التأثير على:

– جنود العدو في الميدان.

– ومواطنيه في المؤخرة.

بالإضافة الى ذلك فقد استخدمها المثنى إيجابياً لتغطية واستغلال فترة الإعداد والتحضير للمعركة الكبيرة بما يمهد لتلك المعركة الرئيسية، ويهز كيان العدو هزاً عنيفاً ويرفع كفاءة المسلمين القتالية والمعنوية. إن حرب الاستنزاف تهيء أنسب الظروف للحرب الحاسمة، فهي تشكل للعدو مشكلة من مشاكل الأمن الداخلي وتستنزف معنوياته أسوة بمادياته.

شعب منهزم

٥ – عرفت الحروب نوعين أساسيين من الدفاع:

الدفاع المتحرك Static deffence

والدفاع الثابت Fixed deffence

فالدفاع المتحرك يعتمد أساساً على قوات متحركة معدة إعداداً جيداً لمقابلة الجيوش المهاجمة . والدفاع الثابت يعتمد أساساً على قلاع وحصون ومواقع محصنة معدة على مهل إعداداً جيداً تستعصي على الجيوش المهاجمة . وظلت ميادين القتال منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث تعتور هذين النوعين وتتردد بينهما ، حتى وجدنا في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ سيطرة الدفاع الثابت بخطوط دفاعية مجهزة سلفاً في زمن السلم بعناية وعمق . فكان خط ماجينو في فرنسا، وخط سيجفريد في ألمانيا ، وخط مانرهايم في فنلندا وخط ماريت في تونس. ثم أقام هتلر بحذاء بحر الشمال ما اشتهر باسم جدار الاطلنطي Atlantic Wall . وكانت النتيجة فشل جميع تلك الخطوط في تحقيق ما أنشئت من أجله، لأن المهاجم لم يكن ليهاجمها بالمواجهة العريضة وإنما كان يعمد الى الالتفاف حول أجنابها أو حشد أكبر قدر من قواته أمام نقطة محدودة من الخط لاختراقه ثم الانتشار خلفه. ومن هنا أسفرت الحرب العالمية الثانية ـ وهي أكبر حرب شهدها كوكبنا ـ عن نتيجة ، هي أنه قد ينهار الدفاع المتحرك أو الدفاع الثابت ، ولكن تحصيل الحاصل والرجوع الى الأصل الذي لا محيص عنه في أي دفاع أن يكون على طريقة الصفحة .

والمقصود بدفاع الصفحة أن تكون كل نقطة وكل بقعة على صفحة الوطن مقاومة ودفاعاً، بأن يهب كل فرد في الأمة لدفع الغازي وعرقلة تقدمه ومهاجمة مواصلاته ومؤخرته ومخازنه ودورياته وأفراد قواته، بل ومعسكراته، بمعنى أن تنتشر المقاومة في كل مكان على اتساع الرقعة المحتلة ، فيدخل في ذلك مفهوم الدفاع الوطني وحرب العصابات وجيوش التحرير والجمعيات السرية... الخ . وهو كفاح مرير يقابله الغزاة بكل قمع مستطاع، ولكنه يقض مضاجعهم ويضيع مكاسبهم ويجعل من انتصارهم هزيمة ، ومن استمرار الاحتلال أمراً شاقاً مستحيلاً . حدث ذلك في معركة المنصورة ضد لويس التاسع في الحروب الصليبية، وحدث لنابليون في روسيا ، وحدث في معركة رشيد في مواجهة

الغزو الانجليزي ، وحـــدث لقوات ألمانيا الهتلرية في فرنسا وفي يوغوسلافيا وفي اليونان وفي النرويج ، وحدث لقوات الاستعمار الفرنسي بالجزائر ولقوات الاحتلال البريطاني في عـدن ، وكانت المقاومة السلبية التي تزعمها غاندي في الهند ضرباً من هذا النوع. وعلى هذه النظرية بنت إسرائيل كيانها ووجودها بإقامة مئات من المستعمرات الدفاعية المسلحة المنتشرة على أرض فلسطين في كل مكان فيها تجعل لزاماً على أي جيش يتقدم خلال هـذه الأرض أن يقف أمام كل مستعمرة في معركة ضارية .

هـذه النظرية في المقاومة والدفاع تستند أساسا على الشعب الحي المتوثب الإيجابي المتحرك ، ولا يمكن أن تتواجد المقاومة إلا بتواجده ، فيهب للدفاع عن نفسه إذا انهارت قواته النظامية في الجبهة. ولكن الذي لا شك فيه، أن شعب فارس الذي سكن العراق ، لم يكن يحمل هذه المعنوية بـين أجنابه ، ولم يكن ينطوي على حيوية وارتباط وتجاوب مع السلطة الحاكمة التي أمضّته وأذاقته مر الاضطهاد والعذاب ، وساسته بالسجن والسياط ، وحكمته بأشد أنواع الاستبداد ظلماً وعسفاً ، وفرضت عليه ألواناً من التأييد يبديها ، ومن الهدايا يزجيها إلى الحكام في كل عيد .

فإذا انتصرت هـذه القوات القليلة العدد من المسلمين في الميدان وكسرت جيش الدولة الذي اعترضها ، فقد انفتح لها ما وراءه ، واكتسحت الأراضي والقفار والمنازل والديار ، ولم تجـــد من الشعب المنكسر الذليل مقاومة أو دفاعاً. لم يكن من سبيل إلى مدافعة الغزاة الفاتحين بعد هزيمة الجيش الفارسي إلا بجماهير شعب فارس ، ولكن الحقيقة أن تلك الجماهير كانت قـد سبقت جيشها إلى الهزيمة .

الحرب الخاطفة

٦ — طبّق المثنى استراتيجية وتكتيكات الحرب الخاطفة Blitz Kreig في عملياته تلك ، طبقها وفق أحدث مفاهيم تعبير « الحرب الخاطفة » . ولنترك

للجنرال هاينز جودريل القائد الألماني الشهير الذي يعتبر استاذ تطبيق هـذا النوع من الحروب في القرن العشرين ، والذي أذهل العالم بتطبيقه فاكتسح به فرنسا عام ١٩٤٠ ، لنتركه يشرح لنا بأسلوبه مفهومه لهذه الحرب . قال : « الحرب الخاطفة هي أن تستعمل مقدرة الحركة العسكرية السريعة كسلاح نفسي . لا تتحرك لكي تقتل ، ولكن تحرك لكي تتقدم .

لا تتقدم لاحتلال مواقع ، ولكن تقدم لكي تثير الخوف والرعب ، لكي تصيب عـدوك بالذهول . لا تأسره ، ولكن اتركه أسيراً للارتباك والتوتر والشك لكي تصبح خطوطه الخلفية فوضى شامـلة تمزقها الإشاعات وتفترسها التهويلات ... إن الذعر سوف يتحول إلى وحش تجري أمامه رعباً فلول عدوّك وتنهار قيادته وتصاب بالشلل حكومته .

وقبل أن يتبين أحد ماذا جرى تكون قد انتصرت ! »

كأن هاينز جودريل كان يصف عمليات المثنى أو خالد بعباراته تلك .

والقوات الإسرائيلية بنت خطتها في حرب ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ على هذا الأساس . قالت الصحافة [١] في ذلك :

« إن أسوأ ما يمكن أن يسجله التاريخ على أمـة مقاتلة أنها عاشت أيامها الخطيرة كلهـا مأخوذة بالمفاجآت ... كل خطوة خطتها – أو لم تخطها – أوقعتها في كمين . ونصف الطريق إلى انتصار أي طرف في صراع ، أن لا يفاجئه تصرف يقوم به عدوّه » .

آثار داخلية

٧ – لا شك أن هذه العمليات قد وجهت إلى السلطة الحاكمة في المدائن أكبر إهانـة أمام شعبها ، وأضعفت الثقة في قدرتها على القيام بالدفاع ضد

---

(١) محمد حسنين هيكل عن مقال بصراحة – الأهرام ٣٠ / ١ / ١٩٧٠ .

هجمات قوم كان الفرس حتى وقتها ينظرون إليهم نظرة ملؤهـا الزراية والازدراء . وفي هذا ما فيه للضغط على الفرس ليرضخوا لشروط المسلمين أو أن يواصلوا حرباً ميؤوساً منها حيث لا يـأمن أي مواطن فارسي على نفسه وماله في أي مكان كان ، كما وأنها قد أثارت الشعور العام الداخلي في فارس إثارة حادة .

رد فعل

لم تكن أحداث كالتي وقعت لتمر دون أن يكون لها رد فعلها في الدوائر الحاكمة في فارس ، فقالوا لرستم ولفيرزان :

« أين يذهب بكما ؟ [1] لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهـل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم . والله ما جر هذا الوهن علينا غيركم يا معاشر القواد . لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ، وإنـه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة . ما تنتظرون والله إلا أن ينزل بنا ونهلك . ما بعد بغداذ وساباط وتكريت إلا المدائن . والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت . والله لولا أن في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك ، وقـد اشتفينا منكم » .

لم تذكر لنا المصادر من الذي قال ونعتقد أنهم كانوا من كبار الأساورة .

---

(١) الطبري ٤/٨١ س ش س ، عن محمد بن عبدالله بن سواد بن نويرة عن عزيز بن مكنف التميمي ثم الأسيدي .

وطلحة بن الأعلم الحنفي عن المغيرة بن عتيبة بن النهاس العجلي .
وزياد بن سرجس الأحمري عن عبد الرحمن بن ساباط الأحمري .
س ش س ، عن عبيد الله بن محفز عن ابيه .

تولية يزدجرد

وذهب [١] رستم وفيرزان إلى بوران فقالا لها :

« اكتبي لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم » .

ففعلت وأخرجت لهم ذلك في كتاب. فأرسلوا في طلبهن فأتوا بهن جميعاً فسلموهن إلى رجال يعذبونهن ويستدلونهن على ذكر من أبناء كسرى ، فلم يوجد عندهن منهم أحد ، ولكن إحداهن ذكرت أنه لم يبق إلا غلام يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا . فأرسلوا إليها وأخذوها به يطلبونه منها، وكانت حين جمعهن عمه شيرويه في القصر الأبيض وقتل ذكور آل كسرى — وهم إخوته السبعة عشر — حتى لا ينافسه أحد على عرش فارس، قد هربته في زبيل وأخفته عند أخواله في إصطخر ، وكان شيرويه قد قتل فيمن قتل أخاه شهريار بن كسرى برويز من زوجته المفضلة شيرين وهو والد يزدجرد هذا. ضغطوا على أم يزدجرد فدلتهم عليه، فأرسلوا إليه فجاؤوا به باعتباره الذكر الوحيد الباقي من بني ساسان ، فملّكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، واجتمعوا عليه واطمأن جميع الفرس لذلك ، فتباروا في طاعته ومعونته ، ورأوا في ذلك مخرجاً مما كانوا فيه .

إنسحاب

بدأ يزدجرد الثالث يزاول سلطاته بمعونة رستم وفيرزان . فجدد المسالح والثغور التي كانت لكسرى ، وخصص جنداً لكل مسلحة فسمّى جند الحيرة والأنبار وجند الأبلة. وبلغت هذه الأخبار المثنى فكتب بها وبما يتوقع من هجوم مضاد قوي إلى عمر . وصدق تقدير المثنى ، فلم يصل كتابه إلى عمر حتى كفر أهل السواد وانتقضوا وتنكروا للمسلمين ، من كان له منهم عهد ومن لم يكن له ، وعاجلهم الفرس فزاحفوهم مع ثورة أهل الذمة . من

---

(١) الطبري ٤/٨١ س ش س ، عن محمد وطلحة وزياد .

ذلك أن خرج أنوشجان بن هربذ من سواد البصرة يريد مهاجمة أهل غُضَيّ فاعترضته [١] أفناء من تميم والرباب عليهم أربعة أمراء .

فكان على الرباب المستورد ويسانده عبد الله بن زيد .

وكان جَزْء بن معاوية على بني سعد بن زيد مناة بن تميم ويسانده ابن النابغة .

وكان الحسن بن نيار على بني عمرو بن تميم ويسانده الأعور بن بشامة .

وكان الحصين بن معبد على بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم يسانده الشبه . فقتلوه دونهم .

فلما رأى المثنى ذلك كان يدرك أنه أحرز من التقدم والاكتساح اكثر مما تسمح قوته (٨٠٠٠) الاحتفاظ بـه ، ومن شأن هذا ألا يدوم ، فخرج في حاميته حتى نزل بذي قار وأنزل الناس بالطف في عسكر واحد . وكان عمر أكثر حذراً فجاءهم كتابه [٢] .

« أما بعد ، فأخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتنح إلى البر وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم وادع من يليك . ولا تدعوا في ربيعة أحداً، ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً إلا اجتلبتموه . فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجد إذ جد العجم . فلتلقوا جـــدهم بجدكم وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم حتى يأتيك أمري » . وبهذا عيّن أمير المؤمنين الجهاد فجعله فرض عـــين ، وقد كان فرض كفاية حتى حينذاك .

ونزل المثنى بذي قار ووزع المسلمين بالجُـل وشِراف إلى غُضَيّ – وغضي

---

(١) الطبري ٤/٩٦ عن السري عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبي .

(٢) الطبري ٤/٤٨ عن شعيب عن سيف عن خليد بن زفر عن ابيه .

جبل تجاه البصرة – فكان جرير بن عبد الله البجلي في غضي وَسَبْرَة [1] بن عمرو العنبري ومن معه إلى سلمان . فتفرقوا في المياه من أول صحراء العراق إلى آخرهـا ، من غُضَيّ [2] إلى القطقطانة مسالح ينظر بعضهم إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً إن حدث شيء ، في حالة ترقب وانتظار لحشد جديد ، بينما عادت مسالح كسرى وثغوره واستقر أمر فارس وهم متهيبون مشفقون والمسلمون متدفقون فيضراوة كالأسد ينازع فريسته ثم يعاود الكر، وأمراؤهم يكفكفونهم عملاً بكتاب عمر وانتظاراً للمدد .

كان ذلك في أواخر ذي القعدة ١٣ هـ ، يناير (كانون ثاني) ٦٣٥ م.

وقال عمر [3] : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » . ثم كان أول [4] ما عمل أن كتب إلى عماله على الكور والقبائل وذلك في ذي الحجة

---

(١) كان من وفد بني تميم الى النبي مع الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد وقيس بن عاصم ومالك بن عمرو . وقد استعمله خالد بن الوليد لما توجه الى العراق ، فكان من جيش خالد . [الاستيعاب ٧٤/٢ ، الاصابة ٣٠٨٣].

(٢) غضي جبال البصرة – معجم البلدان .

(٣) الطبري ٨٧/٤ س ش س ، عن طلحة عن ماهان .

(٤) « ٨٢/٤ « « « ، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

كتب عمر الى عماله بطلب الأمداد في ذي الحجة مع خروج الناس الى الحج . ومن حيث ان وقفة عرفات في تاسع ذي الحجة ، فنقدر ان كتب عمر كانت في اول ذي الحجة ، وكان في عجلة ظاهرة تجعلنا نعتقد انه كتب بمجرد بلوغ اخبار العراق إليه ، وإذاً يكون ذلك في اواخر ذي القعدة ويكون المثنى كتب له بها في حوالي منتصفه ، وذلك بعد إجراءات رستم وفيرزان وبوران لتنصيب يزدجرد التي نقدر انها لم تستغرق بأي حال اقل من اسبوعين ، يعني انها بدأت قبل اول ذي القعدة . ومن حيث كانت البويب في رمضان ، إذاً نستطيع ان نؤقت غارات الشمال بأنها وقعت في شوال ١٣ هـ – ديسمبر (كانون اول) ٦٣٤ ، ولعلها ان تكون قد استغرقته من اوله الى آخره من خروج المثنى من الحيرة حتى رجوعه إليها .

١٣ هـ ، مع مخرج الحجاج إلى الحج. فجاءته أوائل القبائل التي طرقها على مكة والمدينة ومن كان على طريق العراق وهو إلى المدينة أقرب ، توافوا إليه بالمدينة مع رجوع الحج وأخبروه عمن وراءهم أنهم يجدون في أثرهم . أما من كان إلى العراق أقرب فقد لحقوا بالمثنى . فلم يدع عمر رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سطوة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم

القادسية في التاريخ

المعارك الحاسمة

يترك الإنسان بصماته على ما يضع أصابعه عليه من أشياء ، فتبقى هذه البصمات كثيراً أو قليلا حتى يزيلها الناس أو يعفي عليها الزمن . ومن المعارك ما يضع بصماته على سطح الأرض فتبقى آثارها على التاريخ ما بقي كوكبنا ، لأنها لم تكن ذات أثر محدود يذوب مع الزمن ، أو لم تكن فعلا ينقضه رد فعل في الأجل المناسب ، وإنما كانت فعلا اكتسب من استطراده المحتوم ما استحال معه إيقافه أو إزالة آثاره .

وعلى ذلك يعتبرون معركة واترلو من المعارك الحاسمة في تاريخ العالم، فلو ظل نابليون بونابرت يوالي انتصاراته لما استطاع أحد أن يتصور خريطة العالم اليوم . ويعتبرون معركة ستالينجراد معركة حاسمة استطاعت عندها روسيا البلشفية أن توقف تقدم هتلر،ولولا ذلك لتم لهغزو روسيا ولبادت الشيوعية، وارتفعت على أنقاضها النازية . ويعتبرون معركة العلمين من المعارك الحاسمة ، فلولا ان انتصر الانجليز فيها لدخلت القوات الألمانية مصر، واخترقت الشرق الأوسط وانقلب ميزان الموارد والقوى في الحرب العالمية الثانية لصالح ألمانيا. ولا يعتبرون سقوط فرنسا وباريس تحت أقدام هتلر من المعارك الحاسمة لأنها لم يكن لها ذلك الأثر الممتد مع التاريخ .

وليس أغنى من التاريخ الإسلامي بالمعارك الحاسمة ، ليس فقط بعدد تلك المعارك على مداه ، ولكن بمقدار ما صاحبها من أثر وحسم. وليس على سبيل الحصر أن نذكر أن صلاح الدين استطاع في حطين أن يضع نهاية للنفوذ الصليبي في الشرق الأوسط فتعود الموجات الصليبية من حيث أتت وتستمر الحضارة الإسلامية تؤدي دورها لقرون أخرى . واستطاع قطز أن يقهر التتار في عين جالوت فيوقف المد المغولي المخرب بعد ان اكتسح الشرق كله حتى بلغ حدود مصر الشرقية ، ثم يرتد مرة أخرى من حيث جاء في هزائم متلاحقة .

القادسية معركة حاسمة

ولا شك ان القادسية -وتقاربها اليرموك- تقع على قمة قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ العالم ، فهي التي انفتحت على آثارها أبواب العراق ، ومن وراء العراق فارس كلها ، وهي التي من عندها استطرد نصر المسلمين ، فاستطرد معه السقوط الساساني من الناحيتين الحربية والسياسية ، والسقوط المجوسي من الناحية الدينية العقائدية . ومن هنا انساح دين الإسلام في العالم شرقاً وغرباً ، ولولا ذلك لظل محصوراً في جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة في صحاريها وحواضرها القليلة. كان الإسلام جديداً ، فهو ما زال في فتوته ، فإن لم يكسب المسلمون إنجازاتهم حينذاك ، ودينهم حي في قلوبهم يصرّف أعمالهم لأدرك أمتهم الهرم والشيخوخة ، ولظلت السيطرة على العالم لجيرانهم من الفرس والروم من دونهم ، ولأمكن حينذاك - ولو من الناحية التصورية البحتة للتاريخ - أن ينحسر ظل الإسلام فيضمر حيث حصره أصحابه ، لولا أن الإسلام يفرض على المسلمين مجاهدة أعدائهم ومناجزتهم حتى يتم النصر عليهم .

في القادسية كسر المسلمون شوكة المجوس كسراً لم ينجبر بعدها أبداً . فيها ألقى الفرس بكل طاقاتهم من سلاح وعتاد وأفيال كثيرة ، وأعداد ضخمة من الجند ، وبقيادة تمثلت في أحكم رجالهم وأشهرهم في الحرب

والسياسة . وألقى المسلمون أيضاً بكل إمكانياتهم من وجوه المسلمين وغررهم، وبقيادة تمثلت في صحابي رسول الله ﷺ ، وواحد من السابقين الأوائل الى الإسلام ، وأحد الستة المرشحين للخلافة بعد عمر ، سعد بن أبي وقاص ، كما نزلوا الى مواجهة أعداد الفرس وأفيالهم وعدتهم بسلاحهم الذي اختصوا به على عدوهم... الإيمان بكل ما يفرغه على أصحابه من صلابة وصبر وكفاءة.

بهذا استحقت القادسية مكانها ، بل مكانتها على قمة المعارك الحاسمة في تاريخ البشر . وستكون القادسية ، إن شاء الله ، المعركة الاولى التي سنتناولها بالبحث في الكتاب الثاني من سلسلة كتب **استراتيجية الفتوحات الاسلامية**، التي تنشرها دار النفائس .

احمد عادل كمال

٩٩ شارع هارون الرشيد

مصر الجديدة — القاهرة

ترجمة مشاهير قادة الفتح [1]

الأقرع بن حابس (٢٨٠)

اسمه فِراس، واشتهر بالأقرع لقرع كان برأسه. ومع هذا الداء الذي من شأنه أن ينفر الناس من صاحبه، كان الرجل شريفاً في الجاهلية عظيماً في الإسلام، فلا غرو إن دلنا داؤه على ارتفاع قدره ومزاياه ارتفاعاً يثقل به وزنه عند أهل زمانه ، فإن قيل شجاع فلا بد أن كانت شجاعته فوق شجاعة الشجعان، وإن قيل فارس فلا بد أن كانت فروسيته فوق مستوى أقرانه وهكذا، وإلا لحط داؤه من شأنه

وهو ابن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك ابن حنظلة من قبيلة تميم. كان من حكام بني تميم بل ومن حكام العرب، ومرجعهم في واقعاتهم ومنافراتهم في الجاهلية ، وقد وفد على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، مما نقف منه على مستوى علاقاته العامة . وكان الأقرع مجوسياً قبل أن يسلم وهو ما يدلنا على أنه كان يحاول أن يفكر . وكان له ذكر كثير في الجاهلية وفي أيام العرب المشهورة . من ذلك يوم نجران، وقد انتصرت فيه

---

(١) نورد هنا تراجم مشاهير القادة الذين وردت أسماؤهم خلال الكتاب ، ووجدنا انه من الأفضل ذكر تراجمهم مجتمعة في آخر الكتاب لسهولة الرجوع إليها ، وتحاشياً لتشويش القارىء بين النص والحواشي .

تميم يقودهم الأقرع على أخلاط من أهل اليمن فيهم فارسهم الأشعث بن قيس وأخوه ، [بلوغ الأرب ٢/٦٩] . ويوم زُبالة، وكان لبني بكر بن وائل وخاصة بني شيبان وبني تيم الله يقودهم بسطام ، فانتصروا على بني تميم يقودهم الأقرع ، ووقع الأقرع وأخوه في الأسر ، ولكن بسطاماً استنقذهما بعد أن حكم عمران بن مرة بفدية مقدارها مائة ناقة [بلوغ الأرب ٢/٧١] .

وقد كانت سوق عكاظ موسماً معروفاً للعرب ، وهو نخل في وادٍ بين نخلة والطائف ، وهو الى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال ، وكانوا يجتمعون فيها فيتبايعون ويتفاخرون وينشدون الشعر ويخطبون ، وفيها علقت المعلقات السبع ، فكان يتوافى شريف كل قوم ، فمن كان له أسير سعى في فدائه ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة ، فكان الأقرع بن حابس يقوم بأمر هذه الحكومة في أناس من تميم [بلوغ الأرب ١/٢٦٧] ، وكان الأقرع هو الحكم في المنافرة المشهورة التي جرت بين جرير بن عبدالله البجلي وخالد بن أرطأة .

اسلم الأقرع قبل أن يفد وفد تميم على النبي ﷺ ، ثم قدم مع هذا الوفد، فلما دخلوا المسجد نادوا النبي من وراء حجرته أن أخرج إلينا يا محمد ، فآذى ذلك من صياحهم النبي، فخرج إليهم فقالوا : «يا محمد جئنا نفاخرك» ، وقال قائلهم للنبي : «إن مدحي زَيْن وذمي شَيْن» . فقال رسول الله ﷺ : «ذلكم الله » . قيل إن ذلك القائل كان الأقرع ، وقيل كان شاعراً لهم غير الأقرع. ونستبعد أن يكون الأقرع قائلها، فقد كان مسلماً من قبل ولا يتأتى ذلك مع إسلامه . ونزل في هذا الوفد قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » [سورة الحجرات ٤] . هذه الواقعة والواقعة التالية تدلنا على أنه كان في طباعه جفاء وغلظة .

فقد قسم النبي ﷺ سبي هوازن على الناس ، ثم جاء وفد هوازن يعلن إسلامهم ويطلبون المنّ على السبي ، فردّ عليهم ما كان له ولبني عبد المطلب

ثم سأل الناس أن تطيب نفوسهم برد سبي هوازن ، فقبلوا جميعاً إلا الأقرع وبنو تميم وعيينة بن حصن وبنو فزارة ، ففدى النبي منهم السبي بست نيق ، ثلاثاً استكملت الثالثة من عمرها وثلاثاً استكملت الرابعة .

ولما أصاب عيينة بن حصن من بني العنبر من تميم قدم وفدهم على النبي وكان الأقرع بالمدينة قبل قدوم السبي ، فكلّم النبي فيه ونازعه عيينة بن حصن وفي ذلك يقول الفرزدق يفخر بعمه الأقرع :

وعند رسول الله قام ابن حابس بخطة أسوار الى المجد حازم
له أطلق الأسرى التي في قيودها مغللة أعناقها في الشكائم

وشهد الأقرع فتح مكة وغزوة الطائف عام ٨ هـ ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، فأعطاه النبي مائة بعير. وقدم وفد نصارى نجران على النبي وهم أربعة عشر رجلاً ، ونزلت آية المباهلة فأبوا أن يباهلوه ثم صالحوه على الجزية ، وكتب لهم بذلك كتاباً كتبه عبدالله بن أبي بكر ، وشهد فيه أشراف العرب ، أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو الثقفي ومالك بن عوف النصري والأقرع ابن حابس والمغيرة بن شعبة [بلوغ الأرب ١/٢٦٧] . وشهد الأقرع مع شرحبيل بن حسنة دومة الجندل . وشهد مع خالد حرب اليمامة ، فكان من فرسان المسلمين الثابتين حين ارتد الناس .

روى البخاري في تاريخه الصغير أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس استقطعا أبا بكر أرضا فكتب لهما بها ، فقال لهما عمر: « إنما كان النبي ﷺ يتألفكما على الإسلام ، فأما الآن فاجهدا جهدكما » وقطع الكتاب .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ، قال : « بعث علي الى النبي ﷺ بذهيبة من اليمن فقسمها بين أربعة ، أحدهم الأقرع بن حابس ». وفيهما من حديث أبي هريرة قال: «أبصر الأقرع بن حابس رسول الله ﷺ يقبل الحسن».

استعمله عبدالله بن عامر على جيش سيره إلى خراسان فأصيب بالجوزجان

هو والجيش، وذلك في عهد عثمان بن عفان . ونستبعد مـــا قيل من أنه قتل باليرموك في عشرة من بنيه .

بشير بن سعد الانصاري

(ص ٢٩١)

كان بشير بن سعد الأنصاري من كبـار الصحابة ، ومن أبطال المسلمين ، شهد بدراً . وبعثه النبي ﷺ في سرية الى بني مرة بفدك في شعبان ٧ هـ ، في ثلاثين رجلاً ، فأصيب أصحابه وجرح هو وعـاد الى المدينة [فتوح البلدان ٦٢٠ الطبري ٩٩/٣] ، ثم بعثـه في شوال من نفس السنة الى يُمْن وجِناب نحو وادي القرى. وكان حسيل بن نويرة الأشجعي دليل رسول الله الى خيبر وقدم عليه فقال له النبي: «ما وراءك؟» قال: «تركت جمعاً من غطفان بالجناب قد بعث إليهم عيينة بن حصن ليسيروا إليكم». فدعا رسول الله بشير بن سعد وخرج معه حسيل كدليل ، فأصابوا نعما وشاء ولقيهم عبد لعيينة بن حصن فقتلوه ثم لقوا جمع عيينة فانهزم . وفي عام ٧ هـ ، أيضاً خرج رسول الله الى عمرة القضاء وساق ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والرماح وقاد مائة فرس واستعمل على السلاح بشير بن سعد وعلى الخيـل محمد بن مسلمة [الطبري ١٠١/٣] وكان بشير بن سعد أول من بايع أبا بكر من الأنصـار [الإصابة ٦٩٤] . وقد استشهد بشير بن سعد بعين التمر واستشهد معه **عمير بن رئاب** ابن مُهَشِّم بن سعيد بن سهم بن عمرو من السابقين الأولين الى الاسلام ومن الذين هاجروا الى الحبشة ثم المدينة وهو القائل من أبيات :

نحن بنـــو زيد الأغر ومثلنـا يحامي على الأحساب عند الحقائق

وزيد هو جده الأعلى ، سابق أخاه فسمته امه سهما لسرعته ، فاشتهر بها [الاستيعاب ٤٧٩/٢ — الإصابة ٦٠٣٤] .

جرير بن عبد الله البجلي

(ص ٤١٨)

هو جرير بن عبدالله بن جابر [وهو الشليل] بن مالك بن نضرة بن

ثعلبة بن جُشم بن عوف بن خزيمة بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر [وهو مالك] بن عبقر بن أنمار بن أراسن بن عمرو بن الغوث . واختلف في أنمار فقيل إنه بن نزار وهو على هذا يكون من العدنانية وقيل: «إنه بن أراسن» وهو ما أخذنا به فيكون من القحطانية حيث كانت مساكنهم في اليمن . ولم يختلف النسابة في أن بجيلة أمهم نسبوا اليها ، وهي بجيلة بنت صعب بن علي بن سعد العشيرة ، كانت زوجاً لأنمار . وكان خثعم أيضاً من أبناء أنمار ولكنه لم يكن من أبناء بجيلة .

ولجرير ذكر ذائع قبل الإسلام ، وكان بينه وبين خالد بن أرطاة الكلبي منافرة في الجاهلية . والمنافرة احتكام الى حكم يرضاه الطرفان إذا ادعى كل منهما أنه أعز من صاحبه . فقد أصابت كلب رجلاً من بجيلة يقال له مالك بن عتبة من بني عادية بن عامر بن قداد ، فوافوا به عكاظا ، فمر مالك بابن عم له اسمه القاسم بن عقيل يأكل تمرا فتناول من ذلك التمر شيئاً، فجذبه الكلبي فقال له القاسم: « إنه رجل من عشيرتي »، فقال: «لو كانت له عشيرة منعته » . فانطلق القاسم الى بني عمه بني زيد بن الغوث فاستتبعهم ، فقالوا : « كلما طارت وبرة من بني زيد في أيدي العرب أردنا ان نتبعها !» فانطلق الى جرير فكلمه . يقول القاسم : « إن أول يوم أريت فيه الثياب المصبغة والقباب الحمر اليوم الذي جئت فيه جريراً في قسر [قومه] وكان سيد بني مالك بن سعد بن زيد بن قسر وهم بنو أبيه ، فدعاهم في انتزاع العادي من كلب فتبعوه. فخرج يمشي بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ ، فانتزع منهم مالك بن عتبة العادي وقامت كلب دونه . قال جرير : «زعمتم ان قومه لا يمنعونه » ، فقالت كلب: « إن رجالنا خلوف » [يعني متخلفون غائبون]. قال جرير : « لو كانوا لم يدفعوا عنكم » فقالوا « كأنك تستطيل على قضاعة ؟! إن شئت قايسنا كم المجد » . وزعيم قضاعة يومئذ خالد بن أرطاة ، قال : « معيادنا من قابل سوق عكاظ » .

فجمعت كلب وجمعت قسر وتوافوا بعكاظ في العام التالي، فحكموا الأقرع

بن حابس ، ووضعوا الرهون على يدي عتبة بن ربيعة بن عبـــد شمس من أشراف قريش . وكان في الرهـــن من قسر الأصرم بن عوف بن عويف ، ومن أحمر حازم بن أبي حازم وصخر بن العلية، ومن بني زيد بن الغوث بن أنمار رجل . ثم قام خالد بن أرطاة فقال لجرير : « ما تجعـل ؟ » قال : « الخطر في يدك ». قال « ألف ناقة حمراء في ألف ناقة حمراء » فقال جرير : « ألف قينـة عذراء في ألف قينة عذراء . وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء » . قال : « من لي بالوفاء؟» قال:« كفيلك اللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق وذو الخـُلـَصة ونسر (أسماء أصنامهم) فمن عليـك بالوفاء؟ »قال خالد: «ودّ ومناة وقلس ورضا». قال جرير : «لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعمَّماً مُخِولا يوضعون على أيدي الأكفاء من أهل الله». فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدي من سمّينا من قريش .

قال الأقرع : « ما عندك يا جرير ؟ »

قال:«نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر. نخيف ولا نخاف ونُطعم ولا نستطعم . ونحن حي لـَقـَاح نطعم ما هبت الرياح، نطعم الشهر ونضمن الدهر ونحن الملوك لقسر » .

فقال الأقرع : «واللات والعزى ، لو فاخرت قيصر ملك الروم وكسرى عظيم فارس والنعمان ملك العرب لنفـَّرتك عليهم » .

هذه القصة بطولها ذكرناها (مختصرة عن الاصل) لما فيها من دلالة على ما ذكرنا في الجزء الاول من ان القبيلة كانت ضرورة اجتماعية بين العرب ، وللدلالة على مركز بجيلة وحالتها قبل أن يجمعها جرير ، وللدلالة على ما كان من منزلة جرير عند بجيلة .

أسلم جرير في السنة التي قبض فيها النبي ﷺ — ١٠ هـ — وقد وفد عليه فقال: « ما جاء بك ؟ » قال : « جئت لأسلم» . فألقى إليه النبي كساءه (أو وساده) فجلس جرير على الأرض فقال النبي : « أشهد انك لا تبغي علواً

في الارض ولا فساداً وقال : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .عن قيس بن أبي حازم قال: قال جرير: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي [بلوغ الارب ٣٠٢/١ – أسد الغابة ٧٣٠– سير اعلام النبلاء ٣٨١/٢] وقال إلا ضحك ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب يعبدونها ولهم فيه من السنة موسم وعيد . فقال النبي ﷺ لجرير : « ألا تريحني من ذي الخلصة ؟ » فقلت : يا رسول الله إني رجل لا أثبت على الخيل ، فصك في صدري وقال : اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا . قال جرير : فنفرت في مائة وخمسين راكباً فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس . وفي رواية أنه قال له:«والذي بعثك بالحق ما جئتها حتى تركتها كأنها جمل أجرب ». قال: فبارك في خيل أحمس ورجالها خمس مرات [بلوغ الأرب ٣٤٦/١ – أسد الغابة] . وقد شهد جرير حجة الوداع ، وفي الصحيحين ان النبي ﷺ قال له : في حجة الوداع « استنصت لي الناس » .

وكان ذو الكلاع من ملوك اليمن مطاعاً في قومه ، فكتب اليه النبي مع جرير ، فأسلم ذو الكلاع وأعتق اربعة آلاف عبد احتفالاً بإسلامه ، وخرج مع جرير الى النبي ﷺ ، ومعه ذو عمر . قال جرير :«فأقبلت أحدوهما الى رسول الله ﷺ ، فقال ذو عمر : يا جرير إن كان الذي تذكر فقد أتى عليه أجله ، فقلت نسأل ، فرفع لنا ركب فسألتهم ، فقالوا قبض رسول الله ﷺ واستخلف ابو بكر . فقالا لي اقرأ صاحبك السلام ولعلنا سنعود » . وكان صادقاً فلقد هاجر بقومه الى المدينة في ايام ابي بكر ثم نزحوا الى حمص فسكنوها.

وكان جرير جميلاً وسيما مليح الصورة الى الغاية عملاقاً . قال عمر :« جرير يوسف هذه الأمة وهو سيد قومه » ، وقال جرير رآني عمر متجرداً فقال : ما أرى احداً من الناس صور صورة هذا إلا ما ذكر من يوسف . وكان طول جرير ستة أذرع (حوالي ثلاثة امتار) يصل الى سنام البعير وكان يخضب

بالصفرة ، وصفه رسول الله فقال : « على وجهه مسحة ملك » (سير أعلام النبلاء ٣٨١/٢) .

وخرج جرير في جيش أسامة بن زيد فوجهه أسامة هو والأقرع بن عبدالله الحميري رسلاً، فرجعوا إليه بخبر أهل الردة (الطبري – الاصابة ٢٧٣) وفي حروب الردة طلب خالد بن الوليد المدد من أبي بكر وهو مقدم على مسيلمة فأمده بجرير ، ولكن خالداً التحم بمسيلمة قبل ان يصل اليه فلقيه منصرفاً من اليمامة . واستعمله أبو بكر على نجران . قال الشاعر :

لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئست القبيلة

فقال عمر ما مدح من هجا قومه. وكان جرير في مجلس فوجد عمر رائحة من بعض جلسائه فقال : عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ . فقال جرير علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزم . فقال عمر عليكم كلكم عزمت يا جرير، ما زلت سيداً في الجاهلية والإسلام (أو : نعم السيد كنت في الجاهلية ونعم السيد انت في الاسلام) [سير اعلام النبلاء ٣٨٣/٢]. ومما أثر عن جرير قوله : الخرس خير من الخلابة والبكم خير من البذاء . وقد أقطعه عمر كما أقطع طلحة والربيل بن عمرو [العواصم من القواصم ١٠١] كذلك أقطعه عثمان بن عفان أرضه على شاطىء الفرات ، فيما أقطع من صوافي كسرى وما كان من أرض الجالية . وقد روى عن جرير من الصحابة أنس بن مالك ، وقال : كان جرير يخدمني وهو اكبر مني [اخرجه الشيخان] . كما روى عنه قيس بن أبي حازم وهمام بن الحارث والشعبي ، وزياد بن علاقة وحفيده أبو زرعة بن عمرو بن جرير وبنوه عبيدالله والمنذر وابراهيم . ومما رواه عنه قيس بن حازم قوله: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته . [أسد الغابة ٧٣٠] وكان جرير رسول عليّ الى معاوية بدمشق بعد موقعة الجمل ، يدعوه الى طاعته ، فحبسه مدة طويلة ثم رده برق مطبوع غير مكتوب وبعث معه من

يخبر بمنابذته في خبر طويل مشهور . ونزل جرير الكوفة وابتنى بها داراً في بجيلة ثم سكن قرقيسياء حتى مات سنة إحدى او اربع وأربعين ، وقيل مات بالسراة . [اسد الغابة ٧٣٠] . وذكر الذهبي ان وفاته كانت عام ٥١ هـ بالسراة في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة ، وكانت هذه الولاية سنتين ونصف بعد زياد بن ابي سفيان [سير اعلام النبلاء ٢/٣٨٤ وابن سعد].

الحارث بن حسان (ص ٣٢٢)

الحارث بن حسان من بني ذهل من بكر بن وائل . كان يسكن البادية، ووفد على النبي ﷺ أيام بعث عمرو بن العاص في غزوة السلاسل . وروى له احمد والترمذي والنسائي وابن ماجه أحاديث . روى الطبراني عن سماك بن حرب قال : تزوج الحارث بن حسان وكانت له صحبة ، وكان الرجل إذا عرّس تخدر أياماً [لزم الخِدْر] فقيل له في ذلك ، فقال والله إن امرأة تمنعني صلاة الغداة في جمع لا مرأة سوء . ولما فتح الأحنف خراسان بعث الحارث بن حسان إلى سرخس . [الإصابة ١٣٩٥] .

عبد الله بن أبي اوفى الأسلمي (ص ٣٢٢)

اسم أبي أوفى علقمة بن خالد ، له ولأبيه صحبة ، شهد الحديبية وكان من أصحاب الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكانت أسلم – قوم عبد الله – ثُمن المهاجرين يومئذ – وشهد خيبر وما بعدها من المشاهد مع النبي ﷺ . عن يزيد بن اسماعيل قال : رأيت على ساعد عبد الله بن أبي أوفى ضربة ، فقال : ضربتها يوم حنين، فقلت: أشهدت حنيناً ؟ قال نعم وقبل ذلك. وفي الصحيح عنه قال : غزوت مع النبي ﷺ ست غزوات [أو سبع غزوات] نأكل الجراد . ولم يزل بالمدينة حتى قبض رسول الله فخرج في الفتوح ثم تحول بعد ذلك إلى الكوفة فأقام بها وابتنى بها داراً في أسلم حتى توفي بين سنة سبع وثمانين أو ثمانين هجرية وقد ذهب بصره . [الاستيعاب ٢ / ٢٥٥ ، الإصابة ٤٥٥٥ ، اسد الغابة ٢٨٢٨، الطبقات الكبرى ٤/٣٦].

عدي بن حاتم الطائي من أبطال حروب الردة والفتوح . هو عـدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن حشرج بن امرىء القيس بن عدي بن أخزم بن أبي أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أدد ابن زيد بن كهلان . ويكنى أبو طريف ، وقيل ابو وهب ، وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود والكرم الذي يضرب به المثل. اسلم سنة ٩ هـ ، وتوفي سنة ٦٨ ، كان سيداً شريفاً في قومـه ، خطيباً حاضر الجواب فاضلاً كريماً معظماً عند قومه وعند غيرهم. وجه رسول الله علياً لهدم الفُلْس صنم طيء، ففر عدي إلى الشام وأسرت أخته سَفـّانة بنت حاتم ، فأتى بها علي الى النبي ﷺ . فقالت له : « يا محمد، هلك الوالد وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي سيد قومه، كان يفك العاني ويحمي الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ، ولم يطلب إليـه طالب قط حاجة فردّه ، أنا ابنة حـاتم الطائي » . فقال النبي : « يا جارية هذه صفة المؤمن . لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه . خلوا عنها فـإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق » [بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١/٧٣] وأكرمها النبي ووصلها، فغادرت المدينة وأتت عدياً فحسنت له أن يسلم فأتى المدينة في شعبان سنة سبع أو تسع أو عشر وكان نصرانياً .

قال عدي: «أتيت النبي ﷺ في المسجد فقال الناس: هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب. وكان قبل ذلك قال : إني لأرجو الله أن يجعل يده في يدي ، فقام فأخذ بيدي، فلقيته امرأة وصبي معها فقالا إن لنا إليك حاجة، فقام معها حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى داره فألقت إليه الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بـين يديه . فقال : « هل تعلم من إله سوى الله ؟ » قلت: لا. ثم قال: « هل تعلم شيئاً اكبر من الله ؟ » قلت: لا.

قال : « فـــإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » . [رواه احمد والترمذي عن عباد بن حبيش الكوفي عن عدي] .

وفي حديث آخر قال : « لمـــا بعث النبي ﷺ كرهته كراهية شديدة فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض ممـا يلي الروم ، فكرهت مكاني أشد من كراهته فقلت: لو أتيته فإن كان كاذباً لم يخف علي وإن كان صادقاً أتبعه . فأقبلت فلمـا قدمت المدينة استشرفني الناس فقالوا : عدي بن حاتم . فأتيته فقال لي : «يا عدي اسلم تسلم» قلت إن لي ديناً. قال: «أنا أعلم بدينك منك» قلت : «انت اعلم بديني مني؟» قال نعم مرتين أو ثلاثة ، قال :«ألست ترأس قومك ؟» قلت بلى. قال: «ألست تأكل المرباع ؟» [المرباع ربع غنيمة الحرب كان يأخذها رئيس القوم لنفسه] قلت بلى. قال: «فإن ذلك لا يحل لك في دينك » قال : فنضنضت [حركت لساني في فمي]. ثم قال: « اسلم تسلم. قد أظن أنه إنمـــا يمنعك غضاضة تراها ممن حولي وأنك ترى الناس علينا إلباً واحداً » . ثم قال: «هل أتيت الحيرة»؟ قلت لم آتها وقد علمت مكانها. قال: «يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز » . فقلت كسرى بن هرمز ؟! قال: «نعم، وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته».قال عدي: فرأيت اثنتين، الظعينة، وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى وأحلف بالله لتجيئن الثالثة ». [احمد والبغوي في معجمه وغيرهما] .

وأخرج الحديث من وجه آخر قال عدي : « بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقـة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل . فقال : يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت لم أرها وقد أنبئت عنها. قال فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. فقلت — فيما بيني وبين نفسي — فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد». [البخاري — شرح الكرماني ١٧٨/٢] .

أقطعه عثمان بن عفان الروحاء ممـا كان من صوافي كسرى او من ارض الجالية [فتوح البلدان ٣٣٦] وقد نزل الكوفة وابتنى بها داراً في طيء. ولم يزل مع علي بن أبي طالب،وشهد معه الجمل وصفين ، ففقئت عينه يوم الجمل ، ثم شهد معه النهروان. ومات بالكوفة زمن المختار بين عام ٦٧ و٦٩ وهو ابن مائة وعشرين عاماً . وإذاً فقد كان فيما بين الثانية والستين والرابعة والستين، حين خرج مع خالد لفتح العراق .

لما كان زمن عمر بن الخطاب قدم عليه عدي ، فلما دخل عليه كأنه رأى منه شيئاً او جفاء فقال : « يا امير المؤمنين ما أظنك تعرفني » قال :« كيف لا أعرفك ، أكرمك الله بأحسن المعرفة . وأول صدقة بيضت وجه اصحاب رسول الله صدقة طي ؟ اعرفك والله . آمنت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا ووفيت إذ غدروا » فقال : حسبي يا امير المؤمنين حسبي . وعن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ: اربعة سادة في الإسلام ، بشر بن هلال العبدي وعدي بن حاتم وسراقة بن مالك المدلجي وعروة بن مسعود الثقفي . وقال عدي: ما دخلت وقت صلاة حتى اشتاق اليها. وقال: ما اقيمت الصلاة منذ اسلمت إلا وأنا على وضوء . ولمـا أسنّ استأذن قومه في وطاء يجلس عليه في ناديهم وقال: أكره ان يظن أحدكم اني أرى لي عليه فضلاً، ولكني قد كبرت ورق عظمي [الذهبي]. ولما سكن الكوفة ارسل الأشعث بن قيس الى عدي يستعير منه قدور حاتم ، فملأها وحملها الرجال إليه ، فأرسل إليه الأشعث : إنما أردناها فارغة ! فارسل إليه عدي : إنا لا نعيرها فارغة . وكان عـدي يفت الخبز للنمل ويقول إنهن جارات ولهن حق .

[أسد الغابـة ٤٤٤ و٣٦٠٥ – الاستيعاب ٣/١٤٠ و٢/٤٥٨ – الإصابة ٥٤٧٧ – ٢٤٣٣ – سير أعلام النبلاء] .

عمير بن سعد الانصاري (ص ٣٢١)

هو عمير بن سعد بن عبيد الأوسي الأنصاري اشترك في الفتوح، وله ذكر في غزوة تبوك، وكان مع المسلمين في الغزوة طائفة من المنافقين، منهم: الجلاس بن سويد الصامت زوج أم عمير بن سعد ، فقال الجلاس في بعض حديثه : « والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير » فقال له عمير وكان يتيماً في حجره : « فأنت شر من الحمير ورسول الله ﷺ الصادق وأنت الكاذب » فقال له الجلاس : « اكتمها عليّ يا بني » فقال : « لا والله » ونمى بهـــا الى رسول الله ولم يكتمها ، وكان لعمير كالأب ينفق عليه . ودعـــا رسول الله الجلاس فعرفه بما قال عمير، فحلف الجلاس أنه ما قال، فنزلت فيه: «يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ... الى قوله .. فإن يتوبوا يك خيراً لهم » . فأخذ النبي بأذن عمير وقال : « وفت أذنك يا غـــلام وصدقك ربك » . فقال الجلاس : « أتوب الى الله » . استتب لي ربي فإني أتوب الى الله وأشهد لقد صدق » وراجع النفقة عليه توبة منه، فما زال عمير منها في علياء بعد وما سمع من الجلاس شيئاً يكرهه . وكان يقال لعمير نسيج وحده ، غلب ذلك عليه وعرف به . وكان من الزهاد الصالحين . كان عمر يقول : « وددت لو أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين » . شهد فتوح الشام واستعمله عمر على حمص الى أن مات ، وتوفي في خلافة عمر أو عثمان أو معاوية . قال ابن عمر لعبد الرحمن بن عمير بن سعد : « ما كان بالشام أفضل من أبيك» . وروى الحديث عن النبي ﷺ . [الاستيعاب ٢/٤٧٩ – الإصابة ٦٠٣٨] .

عياض بن غنم (ص ٢٩١)

عياض بن غَنْم بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر وهو قريش. أسلم قبل الحديبية وشهدها، وهاجر الى المدينة فكان من الصحابة المهاجرين . وهو ابن عم أمين الأمة أبي عبيدة عامر

ابن الجراح ، ويقال : إنه كان ابن امرأته . وكان عياض شريفاً في قومه ، ذكره ابن الرقيات فيمن ذكر من أشراف قريش وقال :

عياض وما عياض بن غنم   كان من خير من أجن النساء

وكان صالحاً سمحاً ، يقال له زاد الراكب لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده ، وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده فإن نفد نحر لهم جمله .

في العام السادس من الهجرة نزل قوله تعالى: «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» [سورة الممتحنة ، الآية : ١٠] وكانت زوجته كافرة فطلقها .

وقد انتقل عياض من العراق الى الشام مع خالد بن الوليد وشهد اليرموك قائداً لكردوس من كراديس الميسرة . ثم استمر في فتوح الشام ، فتح أبو عبيدة بن الجراح حلب ، وكان عياض قائد مقدمته ، وطلب أهل حلب الصلح ،فكان عياض الذي صالحهم بالأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، باستثناء موضع المسجد ، فأنفذ أبو عبيدة صلحه . [فتوح البلدان ٣٩٤] . وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدمته عياض، فتلقاه راهب من رهبانها يطلب الصلح عن أهلها فبعث به إلى أبي عبيدة وهو بين جبرين وتل إعزاز فصالحه.وأتى أبو عبيدة حلب الساجور وقدّم عياضاً الى مَنْبِج ثم لحقه، وقد صالح أهلها على مثل صلح انطاكية ، فأنفذ أبو عبيدة ذلك ، ثم بعث عياضاً الى ناحية دُلُوك ورَعْبان فصالحه أهلها على مثل صلح منبج ، واشترط عليهم أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا بها المسلمين ، [فتوح البلدان ٤٠٣] .

وروى البخاري، أنه لما توفي ابو عبيدة بن الجراح استخلف ابن خاله او ابن عمه عياض بن غنم أحد بني الحارث بن فهر فأقره عمر وقال : « ما أنا بمبدل أميراً أمّره ابو عبيدة » .

ثم أمّر عمر يزيد بن أبي سفيان على الشام ثم معاوية من بعده حين امر

عياضاً بغزو الجزيرة ، فالجزيرة كلها فتوح عياض. وبعض الرواة يذهب إلى ان عياضاً خرج إليها من الشام وبعضهم يذهب الى أن ذلك كان من العراق . فتح عياض الرُّها فصالحوه على ان لهم هيكلهم ومـــا حوله وعلى ألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان لهم، وعلى معونة المسلمين على عدوهم، فإن تركوا شيئاً مما شرط عليهم فلا ذمة لهم . ثم دخل اهل الجزيرة فيما دخل فيه اهل الرها .
وفي رواية الواقدي، انه سار الى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان ١٨ هـ في خمسة آلاف ، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي ، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمي . وبلغت طليعة عياض الى الرقة فأغاروا على حاضر كان حولهـا للعرب وعلى قوم من الفلاحين ، فأصابوا مغنماً وهرب من نجا منهم فدخلوا مدينة الرقـة . واقبل عياض حتى نزل باب الرُّها وهو احد ابوابها في تعبئة ، فرمى اهلها المسلمين ساعة حتى جرح بعضهم فتأخر عنها لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم، وركب فطاف حول المدينة ووضع على ابوابها روابط ثم رجع الى عسكره، وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة وكانت الزروع مستحصدة، ومضت خمسة ايام او ستة وهم على ذلك ثم ارسل بطريق المدينة الى عياض يطلب الأمان، فصالحه عليه لجميع اهلها واموالهم ومدينتهم وعلى ان الأرض للمسلمين ، فأقرها عياض في ايدي اهلها على الخراج ، ودفع منها ما لم يرده اهل الذمة ورفضوه الى المسلمين على العشر ووضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل في كل سنة ، واخرج النساء والصبيان وجعل مع الدينار اقفزة من قمح وشيئاً من زيت وخل وعسل . ثم فتحوا ابواب المدينة واقاموا للمسلمين سوقاً على باب الرها وكتب لهم كتاباً وختمه بختمه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عياض بن غنم اهـل الرقة يوم دخلها . اعطاهم اماناً لأنفسهم واموالهم وكنائسهم ، لا تخرب ولا تسكن إذا اعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا مغيلة . وعلى ان لا يحدثوا كنيسة ولا

بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً . شهد الله وكفى بالله شهيداً».

واستمر عياض سائراً في فتوحه حتى أتم فتح الجزيرة . وقال بعضهم : إنه مات بالشام سنة عشرين وهو ابن ستين سنة ، يعني انه قد كان جاوز الخمسين بعامين في عام ١٢ هـ . وقال الطبري : كانت عنده أم الحكم بنت ابي سفيان .

غالب بن عبد الله

(ص ٤٢٢)

هو غالب بن عبدالله بن مسعر الليثي من بني كنانة إخوة قريش . كانت منازلهم الى الغرب من يثرب ، بينها وبين البحر . وكان من كبار الصحابة الذين اعتمد عليهم رسول الله ﷺ في عملياته الحربية . بعثه في بعث في العام الثاني للهجرة . وفي السنة السابعة ، قال يسار مولى رسول الله : «يا رسول الله إني اعلم غرة من بني عبد بن ثعلبة ، فأرسل معه غالب بن عبدالله في مائة وثلاثين رجلاً حتى اغاروا على بني عبد ، فاستاقوا النعم والشاء وحدروها الى المدينة » [الطبري ٣/٩٩] .

وفي صفر من العام الثامن ارسله في سرية الى الكديد في بضعة عشر رجلاً حتى إذا كانوا بقديد لقوا الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء الليثي – من قوم غالب – فأخذوه . قال : «إنما جئت لأسلم . قال غالب : إن كنت إنما جئت مسلماً فلن يضرك رباط يوم وليلة ، وإن كنت على غير ذلك استوثقنا منك ، فأوثقه رباطاً وخلف عليه رويجلاً اسود وقال له : امكث معه حتى نمر عليك ، فإن نازعك فاحتز رأسه . ثم مضوا حتى اتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر ، فلما ذهبت عتمة من الليل شنوا عليهم الغارة فقتلوا واستاقوا النعم وخرج صريخهم يطلب الغوث ، وعاد غالب وسريته الى الحارث وصاحبه فأخذوهما معهما . ثم ادركهم ما لا قبل لهم به من غياث الناس ، حتى إذا لم يكن بينهم إلا بطن الوادي من قديد جاء سيل شديد فحال بينهم ، والقوم ينظرون الى غالب يذهب بما غنم . وكان شعارهم في تلك

الليلة أمت أمت [الطبري ١٠١/٣] . وفي نفس الشهر ارسله النبي في سرية على مائتي رجل الى بني مرّة ، فبعث الطلائع فأعلموه خبرهم ، فأغار عليهم وقتل مقاتلتهم وساق النعم والشاء والسبي ، فكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل او عدل ذلك من الغنم كل جزور بعشرة وقدموا المدينة . وكان معه اسامة بن زيد فأصاب مرداس بن نهيك حليفاً لهم من الحُرَقة من جهينة . قال اسامة : لما غشيناه قال : أشهد ان لا إله إلا الله ، فلم ننزع عنه حتى قتلناه ، فلما قدمنا على رسول الله اخبرناه فقال : يا اسامة من لك بلا إله إلا الله [الطبري ٩٩/٣] . كذلك خرج غالب على سرية من عشرين الى العرنيين . [الاستيعاب ٣٦١/٢ ـ الاصابة ٣٦٠٠ ـ ٦٩٠٦ ـ ٧٨٩٤] .

فرات بن حيان العجلي

(ص ٣٢٢)

هو فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبدالعزى بن حبيب بن حبّة بن ربيعة ابن صعب بن عجل من بكر بن وائل. كانت منازلهم من البحرين إلى صحراء الأبلة إلى صحراء الحيرة إلى الأنبار إلى هيت من صحراء العراق ، فكانوا رُحّلاً بين ذلك . وكان حليفاً لبني سهم من قريش ، وكان عيناً لأبي سفيان في حروبه كما كان دليلاً لتجارات قريش . قال ابن حبان : « كان فرات من أهدى الناس بالطريق » . وهذا يعني دقة ملاحظته وشدة ذاكرته واستيعابه ولياقته البدنية لذلك الترحال الطويل . ولما وقعت وقعة بدر خافت قريش بعدها ان تسلك طريقها التي كانت تسلك إلى الشام والتي كانت تمر قريباً من المدينة . قالت قريش : « قد عَوّر علينا محمد متجرنا وهو على طريقنا » . وقال ابو سفيان وصفوان بن أمية : « إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا ». فقال زمعة بن الأسود : « أنا أدلكم على رجل يسلك بكم [الطريق] النجدية ، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى » . قال صفوان : « من هو ؟ حاجتنا إلى الماء قليل إنما نحن شاتون » قال : « فرات بن حيان » . فدعواه فاستأجراه ، فخرج بهم في الشتاء فسلك بهم على ذات عرق، ثم خرج بهم على

غمرة . وانتهى خبر العير إلى النبي ﷺ ، وفيها مال كثير وآنية من فضة حملها صفوان . فبعث النبي زيد بن حارثة في سرية فاعترض القافلة وظفر بالعير وأفلت أعيان القوم، فكان مقدار الخمس عشرين ألفاً، فأخذه رسول الله وقسم الأربعة أخماس على السرية وأتى بفرات بن حيان أسيراً . فقيل له إن أسلمت لم يقتلك رسول الله ﷺ . فلما دعي به إلى رسول الله أسلم فأرسله [الطبري ٣/٥] .

ويبدو ان فراتاً رحل عن المدينة ، إذ نجد له ذكراً آخر أنه أتي به الى النبي ﷺ يوم الخندق وكان عيناً للمشركين فأمر بقتله فقال : « إني مسلم » فقال : « إن منكم من نتألفه على الإسلام ، وإن منكم رجالاً نكلهم الى إيمانهم منهم فرات بن حيان » [ابو داود والبخاري في التاريخ] . وكان فرات ممن هجا النبي ثم مدحه فقبل مدحه .

ثم نجد فراتاً في جمادي الأولى من العام الثامن للهجرة دليلا لسرية زيد بن حارثة لاعتراض تجارة قريش الى العراق بمكان يسمى العيص على أربع ليال من المدينة . وقد هاجر فرات الى النبي ﷺ وحسن إسلامه . ويروي عدي ابن حاتم الطائي، ان رسول الله ﷺ أقطع فرات بن حيان ارضاً باليمامة تغل اربعة آلاف ومائتين [فتوح البلدان ٢٧٥] وأنه حسن إسلامه وفقه في الدين.

وذكر سيف في الفتوح عن احمد بن فرات بن حيان قال: خرج ابو هريرة وفرات بن حيان والرَّجَّال بن عنفوة من عند النبي ﷺ فقال : « لضرس احدهم في النار اعظم من أُحُد وإن معه لقفا غادر » . قال فبلغنا ذلك فما آمنا حتى صنع الرَّجال ما صنع ثم قتل ، فخرَّ ابو هريرة وفرات بن حيان ساجدين شكراً لله عز وجل – وكان الرَّجَّال ارتد وافتتن بمسيلمة وقتل معه كافراً . [الاستيعاب ٣/١٩٧ – الإصابة ٦٩٦٦] . وقد بعث النبي فراتاً الى ثمامة بن اثال فيقتل مسيلمة وقتاله عام ١١ هـ . ويمر بنا ذكر كثير لفرات في فتوح العراق . وقد نزل الكوفة وابتنى بها داراً في بني عجل وكان له بها عقب ، وأقطع ارضاً بالبحرين .

للقعقاع بن عمرو التميمي في فتوح العراق والشام تاريخ زاهر وصفحات مشرفة ، [أسلم سنة ٩ هـ] . وقد اعتمد عليه أبو بكر في حروب الردة ، فأرسله على سرية للقضاء على ردة بني كعب ، وكانت مع هوازن وسليم وعامر ، فقال له : « يا قعقاع ، سر حتى تغير على علقمة بن علاثة لعلك أن تأخذه لي او تقتله ، واعلم أن شفاء النفس الخوض فاصنع ما عندك » . فخرج في تلك السرية حتى أغار على الماء الذي عليه علقمة ، وكان لا يبرح أن يكون على رِجْل فسابقهم على فرسه فسبقهم مراكضة وأسلم اهله وولده ، فانتسف القعقاع امرأته وبناته ونساءه ومن أقام من الرجال ، فاتقوه بالإسلام . فقدم بهم على أبي بكر ، فجحد ولده وزوجته أن يكونوا مالؤوا علقمة ، وكانوا مقيمين في الدار فلم يبلغه إلا ذلك ، وقالوا ما ذنبنا فيما صنع علقمه من ذلك ، فأرسلهم . ثم أسلم علقمة فقبل منه أبو بكر .

وكان القعقاع احد فرسان العرب وشعرائهم . قال : «قال لي رسول الله ﷺ : « ما أعددت للجهاد ؟ » قلت : طاعة الله ورسوله والخيل . قال : « تلك الغاية » . وفي رواية عن سيف يضعفها اهل الحديث، انه شهد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وأنشد سيف من شعر القعقاع قوله :

ولقد شهدت البرق برق تهامة   يهدي المناقب راكباً لعيار
في جند سيف الله سيف محمد   والسابقين لسُنَّة الأحرار

وكان ممن خرج من العراق مع خالد إلى الشام وشهد اليرموك وفيها يقول :

يدعُون قعقاعاً لكل كريهة   فيجيب قعقاع دعاء الهاتف

وكان القعقاع قد اسلم حين اسلمت قبيلته تميم ، وقدم وفدها على النبي عام ٩ هـ بعد غزوة تبوك .

وفي فتح دمشق كان من الأبطال المعدودين الذين تسلقوا اسوار دمشق مع خالد بن الوليد على احبال أعدوها لذلك ، ونزل معه الى داخل الحصن فقاتلوا حراس أبوابه حتى فتحوها للمسلمين. وعاد القعقاع من الشام الى العراق

فأدرك القادسية وله فيها من الأثر ما سوف نعرض له في بحثنا تلك الموقعة، ثم كان له دوره في فتح المدائن والفتوح بعدها . وكما كان للقعقاع تاريخه الناصع في ميادين الحرب كذلك كان له ماضيه في ميادين السياسة . فكان له جهده إبان الفتنة الكبرى لتهدئتها . فبعد وصول علي بن أبي طالب الى ذي قار عام ٣٦ هـ في جمادي الآخرة، قام القعقاع بمساع للتفاهم بينه وبين معسكر عائشة واستجاب اصحاب الجمل للقعقاع وأذعن عليّ لذلك ، وكان القعقاع قد انتبه الى وجود قتلة عثمان في معسكر علي وانهم لما صاروا في العراق صاروا في معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم، وأن قتلهم يفتح باباً لا يستطيع عليّ سده بعد ذلك. وتحدث القعقاع بذلك الى ام المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ، فعذروا علياً ووافقوا على التفاهم معه على ما يخرجهم من هذه الفتنة ، فكان القعقاع يرى أن موقف علي موقف ضرورة. وفي عهد معاوية اخرج من الكوفة المستغربين في أمر علي ، فأخرج القعقاع بن عمرو الى ايلياء بفلسطين ، وتوفي عام ٤٠ هـ ٦٦٠ م [الطبري ٢٣٢ و ٢٤٠ – الاصابة ٧١٢٩ – الاستيعاب ٢٥٢/٣] .

محمد بن مسلمة (ص ٢٦١)

ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة، وقد أسلم مبكراً قبل سعد بن معاذ على يدي مصعب بن عمير ، وآخى النبي بينه وبين ابي عبيدة بن الجراح . وصحب النبيّ أولادُه جعفر وعبدالله وسعد وعبد الرحمن وعمرو ، وله غيرهم محمود . شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكان محمد بن مسلمة اسمر شديد السمرة، طويلا معتدلا، اصلع ذا جثة. وكان من فضلاء الصحابة وهو من الذين اغتالوا كعب بن الأشرف اليهودي في حصنه في عملية فدائية جريئة مشهورة عام ٣ هـ . وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته ، قيل في غزوة قرقرة الكدر وقيل في عام تبوك .

وفي فتح خيبر رمى مرحب اليهودي محموداً أخا محمد بن مسلمة برحى من فوق حصن ناعم فندرت عيناه واصابت رأسه فهشمت البيضة رأسه

وسقطت جلدة جبينه على وجهه،فردها رسول الله وعصبها، فمكث ثلاثة ايام ثم مات . فقال النبي لابن مسلمة : « غداً يقتل قاتل أخيك » ، فكان كذلك ، قتله علي بن ابي طالب . وفي عام ٧ ه خرج رسول الله الى عمرة القضاء وساق ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والرماح واستعمل عليه بشير بن سعد ، وقاد مائة فرس وجعل على الخيل محمد بن مسلمة .

ولما رجع جيش اسامة وخرج ابو بكر الى ذي قصة ومعه المهاجرون والأنصار وقد عقد اللــواء لخالد بن الوليد ، ترك محمد بن مسلمة بالمدينة ليستحث الناس حتى يتلاحقوا من خلفه .

وقصة شهادته في قضية الشيماء بنت نفيلة الاسدية التي مرت بنا في الصفحة ٢٦١ تكشف لنا عن وجوده في جيش خالد في العراق .

ولاّه عمر بن الخطاب على صدقات جهينة . وكان يستعمله دائماً للأمور المعضلة في البلاد،فكان اذا احب ان يؤتى بالأمر كما يريد بعث محمد بن مسلمة، فكان رسوله في الكشف عن سعد بن ابي وقاص حين بنى القصر بالكوفة، فلما وصل الى الباب اخرج زنده فاستورى ناراً ثم احرق البـاب . وهو الذي ارسله عمر الى عمرو بن العاص بمصر فقاسمه ماله .

اعتزل الفتنة واتخذ سيفاً من خشب وجعله في جفن،وقال: «اعطاني رسول الله ﷺ سيفاً ، فقال : قاتل به المشركين ما قاتلوا ، فإذا رأيت امتي يضرب بعضهم بعضاً فائت به احداً [الجبل] فاضرب به حتى ينكسر ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة او منية قاضية ». ففعل، ولم يشهد الجمل ولا صفين واقام بالربذة بعد مقتل عثمان، وكان الذين اعتزلوا مثله في الفتنة سعد بن ابي وقاص وعبدالله بن عمرو ، واسامة بن زيد . لم يستوطن غــير المدينة ومات بها عام ثلاث واربعين عن سبع وسبعين عاماً ، وكان له من الولد عشرة ذكور وست إناث . وقيل قتله اهل الشام، دخل عليه رجل من اهل الأردن وهو في داره فقتله .



مراجع البحث

الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام   البياسي

امتاع الاسماع(طبعة ١٩٤١)   المقريزي ـ لجنة التأليفوالترجمة

الاخبار الطوال   الدينوري

الاستيعاب في أسماء الأصحاب (١٩٣٩)   يوسفبن عبداللهالقرطبي ـ التجارية

الاصابة في تمييز الصحابة (١٩٣٩)   ابن حجر العسقلاني ـ التجارية

أسد الغابة في معرفة الصحابة   ابن الأثير. دار الشعب بالقاهرة.

أنساب الأشراف   البلاذري .

أنباء الغمر بابناء العمر   الحافظ ابن حجر .

الآثار الباقية عن القرون الخالية   البيروني ـ أبو ريحان محمدبنأحمد.

آثار البلاد وأخبار العباد   القزويني .

أحسن التقاسيم   المقدسي .

ايران في عهد الساسانيين(مترجم)   آرثر كريستنسن

ايام العرب في الجاهلية   جاد المولى .

الاغاني   ابو الفرج الأصفهاني ـ دار الشعب

الاسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه   عبد القادر عودة .

البلدان   اليعقوبي

الكتاب	المؤلف
البلدان	عمرو بن بحر الجاحظ
البلدان	ابن الفقيه الهمداني
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	محمود شكري الألوسي .
البداية والنهاية في التاريخ	ابو الفداء ابن كثير
البيان والتبيين	الجاحظ ـ الخانجي بمصر والمثنى
تاريخ الامم والملوك	الطبري ـ المطبعة الحسينية
تاريخ اليعقوبي	اليعقوبي
تاريخ مختصر الدول	ابن العبري
تاريخ حمزة الأصفهاني	حمزة الأصفهاني
تجارب الأمم والملوك	ابن مسكوية
التاريخ الكبير	ابن واضح
التاج	الجاحظ
تاريخ حملة هركليوس في ايران	سيبوس .
تقريب التهذيب	الحافظ ابن حجر
تهذيب التهذيب	الحافظ ابن حجر
تذكرة الحفاظ	الذهبي
تحفة النظار وعجائب الأسفار	ابن بطوطة ـ بولاق ١٩٣٨
تاريخ الجيوش (ت. كمال دسوقي)	جورج كاستلان ـ الألف كتاب ،
تاريخ العرب القدامى	محمد فخر الدين
تاريخ الدول العربية من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية،	يوليوس فنهوزن.
تاريخ الاسطول العربي	ياسين الحموي
تاريخ نصارى العراق	روفائيل ابو اسحق
تاريخ مدن العراق	يوسف رزق الله غنيم
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
تاريخ مدينة دمشق	ابن عساكر .
تاريخ الكوفة	السيد حسين بن أحمد العراقي

تاريخ العرب — فيليب حتّي
التاريخ السياسي للدولة العربية — د . عبد المنعم ماجد .
تاريخ العرب العسكري — محمود الدرة .
تفسير القرآن العظيم — ابن كثير ـ الحلبي بمصر ١٩٤٨
الجغرافية التاريخية الاسلامية — محمد احمد حسونة
جغرافيا العراق الطبيعية — جاسم محمد الخلف
جغرافية العراق الحديث — هاشم السعدي
الجغرافيا العسكرية — الفريق طه الأشمي
جزيرة العرب — أنور الرفاعي وبسام كردي علي
جزيرة العرب — حافظ وهبة .
جغرافية شبه جزيرة العرب — عمر رضا كحالة .
الجامع لأحكام القرآن — القرطبي ـ دار الكتب المصرية
الجزية والخراج في الاسلام — دانيث كنيث
حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول — د . شكري فيصل
خلاصة تهذيب الكمال — الصفي الخزرجي
الخراج وصنعة الكتابة — قدامة بن جعفر ـ Brill 1889
خريطة العراق الأثرية — مديرية الآثار العراقيـــة ببغداد
خريطة قضاء النجف — « « « خريطة خاصة
خريطة العالم العربي — مصلحة المساحة المصرية ١٩٤٥
الخلفاء الراشدون — عبد الوهاب النجار
خالد بن الوليد — الفريق طه باشا الهاشمي
خالد بن الوليد — صادق عرجون
الخنساء — د . محمد جابر عبد العال الحيني
الخراج — ابو يوسف
الخراج في الدولة الاسلامية — محمد ضياء الدين الريس

الدرر في اختصار المغازي والسير ، ابن عبد البر ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

ديوان الشماخ بن ضرار — طبع دار المعارف .

الرحلة — ابن جبير

الرسول القائد — لواء محمود شيث خطاب

رسالة الجهاد — حسن البنا ـ دار الكتاب العربي

سير اعلام النبلاء — الذهبي . سلسلة ذخائر العرب ـ ١٩

سيف الله خالد — محمد فرج ـ دار الفكر العربي

السلام في الاسلام — حسن البنا ـ دار الفكر الاسلامي .

السياسة الشرعية — عبد الوهاب خلاف ـ المطبعة السلفية

السياسة الشرعية والفقه الاسلامي — عبد الرحمن تاج ـ دار التأليف

شرح السير الكبير (١٩٥٧) — السرخسي ـ جامعة الدول العربية

الشاهنامة — الفردوسي

الشماخ بن ضرار — دار المعارف

شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام — النعمان عبد المتعال القاضي ـ القومية

صبح الاعشى في صناعة الانشا — القلقشندي .

صحيح البخاري — شرح الكرماني ـ المطبعة المصرية

الصديق ابو بكر — محمد حسين هيكل ـ مطبعة مصر

الطبقات الكبرى — ابن سعد

الطبري — محمد احمد الحوفي ـ أعلام العرب ١٣

العبر وديوان المبتدأ والخبر — ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني

عيون الأخبار — ابن قتيبة ـ دار الكتب المصرية

عيون الاخبار — الدينوري

عيون الأنباء — ابن ابي أصيبعة

عبقرية خالد — عباس محمود العقاد

العقد الفريد — ابن عبد ربه

عشائر العراق القديمة ـ البدوية والحاضرة	عباس الفراوي .
غرر اخبار ملوك الفرس	الثعالبي
فتوح البلدان	البلاذري ـ نشر د. صلاح الدين المنجد
الفتوح الاسلامية بعد عهد الفتوحات النبوية	أحمد بن زيني دحلان
الفهرست	ابن النديم
فوات الوفيات	الكتبي
الفروسية العربية في العصر الجاهلي	سيد حنفي ـ سلسلة اقرأ رقم ٢١١
الفن الحربي في صدر الاسلام	عبد الرؤوف عون ـ دار المعارف
الفاروق عمر	محمد حسين هيكل
الفاروق القائد (عمر بن الخطاب)	لواء محمود شيت خطاب ـ دار الشعب
الفتح العربي للعراق وفارس	محمد فرج ـ دار الفكر العربي
قادة الفتح العربي للعراق وفارس	لواء محمود شيت خطاب ـ دار القلم
القبائل	ابو عمر يوسف بن عبد الله
قلب العراق	أمين الريحاني
قلب جزيرة العرب	فؤاد حمزة
القرآن الكريم	
القاموس المحيط	
الكامل في التاريخ	ابن الاثير
الكامل في الأدب	المبرّد ـ مطبعة التقدم العلمية
لسان الميزان	الحافظ ابن حجر
مروج الذهب	المسعودي ـ المكتبة التجارية
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	المقريزي
المغازي	موسى بن عقبة الأسدي
ميزان الاعتدال	الذهبي

المسالك والممالك	ابن خرداذبة ـ عبد الله Brill1889
المسالك والممالك	الاصطخري ـ سلسلة تراثنا
المسالك والممالك	ابو عبد البكري الاندلسي
معجم البلدان	ياقوت الحموي
المُغرِب	ابن سعيد المغربي
معجم الأدباء	ياقوت الحموي
معجم القبائل العربية القديمة والحديثة	محمد رضا كحالة
معارك الشرق الأوسط	محمود صبحي وأحمد شوقي عبد الرحمن
موجز تاريخ الشرق الاوسط	جورج كيرك . George Kirk
محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية	محمد الخضري ـ المكتبة التجارية
المجتمعات الاسلامية في القرن الاول	د. شكري فيصل
المثنى بن حارثة الشيباني	محمد فرج ـ أعلام العرب ٣١
مفصل جغرافية العراق	طه الهاشمي .
المحلى	ابن حزم الاندلسي ـ مطبعة الامام
نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب	مؤلف مجهول من القرن ١١
نسب الخيل	ابن هشام الكلبي .
النقود العربية ، سلسلة م. الثقافية ١٠٣	د. عبد الرحمن فهمي محمد
الوثائق التاريخية في عصر النبوة والخلافة الراشدة	د. محمد حميد الله الحيدرابادي
وفيات الاعيان	ابن خلكان
الوافي بالوفيات	الصفدي

The Arabs in History .	B. Lewis
The Arabs .	EdWard Atigoh
Strategy of the Indirect Approach.	Liddell Hart
The Arab Conquest in Central Asia .	Grill
Oxford Atlas ·	
The University Atlas .	

فهرس الخرائط والاشكال

الاشكال

فهرس الأعلام [1]

آ – المسلمون

(١) عندما ترد هذه الاشارة (–) بين رقمين تعني ان العلم مكرر في الصفحات ما بين الرقمين.

ب – العجم

فهرس البلدان والاماكن

محتويات الكتاب

الجزء الثاني

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

صدر عن دار النفائس للمؤلف

- **استراتيجية الفتوحات الإسلامية**

١ - الطريق الى المدائن

٢ - القادسية

٣ - سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية

٤ - الطريق إلى دمشق

- جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري في سني الفتوحات الاسلامية .



من مَنشورَات «دَارالنَفائسْ»

- موطأ الإمام مالك ، رواية يحيى بن يحيى الليثي .
- مسند عبد الله بن عمر، تحقيق أحمد راتب عرموش .
- الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين ، تأليف الشيخ جمال الدين القاسمي .
- موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين ، تحقيق عاصم بهجة البيطار .
- مختصر سيرة ابن هشام ، إعداد وتحقيق عفيف الزعبي وعبد الحميد الأحدب .
- الفوائد ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق أحمد راتب عرموش .
- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، ولي الله الدهلوي .
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، د . محمد حميد الله .
- تاريخ الدولة العلية العثمانية ، لمحمد فريد ، تحقيق د . احسان حقي .
- الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر . تحقيق أحمد راتب عرموش .

